الإسلام

بين الدعوة والدولة

المنهاج النبوي لتغيير الانسان

الطبعة الأولى 1372

تأليف

عبد السلام ياسين

تنبيه:

كتاب "الإسلام بين الدعوة والدولة" (1972)، ألّفه الإمام عبد السلام ياسين رحمه الله، خلال مرحلة الانتماء للزاوية البوتشيشية القادرية صحبة شيخه سيدي الحاج العباس رحمه الله. وبعضُ مضامين الكتاب راجعها المؤلف في كتبه اللاحقة ابتداء من كتاب "الإسلام غدا"

الإسلام

بين الدعوة والدولة

المنهاج النبوي لتغيير الإنسان

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

في دار الإسلام قادة منصرفة هممهم إلى «الخطة الاقتصادية» و«التصميم» و«المذهب»، والثروة والموارد، تريد تغييرا فرضته حالة الأمة الإسلامية المتأخرة، وهم بين «اشتراكيين ثوريين» و«رجعيين» وديموقراطيين كما تصنفهم الإيديولوجية أو كما يدعو بعضهم بعضا إذا تنابزوا بالألقاب، وهم لا يسألون عن الخطة والمذهب والتصميم الكفيلة بتغيير الإنسان. ومن كان منهم يفكر في تغيير الإنسان فإنما يفكر في قطع المسلمين عن «تقاليدهم البالية»، كصوم رمضان مثلا، ويستجمع الشجاعة والجرأة على الله ليضرب بمعوله يخرب الإسلام، ما أبقاه من بنائه ولدانه المفتونون، أعداؤه المستترون والمرموقون.

وموضوع كتابنا هو تغيير الإنسان تغييرا إسلاميا على المنهاج النبوي، وأول قاعدة من قواعد المنهاج النبوي الصدق. الصدق في النية والوجهة، والصدق مع الله في النصح للمسلمين. وكل أمر لا يبتدأ فيه باسم الله فهو أبتر وأقطع كما جاء في الحديث. فباسم

الله بدؤنا وإلى سبيله وجهتنا على السنة النبوية والمنهاج النبوي.

والصدق في النية والوجهة عتاد من ينطق نطقا إسلاميا، ومن يكتب كتابة إسلامية، والإسلام في غربته بين أهله الغافلين. ومن الصدق مع الله في النصح المخلص يستمد من يدعو إلى الله وسط الفتنة العارمة الشجاعة والطمأنينة ليقول كلمة الحق لا يوارب ولا يلتمس من ألوان الفكر الجاهلي يموه به فكره لئلا يقال «رجعي».

في عالم يتراوح اضطراب الناس فيه بين الفوضى «الجماهيرية» والقمع المنظم، بين الاعتارض (Contestation) من ذوي الفكر المسمى حرا وتقدميا ويساريا وبين هذا المرض الجديد المسمى في بلاد الديمقراطيات نخابا (Electoralite)، نخاب كصداع وسعال وداء عضال. في عالم متجهم ومكفهر يصطدم فيه جشع الرأسمالية بضراوة الثورية التقدمية، ويختلط فيه صخب الدعايات الإنسية اللبرالية بضجيج الوعد الاشتراكي، ضاع المسلمون وفقدوا حتى الحساسية البدائية التي بها يعرف المريض مرضه. ومرض أمتنا الإسلامية تسميه لنا الجاهلية تخلفا وتصف لنا العلاج. ويجري خلف السراب مفكرونا وقادتنا وساستنا وينتهي هذا الاستباق المضطرب بنا إلى مرض ثان مزمن تطحننا رحاه طحنا هو مرض الانقلابية. الانقلابية صورة لتخلفنا وعجزنا وفشلنا في مساعينا على

درب الفكر الجاهلي، وعلى نسق العمل الجاهلي. وصبيانيتنا في الفكر تقعد بنا عند العقلية التبريرية السلبية. بالأمس كان فشلنا نرجعه إلى الاستعمار وطغيانه، ولما ذهب الاستعمار السياسي اكتشفنا عاملا جديدا هو المسؤول عن كل آفاتنا، اكتشفنا الإمبريالية العالمية وكل ما تحشد من قوة وكيد، وما تدس بيننا من عملاء. ويلعن بعضنا بعضا، ونتخذ العنف مطية، وتأكلنا الانقلابية، ونحن أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. والعقلية السلبية التبريرية لا تستطيع أن تقترح علاجا ولا أن تصف داء، وإنما تشير إلى الآخر، إلى العدو، وتنفخ في «الجماهير الشعبية» حمية العصبيات القومية، وحميات الشعارات والارتداد، مثل «أمجاد يا عرب أمجاد»!

داؤنا يصفه الإسلام ودواؤنا بين أيدينا في كتاب ربنا وسنة نبينا، ولا مجد لنا بقوميتنا ولن يكون. داؤنا الجاهلية، ودواؤنا التربية الإسلامية على المنهاج النبوي بالسمت الإسلامي، والتؤدة الإسلامية، والاقتصاد الإسلامي. بالرفق لا بالعنف وبالجهاد في سبيل الله لا بالانقلابية التي تطيح الرؤوس ولا يمس بأسها عدونا في القدس الشريف وباكستان، وحيثما هضمت حقوقنا وسلبت خيراتنا.

الفكر الحر، في زعمه، التقدمي الثوري يدعو إلى صراع وكراهية وعنف، والله يدعو إلى دار السلام. الله يدعو إلى سبيله

ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا. لذلك ندعو إلى الإيمان وإلى حمل رسالة الإسلام نبلغها للعالم. ودعوة الله لا تقوم على الكراهية والنقمة، وإنما تحرر الإنسان من أنانيته لبذل الخير والرجوع إلى الخير، مع الأخيار من المؤمنين.

الإسلام في ضياعه بين الدولة والدعوة؟ لا، بل الإسلام في انبعاثه حين يصدق رجال الدعوة ويهتدي رجال الدولة. ودعوة الإسلام دعوة مفتوحة إلى شبابنا وعلمائنا وقادتنا وساستنا ليرجعوا إلى ربهم ومنهاج نبيهم، فبذلك يبرأ منا العليل، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الرباط في 15 ذي القعدة 1391 – 3 يناير 1972.

الجزء الأول

المنهـــــــاج

حامل الرسالة

يروي ابن كثير أن سعد بن أبي وقاص، قائد جيش المسلمين، أرسل رجلا اسمه «ربعي بن عامر» ليفاوض رستم قائد الجيوش الفارسية قبيل وقعة القادسية. قال: «فدخل عليه، وقد زينوا مجلسه بالنمارق الذهبية والزرابي، وأظهروا اليواقيت واللآلئ الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب. ودخل ربعي بثياب صفيقة وسيف وترس وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط. ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه، وبيضته على رأسه، فقالوا له: «ضع سلاحك» فقال: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت»! فقال رستم: «ائذنوا له!» فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق، فخرق عامتها، فقالوا: «ماجاء بكم؟» فقال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام. فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه. فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه. ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي إلى موعود الله. قالوا: «وما موعود الله؟» قال: «الجنة

لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن يبقى». فقال رستم: «قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟» قال: نعم! كم أحب إليكم، يوم أو يومان؟» قال: «لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا رؤساء قومنا». فقال: «ما سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم. واختاروا واحدة من ثلاث بعد الأجل» فقال: «أسيدهم أنت؟» قال: «لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم». فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: «هل رأيتم قط أعز وأرجح من كلام هذا الرجل؟» فقالوا: «معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب. أما ترى إلى ثيابه!» قال: «ويلكم ! لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة».

تدحرج المسلمون من عزهم الشامخ، الممثل في شخص مبعوث سعد، إلى مواطئ الأقدام، وخبا تألق ذلك المنطق المعبر عن الرأي السديد والسيرة الصادقة الذي صدع له رستم وأمثال رستم حين كان للمسلمين رأي وسيرة. وذهبت تلك الشهامة التي بثها الإسلام في النفوس لما ذهبت أصولها الخلقية التي جعلت المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم، فلا يعزون اليوم ولا ترجح أقوالهم. سقطت الهمم من سامق علوها، فلا مطمع في أن نحمل رسالتنا

لنحرر الناس ونخرجهم من ضيق الدنيا إلى سعتها. كيف ونحن في أضيق مسالكها!

ها نحن أولاء في خطابة التأسي والحسرة والرثاء للذات! لكن اللوحة التي نضعها بين يدي الكتاب تأخذ بنصاعة ألوانها، فإذا رجعنا الطرف إلى حاضر لا يسر لم نملك أن نكتم زفرة المنهزم يحضر استعراض تاريخه المنتصر، وآهة المغلوب على أمره الكاره لحاضره المنحسر.

يتحدث المسلمون اليوم، وأقصد المؤمنين الذين يدينون الله بالولاء ويتبعون رسوله ويحبونه ويعزرونه، عن ضرورة الوقوف أمام «تحدي التيار الجاهلي»، والإجابة عن هذا التحدي. ويأخذ هذا الحديث والمتحدثون به حيزا صغيرا في رقعة «الكلام» الذي لا يسنده رأي، وأستعمل كلمة رأي كما فهمها المسلمون الأولون وعبروا بها عن فكرة رستم؛ الرأي رؤية الفكر السديدة للمبدإ والغاية والوسيلة. يشغل الفكر الإسلامي اليوم حيزا صغيرا في مجالات الفكر وفي اهتمام رجل الأمة المسلمة، وينصرف هذا الاهتمام بكامله لما تفرزه عقول لنا مريضة من هذر إيديولوجي هو سمة الخسف وطابعه على جبين الأجيال التي انبهرت ببريق الحضارة الصناعية الخادع. ويهدف الهذر الإيديولوجي عادة «تحليل الوضع» ورسم «طريق إسلامي» إلى الاشتراكية أو اللبرالية أو الديمقراطية.

ويتلو القول فعل، بل يتلو الهذر تخبط، وتكون النتيجة هزيمتنا المنكرة في كل الميادين. ذلك لأن حديث الفكر الإسلامي الحق لا يكاد يجد أذنا معارة ولا أقول صاغية. أما العمل الإسلامي الحق فالتمسه في مساجد المسلمين ومحاريب المتبتلين، أولئك الذين فروا بدينهم المتقلص إلى عبادة الله أفرادا، فوسعهم المحراب ولم تسعهم دنيا الناس لأنها تنكرت للدين، بل لأنها فقدت الدين.

ولا يرى المفتونون جاهلية، وإنما همهم الإجابة عن «تحديات العصر». والتعبير في حد ذاته فصيح، فالعمل من أجل الإجابة عن التحدي رد فعل مقابل لواقع لا نرضاه، وليس مبادرة تبدو من حامل الرسالة الذي ابتعثه الله كما ابتعث ربعي بن عامر وأصحابه.

و«تحديات العصر» في نظر أصحاب الفكر الذين يعرضون بضاعتهم في أسواق الكلام لا تعدو بوجه من الوجوه ضرورة نهوضنا لمحو التخلف وأسباب التخلف، وبعضهم يقف عند المطالبة بمحو «آثار العدوان». والتخلف تعريف موضوعي لواقعنا، له أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية، وله علاج موصوف هو الديمقراطية أو الاشتراكية، وله طرف مقارنة يظهره ويفضحه هو أشياء الحضارة المنتجة التي لا يملك المتخلف أن يصنعها. ولكي نخرج من التخلف لابد لنا، فيما يرى رجال الهذر الإيديولوجي، أن نتبنى فكرا محررا يخلق فينا وعيا جديدا حيا بواقعنا ووعيا تائقا إلى مستقبل

أفضل. وأضيف ملحا أن الأفضلية لا تتعدى أبدا المقارنة الإحصائية للإنتاج والاستهلاك في ضمير رجال القول والعمل المفتونين عن الدين. أي أنها لا تتعدى النطاق المادي للوجود الإنساني. فالكلمة المحورية عند من ذكرناهم: إنتاج ولحاق بالركب الحضاري.

والإسلام يدعو إلى غير هذا، إنه بعث لروح جديد، إنه رسالة يحملها المسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لا يرد على تحدي الجاهلية فقط، بل يرمي إلى هداية الخلق وتحرير الإنسان. هذه حقيقة تاريخية ولا ريب، وليس يزيدنا الإلحاح عليها معرفة بالإسلام، بالإسلام الحق الذي يكون حياة على الأرض قبل أن يكون حياة في الروح، ولا يزيدنا الإلحاح عليها فهما لمقاصد الإسلام ووسائل العمل الإسلامي.

وعن هذا نبحث: وسائل العمل الإسلامي، مقاصد الدعوة الإسلامية، وسيختلف تصنيف مشاكلنا بالنظر إلى النقطة التي نضع فيها أنفسنا، والنظر إلى الخط الذي في اتجاهه نفكر، وباختلاف الأهداف التي نرمي إليها. أنحن في موقف لنتحدى الجاهلية تحديا بناء، لنخرج إلى الناس برسالة الله نيسر لهم الطريق من الضيق الذي هم فيه إلى سعة موعود الله كما عبر ربعي؟ وعندئذ نكون حملة رسالة ويكون وضع مشاكلنا وتصنيفها يرجع إلى العودة والعثور على منهاج صنع مثل ربعي بن عامر، وعد الله من اتبعه أن يمكن

له في الأرض ويستخلفه فيها بالإضافة إلى رضوانه. أم نحن في موقف من يرد على تحديات العصر كما نفهمها بعقولنا المريضة التي صاغها العصر وحدد آفاق تفكيرها في أهداف التنمية الاقتصادية؟ وعندئذ يكفينا أن نتبع الناس ونسير في ذنابي الركب ونتخذ لأنفسنا نمطا فكريا من أنماط العصر. ومعنى هذا أن نبقى كما نحن نعبث بأنفسنا لأننا لا نعلم من نحن، ويعبث بنا تيار المعركة العالمية لعبة للأمم كما وصفنا بحق بعض الأجانب، وتأكلنا الجاهلية غنيمة باردة.

مقاصد الإسلام من وراء النمو الاقتصادي ومن وراء الإنجازات الاجتماعية. وإن لم يكن النمو الاقتصادي والعدالة الاجتماعية شرطا لقيام أمة المسلمين بفتح طريق الحرية أمام الإنسانية، فإن التصنيع والكثرة لا يخلقان أمة تحمل رسالة. وإنك متى ألبست الضعيف الجبان ثياب الجندي وحملته سلاح الكمي لن تحصل على بطل، وإنما ينفضح الضعف والجبن على مقدار هيئة البزة ومضاء السلاح.

هذا ربعي حامل الرسالة، سينتصر غدا في المعركة، وسيبني حضارة لأنه كان يحمل بذرة التمكن في الأرض، ما عاقه عن ذلك ثياب صفيقة وفرس قصيرة. ومن قلته التي عاناها جسمه ولم تعانها نفسه خرجت القوة وخرج معهما الهداية والحضارة.

كل مسلم قرأ ولو قليلا عن الإسلام يعرف سمو المقاصد

الإسلامية، لكن الذي لا يعرفه اليوم حتى علماء المسلمين ومفكروهم هو وسائل العمل الإسلامي الذي يكفينا الشر الذي دفعنا فيه، ويضمن لنا النهضة التي ننشدها. ولست أزعم أنني أعرف. وإنما أشير إلى النقطة والسؤال، وعندما نحدد النقطة ونصوغ السؤال صياغة واضحة نكون قد اقتربنا من معرفة ما نجهله.

والسؤال يمكن أن يوضع هكذا في شطره الأول:

كيف نخرج بالمسلم من إسلامه الفردي ليصبح عضوا في جماعة المسلمين؟

والشطر الثاني للسؤال يمكن أن يكون هكذا:

كيف نحرر المسلم وكيف نعبئ جماعة المسلمين ليصبحوا حملة رسالة؟

وإذن فالأمر حل جذري لوضعنا لا أقل من ذلك. وهذا كلام مبهم يوحي بالشك والخوف. إذ تحمل الجملة «الحل الجذري» مفهوما معهودا عند مفكري الجاهلية هو الثورة والعنف. لذلك تجد من مفكري المسلمين من يتحدث عن الثورة الإسلامية، الثورة الأولى والثورة المنتظرة. ونحن نحب أن نتفاهم تفاهما كاملا، لذلك نقف عند الكلمات لنحدد معانيها، لأن بعضها تداولته ألسنة متباينة الأصوات وأقلام مختلفة اللغات.

عندما نبحث عن تعبئة إسلامية نقصد تربية إسلامية والتزاما

من الفرد لعمل الجماعة على نسق المنهاج الإسلامي الذي لا يعرف العنف، وليس على غرار العمل الجاهلي المؤسس على العنف.

وعلى عتبة كل بحث لابد من تبيين للمنهج، وينتظر منك القارئ الذي تمرس بأساليب الفكر المعاصر الدخول في مظاهرة بيانية تقتضي قواعدها أن تتزن حتى لا تأتي بالنتائج قبل المقدمات، وتظهر الشك فيما لم تدل عليه بحجج كافية، أو تسلك غير ذلك المنطق الجدلي. وربما يقبل منك اللامعقول في المنطق أو اللاقيمة في ترتيب الأقوال والأفعال والأحكام، لكنه يجد نفسه غريبا إن خاطبته من جهة العاطفة ورجعت في حكمك على القيم إلى سلم استنتاجي مصدره النصوص. وفي عصر اللامنطق واللامعقول وقد تراجعت المنهجية الفلسفية إلى ظواهرية «Phénoménologie»[1]، تعكف على الأشياء والأحداث تتفحصها وتستنطقها وتتعجب من ظهورها، يكون منهجنا إثبات الإسلام كواقع تاريخي وروحي، كواقع إنساني حرك الإنسان ويحركه لإنجازات أذهلت العالم في ماضيه، وننتظر أن يعود الله علينا بعوائد خيره فيعود الإسلام ليحرك الإنسانية نحو مستقبل تتفادى فيه الوقوع في مصرعها النووي. وفي عصر تراجع فيه رواد الإيديولوجيات من موقعهم

1 ليعذرنا القارئ أن وضعنا كلمات أجنبية بإزاء كلمات عربية. وعذرنا أننا نفكر كما يفكر أبناء جيلنا بأدوات نحتت في الغرب، وقصدنا أن نتفاهم بدقة، والمصطلحات شتى فنقف عند مصطلحنا.

الأول كمرشحين لإحداث التغيير المنقذ للإنسانية إلى التماس المعرفة من واقع الإنسان وواقع الأشياء، ونموذج هذا الاتجاه المذهب البنيوي «Structuralisme»، يكون منهجنا التلمذة لقائدنا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وجماعته، فننظر كيف كان هاديا وقائدا، وكيف نشأت الجماعة الأولى وما نوع الرباطات التي كانت توثق هذا البناء، والبنية العضوية التي جعلت الجماعة الأولى كالجسد الواحد، يجير أدناهم على أعلاهم. وفي عصر تسوده الحضارة الشيئية، حضارة التكاثر، حضارة عقلنة العمل الإنساني حتى يسير على سير الآلة وينتظم في حركته وفق مقتضاها، بل ويفكر على نهج تفكيرها منذ اختراع الآلة المفكرة ومنذ أصبحت السبرانية «Cybrénique» علما ينقل إلى حياة الناس ما تعلمه من سير العقول الالكترونية التي كان هو واضعها، مقابل هذا يكون منهجنا محددا بالهدف الإلهي الذي هو تحرير الإنسان أن تطغى عليه المادة دون أن يكون ذلك تبريرا لنقصه من الجهاد في تنمية أموالنا التي جعل الله لنا قيما، ودون أن يعوق ذلك عن إعداد القوة كما أمر الله تعالى.

في هذا الكتاب نظر إلى الإنسان والعالم لأن أي عمل إسلامي لا يبدأ بالدخول في دنيا الناس كما هم وفي دنيا أفكارهم كما هي، منظورا إلى كل ذلك من وجهة النظر الإسلامي، إنما يكون عملا مبتورا. فإن دنيا الناس وأفكار الناس تعج بتجارب هي ملك

للإنسانية كلها، والمسلم لا يخرجه الإسلام عن إنسانيته، وإنما يرفعه عن متاهات الكفر وتضييع مصيره في الدنيا والآخرة، حتى إذا سمع ووعى وآمن طلب إليه أن يعمل عملا صالحا في دنيا الناس مقاوما الفتنة، معرضا عن الجاهلية، سيدا حرا ملكه الله الدنيا لتكون له معاشا وللآخرة زادا.

ولئن كان لكل منظومة فكرية «Système» سراب «Utopie» ومثال تضعه نصب عين الناس ليعملوا لتحقيقه، فإن الدعوة الإسلامية تضع للناس في كل زمان نماذج إنسانية رائعة للقدوة والأسوة. وقد كان أروع هذه النماذج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن ثم وقوفنا عندهم وعكوفنا عليهم.

تجديد الدين

كثيرا ما يتحدث مفكرو الإسلام المعاصرون عن «المنهج» الإسلامي في تربية الفرد وإقامة الجماعة، ولعل أكثرهم ولوعا بذلك سيد قطب رحمه الله. وهو رجل عاش في ظلال القرآن وتدبره كما قال بضعا وعشرين سنة. وتجد في ما كتب بركة ذلك ونور كتاب الله. بيد أنه رحمه الله لا يذكر نقطة البدء في حركة الإسلام الأولى على كثرة ما كتب، ألا وهي لقاء الإنسان بنور الهداية في شخص حامل الهداية. ويبدو الأمر وكأن مفكري الإسلام نسوا هذه الظاهرة التي فتنت معاصري الرسول الكريم، ظاهرة الاهتداء المفاجئ والتحول الغريب الذي يطرأ على المرء بمجرد اتصاله بحامل الرسالة الإلهية. فقال الناس ساحر، وحق لهم أن يلتمسوا وجه الشبه لما لا يعرفونه بما يعرفونه. كان الرجل يلتقي بالرسول صلى الله عليه وسلم فيسمع منه فإذا به يتحول، وكأنه خرج من دائرة ظلام إلى دائرة نور، ويرى حدود كل منهما متميزة فيتكون لديه وعي لذاته الجديدة وقد اكتسب الإيمان وطرح الكفر، ويقوى على مجابهة الناس، ويعذب حتى الموت وهو متمسك بعقيدة التوحيد. والطاقة التي تحول الناس بهذا المقدار وبهذه السرعة وتلفت كل همهم عن قيمهم الموروثة إلى قيم جديدة

لا تكمن في فصاحة الداعي إلى الله المرسل من عنده ولا في رغبة المدعو وحنينه إلى تغيير ما كان فيه من عقائد وأحوال، إنما تكمن في شخص الداعي إلى الله بإذنه الذي أنزل معه نور. وهذه الطاقة هذا النور، هذا المغناطيس الروحي للداعي إلى الله الأكبر عليه صلوات الله وسلامه كانت المحرك الأول للإسلام، وهي نفسها التي تعيد إلى الإسلام حيويته كلما برز إلى الناس رجل صادق يدعو إلى الله وهو على بصيرة من أمره ورضى من ربه، وهذه الطاقة هي مناط الوراثة النبوية في قولة الرسول الكريم «العلماء ورثة الأنبياء»، باقية في هذه الأمة تفعل في الناس فعلها متى تمت شروط وجود الداعي إلى الله الوارث الصادق. وذلك قوله تعالى يخاطب رسوله: ﴿**قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ يوسف، 108. فالذي يتبع الرسول وهو على بصيرة هو الوارث. لكننا لا نعلم حقيقته حتى نرى ثمرة الاتباع وآثار البصيرة. لا نصدق بوجود الهداية، بوجود الطاقة النورانية حتى نرى أثرها في الناس. ويعرف الذين يدرسون تاريخ الإسلام بعين جديدة وعقل نفاذ أن حركات الإسلام المثمرة بدأت برجل يدعو إلى الله صادق متبع. وكلما وقع المسلمون في مأزق ابتعث الله تعالى فيهم رجلا يجدد لهم الدعوة. والإيقاع التاريخي لوقوع الأزمات، أي الفترات التي تفصل بين كارثة وكارثة، قد لا يكون رتيبا. والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يخبرنا في الحديث الذي أخرجه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة يشير إلى

التجديد على رأس كل مائة سنة، ولن نذهب أكثر من هذا في السؤال عن المائة سنة متى تبدأ ومتى يحق للأمة أن تنتظر مجددا، فذلك مما أمضى فيه علماؤنا الأولون جهودا كثيرة واختلفوا في نهاية الأمر عندما حاولوا أن يتعرفوا عن مجدد كل قرن من القرون الفائتة. والذي يسمع كلام الله الذي وعد بأن الدعوة لن تنقطع وأنها مرهونة بالاتباع ووجود البصيرة، ويعتقد أن وعد الرسول صلى الله عليه وسلم حق حينما بشر بالمجددين لهذه الأمة، ويخرج بالفكرة الإيجابية التي لا يدخلها عنصر التشكك فيما يرجع للتوقيت، لأن الذي بشرنا لا ينطق عن الهوى ولأنه أوتي جوامع الكلم.

هذه الفكرة الإيجابية هي: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل سنة من يجدد لها دينها**» كما ينص الحديث. والبشرى حق لأنها جاءتنا من المعصوم، وبروز المجدد على رأس كل مائة سنة قد يعني في قول من أوتي جوامع الكلم أن أفضل الأزمنة في كل العصور زمن بروز هذا المجدد، فهو هامة الزمن وسيد الوقت ورأس العصر، لا أزيد أكثر من هذا، فرجال الحديث الجهابذة أولى بالتعرض لتأويل الحديث إن كان يحتاج إلى تأويل.

إذا وضعنا هذه الحقيقة سهل علينا أن نفهم أن الذي يبحث عنه مفكرو الإسلام ليس «منهجا» قوامه دعوة وجهاد وصبر فقط، لكنه «منهاج» قوامه الدعوة المؤيدة من الغيب المركزة في شخص

الداعي المشرع المرسل أو المتبع على بصيرة، ثم يأتي جهد المدعو وصبره وجهاده. ولفظ القرآن الكريم لا تجد فيه كلمة «منهج» وإنما تجد كلمة «منهاج» على وزن مفعال، بصيغة اسم الآلة، وكأن كلمة منهاج بصيغتها هذه إشارة إلى العون الإلهي والتسخير الإلهي والتيسير الإلهي المرتبط بالدعوة الصادقة إلى الله المشرعة أو المتبعة. يقول الله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾ المائدة، 48. ويقول المفسرون[1] : «شرعة ومنهاجا أي سبيلا وسنة». ويتضمن السبيل مفهوم التشريع، وهو لغة وضع الشرعة أي السبيل، وتتضمن السنة مفهوم الاتباع، وكلاهما مجعول من جانب الحق.

والشرعة والمنهاج طريق النبوة، فيها بعث الله للناس دعاة إليه وأيدهم بوحيه ونصره، وجعلهم رحمة لمن اتبع واهتدى. كان الرسل عليهم السلام يحملون إلى الناس شريعة ومنهاجا، قانونا إلهيا ومعه هداية لمن اتبع الرسول، وكان الأنبياء يجددون الرسالات، فهم كانوا أصحاب شرعة. ولهذه الأمة مجددون ودعاة تابعون بنص القرآن والحديث.

فلنقف عند المعنى ولنحتفظ بكلمة «منهاج» مع ما تحمله من الإشارة إلى التأييد والتوفيق للمجدد المتبع. ودعك أخي من الالتفات إلى غير ما عندك في كتاب الله وسنة نبيه، فلن تجد جوابا لمشاكل

1ابن كثير عن مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة.

أمتك إلا بالنظر فيهما بعين بكت من خشية الله، وتدبرهما بعقل لا تعلق به جراثيم الجاهلية ولا عناكب التحجر الذي تجده عند الحرفيين. ولمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى أن يدعو ربه ليفتح له في فهم كتابه العزيز. وله إن صدق أن يعثر على نفائس العلم عندما «يثور القرآن» كما أوصى بذلك مولانا عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله.

لعلك تتساءل: «إلى أين تذهب بنا ببحثك عن إنسان وهذا كتاب الله بين أيديا؟» وأنت محق في سؤالك فليس بعد كتاب الله بيان. وتجد جوابك في كتاب الله تعالى حين يقول: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ محمد، 24 وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ**﴾ الإسراء، 9 ويقول عز وجل: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ**﴾ البقرة، 2. فلو كانت القلوب قد حررت من أقفالها، ولو كان الأمر يعني مؤمنين يعملون الصالحات، ولو كنا نؤمن بالغيب ونقيم الصلاة لما احتجنا لمجدد ولما احتاج من قبلنا إلى أنبياء يتلو بعضهم بعضا ليجدد شريعة الرسول الذي كان قبله. كيف إذن والإيمان بالغيب، وما يتبعه من التحدث عن الغيب، موضوع يحيط به صمت يكاد يكون مطبقا من جانب مفكرينا مع أن الله تعالى بين لنا أنه لن يهتدي بالقرآن إلا من آمن بالغيب! وظهور الغيب

في عالم الناس كان الظاهرة الكبرى في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ معجزاته التي يراها الخاص والعام وملائكة الله تقاتل في صفوف المؤمنين، يرونهم رأي العين ويتحدث عنهم القرآن. وإنه من آمن بالغيب فقد اهتدى. لكن سنة الله أن يجعل الهداية على يد الصادقين من الدعاة إليه، وبهديهم يلتقي المؤمن بالغيب أول ما يلتقي عند ما يحس بذلك الذي سماه الله نورا وسماه كفار كل أمة سحرا.

انبعاث الأمة إذن رهن ببروز المجدد رجل الدعوة الصادق. هذه مقولة تأخذ كل معناها وكل عمقها إن تأملنا أن القرآن في يد الكافرين أو الشاكين أو فاتري الإيمان كتاب كالكتب، قد يؤخذ العربي بفصاحته، لكنه لا يهتدي به حتى يؤمن بمصدره، حتى يؤمن بالغيب. هكذا يكون دائما، وهكذا كان الإسلام الأول. وتأمل معي قول سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «لقد عشنا برهة من الدهر، وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن. وتنزل الآية فيتعلم حلالها وحرامها وآمرها وزاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها. ولقد رأيت رجالا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان، فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمته، لا يدري ما آمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده، ينثره نثر الدقل»[1].

1 كتاب سعيد حوى بعنوان : «الله جل جلاله» ص 5. والدقل هو رديء التمر، ولم يذكر المصدر.

نثر الدقل، لله هؤلاء السادة ! وإنك لترى من معاصريك من يلعب بكلمات القرآن فلا تجد أبلغ من بيان عبد الله بن عمر: إنهم ينثرونه نثر الدقل. ويكون الوصف أبلغ عندما ينصب على من يغنون القرآن أغنيات وألحانا ينثرونه للناس لكن أين من يعمل بمقتضاه؟

لن يأتينا خير إذن إلا من الطريق التي جاء منها الخير للأمم التي كتب الله لها الانبعاث والهداية، وهي طريق النبوة الممتدة في هذه الأمة في أشخاص الدعاة إلى الله الصادقين، فحاجتنا الأولى إذن تسمى «دعوة»، ولننعتها في خط نظر الديناميكية الحركية باعتبارنا موجودين في هذا المكان وهذا الزمان: «قيادة روحية». ولا تتصور أن اختيار دعوة دون دعوة مشكل عويص مادام في هذه الأمة مآت من الدعاة بل آلاف، ذلك لأن الدعوة الصادقة تنم عن نفسها بفعاليتها في التاريخ.

صعِّد بصرك في التاريخ الإسلامي تجد نبضات الإسلام مقترنة بظهور الداعي إلى الله. أقول «بروز الداعي» و«ظهور الداعي» ولست أقصد أنه يحمل السيف ويحصد العصاة أو يستولي على الممالك وينازع ذوي السلطان. إنما يكون بروزه بالفعالية التي تبدأ من شخصه فتعم الأمة وتبعثها. هذا عمر بن عبد العزيز جدد الإسلام وأثل لنا مثالا مشرقا، لكن ينبغي أن نعلم أن من ورائه رجلا داعيا إلى الله على بصيرة، انحصر ظهوره في تربية عمر بن عبد العزيز،

حتى لا تكاد تجد له ذكرا إلا في كتب خاصة تعنى بترجمة أمثاله من الصالحين. ويدعى هذا الرجل «رجاء بن حيوة» هذا مثل من أمثال كثيرة.

دور رجل الدعوة الصادق المؤيد دور الموقظ الباعث، يحل الأقفال عن القلوب بالتربية الروحية، ومتى التقى مثله برجال القيادة العلمية رجال السلطان دخل الإسلام في مرحلة جديدة من مراحل تاريخه. هذا صلاح الدين الطالح العربيد يلتقي بداع إلى الله صادق فيتحول رجلا، وهذا يوسف بن تاشفين منقذ الإسلام تلميذ الرجل الصالح الذي رباه حتى أصبح فحلا، تذكرنا سيرته وأعماله بالسلف الصالح من أمثال ربعي بن عامر وطائفته، تقللا من الدنيا وجراءة على الكافر وقدرة على الانتصار. ولنترك الحديث عن هذه اللقاءات للصفحات الأخيرة من الكتاب.

ويسألني القارئ: «وما بال السلطان وما معنى القيادة العملية؟» ولعله يفكر كما يفكر الناس في عصرنا: «إن أي تغيير لا يبدأ بمحق رجال الحكم لا يحقق الثورة، والثورة وحدها هي البديل عن واقع متخلف منهزم».

ومثل هذا التفكير، وإن أخذ يفقد من قيمته أمام الإيديولوجيات الحديثة التي تجاوزت العنف الاشتراكي الثوري الداعية لإصلاحية علمية متدرجة، قمين باهتمام مفكري المسلمين لأنه العقبة التي

وقعت عندها الدعوات الإسلامية دون تحقيق أهدافها. إنه الاتجاه المسيطر على شباب المسلمين وعلى كل ذي فكر حر في بلاد الإسلام متأثرين بالنموذج الغربي الاشتراكي. وحتى بعض رجال الفكر الإسلاميين، ولا أذكر أحدا لأن النقد البناء حوار مع رجال المستقبل لا مع من مضى عهدهم، يرون أن التغيير الجذري لا بد أن يبدأ بهدم الطاغوت الحاكم وإبادته. وتقرأ فيما تقرأ دعوة «إسلامية» لانقلاب إسلامي. وعندما يهتم مفكرو المسلمين بهذه النقطة، أو قل بهذه العقدة، ويقرأون كتاب الله وسنة رسوله قراءة أكثر خضوعا واستلهاما يعلمون أن الإسلام ماكان ثورة ولا انقلابا في ماضيه ولن يكون العنف وسيلة لتجديد الدين وإقامة دولة إسلامية. ولنترك تفصيل الحديث في الموضوع حتى نتعرض له بعد حين.

إن ثنائية الدعوة والحكم قانون يتطلبه المنهاج، اقرأ قول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾. وبعد ذلك بآيات: ﴿**وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ البقرة، 247.

مع النبوة كان ملك، وبوحي من الله وتدبير، إذ هو الذي بعث

النبي وبعث معه ملكا. ولا شك أن بعث النبي كان بالتأييد النوراني لهداية الخلق وتجديد الدين، وبعث الملك ما كان معه وحي للملك وانما كان تيسيرا من الله حين يسر رجلا لجماعة مقبلة على الجهاد، وكان تمام التيسير أن اصطفاه لكمال جسمه وعلمه، أي لقدرته عى القيادة العملية، ولنسمها «القيادة الجهادية» لتبقى معنا العبارة مع ما تتضمنه من شروط القدرة على القيادة بالمزايا العقلية والعملية، بالبسطة في العلم والجسم.

وثنائية الدعوة والقيادة الجهادية شيء مخالف لمذهب بعض المفتونين الذين نادوا بالتفريق بين الدين والدولة. أولئك ينحون الدين عن الحكم، ومعناه عند الله الكفر. ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ المائدة، 44. التفريق بين الدين والدولة رجعة جاهلية عما أراد الله للناس من سعادة في معاشهم ومعادهم باستقامتهم على شريعته فرادى وجماعة.

الثنائية بين الدعوة والدولة تقسيم لوظائف الهداية والقيادة ضروري. وظائف الهداية كان يحملها الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام بما أمدهم الله من نور. ووظائف القيادة الجهادية ما تحملها إلا رسولان كريمان فيما يتحقق عندنا بالنص القرآني : سيدنا موسى عليه السلام، بلغ الرسالة وقاد إلى الجهاد، لكنه لم يجد مجاهدين لأن بني إسرائيل جبنوا أمام العدو وقالوا : ﴿**فَاذْهَبْ**

أَنتَ وَرَبُّكَ فقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ المائدة،24. وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: كان الهادي والقائد، وكان الكمال في الميدانين، وكان النموذج الذي جعل لنا أسوة صلى الله عليه وسلم. وحمل العبئين بعده مولانا أبو بكر فكان نعم الخليفة، ولم يطل به العهد، وصانه تأييد الله وتوفيقه فجمع بين الوظيفتين وكان القوي الأمين، ثم جاء مولانا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فظهر معه رمز القيادة الجهادية في الدرة التي كان يحملها وكان يستعملها حين تدعو الحاجة إلى استعمال السلطان حيث لا تكفي الهداية، وكان رضي الله عنه القوي الأمين. ثم جاء مولانا عثمان رضي الله عنه وكثرت الناس وتنوعت مشاربهم واختصمت مصالحهم. فكان الرجل الذي يحمل عبء الهداية وعبء القيادة الجهادية بين تيارين قويين أحدهما ينزع إلى الانفساح في الرقعة المفتوحة والاستمتاع بالرخاء الذي تتيحه هذه الرقعة، وثانيهما، وقوته كانت تصير إلى ضعف يوما بعد يوم، ينزع إلى صيانة العدل والميزان كما عاش في ظلهما سلف الأمة. وكانت الفتنة، وقال عثمان رضي الله عنه قولته حين أحس بضرورة الثنائية كما وصفناها: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن». وكما أن الهداية تستند إلى القرآن فإن القيادة تستند إلى السلطان، تلك تنظر في المنهاج لتبصر الإنسان بمبدئه ومعاده وتحل عقده ليرى نور الله، وهذه ترعى مصالحه التي على الأرض وفق ما خططه المنهاج.

ونضع أمامنا للاعتبار قضيتين، إحداهما عقلية والثانية نبعت لنا من عمل الرسول صلى الله عليه وسلم، فهي المنهاج لأنها الاتباع للمرسل المعصوم صلى الله عليه وسلم. العقل يتصور جيدا أن مصالح الأرض قد تعوق الإنسان عن التسامي الروحي الضروري لتحرره وتمكنه من الكمال الذي هو موعود الله لكل من آمن وعمل صالحا ثم اهتدى. يتصور العقل وتؤيده التجربة أن الإنسان يعتبر من يتحكم في حياته المادية، حتى ولو كان أعدل الناس وأتقاهم، خصما قبل أي اعتبار آخر. فحيث يكون السلطان القائم على قسمة الأرزاق لا بد أن يكون خصام، ولا بد أن يكون الأخذ والرد والانفعال العاطفي الذي يؤثر على صفاء النظرة وخلوص الحكم ويكون الموقف النفسي للمحكوم الرغبة والرهبة. أما الدعوة فهي هداية إلى الله وتحبيب لدينه وتربية تنبني على ثقة الفرد في رجال الدعوة ومحبتهم والتجرد الروحي المتسامي نحو التضحية والتزلف إلى الله ونكران الذات. ولو كان السلطان والقرآن في يد واحدة، أي لو اجتمعت الدعوة والقيادة والجهادية في رجل واحد لما أمن الاصطدام بين طاقة تريد أن تصعد بالإنسان إلى أفق كماله وبين حاجات الأرض التي تعرقله وتثبطه. وليكن هذا الرجل من كان، حاشا المعصوم صلى الله عليه وسلم وخليفتيه، فإن هذا الاصطدام واقع. ولا بد عندئذ أن تتحول الدعوة إلى سلطان أو إلى جور محض، إن لم يترك رجل الدعوة

والسلطان سلطانه لينزوي عن الناس. والتاريخ الإسلامي لا يعطينا إلا المثال الأول: الدعوة تتحول إلى سلطان وجور. وتتسمى خلافة أو تأخذ غير ذلك من الأسماء، لكنها في حقيقة الأمر سلطان وجور، أي دولة قائمة على مقتضيات التملك والتنظيم السياسي. وفي هذه الأثناء تقبع الدعوة في ركنها أو يقيض الله علماء عاملين يقولون كلمة الحق عند السلطان الجائر تعرضا لوعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقضاء لواجب المسلم. أو يقيض الله عندما يعم البلاء دعوة موفقة تلتقي بالدولة فتتكون القيادة الجهادية، كما وقع ذلك عند طغيان بني أمية، وعند هجوم الصليبيين في الشرق والمغرب الأندلسي، وهجوم التتر، وغيرها من المواقف التي سنرجع إليها.

ولو كان رجل يستطيع أن يجمع بين الدعوة والقيادة الجهادية زمن الفتنة لكان ذلك الرجل الإمام المجاهد مولانا عليا عليه السلام. فقد أخذ الأمر بعد وفاة الإمام الشهيد فحورب وأنكر عليه وكانت أيام سلطان بل أيام سيف مصلت بالحق ابتلى الله بالتعرض له من كبار الصحابة من كان لهم الفضل في نشر الدعوة والجهاد من أجلها، وامتنع أن تجمع الدعوة والقيادة الجهادية في يد رجل منذئذ.

ونحن غير معصومين كما لم يكن طلحة والزبير وعائشة عليهم رضوان الله معصومين. لذلك ترى المسلمين ينفسون على صاحب

السلطان وعلى صاحب الدعوة معا، ويشتدون في ذلك إن زعم رجل أنه يحمل الدعوة والقيادة معا. ومن خطإ الناس في الحكم وميلهم مع الهوى يتكون جو الفوضى والفتنة. ونحن اليوم أشد الأجيال الإسلامية افتتانا ولاشك. فأنى لنا أن نحكم حل قضيتنا وليس بيننا أمثال أبي الحسن الإمام! لكننا إن نظرنا إلى القضية العقلية التي نضعها في هذه السطور واعتبرناها على ضوء فعل الرسول صلى الله عليه وسلم نوشك أن نهتدي إلى اجتهاد يؤدي بنا إلى قبول ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية، واجتهادنا بالطبع غير معصوم.

وفعل الرسول الكريم الذي يستحق منا وقوفا طويلا وتأملا هو أنه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف عند وفاته. وكأنه ترك الناس لينظروا فيما يصلح أمورهم ويجتهدوا. وما كان للمعصوم الذي أعلمه الله وأمته أنه أتم عليهم نعمته وأكمل لهم دينهم أن يترك ثغرة مثل هذه لو لم يكن لحكمة عظيمة. إنه عليه الصلاة والسلام «غلط» في قضية تأبير النخل وأوصى بعدم تلقيحها فلم تثمر، ليخبر الناس أنهم أعلم بأمور دنياهم. معناه أن المسلمين يجتهدون فيما يصلح دنياهم، سواء كان ذلك أمر تقنية محض كتأبير النخل، أو كان أمر تنظيم دنيوي في ميدان توزيع الأرزاق ورعاية المصالح.

ولمن يريد الثورة والانقلاب على الأنظمة القائمة في بلاد الإسلام

بعنف، أن يدرك أولا أننا في الانقلاب والعنف سائرون، بل إن الانقلابية أصبحت لدينا الحل الوحيد. أقول الانقلابية لتدل الصيغة على أن الانقلاب أصبح مذهبا، فلنا في كل حين انقلاب جديد وعنف شديد، ونبقى مع ذلك متخلفين مع أن بدء انقلاباتنا يرجع إلى عهد مصطفى كمال. نبقى متخلفين مع أن هم المنقلبين الأول والأخير الخروج من التخلف كما يعرفه الفكر الغربي إنتاجا واستهلاكا؛ والانقلابية دوران تائه خارج دائرة الإسلام، وإن كان بعض أصحاب المذهب يتحككون بالإسلام يلتمسون عنده شعاراتهم تمويها بل جهلا، لأننا نعتقد أن من بينهم من يريد الخير ويريد الإسلام لكن يضل عن سبيله. ثم على من يحب الثورة والانقلاب سبيلا للخلاص أن يدرك أن التحول الإسلامي يقترح على الناس «التوبة» أي العودة إلى الله من غيهم، وباب التوبة مفتوح، وفهم هذا الانفتاح فهما واسعا يزيل عن ضمائر المفكرين المسلمين غشاوات كونتها عدوى الأساليب الجاهلية بشعور منا أو غير شعور.

الثنائية غير العنيفة طريق المسلمين إلى الانعتاق متى توفرت في الدعوة شروط الصدق والتجرد لله وفي الدولة ورجال الدولة إرادة التحرر من عادات جاهليتهم. وعند لقاء صدق الدعوة بصدق الإرادة يتحول رجل السلطان إلى قائد جهادي، أي يحول عمله من

الاتجاه نحو التسلط أو الإصلاح الاشتراكي أو ما كان فيه إلى اتجاه الجهاد في سبيل الله ليعبد الله في الأرض وتقوم للإسلام دولة.

والقيادة الجهادية المنتظرة شيء غير البطولة في مفهومها المتداول؛ أي قيمة الرجل الذي يكسب لنفسه شرفا ولقومه عزا. سنأخذ مثالين للبطولة في بلاد الإسلام من ماضينا القريب، ونحب أن يفهم عنا أن طلبتنا العبرة والحق، وليس يجدي الدعوة إلى الله شيئا أن تتعرض للأحياء ولا للموتى، أو تنقص من هذا وذاك. البطل يحب أن يسمع عنه بينما رجل القيادة المجاهد المجدد يعمل مخلصا يبتغي رضوان الله وما عند الله. هذا جمال عبد الناصر بطل العروبة، أي بطل عصبية لا يعرفها الإسلام، وإنما صح الاستشهاد به لأنه ظهر في بلاد المسلمين، قام بأعمال مجهدة وأنجز لقومه مظاهرات وخطابات. لا تعنينا هنا انتصاراته لأنها انتصارات القوى العالمية بعضها على بعض، ولا هزائمه لأنها هزائم لا يحس بمرارتها حق الإحساس إلا المسلمون المخلصون. الذي يعنينا هو حافزه النفسي الذي اقتضى منه مظاهرات مأسوية. يقول عنه رجل أمريكي يدعى كوبلاند، وهو جاسوس قديم كتب عنا كتابه « لعبة الأمم» في مقال نشر بالعربية في آخر كتاب عنوانه «التورط السوفيتي في الشرق الأوسط» في صفحة 298 ما نصه : «فمعظمنا نحن الذين عرفنا عبد الناصر اجتماعيا ورسميا متفقون على أنه يفكر كثيرا بما يمكن أن

يقوله المؤرخون عنه في يوم من الأيام، كان يتضايق كثيرا حين تشبهه المقالات الصحفية بصغار القادة أمثال سوكارنو ونكروما الذين يغلفهم النسيان حال ابتعادهم عن مسؤولياتهم... قال لي ذات مرة: إن أتاتورك كان القائد الوحيد البارز في الشرق الأوسط خلال هذا القرن. ولما سألت عما يعني بقوله هذا تبين أن ليس في ذهنه سوى أن أتاتورك كان لا يزال يعتبر بطلا قوميا، والشوارع والحدائق العامة تحمل اسمه».

وهذا يقودنا إلى المثال الثاني للبطولة في بلاد المسلمين، وإن كانت هذه المرة بطولة مارد كافر قاتم. عمل أتاتورك على تكفير المسلمين بعد أن سخر في هدم الخلافة العثمانية، والخلافة العثمانية رمز كان بقي للمسلمين ولسنا بصدد البحث عن محتواها. وقام بما يقوم به الأبطال من مظاهرات أكثر صخبا مما أحدثه أمثاله وعاشقوه، وأشد نكاية بالمسلمين وتشريدا لهم.

الذي تحتاجه الأمة لانبعاثها قيادة جهادية، أي رجل مخلص لله آخر الأمر، يضع إرادة الله فوق إرادته ويتطهر من كل رجس ليحمل الرسالة ويحكم بما أنزل الله، ويضع رضى الله نصب عينيه لا السمعة والتماثيل والهياكل «المخلدة للذكر». أي بالاختصار يستبدل قيم الباطل بقيم الحق.

مصطفى كمال ألبس المسلمين البرانيط فمس المسلمين في الرمز

والشارة وكان عمله ذلك نكاية بالإسلام، لكنه عمل عملا آخر أعمق أثرا في حياة الأمة المسلمة بتركيا حين غير الحروف العربية بالحرف اللاتيني. ومَوه على الناس بالشعارات الجديدة الجاهلية كما موه غيره ممن هم أقرب عهدا منا بالشعارات تعززها الإنجازات الاقتصادية الهائلة التي تحسبها الأمة ملكا لها لكنها في الواقع رمز ارتهان البلاد والعباد في يد القوى العالمية المتنافسة المتضاربة. وبعد خمسين سنة من عمل البطل الكافر وعشرين سنة من عمل البطل المسلم التائه بقيت الأمة الإسلامية في تركيا أمة متخلفة وأصبحت الأمة الإسلامية ببلاد العرب أمة منهزمة ومحتلة، عقولها ومعاقلها.

القيادة الجهادية التي ننشدها لا ينتظرها في ميدان العمل واجب حمل شعار الإسلام ورمزه فقط، وإنما ينتظرها العمل الأعمق في التأثير وهو تبديل الحرف، تغيير المفاهيم وتحويل القلوب وإبدال ضعف الأمة قوة وشتاتها جمعا. وتلك مهمة لا تتحقق اليوم كما لم تتحقق في أزمات الأمة الماضية كلها إلا بثنائية الدعوة الصادقة والقيادة الجهادية.

عوض البطولة التي تتوق إليها الأمة في تخلف عقليتها وردة بعض أبنائها، نحتاج لرجل آمن بالله وعول على إحدى الحسنيين. وستتحقق له مزايا حسن الصيت عند الناس بحق لا بباطل إن استطاع أن يتجاوز نفسه ويتنكر لها ويحملها محامل الرجال كما

فعل الرجل الصالح المجاهد الخليفة الخامس مولانا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. تلك المكارم وذاك الرضى من الله والناس، لا بطولة التماثيل والحدائق والشوارع تحمل الأسماء، ولا الذكريات يخطب فيها وينشد.

تقول إن هذا مثالية وطلب للمحال، وتقول إن البرجوازي أو الأرستقراطي لا يصلح إلا بالمشنقة تدحرج رأسه أو الصف العسكري يطيح به لتطهر دماؤه الأرض. وخط نظرك فيما تقول خط ينشأ من مرارة فقر هذه الأمة ويعرج بعدئذ على المنظومات الفكرية الماركسية أو العنفية بصفة عامة. لكني أدعوك لخط نظر آخر أكثر اتساعا وأفسح رجاء وانفتاحا للمستقبل. نظري الذي أدعوك إليه نظر الإيمان والفطرة، لنقل إنه النظرة الفطرية ولنحتفظ بالعبارة حتى نرجع إليها في الفترة التالية مكتفين بوصفها. إنها نظرة رجل يؤمن بالله وبقيمة الإنسان، خاصة المسلم، في الكون كله، ويؤمن بأن الله محرك هذا الكون ومسكنه.

النظرة الفطرية لا تتلقى عن العقل في ضيقه بل تتلقى أولا عن خالق الإنسان والعقل وخالق الكون ومسبب الأسباب. والنظرة الفطرية تعطيك الرجاء حين يعطيك العقل اليأس وتعطيك سعة الحيلة عندما يدفعك العقل للعنف استجابة لما فيك من قوى الغريزة. يقول العقل : أين الإمكانات الموضوعية لتغيير ما هو كائن بواقع إسلامي يتحقق على وجه الأرض وبأسلوب غير عنفي؟

أما النظرة الفطرية فتتساءل: «متى يفتح الله للمسلمين فتحه الموعود ويمكن لهم في الأرض ويستخلفهم لينقذوا الإنسانية من مصير مظلم وحاضر حرج؟»

ولئن كان اجتهاد العقل لبلوغ أهدافه يسمى نضالا وكفاحا وقتالا، فإن العمل في اتجاه النظرة الفطرية يسمى دعوة إلى الله وجهادا بالحكمة والموعظة الحسنة. ثم انتظارا لموعود الله الذي يقبض ويبسط.

يتلقى المؤمن كلام النبوة الساطع من مشكاة الوحي فيتخذها هاديا ونبراسا في الطريق من حيث يتناوله العقل، حتى ولو كان عقل مسلم لم يبلغ مقام الإيمان، فلا يقبل منه إلا الشكل، لأن عقل المؤمن آمن واتبع فاهتدى، ووقف عقل غيره عاجزا جافا يدعى القوة.

العقل يتأمل التاريخ ويستخرج له قواعد ويصنف أصناف الناس وطبقاتهم ويصبح جذلا عندما يكشف «الجدلية التاريخية» التي تسير الإنسان إلى «صيرورته الحتمية». أما المؤمن فيجد في كل حركة من حركات التاريخ يد الله يقلب قلوب عباده ومصائرهم. لهذا فالمؤمن يعمل كل ما في وسعه لتحقيق موعود الله لكنه لا ينصرف لحظة عين عن مصدر القوة الوحيد فيدعو الله ويعمل، ويدعو الله ويفكر، ويدعو الله وينتظر بشائر

موعوده. والموعود كما نص عليه القرآن : ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً**﴾ النور، 55. وموعود الله كما فصله النطق النبوي الكريم وصل إلينا في رواية الإمام الشاطبي في كتابه «الموافقات» عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن أول دينكم نبوة ورحمة وتكون فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم يكون ملكا عاضا فيكون ماشاء الله أن يكون ثم يرفعه الله جل جلاله. ثم يكون ملكا جبرية قتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها الله جل جلاله. ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي ويلقى الإسلام بجرانه في الأرض يرضى عنها ساكن السماء وساكن الأرض. لاتدع السماء من قطر إلا صبته مدرارا، ولاتدع الأرض من نباتها وبركاتها شيئا إلا أخرجته**»[1].

إن ما نراه اليوم من تسلط وظلم وقمع، على حد تعبير الماركسيين الجدد، أقرب شيء إلى الملك الجبرية التي توشك أن يرفعها الله جل جلاله ليعود الإسلام إلى منهاج النبوة ويعم الناس

1 كما نقلناه عن أبي الأعلى المودودي فب كتابه : «موجز تاريخ الدين وإحيائه» الترجمة العربية، الطبعة الأولى، ص 58.

الرخاء ويفرح ساكن السماء وساكن الأرض. وذلك عندما يقيض الله رجلا يرفع راية الإسلام ويجمع حماس سبعمائة مليون مسلم متعطش للكرامة والطهارة فيجعل من الحماس طاقة منظمة فعالة كفيلة أن تقيم للإنسانية المريضة الشقية بحضاراتها نموذجا متوازنا يجد فيه الفرد سعادته دون أن يصبح آلة إنتاج تعصرها جبريات الجماعة المتناحرة وجبريات الحرب الاقتصادية الداروينية التي يأكل القوى فيها الضعيف.

يكون ذلك حين يرفع الله البلاء وحين يبعث الله من يشاء من عباده. هذا الجانب الثاني من التوكل على الله أما الجانب الأول فهو سعينا، أعني كل من في صدره جذوة إيمان، للتبشير بموعود الله وموعود رسوله، وعملنا الدائب من أجل تحقيق الموعود بالعناية الحادبة على الدعوة أن تهن أو تكل.

وإن الله تعالى إذا أراد أمرا هيأ له أسبابه. الحضارة الغربية سائرة إلى خراب نرى ذلك رأي العين، أو لنقل إنها سائرة إلى إفلاس معنوي لئلا نغيظ بعض كتابنا الذين يعتقدون أن الحضارة الغربية هي آخر صيغة لرقي الإنسان وسلطانه على المادة، فهي بالتالي خالدة. والانقلابية التي تأكلنا أكلا لما مدرسة يتعلم فيها قادتنا أن الجري وراء سراب الإيديولوجيات في بلاد الإسلام عبث. ولقد حبط عمل القوميين وعمل الاشتراكيين القوميين في هذا المجال

حبوطا مدويا. ثم إن هزائمنا المتتالية المنكرة، ونحن ملايين عديدة أمام شرذمة الصهاينة مدرسة أخرى تدفع قوادنا حتى يتبينوا أن دار الإسلام لا تنبت فيها دعوات الكفر، وأن المسلمين الذين حاربوا مع بيبرس وصلاح الدين وانتصوروا إنما انبعثوا بدعوة الإسلام لنصرة الإسلام، وبعد كل هذا فإن قادتنا يعلمون أن ضغط المصالح العالمية وضغط الدعوات الثورية الماركسية وضغط الفقر والهزيمة تكون في شبابنا حمى الثورة العارمة التي لن تبقي على الانقلابية المحافظة المتقاعسة المنهزمة ولا على أسبابها. وكل هذه الاعتبارات كافية، إن كان من قادتنا ذوو ألباب، أن توضح الطريق الوحيد الذي نستطيع به أن نقبض على زمام أمرنا قبل أن يفلت الزمام ويفلت الأمر. هذه الطريق هي الإسلام، وإلى الإسلام وحده تستجيب الأمة الإسلامية في جاوة وفي إفريقيا وبين المسلمين الصفر والسمر والبيض. وكل محاولة لخداع الأمة عن نفسها والتلويح لها بالشعارات وتسميتها شعبا ليسهل الخداع إنما تكون تهييئا لهزائم جديدة.

قيادتنا السياسية قيادات متملقة. تدفع الوعود بلا حساب للأمة التي مسخوها شعبا وحصروها في عصبية القوميات، لذلك نرى شبابنا يلتمس رمزا للقوة والصدق والصراحة، وليس ذنب الشباب الذي تتملقه الأحزاب السياسية ويتملقه كل ذي سلطان أن يولع بشخصيات قوية رائعة في دورها القيادي وتجردها لتحقيق

مثلها العليا. إن كان شبابنا يغرم بماوتسي تونغ فذلك لأن ماوتسي تونغ رجولة وذكاء وفكر وتماسك، وإن كان يغرم بتشي غويفارا فلأن تشي غويفارا مثالية ونكران للذات، وإن كان يحب هوشي منه فلأن هذا نموذج لرجل المبدإ والتضحية والقوة. لا نسأل الشباب ما ليس يستطيعون لأنهم أبناء عصرهم يتغذون بما تقترحه عليهم الساحة العالمية من أفكار ونماذج، وجهلهم بالثراث الإسلامي جناية أجيال مفتونة. ثم لا يكفي أن يطلعوا على تاريخ ملتهم وأمجادها حتى تقدم لهم الساحة الإسلامية نموذجا حيا يسعى ويعمل ويحقق للأمة حريتها، ويكفي أن يتحرر جزء من الأمة في رقعة مهما صغرت، وينتصب متجردا مضحيا متماسكا واضح المبادئ قوي العزم نير الفكر. لا يكفي أن يقرأ شبابنا تاريخ عمر بن عبد العزيز حتى يروا بديلا له يقودهم بقوة وأمانة إلى كرامة الإسلام، ويومها يعز المؤمنون ويفرحون بنصر الله.

إن انفتاح باب التوبة معناه لعصرنا وأمتنا رجاء رحب في أن ينفتح للأمة منهاج النبوة فيتجددون ويتجدد لهم ما أعطى الله لمن آمن واتقى. ومن هذا الباب دخل تاريخ الإسلام أعاظم رجاله: عمر بن الخطاب، عمر بن عبد العزيز، وصلاح الدين وغيره ممن قاموا في الأرض قيام صدق وقعدوا عند ربهم مقعد صدق. حين يرفع الله جل جلاله عنا الجبرية الطاغية ويشاء أن يقيم

لنا تجديدا على منهاج النبوة يلهم من يشاء من عباده أن يتجرد فكريا وعمليا عن ماضيه وماضي أجيالنا المفتونة حتى يصبح رمزا، حتى يصبح حامل الراية وحامل الرسالة، وسيلهمه أن يحرك الرمز ليتجمع انتباه الأمة وتتحرك عاطفتها، لأن بهذا تبدأ كل حركة تجدد. الأمة التي انتفضت وبلغ بها الحنق أي مبلغ حين أطيح بالخلافة العثمانية ولبس الناس مرغمين برانيط أتاتورك، تتحرك مهجتها وما أبقى لها عهد الظلم الاستعماري وكذب السياسيين وملقهم من همة نحو الذي يقول على رؤوس الملإ ربي الله، ويعيد العمامة على رأس المسلمين، ولست أعني غطاء الرأس إنما أعني شارة الإسلام في حياة الناس، في البنك والمسجد والسوق والإدارة. والتحرك العاطفي استجابة للقائد المؤمن المنتظر قاعدة لربط إرادة الأمة بأهداف الإسلام ومقاصده، وهذا الربط يقابل تغيير الحرف العربي الذي بت به مصطفى كمال حاضر الأمة الإسلامية في تركيا بتاريخها وكتاب ربها. القاعدة العاطفية، حماس الانبعاث عندما يحرك الرمز، تمكن القائد المجاهد من تغيير الوجهة والتحول الجذري إلى المنهاج بالمنهاج.

التحول الإسلامي الجذري بناء وكل بناء للجماعة لابد أن تسبقه تعبئة. وقد يكون خيال تعبئة دون أن تكون تعبئة وذلك يحدث لأبطال التاريخ مثل من ذكرناهم آنفا. وقد تكون تعبئة

دون أن تنتهي إلى تربية كما هو الشأن في منجزات ستالين الذي عبأ شعبه لهدف مادي فتحقق هدفه لكن ضاع الشعب. ويظهر تفوق الماوية الصينية في كون تعبئتها تصطحب تربية الشعب وتتفتح للنقد حتى يتم التغير في نفس الإنسان ووعيه موازيا لتغير أحوال معاشه. والتحول الإسلامي، وقبله التعبئة الإسلامية لا بد لها من إرادة قوية قيادية، وبدون هذا الشرط لا أمل في أي تغيير، ولو بقيت روسيا تسير مترددة على سير لينين الذي يحب الاستشارة والإقناع قبل العمل لما حققت تعبئة، ولا يلام ستالين على السفك والاستبداد الأعمى اللذين قاده إليهما سذاجة فكره وضلاله عن سبيل غير سبيل العنف، والقوة غير العنف، بل العنف هو وضع القوة في غير موضعها.

البطل التاريخي يعتمد على الحماس «الشعبي الجماهيري» في مظاهراته، لكنه لا يحقق تعبئة ولا يحقق بناء ولا تربية. والقائد ذو الإرادة القوية قد يضل الطريق بالاجحاف والإرهاق وقد يفر من المعركة عندما يكتشف أن الجمع بين التربية والبناء الاقتصادي مع احترام الإنسان وتكريمه أمر مستحيل كما فعل غويفارا.

رأينا ورأى الناس كيف أجحف البطل التاريخي عبد الناصر بقومه حين غزا اليمن وقتل الآمنين ودفع بجيش المسلمين في الهاوية بعد أن أفتى المفتي، وتأمل كيف تغزو الجاهلية معاقل الإسلام،

بأن من غزا اليمن مجاهد في سبيل الله. ورأينا ورأى الناس أية عاقبة آل اليها المسلمون في مصر وفي العالم من جراء هذا الإجحاف حيث كانت تربية الجيش تقتضي من الجندي أن ينزل من على ظهر دبابته إذا رأى العدو وينجو بنفسه. ورأينا ورأى الناس أية تربية رباها البطل التاريخي عبد الناصر غداة هزيمته التي سماها «نكسة»، حين استقال فخرج الناس، وقد عادوا شعبا وجماهير، أي مجموعة فوضوية، لكثرة ما لقنوا ذلك. خرجوا كاليتامى يتصايحون ويتعلقون بأذيال البطل وذلك يعبر عن طفولة لم تنل من التربية ما يبلغ بها الحد الأدنى من الاعتماد على النفس، أما الاعتماد على الله فلو كان في النيات لما كان في تاريخنا هزائم. واسمع صحفيا فرنسيا هو «جان لاكوتير» يصف تضاغي «الشعب» لما هدد البطل بالاستقالة، ولا نلام إن استشهدنا بصحفي أجنبي بعد أن سردنا كلام جاسوس قديم لأن مثل هؤلاء وحدهم يجدون فرصا للقاء أبطال التاريخ بل يجدون لديهم القبول والترحيب. قال لاكوتير في كتابه: «عبد الناصر» ص 202 من الطبعة العربية يروي حديث صحفي آخر يصفه بأنه أحد كبار المختصين في شؤون الشرق الأوسط قال : «قال إريك رولو : كنا نستمع إلى عبد الناصر من التلفزيون، وكان التعب باديا عليه، وكان مرهقا. كان متهدج الصوت، حزين النبرة،

يكاد يتعثر بالكلمات وهو الخطيب الكبير. كان صوته مختنقا وهو يعلن انسحابه من الحياة السياسية. وسرعان ما سمعنا، ونحن في الطبقة الثانية عشرة من البناية حيث كنا، ضوضاء وصخبا وجلبة مهددة مزمجرة كالزوبعة. لكن الطقس كان جميلا. عندئذ خرجنا إلى الشرفة، وشاهدنا الناس كالنمل قادمين من جميع الجهات، خارجين من المنازل، والرؤوس تظهر من النوافذ، فنزلنا. كان الوقت غسقا، والمدينة نصف غارقة في جهمة نظام التعتيم. كان مشهدا خارقا بهؤلاء الناس المتراكضين من كل ناحية صارخين باكين بثياب النوم حفاة، والنساء بقمصان النوم، والأطفال كذلك جميعهم فريسة عذاب لا يطاق، يصيحون: ناصر، ناصر لا تتركنا! نحن بحاجة إليك. كانت هذه هي الضجة التي سمعناها وكأنها إعصار عات لا يرحم».

هذه هي التربية التي نتجت عن نحو عشرين سنة من البطولة والمظاهرات. ولا عجب أن نقرأ بعد هذا الكلام بصفحات كيف أهمل قواد الجيش واجباتهم، وكيف سخر رؤساهم أجهزة الدولة للدعارة كما صرح رئيس البوليس السري أمام المحكمة قبل أن يعلن رئيس المحكمة سرية الجلسات.

إننا نبحث ونعتبر ونتحدث عن البطل العربي لا عن حزازة وحقد، وإن كان البطل قتل علماء المسلمين وشرد المخلصين، لكن

لننظر وجه تاريخنا في مرآة من يرقبنا علنا ندرك لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم. أمامنا التعبئة الشيوعية الناجحة في كل مكان وبوجه من الوجوه، وإلى النجاح تلتفت أعناق شبابنا. وتحتنا كنز الإنسانية ورصيدها ونحن غافلون.

عندما يحمل القائد المجاهد راية الإسلام ويستقطب انتباه المسلمين وحماسهم يبدأ الجهاد ويبدأ البناء وتبدأ التربية. لأن غاية كل تجديد لابد أن تكون إكساب المسلمين المنعة ضد الجاهلية المحيطة، وتوضيح الأسباب المخرجة من الفتنة حتى تتحرر الأمة وتصبح أهلا لأن يكون أمرها شورى بينها. لكن مرحلة التربية لا يمكن أن تجتازها الأمة إلا بقيادة تربوية تأخذ الإرادة السياسية التنفيذية أخذا قويا لترشد وتجمع الهمم، وتشدها نحو هدف البروز إلى الناس صفا واحدا، أمة واحدة أمرها شورى. ويرحم الله جمال الدين الأفغاني الذي أثل لنا زبدة تجاربه حين قال : «لا يصلح الشرق الا مستبد عادل» والاستبداد العادل أو العدل المستبد قد تسميه لغة العصر «دكتاتورية بيداغوجية». وليس تعنينا الاصطلاحات اللفظية، إنما يعنينا أن يتحول «الشعب» إلى أمة، وتتحول الجماهير من نصب يعبدها الديماغوجيون إلى «جماعة» كالبنيان يشد بعضها بعضا وأمرهم شورى بينهم. وجلي أن الروح الذي يمكن أن يحدث هذا التحول ويحدث قبله توترا إراديا في

الأفراد يسير بهم إلى الفلاح يجب أن يكون روح رجل ترك الدنيا وراءه وأقبل على الله يبغي رضوانه. هذا الروح القوي بطهارته لن يهدف إلى البقاء في زيف المناصب لأنه إن فعل فوسيلته إبقاء الناس في طفولتهم.

المسلمون تضطرب بهم زعازع الصراعات الجاهلية وتنشئهم في ديارهم أفاعي الجهالة الفكرية وجهالة العصبيات القومية والمذهبية، الفارسي يقاتل العربي، والكردي يقاتل العربي والبنغالي يحارب البنجابي والشيعي يعيش مأساة التمزق الإسلامي باستمرار ويحقد على السني. وفي أحضان السنة مذاهب وفهوم وقهر فكري محتكر منغلق يكفر فيه السلفي الصوفي ويتيه فيه المتصوف على الناس بعكازته ومرقعته... ومظاهراته الملونة أو الصاخبة أو الراقصة.

وتربية الأمة أمامها كل هؤلاء، والطريق صعب لتتجاوز الأمة خلافاتها المذهبية وتكتشف نفسها مرة ثانية في محمدية متبعة، ولنحتفظ بالكلمة حتى نرجع لتفسيرها.

وبداية العمل الإسلامي يتوهمه بعض الناس، بل أغلب مفكري المسلمين الذين يحضرون المؤتمرات الإسلامية، هو التهييء لاندماج سياسي، في «كومنولث إسلامي» مثلا، ولا تقف طويلا عند تناقض العبارة وعجمتها ومحتواها مع ما نحن بصدد البحث عنه فإنك تصطدم بمثلها حتى عند فضلاء المسلمين المعاصرين الذين

يتحدثون عن «انقلاب إسلامي» أو «ثورة إسلامية».

وعندنا أن البداية هي قيام رجل سلطة مؤمن بجمع الإرادة السياسية والعزم لقومه بابتداء دولة إسلامية في بقعته حيثما كانت ومهما كان حجمها. وعندما تتدرج الدولة المنبعثة حتى تصبح أمة وجماعة أي حتى تتلقى التربية الضرورية بوازعي القرآن والسلطان، وعندما تبقى حياتها بناء إسلاميا خالصا وتنجح وتنجز أعمالا بارزة في الاقتصاد وتهذيب الإنسان، تصبح «فترينة» تجلب أنظار المسلمين وأنظار الناس أجمعين. وبعدها يسلك المسلمون -من أعيته منهم الحيلة وطاردته الهزيمة- مسلك الجماعة الرائدة، وتذهب التربية بالعصبيات والخلافات المذهبية، وإن شاء ربنا أن يرفع عنا العنت يسر للأمة جمعاء سبيل التوحد، وأعطى بذلك، أو قبله، مثالا للإنسانية تحتذيه.

والحديث، على ما نعتقد، في الخلافة وتجديد الخلافة هذر، إن لم يسبق قيام الخلافة الإسلامية تربية إسلامية تبدل مفاهيم المسلمين وعاداتهم ومواقفهم الفكرية والعاطفية، إنك لا تبني منارة من قطع التبن وانما تبنيها بالصلب المتماسك. ونحن اليوم غثاء كغثاء السيل كما عبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وسنبقى مجتمعات غثائية متدابرة متناحرة بأسنا بيننا، ولقمة سائغة لكل غاز ولكل آكل إلا أن يعود الأمر كما بدأ، أي من رجل صالح قوي أمين

يريد بقوة ويقول بقوة: أن يكون الإسلام واقعا، أن يكون الإسلام حياة، أن يكون الإسلام منهاجنا للعودة إلى رضى الله وإلى الكرامة التي يخص الله بها المؤمنين، يرحم الله الإمام مالكا حيث قال: «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها».

وظيفة الدعوة الصادقة، دعوة العالم العامل حامل الطاقة النورانية الذي يحول من صحبه كما تتحول الأجسام بتأثير الفاعل الكيماوي، ووظيفة القائد الجهادي المجدد، حين يتيح الله وجودهما للأمة هي التربية ثم التربية ثم التربية، تربية الروح والجسد والعقل والعمل وتربية حاسة الفعالية في الدنيا وسيلة لنيل جزاء الآخرة، وتربية الإرادة، وتربية روح البذل والتضحية من أجل الجماعة، وتربية الشعور بعزة المؤمن وسمت المؤمن وقصد المؤمن، كل ذلك بأسلوب المنهاج الذي يتضمنه كتاب ربنا وسنة نبينا.

إن كان جهد أبي حامد الغزالي وهجرته إلى يوسف بن تاشفين لم يحدثا أثرا لموت المجاهد المسلم قبل أن تصل هجرة العالم العامل إلى مداها. وإن كان سعي الأفغاني رحمه الله في بعث الخليفة العثماني عبد الحميد لم ينجح لأن عبد الحميد تصور أن إعادة مجد الخليفة يتم له برشوة كل من يقبل الرشوة وجمع كل من يكري شدقيه ليصيح في الناس بأن الله ملك في السماء وأن عبد الحميد ظله على الأرض. ولم يسعد الإمام عبده رحمه الله في توجيه الملك

توفيق وقد كان في فترة من حياته يظن أن الرجل قد يصلح أمره وينفع المسلمين. وكان الشهيد المرحوم حسن البنا الرجل الداعي إلى الله المخلص يسعى دائما للقاء فاروق عسى أن يرجع فاروق ويتحول من دابة مخربة إلى رجل. لكن فاروق، والعلم أصبح صفة لكل ماجن فاسق، كان يخاف لقاء الإمام الشهيد حتى إذا سفك دمه، كما روت الصحف بعد الثورة، أخذ الهاتف وحيي ندماءه تحية الصباح مبشرا إياهم أن قد مات «البعبع» والبعبع في عرف الأطفال شبح مخيف.

إن كانت هذه الجهود لم تنجح ولم يتم لقاء بين رجال الدعوة ورجال الدولة فقد نجحت جهود أخرى أعطتنا من ذكرناهم من أئمة مجاهدين. وما عقمت هذه الأمة عن أن يخرج الله من صفوفها رجالا، ولا كان وعده أن يظهر هذا الدين على الدين كله محصورا في زمن دون زمن. ويبقى متلألئا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشر بأن الله يرفع آخر الأمر الملكية الجبرية ليحل محلها خلافة على منهاج النبوة ويعم الرخاء وتمطر السماء ويفرح عمار الأرض كما يفرح الملأ الأعلى. وأيا ما كانت درجة صحة الحديث فإن دين الرحمة والرجاء والبشرى يفتح للإنسانية كلها منفذا من الشر المستطير والبلاء المحيط بالأرض وسكانها.

ولعل الله الذي خص أول هذه الأمة بالفضل والخير أن يدخر لآخرها فضلا ورحمة وخيرا. ومن يسمع بأذن مسلمة لا يتردد في اعتقاد ما يدخره الله لآخر الأمة من خير. هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيما رواه الحكيم الترمذي في «نوادر

الأصول» عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يكون في آخر الزمان ديدان القراء، فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وهم الأنتنون. ثم تظهر قلانس البرد، فلا يستحيي يومئذ من الزنا. والمتمسك يومئذ بدينه كالقابض على جمرة، والمتمسك يومئذ بدينه أجره كأجر خمسين.** قالوا : منا أو منهم؟ قال: **بل منكم!**»

تشريد رجال الدعوة وتقتيلهم والسخرية بمن يصلي لله ونبذه بالتخلف العقلي لتعلقه بغيبية تجاوزها العقل الإنساني المتطور وما إلى هذا من البلاء هو معنى القبض على الجمر. ولمن صبر على ذلك جزاء خمسين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويتضمن الحديث أن ظهور الفاحشة وفسق القراء وغربة الإسلام بين أهله يزيد أجر المؤمن الصابر على دينه يومئذ. وهذا أوان الوعد، وفي تضعيف الأجر ترغيب للعمل على نصرة الإسلام مهما كان الثمن. ولعل ذلك يحفز قادتنا الذين يحبون الإسلام لكن لا يصبرون على قبض الجمر. ولعل ترغيب الرسول صلى الله عليه وسلم يهدي القائد المجاهد المجدد للصبر على ما ينتظره من البلاء لأنه سيتعرض للانتقاد والسخرية إن جاء ببدع في دنيا الخطابة البطولية والشعارات التقدمية والتشريع الوضعي والأوهام الفلسفية والمذهبية.

طيب الأحدوثة تهواه الأنفس، لكن ما عند الله خير وأبقى، وإن لم تكن الهمة عالية واليقين كاملا لا يثبت أحد على قول الحق وعمل الحق.

تحرير العقل والإرادة

هذه الدمية الإنسانية التي تسعى على الأرض وتملأها ضجيجا وتاريخا وفكرا وفنا وخيرا وشرا من أين جاءت وأين تذهب؟ سؤال عكف عليه الفلاسفة ورجال السياسة، أولئك يبحثون عن قيمة الإنسان المطلقة وهؤلاء يعنيهم أن تسير الدمية وفق منهج عملي وتخضع لقوانين علمية لتحقق مثلا أعلى. الفلاسفة أفنوا أعمارا في المراهنات العقلية عن وجود الروح وخلود الإنسان أو عن مزية الأخلاق والمعرفة اللتين تشرفان الإنسان. بحثوا عن الوجود وسر الوجود، وعن المعرفة وإمكانها وحدودها، وعن الخلق والجمال. وتردد رجال السياسة بين أساليب تسيير الإنسان وتمدينه وبين القيمة المثالية التي يضعونها نصب عينيه لتكون له حافزا على العمل. ورغم صيحات الوجوديين وقلقهم ومناداتهم بالويل والثبور لأن الوجود عبث لا معنى له، فإن الفكر الفلسفي السائد اليوم والفكر والعمل السياسيين تلتقي في تحديد الإنسان بخط التطور الحيواني، الذي يجيب عن امتياز حيوانية الإنسان عن حيوانية الحيوان، وبخط التطور التاريخي الذي يجيب عن تقدم الحضارة في جدية ترفع وتخفض وتوجد وتعدم. ونظرة الفكر الفلسفي والسياسي إلى مصير الإنسان، والإنسان صيرورة قبل كل شيء، تخطط آفاقا تطورية جديدة تساهم فيها علوم الحياة والسبرانية والاجتماع. وفي هذه

الآفاق مستقبل مشرق، تتغير فيه خصائص الوراثة حسب الطلب، ويختار فيه الفحل من الرجال لينسل نسلا متفوقا قد تحضن أجنته في القوارير، وينشأ مجتمع متخصص كتخصص أجزاء الآلة أو كتخصص أنواع المفكرات والمنفذات الإلكترونية. ويتجاوز الإنسان مرحلة أخرى في طريق تطوره القاهر نحو... ولكن نحو ماذا؟

عندما يبني العقل شبكة محكمة قوامها المنطق، ولا يضر الشبكة أن يتغير المنطق بتطور الفكر، يصبح العقل سجينا في شبكته. هذه الشبكة هي العقلانية أي المنظومة الفكرية المنطقية التي صنعها العقل. ولا يمكن للعقل العقلاني أن يحكم أو يختار إلا برضى سجانه. وإذا كان العقل يفسر وجود العقلانية لأنه هو خلقها، فإن العقلانية لا تطمع فقط في تفسير العقل بل تفسر أيضا ما وراء العقل... إن كانت تعترف، وهي لا تفعل، أن وراء العقل شيئا. لكن إن رجع العقل إلى تجريده الأول، إلى براءته أمام ما تخبره به الحواس وأمام شعوره الباطن بوجوده واستقلاله وحرية إرادته، تساءل واحتار: من أنا وأين أنا ذاهب؟ يفزع العقل أمام الموت إن بقي على براءته فيلح عليه السؤال. أما إن جعل نفسه رهينا للفكرة «Cogito» التي تؤسس وجوده، سجينا في الحلقة المفرغة التي تنبني على الفكرة، فإنه قد يشتغل بألعابه العقلانية عن السؤال المركزي، أو يتطاول إلى الإجابة مفسرا ما ليس له أن يفسر، وينتهي مثلا إلى أن الوجود عبث وأن معاناته

تبعث على الغثيان. وقد يقف في الإجابة عن السؤال عند نقطة الموت فيجعل الموت غاية للحياة في يأس شديد كما فعل هيدجر مثلا. ولعمري ما يقوله إنسان الطبيعة البدائي خير من هذا لأنه يؤمن بما وراء الموت. والدهريون في كل زمان ينفقون مما معهم، ودهريو الفلاسفة يفلسفون جهلهم، عن اقتناع عقلاني طبعا، لكن مرتبتهم بالنظر إلى الحق هي مرتبة الذين كفروا بما وراء الموت للعلة البسيطة وهي أنهم لم يروا أحدا من موتاهم يبعث.

ورجال السياسة الذين تعنيهم القيم وموازينها يرون في الإنسان حيوانا متطورا، له حاجات، يتحرك بحوافز. فهمهم أن يحققوا له إرضاء الحاجات ويقترحوا عليه قيما تكون له حافزا للعمل. هؤلاء يلوحون بالمثل الأعلى لحرية الفرد وحقه في التفكير والتعبير والملكية والعمل، وأولئك يهتفون بالأخوة الإنسانية والعدالة في المجتمع. وكلا الفريقين يرجع الإنسان إلى وظيفة إنتاجية أي أنه يفسر الإنسان ووجوده بما ينتج ويستهلك.

هكذا، دهرية عند الفلاسفة، واقتصادية «Economisme» عند رجال الفكر والسياسة. ويغم على العقل السجين فلا يرى عبث كل هذا وهو أن الإنسان لم يكن إلا نتاج تطور وحمار رحى وموضوعا للتجارب العلمية التي تعالج دماغه ليصبح أكثر فعالية وقدرة على التحكم في الآلات.

الإسلام حرية الإنسان، يسمو به إلى قيمة كونية، ويعتقه

من بخس نفسه مقامها بالتردي في المادة. إسلام يوقظ الإنسان ليشعر بقيمته فيصبح لديه الوعي الشامل بمكانته. والإسلام يخاطب العقل أولا ويخاطب الإرادة بعد ذلك. يخاطب العقل ليعرف حدوده وإمكاناته وينفتح للتلقي من عالم ما فوق العقل. ويخاطب الإرادة لتوجه عمل الإنسان لتحقيق هدف وجوده. الإسلام يعطي العقل حلا لسؤاله عما بعد الموت ويعطيه معها حافزا يدفعه لتحقيق هدفه، فالإسلام حياة وحرية. حياة تمتد إلى الأبد تحت نظر الله وحرية تزيل عن العقل أوهاقه وعن الإرادة عبوديتها للمادة.

ولست أتحدث عن الإسلام كنظرية ولا على مستوى الجدل الفلسفي. ومنذ لم يعد الإسلام للمسلمين حياة ولا حرية، يصعب أيضا أن نتحدث عن الإسلام كواقع سياسي في حياة الناس إلا أن نتخذ من تاريخنا الماضي شاهدا، وهذا ما يلومنا عليه خصومنا وجهلة أبنائنا، فما بقي لنا إلا أن نتحدث عن الإسلام كما هو، أي لقاء بين الإنسان وعالم الغيب، بين العقل وما فوق العقل، بين إرادة الإنسان وإرادة الله. الإسلام كما هو في حقيقته تجربة إنسانية يتعرض لها الفرد ثم يسري مفعولها من الأفراد للجماعة. عندما نسمع عن إنسان مسلم كان أو غير مسلم، أنه اكتشف الإسلام على يد مرشد ونشاهد تحوله وتغير سلوكه، والأمثلة على هذا كثيرة، يخرج إلينا الإسلام الحق فيصبح حياة ويصبح حرية بالنسبة لمن تحول وتغير. يخال الناس أن الإسلام في طيات الصحف

والكتب الدينية، وليس في الكتب والصحف إلا وصف للإسلام. القيادة الجهادية المنتظرة والدعوة الصادقة مطلوب إليهما أن يخرجا المسلمين من ظلام الفتنة وغبش الشك ويزجا بهم في حياة جديدة هي الإسلام. وهذا معنى التربية وهدفها.

الدعوة إلى الله دعوة وعي الإنسان وجوده مخلوقا قائما بين يدي الله، مرادا لغاية سامية على الأرض، ومصير جميل إلى الجنة بعد الموت وإلى رضى الله في الدارين إن أراد واختار وعمل. هذا الوعي بالمخلوقية والمسؤولية أمام الله هو الفطرة. ونريد أن نزيل عنا فهما شائعا لمعنى الفطرة. كثيرا ما يعبر الناس بكلمة الفطرة عن السذاجة والبراءة، وإن كان هذا مصطلحا شائعا فإنه ليس هو المفهوم القرآني الذي نقصده ونتخذه معلما لمذاكرتنا. فطر الله السماوات والأرض بمعنى خلقها. هذا المعنى جاء في القرآن. لكن معنى الإنسان الفطري هو الذي تبينه الآية الكريمة: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾ الروم، 30.

إقامة الوجه لله والإيمان به هو الفطرة. وبهذا المعنى فالإنسان الفطري هو القائم بين يدي الخالق الواعي لقيامه. والنظرة الفطرية هو ما يعبر عنه بعض مفكري الإسلام المعاصرين بقولهم «التصور الإسلامي لله والإنسان والحياة». ونحن نفضل عبارتنا لأن النظرة الفطرية نظرة العقل الذي يتلقى من الجناب الإلهي عن طريق الوحي، والعبارة الأخرى تتحدث عن التصور العقلي، والتصور العقلي لله والحياة

والإنسان تعلق للعقل بما لا ينال، ولو نعت التصور بكونه إسلاميا.

قبل أن يصل العقل إلى موقف النظرة الفطرية يخاطبه الله تعالى ويدعوه للتأمل في خلق السماء والأرض، وفي خلقه هو ومصيره، وفي خلق الدواب والأنعام والسحب والجبال. ثم يؤكد الدعوة لينظر الإنسان مم خلق، يريد منه أن يطرح على نفسه هذا السؤال: لم أكن ثم كنت، وكنت من ماء دافق وبهذه السهولة، فمن أين جئت؟ ويعبر العقل آماد الحياة فيتمم السؤال: وإلى أين أصير؟ ويرشد الله تعالى العقل إلى حدوده وعجزه ويرجعه إلى التأمل في الآيات الكريمة التالية التي تحتوي هداية للعقل تامة. قال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ الملك، 1-6.

الغاية من الحياة والموت، بل من خلق السماوات والأرض، هو ابتلاء الإنسان في عمله، إذ به يستحق مصير التكريم أو مصير الهوان. والبصر المتردد بين السماء والأرض ومن حوله في خلق الله لا يرى فطورا وإنما يرى نظما محكما يزداد انبهار العقل من إحكامه كلما

تقدمت الكشوف العلمية. وإذا رجع البصر كرتين، بصر الحس وبصر العقل، تأملاته فسيرى معجزا ويرتد خاسئا وهو حسير. فإذا رضي عندها أي يقر بقدرة الخالق الفاطر وأتبع ذلك ما يقتضيه من الطاعة والامتثال والتلقي عن الوحي الذي جاءت به الرسل، تمت حرية الإنسان، وذهب الظلام وجاء النور والطمأنينة والسعادة في الموقف الإيماني موقف الفطرة. وأصبح لكل شيء معنى واتخذ كل شيء دلالته النسبية في الكون الحسي وفي الخلق الغيبي وعالم الأمر الإلهي.

ولا يوصل الإنسان، ابتداء من المسلم الجغرافي أو المسلم الفردي الذي يؤدي ما استطاع من الصلاة والصيام، أو ابتداء من المرتد والكافر، لا يوصل الإنسان لموقف الفطرة إلا التربية. وهذا مصداق قول الرسول الكريم: «**كل امرئ يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**». الفطرة الإيمانية أصل لأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولا كما أخبرنا، ولكن تمتد الآجال وتنسى الأجيال وترتد بتربية الأبوين، وافهم البيئة المؤثرة المربية.

ابتداء من المسلم الجغرافي، كما يصف السيد الأفغاني، أو من مسلم لا غير أو من مرتد وكافر، يتفتح للدعوة الصادقة مجال لتربية الفرد حتى يتحرر ضميره ويرتد إليه عقله خاسئا وهو حسير، فيشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويتلقى الأوامر الأولى عن الرسالة التي شهد بها واعترف بأنها الحكم وطريق الخلاص فيصلي

ويزكي ويصوم ويحج، ويكون بذلك مسلما. وهذه هي الدرجة الأولى المؤدية للموقف الفطري، موقف المؤمن. ومراتب الإسلام الثلاثة: إسلام ثم إيمان ثم إحسان، أساس كل نظام إسلامي، وقليلا ما يلتفت إليه مفكرونا. وهو تصنيف للفرد داخل الجماعة لكنه تصنيف تحرير لا تصنيف استعباد، تصنيف حركي لا تصنيف طبقي. ولأهمية هذا التقسيم نرى أن الله تعالى أبلغه المسلمين الأولين بطريقة لم يعتادوها. فقد كان الرسول يبلغهم فيصدقون، لكن إبلاغهم هذا الأساس الموضح لسلم الارتقاء في درجات الإسلام جاءهم عن طريق اتصالهم المباشر بالغيب، جاءهم به جبريل يرونه ويجالسونه. حديث جبريل رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «**بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال: يا محمد ! أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا. قال : صدقت! فعجبنا له يسأله ويصدقه ! قال: فأخبرني عن الإيمان: قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت ! قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك**

تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها. قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، ثم انطلق. فلبث مليا ثم قال: يا عمر ! أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم ! قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم!»

هكذا تلقى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم معرفة درجات الإسلام، والمراقي المؤدية إلى الكمال الإنساني.

الإسلام الفردي درجة أولى لقبول الرسالة والاعتراف بالألوهية والرضى بحكم الله. وقد يكون مجرد دخول فيما دخل فيه الناس، أي انتماء سياسيا ظاهريا، وقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إسلام المنافقين وزجر أسامة حين قتل رجلا شهد بلسانه إن لا إله إلا الله ولم يقبل منه التذرع في إسلام الرجل، وإنما قال له زجرا: «**هلا شققت على صدره!**».

أما قوام الإسلام ومادته ونواته الصلبة فهم المؤمنون، أي الذين زادت درجة وعيهم وشعورهم بموقفهم أمام الخالق فآمنوا بالله ورسله وغيبه، وعملوا بما يقتضيه ذلك من امتثال غير مشروط. والمؤمن هو العامل المتصل بجماعة المؤمنين اتصالا عضويا، الملتزم التزاما كاملا بأوامر الله في سره وعلانيته الذي باع نفسه لله لقاء

جزائه ورضاه.

الإيمان وعي وعمل، هذا ما تقوله الآيات والحديثان التالية. قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ الحجرات، 15. وقال رسول الله صى الله عليه وسلم: «**الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبة من الإيمان**»[1]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**»[2].

إنما المؤمنون الذين لم يرتابوا بعد إيمان وجاهدوا بالمال والنفس، أي باعوا أنفسهم ونفيسهم لله ولم يسعوا عبثا، وإنما كانوا طاهرين وكانت لهم الصلاة نورا، وسلكوا شعب الإيمان التي تبدأ بالاعتراف وقول لا إله إلا الله ثم تغطي مجال العمل وأدناه إماطة الأذى عن الطريق، ومجال القيم الخلقية وأرقها العمل بحافز الحياء.

والمرتبة العليا هي الإحسان، مرتبة الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، وهذا هو الموقف الفطري في أكمل صوره، والوقوف بين

1متفق عليه، مروي عن أبي هريرة.

2 رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري.

يدي الله بالمحبة والشكر، بعد الطاعة والعمل الجهادي بالمال والنفس. وإن كان المؤمن ينتظر جزاء الجنة فإن المحسن ينتظر رضى الله ومحبته، لأن الله أخبرنا أنه يحب المحسنين ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين ويحب أصنافا آخرين من أصناف العمل. وفي العبادة إحسان وفي كل عمل إحسان، وبالزيادة على ما فرض على المؤمن، وبإحسان هذا العمل التطوعي تنال درجات الإحسان. وجزاء المحسن أن يصبح الله عينه التي بها يبصر وأذنه التي بها يسمع ويده التي بها يبطش. لا أتحدث عن اجتهاد، لكن أروي حديثا قدسيا هو في درجة أمتن الأحاديث لأنه حديث متواتر، أما كيف يصبح الله تعالى عين العبد وسمعه ويده فتالعبير عنه كان مزلقة للصادقين لأنهم حاولوا التعبير عما لا يعبر عنه بالكلام فرماهم الناس بالزندقة. وكان ترديده من جانب الكفرة فتنة للمسلمين على مر الأعصار والأعاصير، وبدر من كل ذلك بين المسلمين بوادر القول حول وحدة الوجود والحلول وغير ذلك من المعميات التي كانت وسطا تغذت فيه وعليه جراثيم الباطنية وأصحاب الرياضات. قول الله تعالى في الحديث القدسي حق، والتجربة قائمة وعلمية وواقعية، ووعد الله لا يتحقق إلا لمن سلكوا الطريق إلى الله كما وصف الله في الحديث الذي رواه الرسول الكريم عن ربه قال: «**قال الله تعالى: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب. وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه. ولا**

يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»[1].

الأولياء الصالحون هم زبدة الأمة، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهو الذين أحبهم الله تعالى. كافأهم بأن أصبح لهم عينا ويدا وعونا مؤيدا. لكن المسلمين في تدهورهم العقدي والتاريخي اتخذوا قبور الأولياء الأموات أوثانا، ونسوا طريق السعي إلى تحقيق قابلياتهم للكمال كما حقق رجال الله العاملون.

والمشكل الأول أمام رجال الدعوة الصادقة أن يوجدوا الرغبة عند المسلم الجغرافي أو الفاتر في الرقي إلى درجة الإيمان، أي في تحقيق إسلامه تحقيقا أوسع في ميدان العمل. وأعوص من ذلك أن يقنعوا من آمن وعمل صالحا أن يسعى ليحسن في كل شيء ويتقرب إلى الله ليحبه الله. وتبحث عن هذه المعاني في كتب الفكر الإسلامي المعاصر فلا تجد لها أثرا وكأنما نسي المسلمون أن الإسلام رحمة وسلم لنيل الكمال الإنساني عبر العمل الصالح بين يدي الله

---

1 رواه البخاري عن أبي هريرة، ورواه أيضا بصيغ أخرى ومن طرق أخرى أحمد والطبراني والحاكم وأبو يعلى والبزار، فهو حديث متواتر، أي في الدرجة الأولى من الصحة.

ووسط خلقه. والإسلام السياسي الذي يسود في فكرنا الإسلامي المعاصر، أي هذه الدعوة التي تتحدث عن الأرض وخلافة الإنسان فيها وتحجم عن التحدث بالايمان بالغيب وتشير إلى الجنة إشارة خفيفة، هذا الإسلام السياسي ليس هو الرسالة كما جاءت وكما يجب أن نحملها شاهدين على الناس، إنما الإسلام هو هذا الذي عرفه الله ورسوله: ارتقاء إلى الإيمان بالغيب وربط الأعمال في النيات والغايات بالتقوى، ثم الصعود إلى درجات الكمال التي يحمل كل إنسان قابلياته، والمرء يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه كما أخبر المعصوم صلى الله عليه وسلم، ومعناه أن الحياة مدى لتحقيق الصورة الروحية التي ستلقى بها الله وتخلد بها إلى الأبد. فإن أنت حملت هذه الدمية الآدمية المليئة بالنزعات الترابية محمل الصدق، واتقيت وآمنت وأحسنت لقيت الله على أحسن الصور وكنت في مقعد الصدق وفي ظل الله كما قال القرآن والحديث. بل يحب الله بعض عباده فيخصهم بمنابر من نور يغبطهم الأنبياء والشهداء. هذه هي المحمدية، أي الإسلام كاملا كما عاشه الرسول وصحبه الكرام. ولعل بعض مفكرينا يحجمون عن التحدث عن الإسلام الرحمة عن الإسلام كتحقيق للكمال الروحي مخافة أن يوصموا بأنهم صوفية أو متصوفة. وهذه أيضا طفولة، لنقل روحية، لأن الأسماء من صنع الناس ومحتواها أيضا فيما يرجع إلى السعي والاجتهاد. وما جاءنا في كتاب الله وسنة نبيه

عليه المعول. والذي نجده يعيش إسلاما محمديا ويحيا بإسلامه بين الأموات[1] ؛ له نور من الله يهديه، ذاك من نسترشد به، وذاك من نلتمس عنده نورا. وإنما قيل لأهل النار أن يرجعوا إلى الدنيا ليلتمسوا نورا لأنهم لم يتقبلوا الرسالات ولم يصحبوا الصادقين. قال تعالى في صفتهم: ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾ الحديد، 13.

المحسنون أقاموا وجههم للدين ووقفوا بين يدي الخالق. ويتلقون من رسالات الله عن طريق الوحي والرسول قول الله: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ العلق، 1، وقوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ**﴾ الأعلى، 1. يؤمرون بذكر الخالق وتسبيحه باللسان وذلك أعلى شعب الإيمان وأفضلها كما جاءنا به الحديث.

والناس في هذه الدنيا بين ميت وحي وذاكر وغافل، ويتحمل الصنف الميت الغافل مراتب تتراوح بين الكفر والنفاق والإسلام الفاتر، ويتحمل صنف الأحياء الذاكرين مراتب تتراوح بين الإيمان، الذي ينقص أو يزيد بزيادة اليقين والعمل على سلوك الشعب الإيمانية، وبين الإحسان الكامل الذي يتحقق فيه الكمال

---

1 ينظر كلامنا إلى قوله تعالى : ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الأنعام، 122.

الإنساني في عالمي الشهادة والغيب، في عالمي السعي على الأرض والوجود النير في عالم الروح.

والذكر باللسان والقلب يجدد الولاء لله وإرادة التقرب منه، وهو التملق إلى الله كما جاء في لفظ الحديث والتزلف إليه آناء الليل وأطراف النهار.

وهنا أيضا مفتنة بين المسلمين، لأن من بين الحرفيين من ينكر أن يكون في القرآن أمر بالذكر باللسان، واتخاذ ورد عندهم كفر. ولسنا نحب أن نعود إلى جدل مزق أوصال الإسلام، وأوهى قواه. لأن الورد أو اللاورد واتخاذ الشيخ والاستغناء عنه أمور إحسانية، فمتى كانت همة من يجادلك لا تتجاوز النطق الإسلامي إلى العمل الإسلامي ثم إلى التزكية الروحية التي هي طريق الفلاح، قال بهواه ورأيه. ولا نسمع إلا لمن قال عن تجربة ومعاناة. ووزن الغزالي في هذا المجال، وهو الذي هبط من علياء مجده الدنيوي بصفته حجة الإسلام ومفتي العالم الإسلامي ليلتمس شيخا ووردا ثم يشهد بعد سنين أن من سماهم الناس صوفية هم زبدة المسلمين، وزن الغزالي يعادل وزن أجيال لا حصر لها من الذين ينطقون عن هوى أي عن اجتهاد نظري وهمة هابطة.

ولنرجع إلى كتاب الله وسنة نبيه لنتجاوز الخصومات الطائفية. يروي الله لنا وصية لقمان لابنه، وفي أولها الموعظة ببر الوالدين

ثم يأتي بعد ذلك مباشرة النصح باتباع رجل صادق: ﴿**وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**﴾ لقمان، 15. وفي كل قوم منيبون إلى الله وهداة. قال تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ الرعد، 7. والدعاة المتبعون الذين ليسوا بأنبياء هم المعنون في الآية التي سبق ذكرها في قوله تعالى مخاطبا رسوله الكريم: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ يوسف، 108 والاتباع والتعلم من أهل العلم والنور تمثله أنصع تمثيل قصة موسى عليه السلام مع الخضر، هذا العبد الذي آتاه الله رحمة منه وعلمه من لدنه علما، وربما يقرأ الآية من لا يهتدي بالقرآن فيمر بها ولا يتدبر، والله تعالى ما قص علينا كيف نزل الرسول المعصوم موسى الكليم عليه السلام إلى مكان التلمذة بين يدي رجل ليس رسولا ولا نبيا إلا ليتذكر أولو الألباب.

وفي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم حث على صحبة الأخيار ومجالسة الذاكرين والصبر معهم، لما علمه الله أن يصير في مجالسهم ليقتبسوا منه نورا، وليسن سنة عظيمة هي مجالس الذكر. قال الله تعالى لنبيه، وهو أمر لنا معشر أمته: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ الكهف، 28. هذا أمر بالصحبة والمجالسة للذكر والعلم. ويروي الطبري في تفسيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم فوجد جماعة يتذاكرون القرآن ويذكرون الله فقال: «**هؤلاء الذين أمرت**

أن أصبر معهم» والصحبة حين تتعمق وتصفو وتصبح رابطة روحية تسمى خلة. وعندئذ يكون الخليل على دين خليله أي أن بركة الصحبة تصعد بالأدنى في إيمانه إلى درجة المتمكن. وذاك معنى قول الرسول الكريم: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**»[1].

ابتداءً من المسلم الفاتر أو المسلم الجغرافي أو المرتد تبدأ عملية تربية أساسها الصحبة، وقوامها ذكر الله، ومجالها وقت المريد تستغرقه كله بالعبادات والأوراد، وأخص مجال هذه التربية مجالس الذكر لأن بذكر الله تطمئن القلوب. وتذكر مرة أخرى أن الذكر ليس فقط عملية باطنية بل هي أيضا ترديد وذكر دائم لاسم الله. قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى**﴾ الأعلى،14-15 ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ الإنسان، 25. ومن ذكر اللسان يشع الإيمان في القلب حتى لا يغيب عنده ذكر الله عند الفعل والترك. بواسطة ذكر اللسان يخرج الإنسان رويدا رويدا من دائرة الغافلين ليدخل دائرة الذاكرين. يتحول من عاداته الجاهلية ليتخذ موقفا جديدا لا يغيب عنه فيه ذكر الفاطر، المنعم عليه بالحياة، والمنعم عليه بآدميته القابلة للكمال الإنساني الذي يصبح فيه الطالب لله محبوبا لديه والذاكر له مذكورا عنده، ويصبح الله تعالى له عينا

1 أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه. روياه عن أبي هريرة.

ويدا وعونا ومؤيدا.

العملية عملية تربية بمعنى المعالجة الدائمة، بمعنى التزكية. ولفظ التزكية يشير إلى تحول من خبيث إلى طيب، ومن ذل إلى عز. فالتزكية تمريض، واحتياج الأمة إلى تجديد شامل يتضمن احتياجها أولا وأساسا إلى تمريض عام يقيم أود الأرواح ويزكيها. وفي كل عملية تمريض لا بد من طبيب. ومن معاني الصحبة والجماعة الذاكرة دخول إلى حضرة طبيب يعالج الروح. لنسمع كيف يفصل ذلك رجل طبوه ومرضوه فعرف بحق الطبيب. يقول الغزالي في إحيائه: «وهذا النوع من الطب (يعني طب القلوب) واجب تعلمه على كل ذي لب. إذ لا يخلو قلب من القلوب عن أسقام لو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت. فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة عللها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها. فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ الشمس، 9. وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿**وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ الشمس، 10. ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها. وقد فعل رحمه الله في هذا الكتاب وفي كل كتبه منذ عرف الحق. وقد نصح للأمة جزاه الله خيرا.

ومن الناس من لا يشعر بأن له قلبا ولا يعترف بأن له روحا، ومثل هذا لا علاج له، ومنهم من ينكر أن يكون ثم طبيب

للقلوب لديه الدواء الذي يحيي موات القلوب. وهذا ميؤوس من تدرجه في معراج الإسلام والإيمان والإحسان، إلا أن يشاء الله فيلهمه سلوك الصالحين. وما كل الناس يضعون بصدق واستماتة سؤال: من أنا وما قيمتي؟ وليس لكل الناس همة الغزالي أو بسكال المسيحي أو غاندي الوثني. وليس في كلامنا خلط، ولسنا نضع إماما من أئمة المسلمين في كفة واحدة وصف واحد مع كفرة ضالين، وإنما إنسانية الإنسان ومعدنه وهمته توحد الأصناف على حسب همتها وإبائها أن تعد مع البهيمة في إحصاء التطور التلقائي الذي يؤمن به الدهريون. وهداية الله وحدها توجه الهمة إلى عمل السعداء المحبوبين أو الأشقياء المبتلين.

قال الله تعالى لنبيه: ﴿**إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ**﴾الشورى، 48. وإن على الدعوة الصادقة إلا البلاغ. أما أن تمرض من يرى نفسه معافى وتزكى من لا يحب أن يتزكى، وهذا لا يمكن لأن الله تعالى أمر كل عبد أن يزكي هو نفسه، وكلمة العبد وجدناها عند الغزالي ولها مدلولان. هناك عبد القهر المعرض عن ربه وهو عبد مخلوق واقعه يغني عن اعترافه. قال تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً**﴾ مريم، 93. وهناك الذي خضع لخالقه وعبده وتقرب إليه، فتحرر من أوهامه ووقف بين يدي ربه يذكره بقلبه ولسانه، ويدعوه بغدوه ورواحه، ويتقيه

بنياته وعمله. ومثل هذا هو الحر الذي على وجود أمثاله في الأمة قيام الأمة وشهادتها بالقسط بين الناس. وصفة هذا العبد في قوله تعالى: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً**﴾ الفرقان، 63 إلى آخر الآيات ولنا إليها عودة بحول الله. ولعباد الرحمن صفات وسمات، وهم العمود الفقري للأمة، ولا يأتون إلا نتاج تربية نورانية، على غرار ما تربى وخرج إلى الناس أبو بكر وعمر وخالد وربعي الذي رأيناه حرا بين عبيد، وإن كان عليه الثياب الصفيقة وبيده الرمح البدائي، وعليهم الديباج والحرير ورهن إشارتهم الجيوش المدربة المسلحة.

ما على الدعوة الصادقة إلا البلاغ، ويتجمع ذوو الهمم العالية يريدون وجه الله، وتتكون النواة الحية لجماعة المسلمين المرتقبة لتعيد للمسلمين وللإنسانية الأمل في كرامة الإنسان وقد أهان نفسه وهو المتحضر القاهر.

يحيد الإنسان عن اتجاهه الصاعد به بحكم الفطرة التي فطر الناس عليها إلى درك المادية، وينحرف عن المنهاج فيشقى. ويصف الفكر الماركسي تردي الإنسان وانحرافه في كلمتين هما: الانسلاب «Aliénation» والتشيء «Réification». الفكر الماركسي حين يصف انحراف الإنسان تحت عوامل المادة والضغط الاجتماعي الاستغلالي لا ينظر إلى قيمة للإنسان خارج حياته على وجه الأرض،

لكننا نقترض الكلمتين والمفهومين ريثما نحلل انحراف الإنسان وفق المنهاج ووفق الحق الموحى به. ويقصد الفكر الماركسي بالانسلاب انخناس الإنسان أمام أعماله وسلطان ما ينتجه عليه، وعبوديته لمقتضيات عمل ينحرف به عن خط الحياة التي خلق من أجلها، ومعنى الكلمة في اشتقاقها اللاتيني صيرورة الإنسان إلى غيرية تنافي ذاته. أما التشيء فهو تحكم الأشياء في الإنسان واعتبار الإنسان شيئا من الأشياء. وهناك كلمة ثانية، أو قل عتادا إيديولوجيا ثالثا، في قاموس الفكر الماركسي، كلمة التوهيم «Mystification» ومعناها التضليل الفكري الذي يقيم منظومات فكرية تتحكم في الإنسان وكأن لها وجودا ذاتيا وهي ليست إلا بناء عقلانيا موجها لاستغلال الإنسان.

يحدثنا الله تعالى عن قوم غضب عليهم فمسخهم. ولا حاجة أن نعرف كيف تم المسخ، لأن فيما علمنا الله كفاية وهداية. وآيات المسخ لا يكاد المدافعون عن الإسلام من موقف الضعف يذكرونها لأنها في نطاق الغيبية، بل إنها موغلة فيها. قال الله عن بني إسرائيل: ﴿**مَن لَّعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾ المائدة، 60، عبد بفتحتين بمعنى عبدة، فهو جمع، والمفسرون الأولون يتحدثون عن المسخ كأنه أمر طبيعي، وهو كذلك وإن كان حس البشر لا يدركه. وهكذا أصبح ناس ملعونون

قردة كالقردة تحاكي وتهارش وتلعب وتقلد، وخنازير تأكل الخبيث وترتع في الخبيث ولا تشبع، وعبد الطاغوت تذل ولا تعز، وتعبد أوثان الجاه والثروة ولا تعبد الله. ومسخ بني إسرائيل نأخذه كما وصفه الله، ولا نتعب أنفسنا في السؤال هل كان مسخا جسميا أو معنويا، فإن الله أمرنا ألا نسأل أسئلة فضولية. والمهم أن نعلم أن المسخ انحراف الإنسان عن قصد ما خلق من أجله. ولو كان لنا نور لرأينا من الناس، ممن حولنا أو من البعيدين عنا، ممسوخين على صور أعمالهم، يتفاوتون قذارة ونذالة. وقد وصف لنا رجل من رجال الله أهل النور ما شاهده من مسخ عندما فتح الله عليه أغلاق الحس، وأنار له عوالم المعنى والمثال ينفذ إليها ببصيرته. ولا تقف عند هذه الكلمات ولا يغرنك ما يثبته لك المحجوبون، فإننا إذ نتحدث عن الكشف والنور وعالم المعنى والمثال لا نعدو كتاب الله وسنة رسوله، وقد تحدثنا عن معجزات الرسول ونرجع في صلب الكتاب لذكر بعض كرامات الصحابة رضي الله عنهم، واترك من يؤمن بما يملأ يومه وغده من صخب المادة في عالم الحس ويشك في غيب الله الذي سيخلد فيه بصفة من الصفات سعادة أو شقاء حسب إيمانه وشكه. يقول سيدي عبد العزيز الدباغ، هو ولي عاش في القرن الحادي عشر بفاس، يملي على تلميذه العالم النحرير، وهو الأمي المسكين عبد الله الغني بالله، كتابا ملأه حكمة وعلما مما فتح الله تعالى

به عليه[1]. يقول إنه دخل يوما المسجد فتوجه ببصيرته إلى رجال كانوا يتوضأون فرأى منهم من كان على صورة خنزير أو قرد أو غير ذلك من الدواب. ولكيلا تعجب من أن يرى الإنسان ما لا وجود له في عالم الحس أورد لك قصة رواها عالم من علمائنا المعاصرين دكتور يحمل لقبا جامعيا يبرئه من الغفلة والسذاجة اللتين يفسر بها أعداء ديننا من المستشرقين والمفتونين وإن كان لا يبرئه من تعليلات التحليل النفسي، وهو «علم» تائه يضع كلمات طنانة فيحسب أنه عرف أمراض الإنسان وحل مشاكله. والمحلل النفسي إن حدثته بأنك ترى ما لا يراه الناس أخبرك بأنك مريض لأنه يعيش مع الحمقى والمخرفين. واستطاع الدكتور عبد الحليم محمود أن يقول إنه شاهد في غرفته ما لم يكن فيها، رجلا من نور وصفه أدق الوصف[2].

المسخ يتناول كلية الإنسان فيشمل حياته على الأرض وحياته في الدار الآخرة. وقد ورد في الحديث أن الناس يبعثون على صور أعمالهم في الدنيا. وبهذا تكون أعمال هذه الدمية الإنسانية التي تسعى على الأرض وتتفاعل مع الناس والطبيعة وتستجيب أو لا تستجيب لداعي الله الذي يوقظها من غفلتها لتدرك قيمتها وقيمة حركاتها على الأرض؛ تكون هذه الأعمال بناء للوجود الروحي

1 كتاب الإبريز لمحمد بن المبارك، ولعل قراءته تكون ترياقا لسموم الفكر الغافل عن الله.
2 أنظر كتابه عن شيخه أبي الحسن الشاذلي، وتجد القصة في فص متأخر من الكتاب.

الذي سيخلد الإنسان فيه. فمن مسخته أعماله في الدنيا بعث مسخا وبقى إلى الأبد مسخا. ولا تؤدى مفاهيم الإيديولوجية التي اقترضناها هذا المعنى لأنها لا تتعدى الحياة المادية، وإن تعدتها فلكي تحوم حول إنسية الإنسان وأنانية الإنسان. ولا تناقض في كلامنا، فإن كل إنسية إنما تنبني على رعاية أنانية الفرد وحبه للظهور ونيل الاعتبار في جماعته، لشرف الإنسان وحبه للعدل وعاطفته الأخوية نحو بني جنسه، كل هذا يرجع إلى أنانية أي حب للظهور في الجماعة. وإلى هذا يرجع من تحرر من انسلابه وشيئيته والتوهيم المضلل له. وهذا مسخ أيضا، فيظهر أن فهم قيمة الإنسان كما تقدمها لنا الإيديولوجية فهم مبتور لأنه يكفر بالإنسان إذ يكفر بالله واليوم الآخر ويكفر بالإنسان كمخلوق مكرم وجد ليخلد عند الله في دار النعيم إن آمن وعمل صالحا. نمسخ الإنسان إن حصرناه في أنسيته أي في علاقاته مع أبناء جنسه، وما تتيحه هذه العلاقات من أعمال ترضي أنانيته وتعبيرات بطولية أو فنية في ميادين الثقافة والقيم الحضارية. ومادام الإنسان في دائرة الإنسية وحياة الأرض فقد بخس نفسه حقها وعمي عن الحق، فهو مسخ.

المؤمن بالله ورسله وغيبه، الذاكر غير الغافل، إنسان الفطرة كما عرفناه بالمعنى القرآني للفطرة، إنسان حر. فإن هبط عن هذا الموقف وكان في عقيدته دغل أو في عمله افتيات على شريعة

الله وسنة رسوله تعرض لوبال المسخ، القردي أو الخنزيزي أو العبودي. وإننا لنرى، زيادة على المسخ الكلي مسخ الكفر والردة، مسخ المقلدين المفتونين بالكفر الجاهلي، ونرى المسخ الخنزيري عند من اتبعوا الشهوات واستأثروا بالمال، ومسخ عبدة الطاغوت الذين يكتمون الحق ليرضوا الطاغوت، ولهؤلاء مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي سبق المروي عن أنس بن مالك: «**يكون في آخر الزمان ديدان القراء، فمن أدرك ذلك الزمان فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهم الأنتنون، الخ**». وديدان القراء هم علماء السوء، ويوضح لك البيان النبوي الذلة الدودية والنتانة والدب على الأرض دبا لزجا.

إنسان الفطرة نتاج للتربية والتطبيب، يزيل عنه إيمانه عوامل المسخ ويتغلب على أنانيته وشهواته، ليس له هوى إلا في ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو القائل: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**».

العناصر المؤمنة المتبعة للرسول المتحررة من شهوات النفس كانت على مدى تاريخ الإسلام أقلية في الأمة، لكنها كانت النواة الصلبة في جسم الجماعة. وعندما عنت الفتنة ثم ضربت بجرانها وكثر الخبث، غابت هذه العناصر عن مسرح التاريخ فلا تظهر إلا في هذا العالم العامل الذي وقف أمام الخليفة أوالسلطان الجائر فأدى حق الله في الزجر، أو هذا الواعظ الذي نصح الناس أو هذا الصالح الزاهد في

الناس الذي اعتزلهم وما يعبدون من دون الله.

و لا زالت العناصر المؤمنة الحية باقية في دار الإسلام مغلوبة على أمرها، فهي مع «الأغلبية الصامتة» أغلبية جماهير المسلمين سواء منهم من تعرف على الإسلام كرحمة ومعراج للكمال الإنساني أو من بقي الإسلام له عقيدة وقومية أضعفتها عوامل التعرية الجاهلية، كما يعبر الجغرافيون، قليلا أو كثيرا. وتطبيب الأفراد وتمريضهم وتربيتهم تربية إسلامية جديدة مجددة يزيد ولا شك عدد العناصر اليقظة، لكنه لا يكفي ليخرج الاسم من التكيات والزوايا والمساجد ويصبح واقعا منتصرا في دنيا الناس. لأن الإسلام الذي تقلص من كونه معراجا روحيا وتعبيرا في الحياة الواقعية عن طاعة الله في الصغير والكبير من الأعمال إلى كونه إسلاما فرديا عل مستوى ما من اليقظة إسلام أفراد لا إسلام جماعة. وفي هذا الإسلام الفردي وجدت الجراثيم الأجنبية عن الإسلام مجالا لتتوالد وتضرو، وكثرت الخرافات، وأصبح الغيب الذي أمرنا أن نؤمن به وجعل لقاؤنا به في تجليات المريدين كالدكتور عبد الحليم محمود أو في كشف الأولياء الكمل كالسيد الدباغ، جعل هذا اللقاء لكي نزداد يقينا ثم نرجع إلى العمل الذي يرفع قيمتنا، نرجع إلى مجاهدة النفس في الجماعة. أقول إن الغيب أصبح في الإسلام الفردي شيئا نجري وراءه، أي سرابا تضيع في طلبه الأعمار، ومن هنا كثر تجار السراب المشعوذون،

وحفلت المدن والقرى ببائعي الحجابات ومتصوفة المرقعات والحلقات، وسكت العلماء فلا تسمع إلا دبيب الديدان من القراء الذين باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم.

ولتقوم الأمة الإسلامية ويتم تجديدها لا بد مع التطبيب والتمريض والتربية الشاملة من تحرير إرادة الفرد حين تذهب عنه أنانيته لتوجه هذه الإرادات المتفوقة وجهة العمل الجماعي. وإن نجحنا في تحرير الإرادة بعد تحرير الضمير كملت لنا التعبئة التي ننشدها. وستكون تعبئة لا كالتعبئات التي أشرنا اليها من قبل عند ماوتسي تونغ أو ستالين، لأن تعبئة الشيوعيين تجنيد وإجبار بالتصفية الجسدية أي بالقمع المجرد الكامل، كقمع ستالين، أو بالتحميس والتربية الموجهة إلى الإنجاز البطولي الذي سيحققه الجنس الصيني قاهر الطغاة ومحرر الشعوب المتخلفة، كما تقول الشعارات الملوح بها.

أما التعبئة الإسلامية فهي جمع لجهود الإنسان الفطري، الإنسان الصادق، الإنسان الذي له ذمة وحرمة وكرامة تتجاوز حياته على الأرض، لتنصرف هذه الجهود، وهي جميع، إلى ابتغاء موعود الله وموعود رسوله.

التعبئة الإسلامية طاعة مطلوب بها المؤمن لله ورسوله وأولي الأمر، والطاعة لإنسان الفطرة هي كمال انضباطه، لأن من يقف

أمام الخالق الذي يعلم سره وعلانيته والذي خلقه ويتحكم في مصيره لا يملك إلا أن يطيع الله ورسوله وأولي الأمر من المؤمنين كما أمر، بلا مراوغة.

تحت حكم القوانين الوضعية يمكن للمؤمن أن يطيع حسب ما تضمنه له الطاعة من مصالح، لأن أولي الأمر لا يحكمون بما يحكم به من كان منا. لكن إن قام أولو الأمر برفع راية الإسلام أصبح المؤمن يرعى حق الله في الطاعات العملية التي بينه وبين أولي الأمر كما يرعى الطاعات العبادية التي بينه وبين الله.

ولتحقيق الطاعة لأولي الأمر شرعت البيعة. وأول ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب ممن آمن به أن يبايع، رجلا كان أو امرأة، على السمع والطاعة، وإذا بايع المؤمن، رجل الفطرة والذمة، التزم بالأمر والنهي ما لم تنتهك حرمات الله، وارتبط بالإرادة القيادية التي تعكس إرادة الجماعة عندما تكون الجماعة مكونة، أو تعكس ما سوف تكون عليه الإرادة الجماعية في مرحلة بناء الجماعة، مرحلة الانبعاث الإسلامي، مرحلة الحضانة والقيادة التربوية قبل أن تجتاز الأمة مهاوي الفتن ويكون أمرهم شورى بينهم.

على يد الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم القائم بأمر الله يمضي المؤمن بيعه نفسه وماله لله لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. فالرسول يمضي الصفقة بالمعنى الحرفي للكلمة، أي أنه

يصافح المؤمن إيذانا بأن البيع بين الله تعالى وعبده قد أمضي. فهي بيعة وبقيت الكلمة وتغير معناها عبر التاريخ الإسلامي. والبيعة الصوفية إحدى صور البيعة الأصلية، وهي ارتباط روحي محض، أما البيعة الجهادية منذ قام معاوية رحمه الله، فقد تحولت من عملية جماعية يتفق بمقتضاها المؤمنون والرجل الذي ارتضوه خليفة لنبيهم على شروط تدبير أمرهم، وأصبحت بيعة من جانب واحد أي التزاما من جانب الناس دون أن يلتزم الحاكم بشيء. ومعنى هذا هو الملك العضود الذي أخبر رسول صلى الله عليه وسلم بأنه يكون بعده.

البيعة للرسول بيعة وساطة بين الله وعباده، أما البيعة لرجل الحكم والإمامة، أو لنعكس الجملة لتكون أكثر دلالة على النظام الإسلامي وتصنيفه للقيم، أما البيعة للإمام الحاكم فما ينبغي أن تكون إلا مبايعة أي التزاما من جانبين. هكذا فهم الصحابة رضي الله عنهم البيعة للخليفة. وكانت فتنة البيعة أعظم فتنة في الإسلام بعد مقتل الإمام عثمان وخروج الناس على علي رضي الله عنه. وبويع يزيد بن معاوية والسيف على رقاب الناس. ومع ذهاب المعنى التشريعي للبيعة بدأت الأمة في تدهورها التاريخي نحو حاضرها المنهزم المر. وكل بيعة بعد يزيد إنما كانت مهزلة وجبرية وملكا عضودا وإن تعددت أسماء الدول.

والانبعاث الإسلامي، المنتظر، أي تعبئة الإرادات لتحقيق العمل

على الأرض فيما يرضي الله، لا يمكن إن لم تعد البيعة مبايعة أي التزاما من قائد ذي ذمة ومؤمنين ذوي ذمة على إقامة شرع الله. وهذا يقتضي بالطبع أن يتحرر القائد من أنانيته وأن يرفع عينيه عن متاع الدنيا ليمدهما إلى موعود الله ورسوله. ولا يكون انبعاثا إسلاميا وتجديدا للإسلام أن يجمع القائد بيعات ونيته لما تصفُ لله وهمته لا تزال في الدور والقصور.

إن الأمة تعيش أزمات مادية وروحية ونفسية، ومن أهم هذه الأزمات، بل أهمها في نظري، أزمة الثقة. ولن يبايع المسلمون مبايعة صادقة من لم يسترجع ثقتهم. ترى الذين يكدون لنيل ثقة الجماهير الشعبية، كما يعبرون، يعدون الوعود ويخطبون الخطب الحماسية، ويقيمون المهرجانات للاحتفال بإنشاء معماري، وربما يكون المهرجان وما يليه رزأ «الجماهير» في مالها وفوت عليها فرصة الاستماع إلى الخبر الرزين الهاديء الذي يصدق فيربي ولا يبرر. والمهرجانات تعظم بعظم الإخفاق الذي يراد منها أن تغطيه. وقد قرأت وصف المهرجان الجماهيري الذي حيي به الشعب هزيمة عبد الناصر.

ينال ثقة الأمة أحد رجلين، رجل خرج من الصف وبقي مع الصف، يأكل كما يأكل الناس، وينفق كما ينفقون، ونمثل برجلين معاصرين هما ماوتسي تونغ وهوشي منه. ورجل مترف

أراد الله به خيرا فوفقه لسيرة كسيرة مولانا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، أعاد الضياع إلى أهلها، وانتزع حتى حلي زوجته، واستكثر ثمن قميص بعشرين درهما وقد كان زمن ترفه لا يقنع بحلة مائتي دينار. وإنما ذكرنا رائدين شيوعيين لندرك سر التعبئة العجيبة التي تبهر أعيننا في الصين وفتنام، وإلا فأين نحن من سيدنا الإمام عمر بن الخطاب حين لبس المرقع وحرم عل نفسه السمن عام الرمادة لئلا يأكل إلا ما يأكل الناس! وأين نحن من مولانا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لبس المرقع وزجر من رآه يقلده وفسر له أنه إمام يتأسى به الناس فما ينبغي أن يلبس خيرا مما يلبس أدناهم!

والناس، جاهليين أو مسلمين، يأخذ بألبابهم تحري العدل ويعطون ثقتهم لمن يخاطبهم ويداه صفر وقلبه عامر.

سيرة عمر بن عبد العزيز سيرة الطريق الصعب، لكن سلوكها هو الوسيلة الوحيدة لاستعادة الثقة واستحقاق القيادة المجددة. ومن سلكها كان له أن ينتظر مبايعة يرضاها الله والرسول، وأن يتوقع نصر الله الذي يدافع عن الذين آمنوا.

عند سبعمائة مليون مسلم على وجه الأرض كفايات ومهارات وإيمان يتفاوت، وعندهم حماس قوي مصدره اعتزاز بقومية إسلامية وتاريخ إسلامي، ولكن كل ذلك مبعثر يتسرب في مظاهرات

أو مؤتمرات تعقبها خطابات وبلاغات، ولا يفعل المسلمون السبعمائة مليون عملا مجديا، لماذا؟ لأن الإرادات فردية ولأن ولاء من لهم ذمة من المؤمنين لا يتعدى الولاء لله ورسوله إلى الولاء لذوي الأمر، لأنهم يرون من تصرف أولي الأمر أن أولي الأمر ليسوا منهم. أولو الأمر يركبون الفخم والمسلمون لا يركبون، أولو الأمر يسكنون الشامخ من القصور والأمة المسكينة تسكن الكوخ، أولو الأمر يخونون بالبلايين أموالا جمعها المسلمون بقروش تترك ثغرات في كساء الأطفال وغذاء المرضى. أولو الأمر فكرهم ممسوخ وهواهم تبع لموضات المتع.

من يذهب بهذه الأمراض إن لم تكن مبايعة من ذوي ذمة لقائد ذي ذمة على سيرة عمر بن عبد العزيز، مبايعة تجمع الهمم وتحزم الجهود لتمحو الفقر والجهل والمرض والأثرة، لتمحو الترف وآثار الترف عن حياة الأمة المشتتة.

وفي أي بقعة من بلاد الإسلام تظهر الظاهرة الإسلامية ويلبس الوزير لباس العامل ويبذل جهدا حقيقيا بناء كما يبذل العامل المياوم الخائف على رزقه اليومي، في أي بقعة تظهر ظاهرة الانبعاث الإسلامي ويطمئن المسكين ويخاف الجائر، في تلك البقعة يبارك الله، وإليها يجلب الله قلوب المسلمين السبعمائة مليون ليكتشفوا

أن إسلامهم قوة لا ضعف وعزة لا خنوع.

وإني لأربأ بالقارئ أن يعتبر هذا ضربا من الخطابة، فإن وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم، وإن الله تعالى يرفع الملك الجبرية متى شاء لتجيئنا الخلافة على منهاج النبوة. ويجيء معها الخير للإنسانية المريضة المتعبة، وتمطر السماء وتنبت الأرض وتخرج فلذاتها، ليعم خير الإسلام في الغد القريب الذي نشرف عليه، كما عم في الأمس المشرق الذي بقي لدينا خبره أسوة وأملا. ومن حيث خرج ابن عبد العزيز يخرج إمام مجدد يطهره الله من هوى نفسه وثقل ما في يده ومن لوثات الفكر الجاهلي، ويحليه بالصفات القيادية ؛ القوة والأمانة، ثم يرد إليه ثقة الأمة ويهديها به سواء السبيل.

المبايعة على نصرة دين الله تقتضي بذل المبايعين أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، كما تصرح الآية: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾التوبة، 111. ولا يخرج المؤمن خروجا كاملا من الجاهلية إلا بهذه المبايعة، ولنسمها «المبايعة الجهادية»، ولنلح على صيغة المفاعلة الدالة على الاشتراك والتبادل. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[1] ويقول : «... **من فارق الجماعة شبرا فقد خلع الإسلام**

1 من حديث رواه مسلم عن ابن عمر.

من عنقه»[1]. والجماعة والبيعة اللتان عليهما عماد العمل الإسلامي ويمرق منهما المبايع والمبايع له بالسواء متى خاس أحد منهما بشروط الصفقة، وهي للجانبين معا بذل المال والنفس لله، على المبايع السمع والطاعة في المنشط والمكره على أن يكون له حق إبداء الرأي، وللمبايع له العدل. وجزاء الله للجماعة التي هذا وصفها أن يستخلفهم في الأرض ويمكن لهم ويعدهم بتوفيقه للعمل الصالح في الدنيا ولكرامته في الآخرة. وللإمام العادل المكانة الأولى في ظل الله إذ هو أول السبعة المبشرين في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله تعالى، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»**[2].

يخرج المؤمن من الجاهلية خروجا كاملا بالمبايعة الجهادية لأنه يرصد منذئذ ماله ونفسه لإعلاء كلمة الله، فهو في مرابطة دائمة ويقظة تامة، حر يطيع ويسمع، معبأ في المنشط والمكره. وهو إنسان غير الإنسان الذي نراه يسعى بيننا، إنه إنسان جديد،

---

1 رواه أبو داود وأحمد عن أبي ذر.

2 متفق عليه منحديث أبي هريرة.

إنسان حر كحرية ربعي وأصحاب ربعي، بايع عن طواعية عارفا شروط الصفقة وربحها، إنه المؤمن اليقظ الذي لم تمسخه أنانيات الذين حملوا على الناس السيف بيعة من جانب واحد بلا قيد ولا شرط.

ولسنا نقصد أن أجيال المسلمين الكثيرة الذين لم تتح لهم مبايعة جهادية، وإنما أعطوا بيعة لخلافة صورية أو سلطان مستبد عاشوا عيشة جاهلية. لا نقصد ذلك لأن المسلم إذا لم يجد إماما بالمعنى الكامل للإمامة ولم يجد جماعة فله أن يفر بدينه، من حديث طويل لسيدنا حذيفة بن اليمان يسأل فيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الفتن التي أنذر بها الرسول أصحابه قال حذيفة : «**فإن لم تكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**»[1].

هذه شروط التعبئة الإسلامية: رجل يهتدي من قادة المسلمين ويتطهر ويتزكى ويخرج إلى الناس ببرهان صدقه صفر اليدين إلا من حبل الله المتين، خالي القلب إلا من ذكر الله وانتظار موعوده، مصمما على بذل النفس والعدل والمال جهادا في سبيل الله، ثم تطبيب عام للإسلام الفردي حتى تتكون جماعة تربطها بالقيادة الجهاية مبايعة صادقة.

---

1 أخرجه مسلم.

والمؤمن المعبأ، أي إنسان الفطرة الذي دخل الجماعة، إنسان خرج من عاداته ومألوفه، وتيقظ لحركاته ونياته يوجهها الوجهة التي فيها خلاصه، فهو المؤمن السني المتبع للرسول صلى الله عليه وسلم، وهو إن آمن بالغيب واتقى، يهتدي بالقرآن ويستقى من معينه الخالد حياة وقوة. المؤمن السني إنسان منضبط يقظ، وهذا هو المعنى الكامل للمحمدية التي نتحدث عنها. يقظته بالتربية تعطيه البعد الروحي، وانضباطه بالمبايعة يوجهه إلى الجهاد على الأرض ليحقق شريعة الله.

ومن الناس من يرى أن السنية هي اتباع لحركات الرسول ووصاياه اتباعا أصم، أي بدون مشاركة الشعور والإرادة في الحركات والكيفيات والأقوال السنية. ولمن فهم السنية هذا الفهم أن يعتزل ساحة الجهاد وله بذلك أجره عند الله بنيته ومحبته لرسوله. والسنية الحق هي الاتباع اليقظ المنضبط، فيه تصبح كل حركة وكل كلمة عملا له قيمة حاسمة في التقدم على المعراج الذي يؤدي إلى الكمال[1].

والسنية بهذا المعنى وبما يسبق تحقيقها ويليه هي المحمدية، هي اتباع النموذج الكامل صلى الله عليه وسلم. محمدية اليقظة والانضباط، يواجهها عند الإنسان الميت الغافل عن الله مجموعة العادات والمألوفات.

1 اقرأ كتاب «الإسلام على مفترق الطرق» للسيد محمد أسد، خاصة الفصلين النفيسين الذين تحدث فيهما عن السنة.

المحمدية انفصال عن الجاهلية التي تربط بين أعضائها علاقات مصلحية للدخول في حيز الإسلام، إسلام الوجه لله، وفي حيز الفطرة، إقامة الوجه لله حنيفا.

ويصح لنا أن نتمم مفاهيمنا الإسلامية بإبراز المعارضة بين إنسان الفطرة وإنسان العادة. الأول يقف بين يدي الفاطر يتبع سبيل الله وينتظر موعود الله، والثاني يعيش لعاداته مخلدا إلى الأرض، همه رغد العيش وغايته انتهاب اللذة في الحياة القصيرة التي تتيحها له الفرص في اعتقاده، وتنتهي بالموت. هذا لا يمنع إنسان الفطرة أن تكون له في عالم المصالح الدنيوية مآرب، كما لا يمنع إنسان العادة أن تكون له في عالم الفطرة ظنون وتوقان إلى مثالية ترفعه عن دنيا العادات. والمؤمن إنسان الفطرة يقضي مآربه الدنيوية لكنه لا يغفل لحظة عن مغزاها وجزائها، ويتحرى فعل الرسول وقوله لئلا يزيغ به الهوى.

وكيفما عبرنا بعد الآن فإنما نقصد بعبارة إنسان الفطرة المؤمن اليقظ المنضبط السني[1] المحمدي، ونقصد بإنسان العادة الغافل الكافر أو الغافل غير المنضبط، ونترك في كل الحالات من اعتزل وفر بدينه عن ساحة الجهاد فما لنا عليه من سبيل.

---

1 لسنا نقصد بكلمة السني التفريق بين المذاهب. فالشيعي عندنا مؤمن إن أقام كتاب الله وسنة رسوله، ومحبته لآل البيت لا تزيده إلا إيمانا.

جماعة لا مجتمع

مازالت المجتمعات المتحضرة تولي اهتماما كبيرا لدراسة علاقات الأفراد بعضهم مع بعض، كيف تنشأ وكيف تتطور وكيف يمكن أن تتغير ليعيش الناس في مجتمع أكثر إسعادا لأهله. وكلما زاد ضغط الحضارة وثقلها بما تفرضه من علاقات جافة قوامها العقود القانونية والحقوق المتنازع عليها، زاد إحساس الناس بضرورة البحث عن مجتمع أفضل، يبذل الوجه القاتم، وجه المجتمعات المدنية التي يجهل فيها مكان الفرد ويسخر ويصير ويدفع للمضاربة والمقاتلة للإبقاء على حقوقه، بوجه إنساني يعود فيه الفرد إلى إنسانيته في جو التعاون الأخوي والبذل الذي لا ينتظر جزاء.

علم الاجتماع اليوم قبلة نظر المثقفين، وصيغته الأكثر حداثة، المذهب البنيوي، يحاول أن يطبق مناهج البحث العلمية على دراسة المجتمعات لعله يهتدي السبيل لصلات أوثق وأمتن بين الناس. ومنذ أحلام دوركهايم الفرنسي وطونيز «Tönnies» الألماني بإمكان وجود مجتمع ذي تركيب عضوي فيه التعاون وفيه العطف على الضعيف، وعلماء الاجتماع في جهد، لأنهم يرون المجتمع العقلاني «Société rationnelle» لا يزداد إلا تعقدا ولا يزداد الفرد فيه إلا عناء وشقاء، تزداد حاجاته بتقدم العلم والاختراع، وتزداد المنافسة على

الأرزاق ضراوة. فهو اليوم أبعد من أي وقت مضى عن تحقيق مجتمع عضوي متعاون. ويبقى الحلم حلما على ألسنة الساسة وتحت أقلام المفكرين، بل إن الحلم يزداد إغراء كلما ازداد امتناعا.

آفة المجتمع أنه صنع الناس للناس، قوانينه التي تحكمه، ونظامه الذي به يتعامل الأفراد، وأسسه في توزيع الأرزاق، وأفكاره ومثله، وأمانيه وغاياته. والإنسان يتسلط على الطبيعة ويتملك ناصيتها باطراد، ويظن أن بإمكانه أن يسيطر أيضا على نفسه، على الجماعة، ويوجهها إلى فعالية إنسية تسعد الإنسان مثلما فرض على الطبيعة فعالية وجدوى أكثر بفضل العقلنة «Rationnalité».

والذي يريده علماء الاجتماع هو الرجوع إلى مجتمع طبعي يذوق فيه الفرد حلاوة الصلات التي ترضي حاجته للمحبة والألفة، ولا تعزله انعزال الإنسان المتحضر اليوم، عبد الوقت والحاجات المتجددة المتكاثرة. وهم يعبرون عن هذا المجتمع المنشود باسم «جماعة» عوض اسم «مجتمع».

تتالى الفلاسفة بعد أفلاطون وكل يتصور مدينته الفاضلة، ولوح رجال الفكر والسياسة بشعارات الحق والحرية لمجتمع أفضل. ومهما تنوعت المذاهب وأغتنت الآراء فإن العقد الاجتماعي الوضعي الذي يعطي الإنسان الطمأنينة ويرتفع به في شموليته لا يزال حلما وشعارا على الورق. يقول الديمقراطيون إن الإنسان لا يسعد إلا

بالحرية، ويقول الاشتراكيون إن مجتمع الغد هو مجتمع العدل، مجتمع الشيوعية الذي يزيح كل التناقضات. وفي انتظار الحرية والعدل يعيش المجتمع الجاهلي في ظل القمع والضغط على الحريات والظلم الطبقي والعرقي. ويعيش المسلمون في فتنة التابع المستضعف، في العصبية الطبقية والعرقية، وتسمى قومية ليغطي الاسم بشاعة المسمى، وفي الظلم العارم الأناني. يعيشون في «مجتمع الكراهية» كما وصفه رجل من قومنا العرب عاش في لظى الكراهة وظلم الأنانيات والذلة[1].

المدنية ما زادت الإنسان إلا إمعانا في أنانيته وبدائيته. والمدن الكبرى اليوم في بلاد الغرب والشرق معا غابات تنتشر فيها الوحوش الكاسرة، إجرام وسطو على الأبرياء. وكان ذلك خاصا بمجتمع الحريات، أما اليوم فالعدوى تسري بل سرت إلى مجتمع العدل السوفيتي أيضا. ولكي يحد أصحاب الحضارات من انسلاخ الإنسان عن إنسانيته، يلجأون إلى الثقافة يظنون أن الإنسان المثقف أميل للهدوء والتعاون. وعند المدرسة الألمانية لعلم الاجتماع تتعارض الحضارة مع الثقافة بوصف الأولى نشاط الإنسان المتجه إلى الطبيعة وبوصف الثانية نشاطا للإنسان في تحسين علاقاته بالآخرين. فإذا نظرت إلى محتوى ثقافة المتحضرين، وجدت محتوى على مستوى

---

1 انظر كتاب «مجتمع الكراهية» لسعد جمعة، وهو وزير أول سابق، نفث في كتابه نفثة مصدور بانفعال شديد وكلمات مقاتلة.

التفكير والتعبير يحاكي ما تتضمنه الحضارة من عنف وتنافر وخيانات وأنانيات على مستوى الواقع اليومي. وسائل التعبير الثقافي تعكس على مرآة الكاتب والفنان الشاعر والممثل صورة مجتمع الانحلال الغربي في بلاد «الحريات» وتعكس في «مجتمع العدل» ضغطا إيديولوجيا ذا إيقاع رتيب مما يوحي به الحاكم خطة العمل ويوهم به المحكوم أنه في جنات ونعيم يخدعه عن نفسه.

الذين ينشدون جماعة لتحل محل المجتمع إنما يتعلقون بمحال، فلكي يرقى الإنسان عن مستوى المنازعة الأنانية في طلب حقه إلى مستوى البذل والتضحية في سبيل الجماعة يجب أن يوجد لديه حافز أقوى من الحوافز التي يقترحها الفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة. ويجب أن يكون عمله منضبطا بوازع أسمى من وازع السلطة والعقاب. وهذا هو الفرق الجوهري بين روح الجماعة وروح المجتمع. فالمجتمع تجمع مدني قائم على الحق والمطالبة بالحق، والجماعة بناء عضوي قائم على التساند والتضحية. والحوافز في مجتمع الرأسمالية حوافز مادية محضة والوازع فيها وازع ردع محض، فهو مجتمع حياته بين البنك والمحكمة. أما في مجتمع الاشتراكيات فالحافز في أول الأمر حماس ينفخه في الشعب قواد الثورة ومؤسسوها: «لكي نبني مجتمعا عالميا اشتراكيا متحررا»، ثم يمضي الوقت فيصبح الشعار: «لكي نبني وطننا القومي». ويخبو الحماس وشيكا فلا يريد الإنسان

في دنيا الاشتراكيات أن يتحرك إلا لشعار واحد : «لكي أنال أجرا أعلى وكسوة أفضل وقوتا أوفر». وتتعب الإيديولوجيات لأنها تصر على أن يعمل مجتمع العدل الموعود بحافز غير مادي أي بحافز الجماعة لا بحافز المجتمع. لكن ذلك لا يكون ولا يعوضه وازع الردع ولا السجون ولا حتى التصفية الجسدية. وسائل استالين الجبار وخروشف الماكر عن تخلف بلدهما في ميدان الزراعة حيث تصعب المراقبة لتطبيق الوازع في غياب الحافز.

يعترفون جميعا بأنك لا تغير أي مجتمع حتى تغير الإنسان، وإلى تغيير الإنسان يعمدون أول ما يعمدون، يغسلون دماغه ثم يمذهبونه ويحشون ضميره بالشعارات، حتى إذا تمت العملية وحذق الضحية في المذهب ووثق بالوعد، اعتبر متحررا. لكن سرعان ما يصبح وعيه الثوري سلما للصعود في سلم المنظمات الثورية حيث ينال أجرا أعلى ورزقا أوفر، ويعود لأنانيته بوعي ومهارة بعد أن كان يمارسها بسذاجة.

إن الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه شرع لنا خطة للحياة الجماعية، خطة متسامية لكنها واقعية، والتعبير بواقعية ضعيف، كان يجب أن نقول مطابقة للحقيقة التي يحملها الإنسان لا تنفك عنه. الجماعة المسلمة جماعة مؤمنين، لكنها ليست جماعة ملائكة مطمئنين. كل ابن آدم خطاء كما قال الرسول الكريم،

لذلك شرع للجماعة حافز كما شرع لها رادع، وبينهما حدود الله، حد العمل على إحراز رضاه، وحد الوقوف عند النهي، ومن تعدى حدود الله فقد ظلم نفسه وحق عليه الحد.

الجماعة الإسلامية ليست جماعة تلقائية منطلقة وفق عواطفها، بل تنظمها الشريعة كما عاشها الرسول وأصحابه. وللعاطفة فيها مكان الحافز الأول. إنها جماعة الرحمة والألفة. ما بين أفرادها روابط وليست علاقات، لأنهم مرتبطون بالمودة والمحبة والتعاون التي تضمن لهم رضى الله، فإن الله لا يعتبر من الأعمال إلا الصالحات، والأعمال الصالحة هي التي تصلح فيها الجماعة.

وصف الله الجماعة المسلمة في قوله: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ الفتح، 29. الرحمة أبرز خصائص الجماعة وهم كالزرع طلع ثم استغلظ ثم استوى على سوقه يعجب الزراع، قوة وخير وانسجام.

الجماعة بناء عضوي كما وصفه الرسول صلى الله عليه وسلم : «**مثل المؤمنين في توادهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» وقوله: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا**».

وفي حواشي الجماعة المؤمنة من ليس له إيمان ولا همة، وهذا يواجه بالردع الشديد، بالحد الشرعي، وفي الحدود الشرعية الإسلامية عدل عليه أقام الفاطر العليم نظام الكون والحياة، فالقصاص لنا حياة، لأنه تشذيب من شعت الجماعة لكيلا يتفشى فيها الظلم والطاغوت. وإنسان الحضارة يتغذى بثقافة مائعة تكون لديه حساسية مرضية يسميها إنسانية، لذلك نراه يقاوم الإجرام العاتي المنتشر بإعطاء حريات أكثر للمجرم وبحذف عقوبة الإعدام. أرحم الراحمين بخلقه يقول : ﴿**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ المائدة، 33.

قسوة هذه؟ لا بل رحمة للجماعة، وربنا أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، ويعلم الذين يقارنون الاحصاآت أن البلاد الإسلامية التي لا تزال تطبق الحدود الشرعية أقل بلاد العالم نسبة إجرام. وهذا لا يعني طبعا أن في دار الإسلام اليوم جماعة إسلامية مستقلة بالمعنى الكامل.

يقول الإمام عثمان : «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» فالناس بين مؤمن تقي يخاف الله، وبين غليظ القلب لا يردعه إلا

عقاب السلطان. وإنسان الفطرة ذو الهمة المتحرر من أنانيته يكون العنصر الوحيد في الجماعة وإلا لما لزم وازع السلطان، فمن يفعل وينفعل يتم له نوره ويبلغ كماله لا يكاد يحتاج لرقابة. أقول لا يكاد لأن العصمة للأنبياء وحدهم، وغليظ القلب قليل الإيمان التابع للجماعة يعيش في حواشيها يقاد ولا يقود ويضبط ولا ينضبط.

عبر تاريخ الإسلام تكونت جماعات إسلامية تشبه من قريب أو بعيد الجماعة العضوية الموصوفة في القرآن والحديث، يؤثر في درجة صفائها عدل الحاكم وتربية المؤمن الحر ذي الهمة والذمة، وضراوة الفتنة المحيطة أو مؤاتاة الظروف. وإن اعتبرت التسلسل التاريخي، أو قل التدهور التاريخي ابتداء من الجماعة الأولى، تبين لك أن الجماعة سرعان ما تحولت إلى مجتمع، وإن كان مجتمعا إسلاميا. وتقلصت معاني الرحمة والمؤازرة والمحبة فلم تبق آصرة تضم الجماعة كلها، وإنما كانت تظهر هذه المعاني من طائفة دون طائفة وبين رجال دون آخرين. وكانت الرباطات الجهادية مواطن صالحة لتحيي عند المجاهدين روح الجماعة بفضل الحافز الجهادي ودواعي التناصر والتعاون في وجه العدو، وكانت جماعات الصوفية محدودة تكون جزرا صغيرة في خضم المجتمع الإسلامي جهادها في نفسها ويفيض خيرها من حواليها حسب الوقت

والإمكان. وأعني الصوفية الصادقين لا محترفي المرقعات والسبح. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ الأنفال، 53، وتغيير مجتمعنا الحاضر، المجتمع المفتون غير الإسلامي لأنه لا يقيم شريعة الله، يتوقف على نجاح الدعوة الصادقة في تربية الفرد وتحريره وخلقه إنسانا جديدا. وأذكر بأن ما نقصده بالحرية ليس حرية الهوى، حرية كل واحد ليمارس نشاطه وفق مصالحه، بل نقصد حرية الإنسان من أنانيته التي تحبسه عن بلوغ كماله الروحي، حريته من هواه وانضباطه تحت راية القرآن، يدخل في الجماعة لأن العمل في الجماعة هو وحده طريق الخلاص.

إن نجحت التربية في تغيير نفس الإنسان، ووجدت القيادة الجهادية ومعها برهان صادق، فالمبايعة هي ميلاد الفرد في الجماعة.

كنا تعرضنا للمبايعة وقلنا إن من يبايع ومن يبايع له لا بد أن يكون ذا ذمة، ولم نقل ما هي علامات الذمة وما هي قابلية الثقة: وبرجوعنا للقرآن الكريم نجد. يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ**﴾ الأنفال، 72.

تعرض علينا الآيات الكريمة وجوه الاستحقاق للدخول في

جماعة المؤمنين، بل شروط هذا الاستحقاق الملخصة في الهجرة. لكي يرتبط المرء بولاية المؤمنين، أي برباط المودة والرحمة التي تميز الجماعة، لابد أن يكون هاجر إلى الله ورسوله، فإن آمن ولم يهاجر فما لنا من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا. وتفصيل هذه الهجرة جهاد في سبيل الله كما جاهد المهاجرون الأولون، تركوا في مكة المال والولد وقاتلوا وقتلوا، ويضاهي ذلك إيواء المؤمنين ونصرتهم. فهذا تصنيف نموذجه الحي في تاريخ المهاجرين الأولين والأنصار، وهو جار إلى يوم القيامة. ومن هنا نكتشف أن ذا الذمة والثقة، المؤمن المستحق للمبايعة هو الذي هاجر إلى الله ورسوله. باصطلاحنا هو الإنسان الذي خرج من العادة وتحول إنسان فطرة بالمعنى القرآني. ترك مألوفاته، ما حرم الله منها وما أباح مما ليس ضروريا ولا حيويا، وانضبط بالمبايعة مع الذين يجاهدون بالمال والنفس في سبيل الله.

وإن أردنا بيانا لصفات المهاجر إلى الله عضو الجماعة يزيدنا فهما، ففي كلام عمر بن الخطب ما يجيب عن سؤالنا. يقول الإمام وهو يحلف على أيمان ثلاث : «والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب، إلا عبدا مملوكا. ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فالرجل وبلاؤه

في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته. والله لو بقيت لهم لأوتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[1].

أفي الإسلام بقية؟ سؤال يلح علينا في عصر الصراع الطبقي. هذا عمر يصنف المسلمين حسب منازلهم من كتاب الله وقسمهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم. لا تراعوا يا من أكلت عقولهم الإيديوولجيات، فإن في الإسلام تفضيلا ودرجات، ورجلا خيرا من رجل وامرأة أفضل من امرأة، وأصنافا عزيزة وأخرى رذيلة. الطبقية عصبية مطبقة مغلقة، والدرجات التي بها يتفاضل المسلمون مراق في معراج الإيمان والإحسان والعمل الصالح، وهي مجال مفتوح للمناقشة يتقدم فيه كل من نهضت به همته، ويدعو الله عباده ليتنافسوا للسبق ورقي الدرجات. الصراع الطبقي المعاصر يريد أن يزيل التفاضل في الأرزاق ولاينجح في ذلك إلا قليلا. أما الإسلام فيرقى بالإنسان، كل الإنسان، نحو الكمال. الطبقات تفاوت على مستوى العادة أي على إنسية مغلقة على نفسها، وتفاوت الإيمان يكون على مستوى الفطرة مستوى رباط المؤمن بربه. ويفضل الله من جاهد على قدر جهاده. قال تعالى: ﴿**وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً**﴾ النساء، 95.

1 رواه أحمد عن أنس بن مالك.

وتبرز في جماعة المسلمين نخبة هي النواة الصلبة للجماعة وهي صاحبة المبادرة في الخير. وبين أفرادها، مؤمنين ومؤمنات، يسود رباط الولاية والرحمة، ولا يكون نخبة إلا من هاجر وآوى ونصر. والهجرة صدق، وإيواء الإسلام ونصرته صدق، فأساس كيان النخبة المؤمنة أساس صدق. فإذا نزلنا إلى مستوى العادة في مجتمعات الكفار والغافلين والمفتونين، سواء الذين يزعمون إنشاء مجتمع لا طبقي، أو الذين يريدون أن تتاح للفرد فرص تحقيق إمكانياته في النجاح، إذا هبطنا إلى هذا المستوى فأمامنا نخبة هي التي تسير البلد أو تستغله أو تمارس سلطة القمع فيه، فعند الديمقراطيات نخبة وللاشتراكيات نخبة يجمعها أنها تقنوقراطيات تمتاز بالعلم وسعة الحيلة. وسعة الحيلة أول مفاتيح الأجواء العليا، أجواء النخبة الراتعة في بحبوحة العيش. فحيث يرقى المؤمن درجات عند الله وعند الناس بالصدق في بذل المال والنفس والصدق في الهجرة والصدق في البلاء[1] والرسوخ في العقيدة، يتمايز الناس في المجتمع الجاهلي بالدراية مبدئيا لكن المفتاح هو سعة الحيلة، المال الذي يسخر[2] الانتخابات حيث تكون انتخابات، والغلو الإيديولوجي أو الإستاخانوفي حيث تسود الإيديولوجيات.

النخبة المؤمنة تمتاز بالسكينة حين يضطرب الناس، ويأخذ الله

1 أبلى بلاء حسنا، بمعنى جاهد جهادا كبيرا.

2 نستعمل كلمة التسخير إزاء الكلمة الغربية «Manipulation».

تعالى بمقاليد أمرها إذا صح منها العزم على الجهاد فيثبتها على النية والعمل المغانم والفتح، وميقات كل هذا ومستوفاه وقت البيعة، وبالنسبة لنا المبايعة، الصادقة المصممة. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا**﴾ الفتح، 18-19.

النخبة المؤمنة حاملة للأعباء، وسائر الأمة إما حامل نفسه وإما محمول. ولا تنتظر النخبة جزاء ماديا على حملها الأمانة، فهي عند التوزيع تأخذ رزقها كما يأخذ الراعي بجبل صنعاء كما بيَّن الفاروق عمر رضي الله عنه.

التعبير القرآني يستعمل كلمة أمة بينما نجد السنة تأمر الجماعة. وليست للكلمتين إلا مدلول واحد. الجماعة في نفسها باعتبار ما يربط أعضاءها من روابط الأخوة والتعاون وما يجمعهم من جهاد لإعلاء كلمة الله، والأمة بمقارنة الجماعة مع من هم خارجها. الجماعة تعطي معنى الحركية الداخلية بين المؤمنين والمؤمنات، وهي هي أمة تخالف الأمم وتتميز عنها.

وإذا ذكرت الأمة الإسلامية بالنظر إليها كيانا متميزا عن أمة أخرى، ففي ضمن الأمة الإسلامية من لا يستحقون ولاية المؤمنين والمؤمنات لأنهم لم يهاجروا إلى الله ورسوله ولم ينصروا ولم ترسخ أقدامهم ولم يبلوا ولم يجاهدوا. ويصف القرآن الأمة على عهد

الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا فيها أصناف من الناس لم يبلغوا درجة الإيمان بل لم يرسخوا على إسلامهم. ومع ذلك فهم من الأمة[1]. ومعنى هذا أن النخبة المركزية القوية بإيمانها وتضحيتها المخاطبة في القرآن ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ المكلفة بحمل الرسالة وتبليغها، وبذل المال والنفس في سبيل الله، هذه النخبة لا يمكن طبعا ولا شرعا أن تتسع فتشمل كل الأمة. ولسماحة الإسلام ولينه ولمعرفة الله تعالى بخلقه وما هم مجبولون عليه من الضعف أمام الهوى والشيطان، يقبل في حضن الأمة كل من أدى الشهادة وأعلن ولاءه لله وللرسول. ومرده إن لم يف بما أعلن عنه الحد والزجر، إذ نقص عن مرتبة الإيمان.

لجملة الناس حافز هو السير مع الجماعة القوية المنتصرة، وللمؤمن حافز الرجاء رجاء دخول الجنة ونيل الرضوان، وللمحسنين رجال التضحية حافز الحياء من الله المنعم المتفضل ألا يفوا له بحق الشكر، والحياء من الناس ألا يؤدوا فيهم حق الله. وكل هؤلاء أمة، لكن الجماعة، صاحبة المبادرة والقيادة، تخص من لهم الولاية من المؤمنين والمؤمنات.

وقد تصبح الجماعة المؤمنة غريبة بين الأمة فتصبح بذلك أمة

1 اقرأ سورة التوبة وهي من آخر ما نزل من الوحي في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة.

وسط أمة، مجموعة تمتاز عن سائر الناس بتمسكها بالحق. إن الله تعالى رضي بالأمة التي أنشأها الرسول ومدحها حيث قال: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ آل عمران، 110، وفي آية أخرى خاطب الأمة على مدى الدهر وأمرها لتتكون من بينها أمة، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ آل عمران، 104. هكذا يريد الله للأمة أن تتجدد وأن يكون منها جماعة قيادية لا تزال تدعو إلى الخير وتقف على حدود الله لتحترم. هذه إشارة إلى حركية متجددة ودعوة دائمة.

ولنا في هذه الآية الكريمة منهاج لنشأة الجماعة حيث لا جماعة. منهاج لنشأة الجماعة في زمان الفتنة الذي نعيشه والذي انحللنا فيه فأصبحنا لا نكون أمة إلا باعتبار خصائص على مستوى العادة يدعونها أصالة قومية أو ثقافة ملونة أو قل فلكلورا، ويدعونها تخلفا أو عالما ثالثا، فنحن أمة بما عرفنا به غيرنا لا بما هو أساسنا العقدي والعملي الجهادي الذي يرشحنا لقيادة الإنسانية نحو التحرر والكمال. نحن مأمورون أن تكون منا أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، هكذا بالتدريج: دعوة إلى الخير بالحكمة والموعظة الحسنة ثم أمر بالمعروف إذا قويت الدعوة وظهر فضلها وعملها، ثم نهي عن المنكر إذا فشت الدعوة وتبلورت في جماعة متماسكة فاعلة وسط الأمة.

وإذا أتاح الله الدعوة الصادقة والقيادة الجهادية معها برهان صدقت وتمت المبايعة، فالمنهاج أمامنا واضح؛ ندعو إلى الخير قبل كل شيء. ويقتضي ذلك أن نكون رجال خير، أن تكون فينا استقامة وأن يكون لنا نور. ثم نأمر بالمعروف، ويجب أن نعرف المعروف حتى نأمر به. ثم ننهى عن المنكر ويجب أن نعرف المنكر وننتهي عنه قبل أن ننهى.

تبتدئ الدعوة غريبة، دعوة أمة وسط أمة، فإن وفقها الله وتكونت الجماعة وأخذت الزمام آل الأمر إلى كيان أمة إسلامية، على غرار الأمة الأولى، فيها أبو بكر وعمر، وفيها المؤمنون المجاهدون، وفيها المنافقون والمخلفون كما وصف القرآن. الإسلام لا يحقق ولا يقترح المدينة الفاشلة. لأن الله يعلم من خلقه أنهم سيختلفون وفق مراده، فيكون العاصي والطائع والصادق والمنافق. وليس لديمومة الجهاد في سبيل الله وتجدده إلى يوم القيامة مبرر لو أمكن أن يهتدي الناس جميعا.

جهاد مستمر للجماعة وسط الأمة، جهاد الحاملين للرسالة وسط المحمولين اللائذين الداخلين فيما دخل فيه الناس. وهذا الجهاد يرجع إلى خصال ثلاث هي البذل والعلم والعمل.

البذل لا تعرفه المجتمعات المتحضرة، وإن كانت تعطي المال وتتبرع وتؤسس المؤسسات الإحسانية. إنها تعطي على وجه الناس

وطلبا للحظوة الاجتماعية، ولا عبرة بالأفراد القلائل الذين يعطون بدافع أعلى من هذا. أما الإسلام فيريد من الذي باع نفسه وماله أن ينفذ الصفقة كلما حلت، حق الله عنده بمقتضى رضاه بالبيعة، فهو يعطي مال الله لله. وسبيل الله في الإنفاق العطاء للمعوز والمحتاج عرضا، والعطاء للأمة أساسا. بذل المؤمن معناه تعبئة ماله لإقامة الأمة وتقويتها. وبذل النفس أهونه بذل الساعد والعرق والجهد، ويبلغ إلى بذل الدم عند الحاجة.

أما الخصلة الثانية من خصال الجهاد في الجماعة فهو العلم. علم ما يذر وما يأتي لخلاص نفسه من غضب الله ولخلاص أمته من الوهن والضعف. وعلى هذا الأساس يكون العلماء بما أحل الله وحرم وبما شرع من الدين هو العلم أولا وأساسا. وسائر العلوم الدنيوية، علوم الحكمة كما كان يقول سلفنا، تبع للعلم المنجي المخلص. ولا جدال في أن علماءنا العاملين المتقين هم القادة لبعث إسلامي، وقد آن أن نتحرر من ترهات أعدائنا الذين علمونا أن ننظر بازدراء لمن سموهم علماء الدين وليس لهم اسم إلا اسم العلماء لأن العلم كتاب الله وسنة رسوله، ما لم يكونوا من ديدان القراء علماء السوء. فأولئك مسخ يتحمل وزر الذين نفروا من الإسلام لما شاهدوا الانحطاط الدودي. علماء الدين يملكون أن يحرروا الإنسان بما يدلونه على قيمته وخلود روحه، وبما يمثلونه أمام عينيه من إحسان

وتضحية وطهارة. ويبقى بعد ذلك علم الدنيا علم التكنولوجيا، وما أفخم الاسم في أفواه المتخلفين التائقين إلى الحرية المبتورة حرية الاقتصاد، لكن ما أهون كسب التكنولوجيا لأمة غيرت الإنسان وحولته، فضاعفت قدرته الفكرية والعملية كما يستطيع الإسلام أن يفعل.

والخصلة الثالثة في جهاد الجماعة هي العمل. يقول المحللون الاجتماعيون المهتمون بالإنسان المتخلف، ونحن لا ريب متخلفون في ميدان العمل، لكننا لا نحب أن نوصف بالتخلف لأن التخلف المادي جزء يسير من وبائنا ومسخنا، والقمة التي خلق الله المؤمن لتسنمها في الأرض والسماء هي خلافة الله في الأرض ومقعد الصدق عنده بين يديه أبد الآبدين. يقول المحللون إن الإنسان المتخلف لا يعمل ولا ينتج ولا يبذل. وكل ذلك حق وهو ينطبق علينا أمة العصبيات والقوميات المنحطة عن درجة إسلامها. والمشكل عندنا هو «علم المنهاج» الذي يحرر المسلمين الجغرافيين إلى أمة مسلمة تحركها جماعة إسلامية نحو العمل. والمشكل عندنا هو نوع العمل وأسبقيات العمل التي أمامنا.

الحق والواجب، المطالبة والتضحية، البذل والتعاوض السوقي بالحساب البارد الشحيح، تتعارض هذه المعاني كما تتعارض الجماعة

مع المجتمع، وكما يتعارض المؤمن إنسان الفطرة الذي مستقبله عند الله وإنسان العادة الذي يرى مستقبله محدودا في الأرض. هذا حقي أطالب به! هكذا يفكر إنسان العادة ولهذا يعمل، ويعمل المؤمن الذي وقاه الله شح نفسه للواجب يبذل ويضحي ويجاهد.

وللباحثين الاجتماعيين، ومنهم من أبناء جلدتنا، أن يقترحوا علينا حلولا على مستوى الناس، لأنهم لا يميزون بين الدرجات. وما دمنا مجتمعا، ومجتمعا منحلا متخلفا، فسيجري علينا ما يجري على الناس، وسنستجيب لنفس الرغبات والحاجات التي استجابوا لها. سبيلنا في حرصنا على الإسراع لنخرج من التخلف الانقلابية ودوامتها التي لا ترحم. وموئلنا إلى ما آل إليه المسلمون في تركيا بعد انقلاب أتاتورك البطل الزعيم بأكثر من خمسين سنة، تخلف مادي مزمن مستعص، والفتنة على أشدها، ينزع المفتونون المرتدون إلى مزيد من الكفر والتفرنج وتمتنع الأمة ولا تجيب. ولن ينبت في بلاد الإسلام كفر وإن كان انقلابيا عنيفا.

ماذا نعمل، وكيف نعمل ؟ أظن أن الأولى أن نسأل: من يعمل ؟ وجواب هذا السؤال العملي هو البحث عن الجماعة وروح الجماعة التي شيعناها. فإن استعدنا الجماعة وعملنا بروح الجماعة فإن أول عملنا ولا شك تحديد مبادئنا وأهدافنا كأمة تريد أن تخرج للناس كما خرجت الجماعة الأولى تحمل الرسالة وتحرر البشر.

السمت الإسلامي

يتناول الفكر الفلسفي والفكر السياسي وفلسفة التاريخ الإنسان من وجوه مختلفة، وتضع كل هذه الفلسفات الإنسان في خط تطوري أرضي بحث. والمسلمون فقدوا فكرهم وتاريخهم معاً فلا يستطيعون إلا المحاكاة للعقل المنتصر الجبار، العقل العقلاني المخترع الذي يفسر كل ما على الأرض، ويفسر الإنسان ووجوده وتاريخه. وفي بحثنا عن الذاتية الإسلامية تسلك بنا النظرة الفطرية مسالك العقل العقلاني لكنها لا تنتهي إلى ما انتهى إليه لأنها تسترشد بالكتاب والسنة فلها فيهما هاد وعاصم.

على محور الفكر السياسي يبرز للنظرة الفطرية واقع الجاهلية في أخص صفاتها، وهي الجهل بالخالق ودينه وقوانينه والجهل بقيمة الإنسان، والحكم بغير ما أنزل الله. وعلى محور فلسفة التاريخ تبرز لنا صفة ثانية للواقع الجاهلي، وهي الجهل المناقض للحلم، أي هذا العنف الذي تتعاور الناس أمواجه، وتطوينا في فتنة تنقض، منظمة أو غير منظمة، من كل ركن وجانب. وعلى محور الفكر الفلسفي نجد الميزة الثالثة للجاهلية، وهي ميزة وجود الإنسان وتاريخ الإنسان وتطور الإنسان. فحيثما ولى المؤمن

وجهه لا يقع نظره إلا على معالم الجاهلية الشاملة المستوفزة لغزو الأرض كلها وحكمها، والمسلمون الاسميون أو الجغرافيون أو الفرديون ضحية الجاهلية المحيطة، فهم في فتنة ومعاشهم رهن بمزاحمتهم في سوق الجاهلية التكاثري.

المستقبل للإسلام، هذه مقولة قد يردها على قائلها من لايعرف الإسلام ولا الجاهلية ومن لا يرجو موعود الله ورسوله. والإسلام هو الوجه النير للحياة يتعارض والظلمة الجاهلية. هو الحرية والجاهلية مسخ وتردّ. والإنبعاث الإسلامي المنتظر إعادة لجو النورانية الإسلامية والحرية الإسلامية والذاتية على مسرح الواقع اليومي. وقد رأينا أن حركية المسلمين حين يعودون إلى الحياة حركية جماعة لا تركيب مجتمع، ورأينا شروط الانبعاث والتطبيب والتمريض اللازمين لتحرير الإنسان وإرجاعه للفطرة مخلوقا مكرما صائرا إلى دار الكرامة من دار الجهاد والعمل.

وبقي أن نتعلم كيف تحكم الأمة، وكيف تخرج أقواتها من الأرض وأي أسلوب يكون أسلوبها في العمل وهي في محيط جاهلي مستعد لكره الحركة الإسلامية وعرقلة سبيلها. وبعبارة أوضح: ما هي السياسة وما هو أسلوب العمل وما يكون اقتصاد الأمة المنبعثة ؟

إننا إذ نجتهد للعودة إلى الذاتية الإسلامية لا نفعل ذلك لنرجع

لأصالة فقدناها أو نمط ألفه أجدادنا. وإنما الإسلام نور والنور يتعارض بطبعه مع الظلمة. وذاتية الإسلام ذابت في ظلام الجاهلية لما فقدنا نور الإيمان. فمتى رجعنا لإيماننا، أو نعبر عما يعبر الصحابي عبد الله بن عمر، متى أوتينا الإيمان، ظهر في دنيا الجاهلية سمت لا يعهدونه، نورانية لا يعهدونها، لنقل وضوح وشفافية يطلبها الفلاسفة والساسة الجاهليون فيصيبهم الجهد في تصورها، ويمتنع عليهم تحقيق جزء منها في مجتمعاتهم الكثيفة المظلمة.

نورانية الإسلام، السمة السائدة في كيانه الذاتي، نتيجة استنارة القلوب المؤمنة، قلوب الجماعة المجاهدة المرتقبة لرضى ربها وموعوده. والاستنارة تأتي لمن اقتبس نورا من نور النبوة، وللنبوة خصائص يشترك المؤمنون مع الأنبياء في التحلي ببعضها. يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**السمت الحسن والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءا من النبوة**»[1].

والأمة المسلمة المتحررة تهتدي بالنور الذي أنزل إليها، فلها سمْت، وفي عملها تؤدة، ولها قصد لا تزيغ عنه. السمت الحسن يميزها عن الاضطراب الجاهلي، والتؤدة أسلوبها في معالجة الفتنة، والاقتصاد ملاك حياتها المادية. وبعبارة أخرى فإن تميز الأمة في نشأتها المنتظرة عن المحيط الجاهلي يظهر في سَمْتها السياسي وتؤدتها

1 رواه الترمذي عن ابن عباس.

إزاء العنف السائد بين الناس واقتصادها بين من ألهاهم التكاثر.

اتخذ لفظ «السياسة» محتوى جاهليا يبعد به عن المعنى الأصلي للكلمة العربية. الكلمة تدل على الرفق في المعاملة والحيلة للصلح والمصالحة بين الدوافع المصلحية المختلفة. وأصبح في الإصطلاح تعبيرا عن التشريع الوضعي الذي يتوج جهود من توصل لمنصات الحكم بوسائل التسخير والتهويش والانتهاز، وبهذا المعنى فالإسلام الرحمة، الإسلام النور، لا تكون له سياسة. وإنما يكون له عمل إسلامي له سمت، أي عزة ونزاهة وحسن.

وإن استعملنا عبارة السياسة الإسلامية فإنما نفعل لنتفاهم، وعلينا ألا ننسى السمت الإسلامي البريء من هذه العلائق والمساعي التوصلية التي يسمونها سياسة.

مناط العمل السياسي، أي موطن الإرادة المجتمعية، هي هذا الكيان القليل الوضوح الذي يسمى «الدولة». والدولة هي القهر الذي لا وجه له، رمزه بارز في شخص رئيس الدولة، لكن وسائله للتأثير في المجتمع تتستر وتتخذ في عين المحكوم، أسفل السلم الاجتماعي، صورة عدائية مهاجمة تدافع وتقاوم وترفض ويعترض عليها. فلا تعطي السياسة، اشتراكية مستبدة كانت أو ديموقراطية، الشفافية للعلاقات بين المجتمع وحكامه. ظلام إذن ولا نور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. وبيروقراطية ستالينية أو

بيروقراطية لبرالية عبارتان عن القهر المتعدد الثكنات، السائر وفق عقلنة عاتية نحو التكاثر والتنافس والعنف يطحن طحنا. والإسلام أصبحت له دولة منذ بدأ في تدهوره. كانت الخلافة واقعا إسلاميا، واقع مسؤولية وعدل، فلما تدهورت الجماعة الإسلامية ظهرت دول منها الدول الخليفية، ومنها السلطانية. وجاء مع الدول الأبهة السلطانية واللامسؤلية يدعم كل ذلك عصبيات قبلية أو مذهبية كما وصف العلامة عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله. وتدول الدول إذا ذهبت عصبيتها وتجيء دول. ويظهر أحيانا في تاريخ الإسلام وجه يذكر بالعهد الأول، فيحارب الجاهلية المتمركزة ويحيي للأمة ما استطاع من قيمها، ويبدو الأمر كأن الخلافة الحقة ظهرت مجددة موطدة، لكن الملحمة تسفر عن قيام دولة تدول، وتترسب في الضمائر المؤمنة شيئا فشيئا آمال في تجدد الإسلام والرجوع إلى الخلافة التي على منهاج النبوة. عمر بن عبد العزيز سموه لقيامه مثلا حيا للسمت الإسلامي، للنزاهة والعدل والأمانة والقوة، وابن تاشفين ملك البرين والبحرين، لم يحد عن معاشه الصحراوي البسيط، حلوبه يشرب لبنها، وثيابه الصوف العادية، وجاهد وأنقذ الإسلام، وعمر مائة عام، فلما ذهب لم يخلف إماما وانما قامت على رفاته دولة أخرى ذهبت بها عجلة الزمان كما ذهبت بكل دولة وتذهب. وفي تاريخ الإسلام دول محاربة ذات شوكة على العدو وأخرى أغمدت نصالها في نحور

المسلمين في الخلافات المذهبية، وأخرى تقمصت لباس الهادين المهديين على قلوب ليست هادئة ولا مهدية فسفكت وقتلت. ولنا في تاريخها عبر شتى. الدعوة أولا، ثم تتطور الدعوة إلى مطالبة وتكفير للدولة القائمة، ثم وثوب وفتنة ثم تموت الدعوة وتحيي الدولة إلى حين. دولاب يحصد الأمة حصدا ويفتت ذاتيتها على الزمان، ويجيء العدو الغازي المستعمر، فتستعبد الأمة والدولة. ويدخل الجميع في مدرسة التجهيل والتكفير وتلك فتنة الإسلام الكبرى ومنها نريد أن نخرج. ولا جناح علينا إن قلنا لأنفسنا بصراحة صفة أدوائنا ونحن الباحثون عن الدواء الناجع والحق الضائع. قلنا قبل الآن، إن اجتماع الدعوة والدولة، اجتماع الحكم الدنيوي والهداية النورانية في يد واحدة، معجزة للرسول الكريم وكرامة لصاحبيه أبي بكر وعمر وقد استعصى على عثمان وعلي، الإمامين العظيمين، أن يقوما حيث قام سلفهما. وتأملنا مغزى ظهور الدرة، رمز الردع والسلطان، في يد عمر، وقرأنا شكوى مولانا عثمان حيث قال : «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وإن قرأنا سيرة الإمام علي عليه السلام وقرأنا خطبه المتأوهة، ندرك عظم الأمر على هذا الطود العظيم من الرجال.

في خطبه هدي وزجر ووعد ووعيد، يلوح تارة بالقرآن وتارة بالسلطان، لا ينسى مكان الخليفة ممثلا للنبوة الهادية ومكانه قائدا

للجماعة واقفا على مصالحها، وما خاب مسعاه كرم الله وجهه، وإنما طغت الفتنة وتأبت على الهادي وعلى السلطان معا. وقد درس الناس تاريخ الإسلام الأول واستنتجوا ما شاء لهم الاستنتاج، وقال بعضهم إن الإسلام حدث تاريخي فذ ولن يعود. وقال آخرون إن عصبيات الجاهلية لم يقتلها الإسلام فتربصت ثم وثبت.

أما نحن فلنا أن نجتهد لزماننا، ونأخد العبرة من خط نظرنا ومن واقع جاهليتنا السائرة بنا إلى المهواة. وزبدة اجتهادنا أن الهداية والحكم وظيفتان ما اجتمعتا إلا لرجال ثلاثة، وكل من ظهرت عليه أثارة النورانية من حكام المسلمين لم يؤثل خلافة راشدة بل أقام دولة تصير إلى ما تصير إليه الدول. فنستنتج من هذا ضرورة السعي لإيجاد إمامة توزع الوظيفتين التوزيع القرآني: ﴿**لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ وظيفة الهداية والتوجيه للإمام، وإليه المرجع وهو الحكم فيما اختلفت فيه جماعة الشورى.

أخفقت كل المحاولات التي زعم أصحابها تجديد الإسلام إخفاقا كليا أو جزئيا، وحجر العثرة في هذه المحاولات طغيان الحاكم وميله إلى الهوى، وحب الرئاسة الذي ينسي الواجب ويهب بصاحبه للانتهاز والترف.

وتجديد الإسلام في عصرنا لا يكتب له النجاح إلا إن رجع، نقول إن ارتقى، إلى السمت النبوي. السمت النبوي النير المستعلي

على العادات والمألوفات. تجديد الإسلام في شخص إمام يقوم يقود الأمة ليكون أمرها شورى بينها، وإن أكمل المهمة وبلغ القصد أصبح هاديا داعيا حكما. ولن يستطيع من ليس معصوما أن يحكم ويهدي لأن الحكم تحكم في مصالح الناس، والناس لا يعرفون الحق، وإنما يعرفون المطالبة التي يتلوها تفاوض وصلح. وهذا مجال الشورى وإن زعم الإمام تسيير مصالح الناس، فغلط كما غلط من ليس معصوما، تعرض للانتقاد والكره والنقمة وضيع فرص هداية الناس، وهم لا يهتدون إلا بمن تستجلب أعماله محبتهم وتعظيمهم.

ألا ترى أن أبطال القوميات والانبعاث الوطني ينصبون أنفسهم لتربية قومهم ولقيادة الحكم، فيغلطون كما يغلط الناس، ويتعرضون للانتقاد. فيعالجون المعرة بالكذب والوعود والشعارات ليستعيدوا الثقة والحماس، ويساعد الجبروت الطاغي فيستعبد الناس ويخضعهم للمظاهر البطولية والنتيجة دائما يُتم القوم غداة موت البطل، يتم أطفال لم يشبوا ولم يربوا.

المرحلة الانتقالية لقيام إمامة هادية، ترعى قيم الأمة وحكمها الشوري، سميناها مرحلة القيادة الجهادية. وفي انتظار قيام رجال الدعوة، أصحاب الوازع القرآني، بتربية الفرد وتحريره، وإنشاء ذمم بها تناط واجبات المبايعة، لا بد للقيادة الجهادية أن تبرز

ومعها برهان صدقها. وقد كررنا هذه العبارة وأشرنا لمحتواها وآن لنا أن نزيد إفصاحا عما نقصده بالبرهان.

إن الإمامة، والقيادة الجهادية المؤدية إلى الإمامة، قدوة تحتذى قبل كل شئ. إنها قيادة شخصية ومثال. تختلف في ذلك عن رئاسة الدولة. هذه تملي الإرادة من أعلى عبر الهرم القيادي، وهي مفصولة عن الأمة بوسائط لها مصالحها، فلا تعلم حقيقة ما يجري، ولا حقيقة ما يرفع إليها من معلومات. أما الإمامة، والقيادة الجهادية المرحلية، فهي نزول إلى الصف ورفع الوسائط الإدارية فيما يرجع للاطلاع والاتصال. ربما يكون في قصص «ألف ليلة وليلة» مبالغة كاريكاتورية، لكن هذه القصص تأتينا بأخبار هرون الرشيد عندما يتخفى ليدخل المدينة ويتحرى بنفسه. وهرونية مثل هذه لا تتأتى في أمة كثيرة العدد معقدة الحضارة، وإن كان فيها إشارة إلى منهج للاطلاع المباشر الذي يعطي القيادة صورة الواقع كما هي لم تشوهها تهوينات الضعفة المتملقين المغرضين.

القائد المجاهد في الصف. ومعنى هذا قبل كل شئ تخليه عن مظاهر الترف. من السهل أن نتصور أن النفس تأبى الرجوع عن عاداتها، وما كل الناس مثل عمر بن عبد العزيز. غير أنه لن يكون ثم انبعاث إسلامي إن لم يبدأ الانبعاث في شخص القائد الجهادي. إن عصرنا مليء بالأمثولات الحية القوية للوجوه القيادية

الشخصية التي بعثت شعوبا كانت من قبل خاملة. ولن يستطيع أحد أن ينكر الواقع الساطع في هذا الميدان. الجماهير الشعبية، كما يقول لسان العصر، تصبو اليوم إلى مثال رجل قوي متجرد كما كانت تصبو على مر العصور. تغنت من قبل بأمجاد عمر بن الخطاب وهي اليوم تتغنى بأمجاد ماوتسي تونغ. ولن يستطيع أحد أن يصرف أنظار شبابنا عن رجل يلبس القطن الأزرق كما يلبس قومه ويأكل كما يأكلون، ولا عن رجل مثل هوشي منه يركب الدراجة في شارع عاصمته وهو القائد الأول. ذاك أخرج بلاده في بضع عشرة سنة من صفوف الدول المنحطة الكسولة المتفككة إلى مراتب الدول العظيمة المسلحة المرعية الجانب، وهذا بعث في الرجل الأصفر الصغير روحا جديدا مكنه من مقاومة الجيوش الجالوتية بنجاح وعلى أعين العالم. وما كان شيء من ذلك يقع لو سكن ماو قصرا فخما وانفصل عن قومه، لو ركب هوشي منه سيارات مثل ما نركب. إنها القدرة الصادقة التي تكهرب الناس وتدفعهم إلى التضحية والعمل وتجعل من الثعالب أسودا.

كان لنا ميراث ترف أخذته الأمة الإسلامية، في طبقاتها الحاكمة، عن الكسروية والقيصرية. وقصور بغداد وغرناطة واسطانبول تركة هذا الترف. ولما ذهبت شوكة المسلمين وحل بهم الاستعمار أتيحت لهم الفرصة ليتعلموا ترفا على نطاق أوسع. لم يكن المسلمون

عندما غزاهم المستعمر إلا لحما على وضم، خور وانقسام وجهل. فلما هبت عليهم رياح الحضارة الغربية اكتسبوا عقلية الرجل الأبيض وعاداته. وما عتم أن خرج المستعمر فخلَفهم جيل من أبناء الأمة يكونون أمة جديدة تفكر كما كان المستعمر يفكر، ولا يكفيها مؤونة لعيشها أضعاف ما يكفيه، واستعمر الأمةَ أبناؤها المغربون، وعبسوا في وجه أبناء جلدتهم كما كان يعبس، واستغلوا نظير ما كان يستغل، وزادو ا على ذلك فسادا وإفسادا. لأن المستعمر في بلاد الأمة المغلوبة كان يحافظ على سمته وماء وجهه، حتى ولو كان نذلا، ويتصنع الآداب الحضارية اللائقة بقومه، أما المفتونون من ولدان المسلمين، وهم فقدوا السمت الإسلامي، ولم يأخدوا من الأجنبي إلا مساوئه، فإن شربوا كما علمهم لم يستطيعوا الوقوف، وإن وضعت في أيديهم الأموال والأمانات والأعراض فتكوا وانتهكوا، لا يهم الواحد منهم قول الناس إن اطلعوا على عُجره وبُجره، ولا يستحيي المرء من بقره !

طبقة الحاكمين في هذه الأمة جسم أجنبي صارخ فاضح، وبرهنت الأحداث أن الانقلابية لم تحذف هذه الطبقة المستعلية على الأمة ولم تغير عقليتها، ولم تعد أن رفعت أقواما مكان أقوام، ومع كل انقلاب طبقة جديدة هي هي في فتكها واحتقارها للأمة وقيمها. ولما يغب عن أذهاننا محاكمة المشير العظيم في بلد الاشتراكية الانهزامية وما

فضحته من أخلاق تذكر بعهد المنعوت فاروق.

هذه الطبقة المترفة المستعصية على الإصلاحات والانقلابات والثورات كما تستعصي بعض الجراثيم المرضية على الدواء، ستكون، إن لم تعالج بعلاج السمت الإسلامي عرقلة للانبعاث الإسلامي. عرقلة من وجهين رئيسيين. أولهما أنها تستحوذ على أرزاق الأمة فينشأ الحقد الطبقي، وحتى لو تركنا الرشوة والإختلاس، فإن من الموظفين الكبار من يغترف من مال الدولة في بضعة شهور ما لا يناله الرجل الوسط في عمره بالكد والعرق. ويعلم الناس هذا كما يعلمون عنت الموظف الكبير الراتع في خموله، المطية الفخم والمسكن الأميري والخدم والحشم وأعوان المكتب يأتمرون ويتملقون.

والعرقلة الثانية ناتجة عن هذه، ولعلها أكبر. رؤساء الدول كالناس جميعا يحبون من يسمع ويطيع، وييسر ولا يعسر، ويحل المشاكل ولا يخلقها. وإلى هذه الرغبة العالية تستجيب الطبقة الحاكمة المستمتعة، فتطيع وتتملق وتزيد الكذب المنمق في التقارير العريضة الطويلة، همها الأول والأخير المنصب والجاه والمتعة، وليس لها في السوق، سوق الأمة الفقيرة المتعبة، ما تخشى على ضياعه. وهكذا تكون الطبقة الحاكمة المترفة ستارا كثيفا بين رئيس الدولة وبين الأمة، فلا تترك إمكانية للاتصال ومعرفة الحق.

والسمت الإسلامي وحده يقطع دابر كل هذا، سمت القائد

المجاهد الإمام يلبس لبوس الناس ويأكل ما يأكلون ويشد الحزام قبل أن يهيب بالأمة لتفعل. وإلا فهناك حل آخر نتدحرج إليه بالمنطق الجدلي الذي يحكمنا إذ لا نحكم أنفسنا. وبمقتضى هذا المنطق نصل عبر الانقلابية إلى حل جذري يقوم به ماوتسي تونغ أو كاسترو جديد من أبناء قومنا. إنه ياقوم الإسلام أو الطوفان !

وإلا تكن عمرية تبعث الإسلام، فلن يزداد إسلامنا الجغرافي أو السياسي إلا تفككا وانحلالا. وكارثة باكستان شرح ضاف لأطروحة القومية الإسلامية تكون أساسا لنهضة الإسلام. كم من آمال علقت على قيام باكستان، وفي وسط الحماس والاندفاع والعنف على الوثنى الكافر، قامت الدولة التي صفق لقيامها كل مسلم بقي فيه نبض حياة. وحسب الناس أن الإسلام بديل عن القوميات، يكفي لترسيخه التوعية وتقوية الشعور بالتمييز عن الوثنى الكافر. وكانت النهاية الأليمة نتيجة فهم مخطئ للإسلام. فالإسلام ليس قومية إنما الإسلام رجوع إلى الفطرة، إلى الفاطر الخالق، وامتثال لأمره وقيام بحقه، ولا رجوع إلا بتربية، ولا تربية إلا بقيادة مجاهدة، ولا قيادة إلا بوجود دعوة صادقة، ومن هذه النقطة بدأنا، وما نكتبه بالحق عن فتنة شبابنا بالأمثولات المعاصرة، وعن ظلم المترفين منا إنما نكتبه لنبين جدية الموقف وعبث كل محاولة إصلاحية

لا تسلك مسلك المحمدية السمحة، مسلك النبي وصحبه من الخلفاء الراشدين. يجوع الرسول صلّى الله عليه وسلم حتى يشد الحجارة على بطنه وليس به خصاصة لأنه كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، بل كان يجوع ليتأسى به الناس. وهكذا فعل أبو بكر وعمر وعثمان وعلي عليهم السلام. وبعد، أليس منا رجل شديد؟

برهان الصدق الذي يرد الثقة للقائد المسلم، ويكون له جوازا للعمل لا يخرج من نفس القائد وحياته الشخصية. ومن أي أفق يجيء، خرج من الصف فقيرا وبقي فقيرا مثل عمر وعلي، أو كان مترفا فتنزه وتزكى مثل عمر بن عبد العزيز، لن ينظر المسلمون إلى ماضيه مثلما ينظرون إلى حياته الحاضرة. الذين يعملون بوازع القرآن ويعززون جانبه ويخلصون له، والذين لايتحركون إلا بوازع السلطان يطيعون ويعملون إن كانت القيادة قدوة، ورأوا الحزام مشدودا في وسط من يأمرهم بأمره. وهكذا يتاح الجو لتصفية وتربية وتزكية عامة.

أما التصفية فضرورة أساسية للانبعاث والقوة. تصفية الجهاز الإداري، وتصفية الفوارق في الأرزاق، وتصفية الحياة العامة من خبث الجاهلية. هكذا بالترتيب. وقد جرب بعض رجال الإسلام تصفيات جزئية، وكان لها أثرها المحدود، لكن لم تقم على ذلك الدولة الإسلامية. يتبادر إلى الذهن أن الإصلاح يبدأ بمطاردة

الخمور والزنى والفاحشة في السينما والكتب المنحلة، وأن الإصلاح يبدأ بإقامة الحدود وقطع يد السارق، ولا مراء في أن كل هذا يدخل تحت الوزاع بالسلطان. لكن حملة المطاردة للزناة والشاربين ولإقامة الحدود الشرعية على أمة مستعمرة من لدن أبنائها المترفين، فقيرة لسوء توزيع الأرزاق، ليس إلا عملا سطحيا يخلق الضّغينة واليأس، لأنه لاينال إلا طائفة دون طائفة، ويفضح الشارب المعربد الفقير، ويبقى المترف مستورا في قصره مع خموره المعتقة المجلوبة بالمال الثمين المنتهب.

قال الله تعالى يخاطب أحبار أهل الكتاب : ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ البقرة، 44، وتلك سنة الله القائمة أن لا يصدق الناس الا لصادق. فلذلك يلزم أن تبدأ التصفية من أعلى إلى أدنى. وللتصفيات الإدارية مناهج ونماذج، أبرزها إبدال طبقة بطبقة ونخبة بنخبة عن طريق العنف والتصفية والتصفية الجسدية كما تعبر الإيديولوجيات. وللإسلام طريق خاص وسمت متميز، يفتح باب التوبة لمن أراد توبة، ويحيل المصرين المتآمرين على حد الله الذي أعلنه على من يحارب الله ورسوله ويبغي في الأرض الفساد. وهو لا يقف عند التصفية الجسدية بل يأخذ المجرم أخذ المنتقم الجبار سبحانه وتعالى. ومشروعية هذا الحد أن نية الأمة وإراداتها المشخصة في القائد الجهادي تهيأت لتقيم

وجهها لله، فمن حاربها في سبيلها فقد حارب الله ورسوله وأفسد في الأرض.

ويتضح من هذا أن الإصلاح الإداري الانتقالي يسلك مسلك الدعوة الرحيمة إلى التوبة، لكن لا يتنازل عن تصميمه، ويظهر القوة والبأس على من ارتد إلى عاداته الجاهلية. والإصلاح الإداري لا ينتج شيئا إن يكن عملية مزدوجة تبدل سلوك الحاكم والمحكوم معا وتغير نظرتهما إلى وظيفة الحكم والطاعة. والمحكوم الذي لا وعي له ولا تربية يصنع الحاكم المرتشي الجبار. وعندنا يصبح التحويل عويصا في هذا الميدان، لأن المحكوم ألف على مر الدهور أن يبخس حقه وتداس كرامته وينتزع نتاج جهده. وقد لا تجدي في توعيته الأساليب العادية إلا إن سبقها ما يلفت الأنظار ويثبتها على مبدأ الصدق وهدف العدل.

لنتأمل سيرة عمر بن عبد العزيز لنستخرج منها درسا. إن ما يلفت النظر ويعظم الناس قدره في سيرته ما سماه البيان الإسلامي ردا للمظالم. وكان الأمر عظيما حقا، لأن بني أمية اقتطعوا الإقطاعات وعاثوا فيها ترفا وغرورا، ونشأ لهم من ذلك عادات وتأصلت لهم فيه أصول. وجاء إنسان الفطرة المؤمن القوي الأمين فتناول كل ذلك أيسر التناول. بات مع صاحبه مزاحم يدرس الإقطاعات ويجمع المظالم، وأصبح على الناس من الغداة

يعلن للملأ أنه طرح الإقطاع الذي لفلان وفلان وفلان حتى جرد كل من كان مبتزا، وكفى الله المؤمنين القتال. وكان وقع المفاجأة كالصاعقة على المعتدين، لأنهم لم ينتظروا أن يفعل بهم رجل بايعوه بالأمس ما صبحهم به الخليفة الخامس. وفي دار الإسلام اليوم مظالم كثيرة وتفاوت مخجل بين حال المترفين في أمسهم الفقير ويومهم المذهب. وما يسميه الإصلاحيون قانون : «من أين لك هذا ؟» وتسميه الشيوعية نوع الملكية يرمي إلى رد المظالم المحدثة منها والتالدة. وسمت الإسلام يقضي برد المظالم ولا ريب، لكن الرفق الإسلامي، وهو أبرز ملامح السمت الإسلامي، يقضي أن يقرع باب التوبة والتطوع قبل أن تقرع الرؤوس. ولا يتطلب الأمر أكثر مما فعله عمر بن عبد العزيز إن اقتضى الأمر وابتعث الله لنا مثل عمر. وما قدر عمر على ما فعل إلا لأنه بدأ بنفسه وزوجه وخرج على الناس ليعلن القرار وعليه الخشن من الثياب وقد تعشى زيتًا وملحاً.

وتصفية الجهاز الإداري لا تكون تصفية وإنما تكون فوضى وخبطا إن اتخذت طابع الانتقام العقدي. فنحن لما نصل إلى استتابة المرتدين وتنحية المتزندقين. السمت الإسلامي لا ينتقم وإنما يقيم. من رجال الإدارة مَن إسلامه فاتر أو اسمى أو علم ذلك عند ربي. لكنه إن أمسك يده ولم يظلم وكان القوي على شؤونه العارف بها السائر مع الركب الإسلامي، فتصفيته ظلم للأمة.

ونشير إلى هذا لأن التحركات على مستوى أمة معرضة للتعصب الأعمى أعني مما أقول أن التصفية الإسلامية والسمت الإسلامي يضع المقتدر المتعلم الماهر في موضعه ولا يعوضه اعتمادا على زهد الزاهد وتقوى الضعيف الجاهل. وقد يجتمع الجهل بالأمور الدنيوية مع التقوى فلا سبيل إذن على من وضع مهاراته لخدمة الأمة، والسعي لإصلاح باطنه وعقيدته يؤجل حتى يتسع للأمة ما ضاق أمامها. وهذه النقطة على بداهتها تحتاج إلى إلحاح كثير، فقد رسخ في عقول بعضهم أن قيام الإمامة الإسلامية يعني أن تسود العمامات العتيقة وتحكم، ويعني بالتالي ذهاب النظام وسقوط الحضارة. ولعمري إن العمامة إن وضعت على رأس تقي لهي تاج العز والطهارة، لكنها تبقى على كل حال لباسا لا يقيم الأشخاص ولا يعطيهم ما ليس لهم من مزايا، وإن كانت العمائم تعني صنفا من الأمة، صنف العلماء العارفين بالحق الحاملين للعلم المطلق الذي به ينجو الإنسان ويخلص إلى رحمة الله، فإن من بين أصحاب هذه العمائم أئمة هداة هم اليوم بين ظهرانينا ملاذ العقيدة الإسلامية. وإن كان من بينهم ديدان القراء الملعونون تجار الدين فليس ذلك ذنب النخبة من العلماء. ثم إن العلماء لا ينكرون موضع التقنية والمهارة والفكر الرياضي في حياة الناس، وقد ذهب الآن جيل حارب الراديو لأنه صوت الشيطان، وتعلم كل الناس أن القمر كرة كالأرض تطأها الأقدام.

إن النخبة الإيمانية الإحسانية التي تحدثنا عنها، وهي العمود الفقري للجماعة الإسلامية التي ستخلف البنية الاجتماعية، لا تتكون من رجال كاملين في كل ميدان، فقد يكون منهم الماهر، والمتعلم وغير المتعلم، ولكل مكانه في ميدان العمل المنظم المعاشي، وله الصدارة بما يضحي ويبذل ويؤثر على نفسه. وأمامنا تجربة شعوب اشتراكية زعمت أن الحماس الثوري مؤهل للعمل خير من مؤهلات التقنية والخبرة والمهارة. وفشلت تجربتهم كما ينتظر لها.

نزيد على هذا أن الإصلاح الإداري في مرحلة التحول للسمت الإسلامي الخالص، لا بد أن يهيىء تصوراً جديداً للوظيف والموظف. التصور الحاضر يعتبر الوظيف تخصصا يبغي مهارة لها مواصفاتها، ويعد الشخص المناسب فيضعه حيث يجب، ويصبح الموظف بعد ذلك عائلا تجري عليه الأرزاق بقطع النظر عن مردود نشاطه. وفي دار الإسلام اليوم تصور أحط من هذا للوظيف والموظف، فلا الوظيف تعطاه المهارة اللازمة، ولا الموظف ينتظر منه أن يكون منتجاً وماهراً. وإنما حدث فراغ عندما رحل المستعمر، وتجارت الناس لملء هذا الفراغ، وللقوي بنسبه أو نشبه أحسن الوظائف وأطيب العيش.

ولكي يكون التحويل الإسلامي حدثا حاسما في تاريخ البشر، ينبغي أن تكون التعبئة الإسلامية يقظة للعمل كاملة وألا يجري

الرزق إلا على العاملين، وألا يأمن أحد عين المحاسب ويده إن أخل أو تنازل عن مقتضيات التزامه. هذا تكميل للحافز المعنوي، حافز القرآن، لا بد من البلوغ به أقصى ما يتلاءم مع ضرورات تقدمنا المادي ومع الرفق الإسلامي والرحمة الإسلامية.

وأخيرا فالإصلاح الإداري الذي ينهض بالأمة يحتاج لاكتساب المهارات التكنولوجية والتنظيم والعقلنة. وعلى كل مستويات حياة الأمة يجب أن تتفتح العقول للتعلم. على القائد المجاهد أن يتعلم كيف يتعلم، وأن يستمع النصح وأن لا يستبد بالرأي، وعلى من دونه أن يتعلم الأمانة والدقة في العمل والمهارة والإبداع. وخير المدارس مدرسة التجربة والخطإ، ومن الخطإ يخرج الصواب، ومن المحاولة المتكررة يكون الإبداع. ولا خطأ إن لم يكن عمل. وإن كان عمل فلا معرة في الخطأ.

أما تصفية الفوارق في الأرزاق فتتوقف على ترك عادات البذخ والتبذير والرياء الاجتماعي. الفكر السلبي التبريري يقول : إننا أمة فقيرة وليس لنا أرزاق تقسم، وقد نهبنا المستعمر واستأثر بخيراتنا. وهذا الفكر السلبي ستار تختفي تحته اللامسؤولية والعجز والأثرة، هذه الخصائص الجارية في أعمال المتخلفين وأقوالهم. وإذا ذكر المستعمر الغاشم وجشعه وماضيه الأسود فكأنما قيلت الكلمة الأخيرة في الموضوع، وسترت مخازي الحاضر بستار عفيف شريف.

لا يا قوم إن دار الإسلام من أغنى بلاد الله وإن سوء تدميرنا هو البادرة التي تفسح المجال للأثرة والأنانية تخرب كما تشاء. إن مجتمعنا، إذ ليست لنا جماعة، مسرح لمأساة الظلم في أبشع مظاهره، ظلم ذوي القربى. وكلما تقدم بنا الزمان استفحلت المصيبة واتسعت الفجوة، قل الهوة، التي تفصل بين العامل المسكين وبين الكسول الذي يرتع في بحبوحة العيش. أسرة رجل موظف تعيش بما يكفي قرى كاملة مأهولة بأجسام عارية وأرواح يخاتلها الموت والوباء وتخاتله. يتعشى الموظف وضيفه في باريس أو نيويورك ويصبح في مكتبه يلهو بأوراقه ريثما يمسى ضيفاً على رفاقه في روما أو لندن. والزوجة تركب الطائرة، كما يركب الفلاح حماره الدبر، لتدلك وجهها أو تصفف شعرها أو تستشير خياطتها بالعواصم المتحضرة. ويرحم الله الإمام علي بن أبي طالب حيث يقول : «كاد الفقر أن يكون كفرا». فكيف اذاً كان مع الفقر مشهد هذا التبذير الفاضح.

لنا أرزاق وافرة، وإن رفعنا المظالم وأحسنا التوزيع بارك الله في أرزاقنا، وذهب الفقر ومعه الكفر والحقد. والتوزيع العادل مواساة واقتسام للمغانم والمغارم. ولا سبيل إلى تربية من يبيت على الطوى يأكل قلبه الهم على مستقبل أولاده، ولا يجد لمريضه دواء ولا ثمن الدواء. وإن حساسية الناس للظلم في التوزيع تزداد بانتشار الأخبار وتكاثر وسائل الإعلام والتعلم. ولن ينصاعوا لأية

حركة لا تحقق العدل الاجتماعي.

والانبعاث الإسلامي ينبغي أن يتدرج، بعد رد المظالم، إلى تسوية معقولة مناسبة، لا تتقحم في أحلام المساواة الشيوعية التي كانت ولا تزال حبراً على ورق، لكن تقرب بين دخل الموظف والأجير، ورزق الفلاح والتاجر، لتبلغ وسطاً يرضي ولا يسخط. ولكي تنبَتَّ أسباب البذخ والتذبير تقتصر الأمة على ما عندها ولا تستورد الذهب بالعملة النادرة لتفتتن النساء في أنواع الحلي، ولا السيارات الفخمة التي يمكن بثمنها أن يبتاع للأمة معامل وأدوية. إن الاستقلال السياسي خلف لنا عادات ومستويات في المعيشة لا تتناسب ووسائلنا. ولا بد من الردع بالوازع السلطاني ريثما تكون النخبة الإحسانية الإيمانية سلوكا جديدا ينبني على التقلل والاقتصاد.

وهكذا يتهيأ الناس لتصفية مظاهر الحياة الجاهلية باقتلاع أصولها من الجذر. الخمر وباء وعائق عن العمل والسلوك النافع، لكن له أصولا هي الفراغ الروحي، والمال الهين مأخذه، والنماذج المنحلة التي تقترحها على الشباب الكتب والصحف الرعناء والأفلام التجارية السخيفة العاهرة. ولن يترك الناس الخمر إن لم تقلع جذور أسبابه، ولا تكون الرقابة والحد ناجعين إلا بذلك. وفي العملية أيضاً يلتقي فعل الدعوة المربية المزكية الصاعدة من مجالس العلم والذكر بفعل الوازع السلطاني المشرف من أعلى.

المهمة الثانية، بعد التصفية، هي التربية بمعناها العام. ومثال المربي وقدرته على القيادة وتضحيته ومحبته لمن يريد إصلاحهم أهم عامل. فإذا وقف القائد المجاهد وبرهان صدقه معه، وقد حقق للناس عدلا يلمسون أثره في حياتهم اليومية، سهل عليه أن يوجههم من عقلية مطالبة إلى عقلية واجب. وأمكنه أن يعبئ الأمة في الاتجاه الصحيح اتجاه السمت الإسلامي، اتجاه يكون فيه الإسلام حياة مهيمنة على حركات الإنسانية باعثة لنشاطه.

وقد تحدثنا عن «الدكتاتورية البيداغوجية» بتعبير الإيديولوجيات، أو قل «القيادة التربوية»، ورأينا أنها أخذ قوي للإرادة التنفيذية لتحويل العادات إلى أعمال واعية. ونريد أن نوضح حتى لا يلتبس علينا المعنى وتصبح القيادة التربوية استبداداً من أعلى منفصلاً عن القاعدة. لا ضرورة لجهاز قهري يفرض التربية الإسلامية، بل يكون وجود مثل هذا الجهاز عائقاً للتربية الإسلامية، ولنعد لنتأمل نتيجة التربية الإشتراكية في بلد إسلامي اشتهر بجهازه البوليسي. فشل ويتم وضياع.

القيادة التربوية مثال للعزم والثقة، القائد في الصف ومع الفقير والحقير بمعاشه ويقظته وتضحيته، ومع المثقف بقلمه ولسانه، ومع التاجر والصانع بأمانته ونشاطه.

للتربية أجهزة مأجورة من الموظفين والمعلمين، ومستواهم

في بلاد المسلمين كمستواهم في كل البلاد المختلفة. ويكون رجال التعليم نخبة البلاد الفكرية وأكثر أبنائها انتشارا واتصالا بالناس. وهؤلاء إن اتخذوا السمت الإسلامي، ونهضوا للريادة التربوية الإسلامية، هم جند القائد التربوي. شرط عليهم أن يتزكوا ويحسنوا إسلامهم ثم يتطهروا ويسلكوا شعب الإيمان والإحسان. وتحولهم المضمون إن فعلوا خليق أن يوجه إليهم الأنظار فيصبحوا مقيمين للقيم «Norm Setters» بلغة علماء الاجتماع. لا يقف عملهم عند التعليم الحرفي للمادة العلمية، وإنما يكون التعليم وساعات التعليم وما يحيط بالاتصالات المهينة ظروفا لضرب المثل على التضحية والإيمان والإرادة الإسلامية. وأكبر الجهود وأطولها أمدا يصرف لتربية أجيال مؤمنة حاملة للدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية.

وشطر التربية الثاني ينصرف لتربية اليد الصَّنَاع والعقل المنظم المبدع. الناس ينصرفون عن العمل اليدوي في البلاد المتخلفة لما يرونه من كسب واسع يحرزه المتعلمون ذوو الأيدي الرخصة والرزق الهين. وإن حذفت الفروق الشاسعة بين أجر المتعلم القابع على الأوراق ورزق العامل الكاد بعرق جبينه، أمكن معالجة العقلية المتخلفة التي تنظر إلى العمل اليدوي نظرة احتقار. وعلى المربين أن يضربوا المثل وأن يعلموا بأيديهم، وأن يعمل بيده كل من يقتدى به كائنا من كان، ولا تكفي الخطب والمواعظ. وقد أعطتنا

الصين درسا مفيدا في نظامها التعليمي الذي يفرض العمل اليدوي جزءا من المنهج الدارسي. ويعمل مدير الجامعة كما يعمل أصغر تلميذ في المدرسة الأولية، كما يعمل كل موظف كائنا من كان، وهذا هين في جو تعبئة جادة مصممة.

أما نقل التكنلوجيا وتكوين العقول المبدعة فلا سبيل إليه أبدا إلا بالاعتماد الكلي على اللغة الإسلامية أداة تعليم وبحث وعمل، اللغة الإسلامية هي لغة القرآن، ولا دخل للقومية في هذا. إن العربية لغة البلاد العربية وهي لغة دار الإسلام كلها مرتلة في المصاحف. والانبعاث الإسلامي يهدف آخر الأمر لوحدة دار الإسلام، فلا بد من اتخاذ لغة القرآن لغة للوحدة الإسلامية. وحيثما بدر الإنبعاث الإسلامي، ولو في غير بلاد العرب، فاستعاضة اللغة القومية بلغة القرآن ضروري. وسيبقى المسلمون عالة ما لم يعتمدوا على لغة القرآن اعتمادا كليا لا يقيد بشرط. ويطرح السؤال: لكن لغة القرآن لا تتحمل التعبير في شكلها الحاضر عن العلوم المتنوعة ومن يتكلمونها مختلفون في اصطلاحاتهم واتجاهاتهم. ومثل هذا السؤال ذو موضوع إن لم تكن تعبئة. ونحن إنما نتكلم عن مستقبل تعود فيه الروحانية الإسلامية والسمت الإسلامي والتعبئة الإسلامية ولن تتسرب عندئذ نخبتنا المفكرة للبلاد الغنية ولن تبذر الأموال ولن تبدد الجهود.

النخبة الإحسانية الإيمانية في بلاد الانبعاث الإسلامي تواجه مسؤولية تقييم القيم ومسؤولية التعليم وتربية أجيال من الدعاة ومسؤولية العمل باليد والعقل معا ومسؤولية نقل التكنلوجيا. وهذا يسير في إطار تعبئة ومساواة ومؤاخاة وروابط جماعية بدل العلائق الاجتماعية. وهذا يسير أيضا لأن بلد الإنبعاث يكون، بعد جلاء النية والإرادة والعمل، دار الهجرة لكل مؤمن تقي أينما كان. وفي دار الإسلام آلاف من الرجال ذوي الهمم والبلاء والمقدرة ينتظرون الداعي، وهم يضحون بالنفس والنفيس لبناء الإسلام إن وجدوا على الساحة الإسلامية صوتا يدعو بلهجة صادقة، وبرهانه معه، لعمل مخطط منظم تحوطه إرادة جهادية، إرادة من يطلب الشهادة في سبيل الله أو إقامة صرح الإسلام عاليا متألقا.

وبعد التصفية والتربية تكون التزكية العامة، أي التحويل الكيفي للإنسان، والدخول في الجماعة، والمبايعة على نصرة الإسلام بالبذل الكامل غير المشروط. ولرجال الدعوة الصادقين، من علماء عالمين ورجال صالحين القدم الثابت في التزكية العامة. ويطلب إليهم أن يأتوا ببرهانهم كما يطلب إلى كل الناس. بل الطبيعي أن يبذلوا ويتقللوا في المعاش أكثر من غيرهم. وإنما الرجل وبلائه والرجل وقدمه في الإسلام والرجل وقسمته من رسول الله كما قال الفاروق عمر رضي الله عنه.

كنا بحثنا عن المبايعة ومكانها في بناء الأمة، وألححنا على أنها عقد متبادل بين المبايع والمبايع له. وذكرنا شروط المبايع له في تخليه عن السمت السابق وبذله وصدقه، وذكرنا أيضا أن الثقة التي تتكون فيه تضمن صحة وصلابة العقد. وهنا نتحدث عن الذين يبايعون.

الإسلام اليوم حديث على ألسنة القادة، ومطالبة تحت أقلام المؤمنين من العلماء والمفكرين. وهو يشغل حيزا متقلصا في حياة المسلمين الفقراء من عامة الأمة. وهو عند المفتونين بالعقلانية الملحدة الغازية خرافة تاريخية. وهو في نظر المحنكين من رجال الفكر الأجانب جذوة خابية لكنها قابلة للاشتعال بسرعة كشأنها عبر التاريخ. فإذا قام رجل من حكام المسلمين وأعلن إسلامه بقوة وسلك في نفسه ومن حوله مسلكا إسلاميا صادقا، وعزم على تحمل أعباء القيادة الجهادية فذلك منه مبادرة يباركها الله. لكنه لا يستحق الإمامة حتى يبلغ بجهاده غايته، حتى يقيم صرح الإسلام في بلده بالتصفية والتربية والتزكية العامة. الإمامة أمانة لا يحملها إلا الصادقون، وهي تطلب من صاحبها خصلتين بينهما القرآن اتصف بهما موسى ويوسف، ألا إنهما القوة والأمانة[1]. والإمامة التي نجتهد أن تكون لنا إمامة لها نمط خاص، ليس همها أن تجمع

1 انظر كتاب «السياسة الشرعية» للإمام ابن تيمية، فقد فصل القول في الموضوع.

بين الدعوة والدولة، فقد فشلت إمامات مزعومة اتخذت الدعوة سلما للتسلط والحكم. إمامتنا للإسلام المنبعث ترد الأمر إلى الشورى كما نص القرآن وتجلس مجلس الحكم المحبوب المشرف. وليس الأوان أوان التفصيل في الكيف والكم والأين. لست أدري كيف ومتى وكم. وآخر مساعي القيادة الجهادية بمشاركة الجماعة الإسلامية سيهذف للاجتهاد في الكيف والكم والمتى.

وكما تؤدي القيادة الجهادية للإمامة تؤدي الدعوة للشورى. وهكذا نرجع لموضعنا لنعرف من يبايع.

الناس فوضى في بلاد المسلمين لا يعرف طيبهم ورديئهم، وإذا قام القائم المجاهد بإعلان نيته فلن يجد أمامه إلا الفوضى، لن يجد أمامه ذمما طاهرة يحاورها فيما عزم عليه، لن يجد إلا منظمات سياسية، أو حزبا موحدا إن قام في بلاد الانقلابية، والأحزاب تحزب وتعصب واجتماع على المصالح والمطالبة والانتقاد، تتخذ كلها صبغة الدفاع عن المحروم والمسكين، ومن وراء ذلك نيات أخرى، قد تكون صادقة في عدائها للإسلام وجهلها له. فمن يحاور القائد الجهادي ؟ مكثه في مصالحة الأحزاب، أو شظايا الحزب الموحد، معناه التلكؤ عن المطلب ورفض التحويل الجذري. فلا مناص من أن يمسك الإرادة الإسلامية بقوة وينظر إمكانيات وجود المحاور في آفاق أخرى، وعلى أساس إسلامي مخلص، آفاق

المؤمنين الصادقين.

من يبايع ؟ العادات المدعوة ديمقراطية تنظر إلى الجماهير والأصوات. والجماهير تعطي أصواتها كما ينثر الطائر ريشه تحت العاصفة. كل تصويت يزيده عبئين، عبء ممثل متأله يصول في الأرض ويجول، وعبء النفقة الباهظة التي تنفق على الممثل ويدفعها الصوت من جيبه. دعنا من ديمقراطيات غيرنا، ولنعتبر بالذي يحدث في ديمقراطيتنا. تمتاز عملياتنا الانتخابية بالإنتاجية الباهرة إذ تبلغ دائما، خاصة في بلاد الانقلابية، تسعة وتسعين ونيفا في المائة. وتمتاز بالحماس والحرارة الفائقين، حمى الشعارات، وحماس الزعاق المبرمج. وقد أصبحت أمتنا بعد جلاء المستعمر، فإذا بالرجل، والمرأة أيضا، تدفع إلى كرامة الأحرار فتصوت. وأمتنا المسكينة تفعل ذلك لا تدري لم تفعل، وكأنه تعاويذ سحرية علمها عند الحاكم. ويرسخ في الأذهان بعد تجارب كثيرة، وبعد أن يرى الفلاح تجهم المرشح بعد انتخابه، وغناه بعد فقره، وعزه بعد حقارته، أن الانتخاب قدر أعمى يرفع من يشاء في عملية لا تتم إلا بتصفيق الجماهير ودخولها إلى محراب الديمقراطية المظلم، محراب التصويت.

من يبايع المبايعة الإسلامية ؟ وما هي الذمة والصدق، وما هي الطهارة والتضحية ؟ إن كنا فقدنا هذه المعاني فذلك لأن حماسنا، حماس الأمة المسكينة المستضعفة، إنما أثير بكلمات كهذه غذاة

استقلالنا، فلما رفع الستار عن المشهد التالي إذا بالذمة خداع وبالصدق مراوغة وبالطهارة فسق وبالتضحية أكل ولم.

كلا ! إن الذي يبايع ويؤسس النظام للعمل الإسلامي في الأمة الإسلامية لن يكون إلا رجلا برهن في الميدان على وجود هذه الصفات فيه، وبرهن بذلك على أنها قيم كانت وتكون.

يفتح الباب لكل هذا بإغلاق معاطن الاضطراب والتهريج، بإغلاق منافذ التضليل والتسخير المفتوحة في الهياكل وعبر الهياكل وباسم الهياكل السياسية. لأن ما عليه أساسها وتفكره وما تكتبه مناف للسمت الإسلامي منافاة كاملة. نطاقها المضروب حولها، المسجونة فيه لا تريم، هو الحرية والإشتراكية والانتخابية ويختار كل فريق أوهاقه حسب هواه وحسب فعالية وسائله في إغراء «الجماهير» وتملق الشباب.

لا نعني أن انبعاث الإسلام يستغني عن النقد البناء، بل النقد البناء ضروري لحركيته ونشأته. لكن باسم الإسلام وعلى سمت الإسلام. النقد الإيجابي لا المشاحنة المشككة. وتذهب الريح بالفكر السياسي إن قام من يقول ربي الله بقوة، ويعمل وفق ما يقول بأمانة وتجدد، عمريا محمديا.

الذين يبايعون هم الذين قاموا إلى أقلامهم ومنابرهم ومحاريثهم ودراهمهم فدعموا بها الإسلام وضحوا وربوا وآزروا وهاجروا

إلى الله ورسوله وتقللوا واقتسموا مع المحروم والبائس طاعة وتطوعا. الذين كانوا الرائدين. والريادة الإسلامية أمانة ودعوة. ولا بد لكل عمل يروم الفعالية أن يكون منظما. فلتكن إذن دعوات منظمة. أو لنقل «دعوة منظمة».

الأمثل أن تكون جماعة واحدة تقوم بالدعوة وتربي وتقود الفكر والعمل. لكن هذا لا يتيسر. ولعله من الخير أن يكون الأمر كذلك. وربنا سبحانه يقول : ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ**﴾ هود، 118-119. فالخلف واقع طبيعي ريثما تنزل الرحمة. والخلف، في الجزئيات لا في الكليات والواجهة، يؤدي إلى التنافس، والتنافس في البناء حافز مساعد يرحب به رجال الدعوة، أو لنقل يجب أن يرحبوا به. قال عمر «رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي». وليس كالمنافسة في الخير، وبالسمت الإسلامي طبعا لا بالشكل الغوغائي، ما يرد المرء إلى نفسه ليلومها ويصلحها.

إن من الناس من يدعو نفسه سلفيا ومنهم من يقول إنه صوفي وآخر سني وهكذا. والأسماء تفرق ولا تجمع، والأعمال تجمع لأنها قابلة للمقارنة. فليفتح المجال لجماعات الدعوة. جماعات لا جميعات ولا تجمعات. جماعات لها تركيب عضوي ولها التزام ومبايعة، ولها عمل معلوم وهدف واضح في بناء الإسلام. أما الجميعات فحفلات وكلام وعرض، وأما التجمعات فاضطراب

ومطالبة وفوضى.

جماعات الدعوة المنظمة حرة في النصيحة لله والرسول وأولي الأمر، حرة في فضح المظالم، حرة في البناء والتربية. وعلى نتائج عملها تكون مؤهلة أو غير مؤهلة للمبايعة الجهادية، ومن ثم لتهيء النظام الشوري الذي يحاور الإمام ويسير أمر المسلمين.

قد يظن أن تعدد جماعات الدعوة يزيد الأمة فرقة وقسمة وخلافا، ويوزعها طرائق قداد، والإسلام يدعو إلى الاتحاد والأخوة. ونحن في زحمة أمرنا أمام الفتنة العائمة الطامية نعتقد أن الحكمة والهمة ستجمع العناصر المؤمنة لتكون وحدة بانية، ولا يذهب بنا التفاؤل رغم هذا إلى الظن بأن كل الخلافات الموروثة المذهبية وغيرها ستمحى أولا. كل الفرق الموجودة تجهل الإسلام قليلا أو كثيرا، وتقرأ كل منها القرآن قراءتها الخاصة، وتؤول فعل الرسول وقوله تأويلها، زد على ذلك المنازعات الحماسية حول أشلاء الشهداء من آل البيت. ولن يتعلم الناس إسلامهم إلا بالتدرج وفي ميدان العمل. فأي دعوة أعادت للمسلمين روحانيتهم وحررتهم من العادة والكسل والجهل، وأعطتهم نورانية العصر الأول، فتلك التي على المنهاج النبوي، عمل بلا جدال. أمامنا أمة جاهلة تحتاج إلى من يعلمها، ولنا سواعد كسولة عاطلة تبغي من يجندها لتنتج، ولنا أموال مكنوزة أو مبذرة تنتظر من يحرر ضمائر أصحابها وإرادتهم

ليبذلوا وينتجوا. لن يسمح للدعوة المنظمة المتعددة أن ترجع إلى المعارك الصفية على تكفير من حلق اللحية أو أسدل يديه في الصلاة. ولن يسمح لها أن تفتح باب الجدل الديني ونبش رفات الأموات. فتلك أمة قدخلت لها ما كسبت وليس لنا إلا ما نجاهد ونؤمن ونبر. وليس البر إلا الإيمان بالله واليوم الآخر، والإيمان بالغيب وبذل المال والنفس لله.

الدعوة المنظمة لن ينسينا كونها منظمة أنها لا تكون بديلا للتنظيمات الحزبية، بل هي الدواء المقابل للداء، والصحة الفاضحة للسقم. أحزاب السياسة تجمع وتهافت والدعوة جماعة وتربية وسمت. إذا كانت مؤهلات الزعامة السياسية قدرة على الخطابة والمنازعة والمطالبة الصاخبة، ومداهنة الجماهير والهجوم عليها كل يوم بشعار جديد. فإن مؤهلات الدعوة استقامة وتقوى وعلم وسمت وواجب. لا نقول إن الدعوى لا تطالب بالحق، بل نقول إنها تدل الناس وتربيهم على أداء الواجب أولا. وإن قال السياسي: هلم إلي أيها الجائعون أيها الفقراء المحرومون نطالب بحقنا ونفديه بدمنا، فإن رجل الدعوة يقول : هلم إلي يا من فقد كرامته وإنسانيته يا ضحايا الأنانية ويا عتاة الأغنياء والجبابرة، هلموا الي جميعا نقم حق الله فيما بيننا. وإن كان رجل السياسة يسأل : الأرض لمن ؟ والمال لمن ؟ فإن رجل الدعوة يسأل : الإنسان لمن ؟ وواضح أن الذي يجري ليعطي

الأرض لمن لا أرض له والمال لمن لا مال له، ويقف عند ذلك، يبني عمله على مطالبة مادية مبدؤها ومعادها الانقلابية أو الثورية، ثم لا يحرر الإنسان من مسخه وشقائه في الدنيا والآخرة. أما الذي يعرف الناس بأنفسهم وبربهم فهو يحرر الإنسان ويرفعه إلى فطرته وطهارته ويحوله، بحافز الجهاد في سبيل الله عن إيمان بمصيره على الأرض وعند الله في الآخرة، تحويلا كاملا جذرياً متجدداً. الانقلابية تخلق الحماس وتدخل في دورها المفرع، والثورية جادة تخضع الإنسان لإرادة جبارة قامعة تسير به سيراً لا هوادة فيه لمصيره على الأرض آلة عمل وإنتاج لاحق لها في التفكير ولا التعبير. والإسلام ليس حلا سياسيا، إنه خلاص الإنسان وإعطاؤه قيمته التي خلقه الله من أجلها. وتعبئة الإسلام للجهاد هي الوجه الظاهر للتعبئة الروحية، والجهاد بذل الجهد لبناء الأمة بناء اقتصادها وجماعتها المتعاونة وبناء ما هو أشرف من كل هذا، بناء النموذج الإسلامي الحي الذي يمثل الإسلام في خضم الجاهلية المحدقة الحاذقة.

أية دعوة إسلامية تقف عند الإسلام السياسي، وهو الإسلام المنطلق من الفرضية الغالطة بأن المسلمين كما هم اليوم عناصر صالحة للبناء، وتتصور تكتلات إسلامية، كومنولث إسلامي مثلا، دعوة مبتورة سطحية. الدعوة الصادقة تتناول المسلم، وتعتبره مسلما ما لم يرتد ولا تكفره بذنب أبدا وتربيه تربية كاملة على وفق المنهاج

النبوي، على درجات المعراج الإسلامي، إسلام ثم إيمان ثم إحسان. معراج دائم صاعد لمن تزكي وذكر اسم ربه فصلى.

والتربية الكاملة هي التي تعطي من في حضنها روحانية ونورانية وعلما وعملا. تنقله من عداد الغافلين إلى عداد الذاكرين، من الضيق إلى السعة، من مغاوي الشيطان إلى محبة الرحمن، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ الزخرف، 36 وقال : ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى**﴾ طه، 124.

التربية الإسلامية الكاملة تطهر القلوب من الشهوات والعادات وتعوض الوسواس بذكر الله، واذا أمر الذاكر يسر ونظام وتساوف بناء. قال تعالى : ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً**﴾ الكهف، 28.

لا ينسينا كون الدعوة منظمة أن هدفها أساسا بعث الروحانية الكامنة في الإنسان، وإعادة تنظيم حياته على مبادئ جديدة تدور حول المصير، حول البعث والنشور، والجزاء الحسن أو الثبور. ثم تصعد فتدور حول محبة الله ورضاه والقرب منه. وعلى كل المستويات تحول العمل المأجور إلى تقوى. والتقوى تشريف للعمل والمجهود إذ يصبح قربانا لله وبرهانا على خلوص النية له. إنك تتقي ما تخافه بحاجز كما تتقي مثلا حر الشمس بالمظلة، وكذلك

العمل الصالح تجعله وقاية بينك وبين ربك.

وهكذا يرفع الإسلام، التربية الإسلامية، الإنسان ليدرك شرف أرومته ويتحرر من المسخ المتعدد الوجوه الذي يرده إلى مصاف القردة والخنازير وعبد الطاغوت، ويحيى حياة تقوى، حياة جهاد لله، ثم يلقى الله وهو عنه راض يرتع في الجنة أو في مقاعد الصدق والقربة على قدر جهاده في الله وذكره له في الدنيا.

إن رجل السياسة يتحدث للمحرومين عن انسلابهم وعن كونهم ضحايا للتشيء والتوهيم، ويحدثهم عن التراب والمال ويمنيهم بمستقبل فيه كثير من البطاطس واللبن واللحم، وفرص أكثر لإرضاء الحاجات والشهوات. ولا يحدثهم عن الآخرة لأنه لا يعرف الآخرة أو لأنه إن كان مسلما، يعيش إسلاما مبتورا مقطوعا عن ميدان العمل فرديا انعزاليا.

وما ينقذ الإنسانية من المسخ إلا الإسلام، وأشرف ما تهدف إليه القيادة الجهادية والدعوة الصادقة حمل هذه الرسالة للإنسانية حملا قويا وتبليغها تبليغا مقنعا بليغا بإقامة دولة مسلمة تسير بشرع الله في حياة أفرادها وفي أسرهم وجماعتهم وفي اقتصادهم وصناعتهم وثقافتهم، على السمت الإسلامي المطمئن، نموذجا ناصعا معروضا على الأنظار.

ولا يتم الوصف للسمت الإسلامي إلا إذا وضحنا اللون العام للعمل

والدعوة والقيادة الجهادية. نعني الوجه الباسم والبشاشة والتفاؤل والتبشير والتسيير. وقد رسخ عند الناس أن الإسلام عبوس وحزن وجوع وضيق وربما يكون المسلمون أنفسهم اكثر الناس علوقا بهذا التصور.

يقول الرسول الكريم : «**إن الدين يسر**» وأوصى معاذ بن جبل وأبا موسى حين بعث بهما إلى اليمن أن : «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا**». والإسلام جد وعمل لكنه أيضاً أُنس وأُلفة ومحبة وثيقة بالله تذيب القلق فيطمئن قلب المؤمن بذكر الله. وهذه البشاشة الإسلامية من أهم ملامح أي انبعاث إسلامي جاد. ولمن أراد أن يحزن ويجوع أن يعتزل ما عليه سبيل. وقد نسمع أن الصحابة الكرام ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا كثيري الإطراق والبكاء، ونقرأ أن عمر بن الخطاب كان على وجنتيه خطان أسودان من البكاء فيحسب الخالي القلب من ذكر الله أن كل تلك الأحزان والدموع ألم وشدة، وهي ليست وربك إلا فرحاً بالله وشكراً له وتعبيراً عميقا عن الاعتراف بمننه. وهناك بكاؤون آخرون دموعهم دموع خوف من الله وندم على ما فرط من الذنوب، وهذه درجة أدنى، وأثر هذه الدموع رحمة ورقة في القلب لا تنافي بشاشة الإسلام. والمؤمن يبكي في محرابه، يبكي على ذنبه أو يبكي خوفا من ربه أو يبكي حياء من فاطره المنعم وشكرا، فإذا خرج إلى

الناس دعاه الإسلام أن يقوم بحق الولاية للجماعة ومؤاساة المؤمنين والبشاشة في وجه أخيه والتيسير على المعسر والكلمة الطيبة والمحبة والسمت الجميل.

أما بعد، فإن للعمل الإسلامي محفلاً ومدرسة، مكان يتعلم فيه المؤمن السمت بالمثل الحي وبالموعظة الحسنة، ويتعلم فيه العلم ويتعلم فيه الحكمة ويتعارف فيه مع المؤمنين، ويجد فيه الراحة والألفة والمحبة. ذلكم هو المسجد، هذه المؤسسة المركزية في حياة الجماعة. والإسلام الفاتر الفردي الذي يعرفه وقتنا تجد صورته في مساجدنا. تجد شيوخا يركعون في جو بارد ليس فيه تعارف ولا أخوة ولا محبة. لايسأل المصلي عن جاره في الصف ولا يعرفه، ولا يبادله الود. وإن تكن موعظة فهي خطابة وفصاحة لا مخاطبة وتذكير.

ولكي يعود المسجد مركز النشاط الإسلامي والقلب النابض لحركة الجماعة الإسلامية لا بد أن نعلم أن المسجد وضع ليذكر فيه اسم الله. وعمارة المسجد لا تكون ولن تكون إلا برجال أوتوا الإيمان فهم يتدارسون القرآن، أو آخرين يتزكون ويذكرون اسم ربهم كما أمر : سبح اسم ربك، قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى.

فإذا عمر المسجد بتدارس القرآن وبذكر الله نزلت على عامريه الرحمة وغشيتهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده كما يقول الحديث

المتواتر. الرحمة في القلوب تحل عقد الأثرة والحقد الطبقي، والسكينة تهدئ عوامل القلق وهي الطمأنينة هذه النعمة التي حرمها الناس، ويذكر الله عنده من يذكرونه فهم في رضاه وعنده بين يديه. وكل هذا لن نجده إلا في المساجد العامرة، لكن العامرة حقا برجال مؤمنين متآخين يدرسون القرآن ويذكرون الله. وغير هذا لا يكون، والجمعيات الثقافية، الإسلامية في زعمها، لا تشم ريح هذا ولا تعرفه إلا أن ترجع إلى المسجد وتتعرض للرحمة والسكينة والرضى، تذكر الله وتدرس قرآنه. روى مسلم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده**».

ما من عقد يعقد وعهد يؤخذ وعزم يشهد الله عليه في بيت الله الا كان موفى وعهدا أكيداً وعزماً. ويعطي المسجد وقاراً وهيبة لما يقال وما يعلم، وتخفت الأصوات فيتعلم الناس السكينة بل يحملونها معهم في حياتهم عطاء من الله نزل عليهم في المسجد، ذلك لمن عمر المسجد في أوقاته، يبدأ يومه في غلس الفجر غاديا إلى ربه، ويروح في غسق الليل إلى ربه يعبده ويذكره ويوقره. وفي المسجد أحباب وفيه ملائكة الله يراهم رأي العين من فتح له ويراهم ببصيرة الإيمان من آمن بالله وغيبه.

ولا بأس أن يكون لكل جماعة من جماعات الدعوة المنظمة مسجدها شريطة أن لا يكون مسجد ضرار وكفر وتفريق بين المؤمنين. وفي هذه المساجد يتزاور رجال الدعوة فيتعلمون كيف يجتمعون على ما يقربهم ويتجافون عما يختلفون فيه. وإلى المسجد ينبغي أن تتجه الجهود ليكون المسجد بيتا لله حقا فيجنب عنه المحترفون والصخابون، ويعتني بفراشه ومرافقه، ليتوضأ المؤمنون ويجالس المؤمنون إخوانهم ويصلي المؤمنون ويذكروا ربهم ويدرسوا قرآنهم.

التجمعات السياسية تغشاها الوجوه المكفهرة ويعطرها نتن الدخان وعرق أجسام لا تتوضأ ويذكر فيها اسم الأوثان من بني الإنسان. وفي المسجد يتعلم المؤمن أن يحضر في أحسن ثيابه كما أمر الرسول، وأن يتطيب وأن يحسن المجالسة، وأن يقول خيرا أو يصمت، وأن ينصح وينتصح يريد بذلك وجه الله، لا يتعصب ولا يكره.

ومن المسجد تخرج الرحمة كما خرجت أول مرة تسعى على رجليها في الأرض في صورة من حملوا الرسالة وأدوا الأمانة.

هذا إن عمر المسجد بالقلوب التقية النقية وأصبح مقرا لتربية رحيمة، تربية الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

التؤدة الإسلامية

السمت والتؤدة والاقتصاد هي المعالم التي أنبأنا بها رسول الله صلّى عليه وسلم من خصائص النبوة، وقد كتبنا ما شاء الله عن السمت الإسلامي كما نتصوره من خلال حياة المؤمنين الأولين ومن خلال القرآن الكريم. وهو وصف لنموذج لا نجده في حياتنا الحاضرة، ونرجو أن يقيض الله لنا من يحيونه لنا. ووصف النموذج يأباه بعض مفكري الإسلام يقولون: إنه عبث أن تصف مستقبلا وهميا تمني به الناس، وتترك جهاد الساعة. ونحن نعتقد أن السير لايبدأ إلا إن عرفنا إلى أين نسير. وفي سياق تاريخنا المعاصر يجهل الناس إسلامهم، ويتخيله كل حسب ما بلغه أو حسب ما توهمه. ومن واجب رجال الدعوة أن يصفوا الإسلام النموذجي الخالد الذي لا يتكيف ويتطور كما يزعم المفتونون، وإنما تتكيف الحياة المتطورة لتدخل في السمت الإسلامي، وتخرج بدخولها من ضيق الدنيا إلى سعتها ومن شقاء الكد الكالح الواقف عند حد الحيوانية إلى سعادة الجهاد الصادق لتحرير الإنسان، ليدخل الجنة بعد موته، ولينال رضى ربه، وليحقق قابلياته للكمال. وسنمضي في وصف النموذج الإسلامي في أسلوب العمل، ألا وهو التؤدة.

تعبت أجيال من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وفنون

أخرى من فنون المعرفة للوصول إلى أنتربولوجيا متكاملة، إلى علم بالإنسان وما جبل عليه. ولا زالوا يبحثون، ويجدُّ لهم في كل حين جديد، وهم اليوم أقدر، في زعمهم، على تنظيم الإنسان في الحياة الاجتماعية وتسخيره لتخف معارضته وسخطه. فإذا سافر أحد الباحثين من البلاد الغنية المترفة إلى مجتمعات فقيرة هاله ما يرى إن كان صادقا ذكيا. إنه يكتشف في الشعوب الفقيرة الإنسان الشريف المبتسم وهو فقر مدقع، القانع بقوت شحيح وعيشة عارية. وفي الشعوب الغنية إنسان مكتظ المعدة عامر الجيب لكنه شقي يصخب وينتحر. لماذا ؟ أي علم للإنسان يعرف الإنسان ؟

إن الله الخالق وصف الإنسان أدق الوصف وهو العالم بما خلق. وهذا العلم بالإنسان يعطي المفتاح للسعادة ويحل العقد ويعطي الطمأنينة. وهو كامن في القرآن الكريم، يتعلمه من يتدبر ومن أزيلت عن قلبه أقفاله.

ونوجز أوصاف الإنسان كما علمنا الله. إنه هلوع بمعنى أنه مضطرب كثير التقلب، إنه كفار ظلوم، إنه يطغى عندما يستغني، إنه في كبد وتعب، إنه يكدح إلى غاية يجهلها ويعلمها الله، وهذه الغاية هي لقاء ربه. إنه عجول عنيف. ولا يطرح عنه كل هذه الأحمال والأوزار إلا إن ذكر ربه وآمن بالغيب واقتحم العقبة. يقول الله عز وجل: ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ**

رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ البلد، 11-18.

الصبر والمرحمة خلقان جاءا ختاما وكفاء لاقتحام عقبة الإيمان والعمل الصالح. ويقول الله تعالى : ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ العصر. وهذه سورة جامعة بينت لنا خسر الإنسان، كل إنسان، ما عدا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق والصبر. ويتكرر الحث على الصبر. وذلك في القرآن كثير جدا.

ومعنى الصبر الانضباط والتجدد، الصبر عن والصبر على. فأما الصبر عن فهو ضبط النفس وامتلاك الإرادة، وأما الصبر على فهو المضاء في العزيمة وممارسة العمل بلا انقطاع وبالجهد المتجدد.

ويكون الصبر الأسلوب الإسلامي في العمل بمعنييه. إن الإنسان خلق هلوعا جزوعا عجولا، وهذه صفات اضطراب لا استقرار. ولهذا الهلع مظاهر في حياة الفرد والمجتمعات، مظاهر القلق على الغد، ومظاهر الحماس العابر، ومظاهر العنف، ومظاهر التعصب العرقي أو القومي. وهذه المظاهر هي وجه الجاهلية الكالح كما نراه نغدو عليه ونروح.

وبجانب هذا الهلع يتجلى صبر المؤمنين وانضباطهم ورفقهم.

ويرى الجاهليون من المستشرقين سكون الأمة الإسلامية، ويكتشفون عندها، بعد أن ركدت، ما يسمونه بالقدرية «Fatalisme». وهذا الصبر القدري الذي تعرفوا عليه قبل أن يغزونا العدو ويحتل أرضنا وعقولنا، كان صبرا سلبيا لكثرة ما عانت الأمة من ظلم الظالمين وفسادهم وقسوتهم. وليس هو الصبر الذي نبحث عنه. وما أعقبه، بفعل الإيديولوجيات التي فضحت الظلم واقترحت الحل الثوري، عنف وهلع يتنافى مع الأسلوب الإسلامي في العمل.

جمع الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلم، وهو الذي أوتي جوامع الكلم، معاني الصبر في كلمة «التؤدة». والتؤدة حركة إيجابية وعمل، ولا يؤدي هذا المعنى مذهب اللاعنف القائم على العصيان المدني. هذا موقف سلبي والتؤدة معالجة بالرفق والصبر وعدم العنف. ولعل معترضا يقول : أما ترى تاريخ الإسلام؟ قام الدين الإسلامي على الجهاد والقتال والعنف. فأين التؤدة ؟

ولكي نجيب على الاعتراض، نرجع إلى كتاب الله نلتمس فيه علم الإنسان، نكتشف فيه أسرار الخلق والمخلوق. إن الله تعالى يقول : **﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾** الملك، 2. فسر الحياة على الأرض، قبل اللحاق بدار الجزاء، أن يعرف الله من هم أحسن عملا، لذلك ابتلاهم واختبرهم باللغزين العظيمين

لغز وجودهم ولغز مصيرهم. ولاء الله للناس موضوع أساسي في القرآن، يتكرر تارة بلفظ «البلاء» وتارة بلفظ «الفتنة». قال تعالى : ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾ العنكبوت، 2. فالحياة من أساسها فتنة وابتلاء، وما يعترض الناس من عويصات الأمور بلاء من الله، والنفس تفتن وتأمر بالسوء، والشيطان يفتن، واختلاف الناس وأهواؤهم فتنة، ومن خلال الفتنة يعرف الله الذين صبروا ويعلم الصادقين كما تقول تتمة الآية السابقة.

هذا هو مشروع الله على الأرض، أن يضطرب الناس وأن يكون الغني والفقير، وأن يكون المؤمن والكافر، وأن يكون الخير والشر، وأن يُقتل البريء ويُظلم الضعيف، وكأن الأمر فوضى، وكأن العالم يسير على غير هدى، وكأن قانون الغاب هو الفيصل. لماذا لا ينتصر الخير ويصبح الناس كلهم مؤمنين، أليس الدين دين الله ؟ فلِمَ لا يهتدي كل الناس وينقضي الشر وبواعثه ؟ هذا هو موطن الفتنة. وإن الله الخبير البصير جعل خلاص الناس بأيديهم وشرط لهذا الخلاص اقتحام العقبة، التغلب على البلاء والفتنة وعوامل الشك، ولو لم يكن سبب للشك لما كان للإيمان قيمته المخلصة. وقد طغى الإنسان لما استغنى بكشوفاته وعلمه وتأله وزعم أن التطور وصل به إلى قمة القوة والقدرة. ويخيل لهذا

الإنسان المستغني، لما يراه من ضعف دين الله وتأخر المسلمين، وهم المنتسبون إلى الحق، أن التاريخ يصنعه الإنسان كما شاء، بعمله وتعلمه. ومشروع الله سائر إلى غاية، ومقاليد الأمر بيده، وهو سبحانه يبتلي عباده، ويفتنهم ليعلم من يخافه بالغيب. وقانونه الأزلي سار على المؤمن والكافر، على الأفراد والجماعات. وحكمه أن يختلف الناس ويتنازعوا ويقتتلوا. يقول تعالى: ﴿**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ**﴾ البقرة، 251. فلا قيام للأرض وما فيها من عدل وخير إلا بتزاحم الناس وتدافعهم وتنازعهم، والأرض دار البلاء، والآخرة دار جزاء.

ومن تأمل تاريخ البشر لا يرى إلا حروبا ومذابح وفظائع، وسيبقى هذا العالم الأرضي في حركته الصاخبة حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وفي وسط العنف الجاهلي برز الإسلام يدعو للسلم منذ عهد آدم عبر سلسلة الرسل والأنبياء عليهم السلام. وما منع ذلك أن يقتل قابيل هابيل أخاه، وتغلب العنف على الإسلام، والسلام الذي يدعو إليه، في عهد نوح وموسى وعيسى. وبعث النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم ففُتِن بتنكر أهله له وكُفر قومه به، وفتن هو وأصحابه بأذى الكفار. ولما تمت الهجرة شرع الله الجهاد بالسيف لتمكين الإسلام في الأرض. وكان الجهاد قوة لا عنفاً. لأن العنف هو وضع القوة في غير موضعها. وما لنا أن نعرف أين نستعمل

القوة إلا بما علمنا الله، فإذا فعلنا كانت قوتنا المقاتلة قوة جهاد لا طغيان عنف. العنف حقد وانتقام ومغالبة على متاع الدنيا، أما الجهاد فقوة تفتح سدود الطغيان التي تمنع الناس أن يسمعوا كلام الله، وتحول بينهم وبين رسالته. وأمر المسلمون المجاهدون ألا يقتلوا صبياً ولا امرأة وأن لا يجهزوا على جريح، وأن يضربوا مكبرين الله بلا حقد ولا غضب. وروى التاريخ إن الإمام عليا كان يمسك عن الضرب وسط المعركة، فيسأل عن ذلك فيقول : «خشيت أن أضرب وفي قلبي حقد» لذلك كان يمسك حتى يذهب غيظه، لتكون الضربة خالصة لوجه الله.

وتجديد الإسلام في عصرنا الذي فاق كل العصور عنفا، على ما يبدو لنا، لا يمكن إن لم نتبع المنهاج النبوي لنعرف موضع القوة وموضع العنف. فنحن عائمون في الفتنة من كل الجوانب، فتنة الجاهلية الخارجية عن الأمة، وفتنة الأمة الداخلية بالمرتدين من أبنائها والشاكين والمترفين. فتنة التعصب القومي الذي يحسب أن القومية تميز عن الآخرين، فهي سبيل الخلاص. ومن ثم تكون القومية مولداً للعنف، ولا يعتبر في الآخرين الذين تريد القومية أن تتميز عنهم إذا كانوا كفاراً جاهليين أو مسلمين. ويسود العنف ويقاتل العربي العربي والبنجابي أخاه البنغالي، دفاعا عن القومية. ولنعرف مدى هذا العنف الذي غطى على الإسلام وسود وجه

المسلمين نتأمل الخبر الذي تناقلته الصحف والإذاعات أثناء كارثة باكستان. يقول الخبر: «إن الهند هددت الباكستان بأنها ستدفع أسرى الحرب الباكستانيين للانفصاليين البنغاليين، واحتجت باكستان على هذه الشناعة» وهكذا يكون الوثني الجاهلي أرحم وأرأف بالمسلم من أخيه المسلم. ولكنها القومية النتنة.

ما أسلوب الإسلام في العمل الداخلي تجاه قومية تسير في ركاب لون من ألوان الجاهلية العالمية. أنحمل السلاح ؟ وما أسلوب العمل للأمة في انبعاثها المنتظر، أتحمل السلاح في وجه العالم لتحرر الإنسانية ؟ أما عن هذا السؤال الأخير فسنجيب في الفقرة الاخيرة من هذا السياق عندما نعقد الحديث عن الجهاد. ونجد الجواب عن السؤال الأول في السنة النبوية، جاهزا ينتظرنا، وبإزائه في تاريخنا الحديث حجة دامغة تثبت أن المنهاج النبوي وحده هو طريق الخلاص.

يعقد المحدثون بابا يسمونه «باب الفتن» يوردون فيه ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلّم من فتن تأتي على أمته، ويوصي باعتزال الفتنة وبأن لا يحمل المسلم السلاح في وجه أخيه المسلم، وبالرفق والطاعة للأمير ولو جار ما أقام الصلاة. والأحاديث في ذلك كثيرة نقتصر على بعضها. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من**

خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقتل، فقتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه». (أخرجه مسلم والإمام أحمد)

وعن أبي هنيدة قال : سأل سلمة بن يزيد الجعفي رسول الله صلى الله عليه وسلّم فقال : يا نبي الله ! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ويمنعونا حقنا، فما تأمرنا ؟ فأعرض عنه، ثم سأله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : **اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم** (رواه مسلم). وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : «**من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية**». (متفق عليه). وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «**يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على سواه**» (رواه الإمام مسلم). وعنها أيضا قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : «**إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله**». (متفق عليه). وعن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلّم قال: «**من يحرم الرفق يحرم الخير كله**». (رواه الإمام مسلم).

هذا هو المنهاج النبوي : التؤدة والرفق والسمع والطاعة لئلا تكون فتنة. ومن عنف على المسلمين مات ميتة جاهلية، ومن خرج عن السلطان شبراً مات ميتة جاهلية. وهذا حق ورد عن المعصوم صلى الله عليه وسلّم ، ولا يحبه طبعا رجال العنف والانقلابية الذين ينشدون التغيير بقلب الأوضاع كما يقولون، ولا تلد لهم الفتنة إلا فتنة، ويلي الانقلاب الأول انقلابات، ولكل منهما تاريخ ميلاد يردد شعارا. وليس عند من له حكمة إلا إيذانا بأن انقلاب أيلول سيليه انقلاب شباط إلى أن تفتضح الانقلابات كلها بقلب الأوضاع الحقيقي في انقلاب حزيران، وما سيليه من أمثاله من هزائم متتالية يرينا الله بها لنرجع إليه ونلبي نداءه. ونداؤه إلى القوة الواعية قوة الجهاد المنضبطة، وإلى الرفق والتؤدة. ولن يحقق لهذه الأمة ما تريده من تغيير إلى حياة الكرامة من دار الهوان التي هوينا إليها إلا الصالحون المؤمنون أهل التؤدة عباد الرحمن. وينعت القرآن الكريم عباد الرحمن كما يلي: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً**﴾ الفرقان، 63. فهم هينون مسالمون، وهم مطمئنون رفيقون. والتاريخ الإسلامي يعرف كيف يجاهد عباد الرحمن وينتصرون، ويعرف أيضا كيف يؤخذ أهل العنف والانقلابية والقومية والإشتراكية أخذ الدجاج الجاثم في مربعه لا بأس له إلا على أمته. لو كنا عباد الرحمن الرفقاء لما ضربنا الله بصواعق

عقابه على يد أحقر خلقه عصابة صهيون. لكنا أغرقنا أمتنا في دماء بريئة وسفكنا أرواحا طاهرة وشنقنا وخربنا. وجاءنا انقلاب حزيران، ومن ورائه العقاب والسطوة والبطش الإلهي حتى نتوب.

وننظر الآن إلى الحجة التاريخية القاطعة في حياتنا المعاصرة على أن العنف لن يكون أبدا طريق المسلمين إلى الانبعاث. وكيف يكون وهو مخالف للمنهاج النبوي ؟ وحسبنا أن نقول قبل الخوض فيما لا بد من الخوض فيه، أننا نريد وجه الله فيما نعرض، ونريد خير الأمة وفلاحها، ونريد أن يذهب الغيظ من قلوب النخبة المؤمنة في دار الإسلام المتطلعة إلى موعود الله، المجاهدة في وجه الغزو الفكري للجاهلية الطاغية.

ظهر في أرض مصر منذ نيف وأربعين سنة شاب نشأ في عبادة الله، شاب تربى في أحضان الذاكرين، وجالس الأولياء والصالحين، فأعطاه الله نوراً وتوفيقا. وشع هذا النور في قلوب جماعة من المؤمنين لما قام الداعي إلى الله الشهيد الشيخ حسن البنا يبلغ رسالة ربه. ولعل الإخوان المسلمين اليوم لا يتدبرون، كما ينبغي أن يفعلوا ويفعل المسلمون أينما كانوا، العبرة الحية والدليل القاطع على أن الأمة لن تحيى إلا إن قام الدعاة إلى الله أهل النور الذاكرون بتبليغ رسالة ربهم كما كان حسن البنا، وكما فعل حسن البنا. وكأن الناس نسوا من أين جاءت هذه الطاقة النورانية التي هدى

الله بها ملايين على يد شاب أعزل إلا من ذكر الله خال إلا من روح الله. وسنرجع إلى شخص الشيخ الشهيد لنعتبر ونتذكر في غير هذا الموضع من الكتاب.

كانت حركة الإخوان المسلمين أعظم حركة إسلامية في تاريخنا منذ قرون كثيرة. وربى الشيخ رضي الله عنه شبابا طاهرين ضربوا للناس مثالا حيا للتبتل والإيمان والعمل، فكانوا في محاريبهم زهادا وعبادا، وعلى المنابر خطباء وفصحاء. وفي المعمل والمدينة أيد طاهرة نشيطة، وظمائر حية نظيفة، في وسط مجتمع خائر مفتون، وترف يلعنه الفقر والعرى والجهل والمرض العائثة في صفوف الأمة المستعبدة.

وقويت حركة الإخوان المسلمين، وانقاد للشاب المربي علماء فطاحل وذوو الحيثيات والمراكز. وخفق قلب الأمة في كل البقاع فرحا مسبقا بما تبشر به الحركة من نصر الإسلام ومن عودة إلى المجد الغابر. وكان للحركة أتباع في كثير من بلاد المسلمين، وكان لها مجلات وجرائد، وكان لها سمت ووقار، وكان لها هيبة. كل ذلك لأنها كانت دعوة رجل صادق نير القلب حامل الرسالة.

وكان الناس لا يعهدون من كل حركة إلا أن تتجه إلى ما تتجه إليه الأحزاب السياسية. فانضم للإخوان المسلمين بسرعة قوم كثير عددهم نشأوا على المطالبة السياسية، والأسلوب السياسي، والسمت السياسي. ومن ضمن كل هذه العنف. وكان مركز الدائرة شخص

الشاب المربى الصادق القوي، تميل إليه القلوب وتهتف بمحبته الألسنة، وتتجمع عليه طبقات الأمة تبذل في ما يدعو إليه النفس والنفيس. وظهرت فعالية الحركة فيما أقامته من مساجد ومعامل وأنظمة قائمة على شريعة الله، على النظافة والإيثار والمحبة.

وكأني بالشباب الطاهر ينظر فيما يسر الله على يده من خير، فيهيب بجماعته أن تتأهب لعمل أوسع وجهاد أنجع. وسعى للقاء فاروق ففزع فاروق وخاف أن يلقى رجلا يقال إنه ساحر يأخذ بألباب الناس ويستهويهم، ونطق الشيخ الشهيد رحمه الله في تقريره للمؤتمر الخامس للحركة بعبارات قد يفهم منها من شب على الأسلوب السياسي أن الرجل مقدم على معركة مسلحة، يقول الشيخ رحمه الله[1] : «وقفت نفسي منذ نشأت على غاية واحدة هي (إرشاد الناس إلى الإسلام حقيقة وعملا). ولهذا كانت فكرة الإخوان المسلمين (إسلامية بحتة) في غايتها وفي وسائلها، لا تتصل بغير الإسلام في شيء». وهذا كلام واضح. فالفكرة دعوة على المنهاج الإسلامي. وبعد هذا بصفحات يقول: «ونحن الآن، وقد اشتد ساعد الدعوة، وصلب عودها وأصبحت تستطيع أن تؤثر ولا تتأثر، نهيب بالكبراء والأعيان والهيآت والأحزاب أن ينضموا إلينا، وأن يسلكوا سبيلنا، وأن يعملوا معنا، وأن يتركوا

1 رسالة المؤتمر الخامس، مجموعة رسائل حسن البنا، طبعة دار الأندلس، ص 239.

هذه المظاهر الفارغة التي لا غناء فيها، ويتوحدوا تحت لواء القرآن العظيم، ويستظلوا براية النبي الكريم، ومنهاج الإسلام القويم، فإن أجابوا فهو خيرهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وإن أبوا فلا بأس علينا أن ننتظر قليلا وأن نلتمس المعونة من الله وحده حتى يحاط بهم، ويسقط في أيديهم، ويضطروا إلى العمل للدعوة أذنابا وقد كانوا يستطيعون أن يكونوا رؤساء»[1]. وفي هذا الكلام ما يشبه التهديد وفيه تلويح بالرئاسة لتكون حافزاً للعمل. ويقول بعد هذا، وهو يتحدث عن مراحل الدعوة وعن المرحلة التنفيذية : «وفي الوقت الذي يكون فيه منكم معشر الإخوان المسلمين ثلاثمائة كتيبة، قد جهزت كل منها نفسها روحياً بالإيمان والعقيدة، وفكريا بالعلم والثقافة، وجسميا بالتدريب والرياضة، في هذا الوقت طالبوني بأن أخوض بكم لجاج البحار، وأقتحم بكم عنان السماء وأغزو بكم كل عنيد جبار، فإني فاعل إن شاء، وصدق رسول الله صلى الله وعليه وسلم القائل : **ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة**»[2].

يقول هذا شاب في الثانية والثلاثين من عمره بعد بدء الدعوة بعشر سنوات تألفت أثناءها جماعات وكتائب وقوة منظمة. وفي الخطاب ما يفزع، وفيه ما يشير إلى تنفيذ مقبل ومعركة تغزو

---

1 المصدر السابق، ص 253.

2 المصدر السابق، ص 258.

كل جبار عنيد. وأول من يسمع الخطاب ويتدبره الجبابرة العنيدون، وقد كانت مصر موطن فرعون وجبابرته المترفين.

وعندما يتحدث الإمام الشاب عن الجهاد يرى أن الجهاد فرض دائم على الأمة، لكنه لا يميز بين العمل في وسط الأمة المفتونة وبين الجهاد لنشر الدعوة. وعندما تبلور فكر الإخوان المسلمين، على يد سيد قطب ومحمد قطب، يتخذ الجهاد لون الكفاح المنتقم العنيف.

ومهما يكن من أمره، فيترجح عندنا أن ثقل العناصر المتكاثرة المتسارعة تحت لواء الدعوة مال بالدعوة إلى العنف. ولم تتح الفرصة ليربى هؤلاء المنضمون تربية كاملة. وتسارع الإخوان المسلمون، مع أن قلم الإمام الشاب يكتب بإلحاح موصيا بعدم الاستعجال، وتسلحوا لقتال الإنجليز، وقامت حرب فلسطين فخاضوها وكانوا أقوى الجنود وأشجعهم لأن قتالهم كان جهاد المؤمنين. كل هذا وضع في أيد غير مسؤولة سلاحاً ومالا. وهكذا ظهرت إذاعة سرية ونظمت اغتيالات، وأنكر الشيخ رضي الله عنه معرفة الإذاعة والمنظمة السرية وهو الصدوق المصدق.

ونتج عن هذا أن فتن الإخوان المسلمون وقتل الشيخ رحمه الله برصاص فاروق، فاشتعلت الفتنة. وظاهرة واحدة تعطينا صورة عن عمق الألم واتقاد الغضب في قلوب الإخوان بعد اغتيال

الإمام. يروي فتحي العسال في كتابه عن الشيخ أن مولودة وُلدت له إثر وفاته، فحرص الإخوان على أن تسمى «استشهادا» لتنادى دائما : استشهاد حسن البنا، وتذكر بالمصاب الفظيع. ورفضت الحكومة الاسم، وألحت الأسرة على حقها في اختيار الاسم، فسميت البنت آخر الأمر: «استشهاد حسن البنا المشهورة بدماء». هذا يعطينا نظرة عن جو الألم والحقد المثيرين للعنف.

وجاءت الثورة، وخاب أمل الإخوان فيها، وظهرت مرة أخرى الأيدي الطائشة وفي يدها السلاح. وطويت صفحة مجيدة من صفحات الدعوة الإسلامية، أنصع صفحة في حياة الدعوة منذ دهور، طويت في جو قاتم عنيف. ومن حرم الرفق حرم الخير كله كما قال رسول الله صلّى عليه وسلّم. ولا يزال اليوم فلول الإخوان الزهرة اليانعة في حقل الدعوة الإسلامية، ولئن تحول اتجاه الإخوان إلى النشاط الثقافي وحده، فأملنا أن يتدبروا تاريخهم، وهو تاريخنا معشر المسلمين، ويبحث عن مواطن القوة فيه. وعسى أن يجدوا عندئذ رجلا ذاكرا يجدد لهم وردا ووظيفة وبيعة صوفية وتربية قرآنية عوضا عن أورادهم التي سهوا عنها بعد أن مات صاحبها. ومن هذا الانبعاث الروحي يتجدد الأمر كله. ومعذرة إليهم وإلى المسلمين إن اخطأت في الحكم، ويرى الحاضر ما لا يرى الغائب. وواجب النصح لا

يترك للجبن والرياء مجالا، وكلمة الله ورسوله أولى بالمؤمنين، وكلمة الله ورسوله التؤدة والرفق وعدم العنف. وكلمة الله ورسوله السمع والطاعة ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة لئلا يأكلنا عنف التعصب العرقي والقومي، وكلمة الله ورسوله السمع والطاعة للسلطان ولو جار لئلا تأكلنا الانقلابية.

إنه لا بد أن يبزغ فجر الإسلام في جاهلية اليوم كما أضاء فجره ظلام الجاهلية الأولى. وإن عند الله تعالى سر البلاء والفتنة، وبيده قلوب عباده وعنده لمن بادر للقيادة الجهادية الإسلامية جزاء من أحيا الناس جميعا. وعنده سبحانه حساب من ولي أمر المسلمين ولم ينصح ولم يخدم. يقول أبو يعلى معقل بن يسار الصحابي رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة**»[1].

والدعوة إلى الله لا تكون دعوة إلا إن سارت على المنهاج النبوي. ومن يرد أن يزيغ عن الرفق، بزعم الغيرة على ما يرتكب من ظلم، فذلك يريد أن يتولى الفتنة ويوقدها. وهذا سبيل المهدية، وهي ادعاء الهداية من دون الناس، وفي تاريخ المسلمين مهديون اشتهروا بالعنف.

1 متفق عليه.

ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بشر بخلافة على نهج النبوة تعقب الملكية الجبرية، ويرضى بها ساكن الأرض وساكن السماء، وقد عاثت الجبرية في الأرض فسادا، وكثر العنف والهرج، فهذا أوان رحمة الله، والله أكبر ولله الحمد. وفرق ما بين الإسلام والجاهلية إنها جهل بلا حلم وعنف بلا رفق والإسلام سلام ورفق وإلى الله المعاد : ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً**﴾ الفرقان، 20.

الاقتصاد الإسلامي

ثلاث كلمات تشع لنا من مشكاة النبوة لتنير لنا حلك الفتنة، ولتدل على المنهاج : السمت والتؤدة والاقتصاد. الاقتصاد معالجة القصد والصمود إلى الهدف بلا انحراف. وقد جاء في اللفظ النبوي: «الاقتصاد نصف المعيشة» وهذا اقتصاد معاشي، وهو صرف الموارد في وجوهها وعدم تبذيرها.

وكلمة «اقتصاد» تدعونا إلى التأمل في أمرين : أحدهما الاقتصاد بالمعنى المتعارف، وهو ميزان الأشياء والأطعمة والإنتاج والتجارة والصناعة، والمعنى الثاني هو الصمود للهدف الذي من أجله خلقنا حتى لا تفتننا الدنيا عن الآخرة، وحياة المادة عن طلب الكمال الروحي. وفي تأملنا نجد أننا أمة يعرفنا ميزان القوى الاقتصادية بأننا أمة متخلفة، وتلهفنا على تدراك ما فات يهوي بنا إلى الانغماس في المادة والانحراف عن القصد.

الإنسان في العالم تحكمه حاجاته الأساسية إلى الطعام والكساء والغطاء، فهو يكد ليحصل على قوته وكسائه. وليكون توزيع عادل نشأ نظام المجتمعات، والتحليل الماركسي لتطور النظم تبعا لتطور الاقتصاد لم تبق إشكالا في أن هذه الذرات البشرية الفردية تعنف وتتحارب ويستعبد بعضها بعضا ليحصل على أرزاق أوسع.

وهذا ما يسميه القرآن تكاثرا يزيغنا عن القصد. قال تعالى : ﴿**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾ التكاثر.

وحكم المؤمن على الجاهلية، إذا نظر إليها من زاوية الفلسفة، هو أن الإنسان الجاهلي لا يدرك نفسه إلا حيوانا اقتصاديا يضطرب به عنف عالم التكاثر. وليس يختفي تحت اسم الديمقراطية، ودعوتها إلى عالمية إنسية عمادها الحرية الاقتصادية «Economisme» ، لها ابتسامة المنافق وضراوة الذئب. والوجه الجاد العبوس الداعي إلى عالمية إنسية قوامها العدل هو وجه اقتصادية تسمى الاشتراكية. والإنسان في كل هذه الأنظمة أداة عمل وعامل للأخذ والعطاء للاستهلاك والإنتاج.

المسلمون فقدوا استقلالهم المعاشي، ولم يزدهم الاستقلال السياسي إلا عبودية. فهم طعمة للآكلين، يتحول السلاح في يدهم لعبة لا بأس منها، وترقد أموالهم في البنوك العالمية، وتباع أمتعتهم بيعاً بخساً، تستغلهم الأمم، ويستغنى صعاليك السوق العالمية على حسابهم. وكلما تحركت التجارة العالمية، وهي دائما تتحرك، نحو توازن جديد إلا وذهب من ثورتنا شظايا، إن ارتفعت العملات الأجنبية فنحن الخاسرون، وإن انخفضت فنحن الغارمون، وشروط التبادل

«Termes d’échange» في صالح الاقتصاد الأقوى دائما. هذه في العالم كتل اقتصادية جبارة تكونت ولا زالت تتكون، تنهبنا نهباً وتبخس تجارتنا لأننا أمة متفرقة. وفي يدنا البترول وفي أرضنا ثروات وخيرات، ولسنا نشكو من قلة العدد، لكننا في اقتصاد القلة عائشون. لم نتعلم كيف نشمر عن السواعد، وكيف نفكر ونبدع، وإنما تعلمنا أن نمد الأكف للمساعدات والقروض. وكل مال دخل إلى بلادنا مساعدة يزيدنا كسلا وتقاعسا، والذي يساعد ويقرض إنما يسمن ذبيحته إلى حين.

وبعد فإن اقتصادنا متخلف لأن الأيدي لا تعمل والعقول في كلال. ولكي نستقيظ للعمل نحتاج إلى تعبئة شاملة تغير العقلية، والعقلية هو موقف العقل عند عادات فكرية لاتتطور. ونحتاج إلى تعليم على قدر حاجتنا، وإلى تربية تنظر إلى الفعالية.

إن الإسلام يدعونا بإلحاح لإعداد القوة، والقوة في عصرنا ترتكز، كما ارتكزت طوال العصور، على اقتصاد حيوي متوازن. وسنختلف اختلافا تاما عن الدول المعبأة العاملة لرفع مستوى اقتصادها. سنختلف عنها، إن قامت قيادة إسلامية جهادية، في الاقتصاد بالمعنى النبوي الشامل، أي الصمود إلى الهدف لئلا نهبط إلى مستوى عالم التكاثر. أما الوسائل لتحقيق مبادئنا وأهدافنا

فلا مناص لنا من التفتح الكامل لنتعلم التقنيات، نأخذها أخذ عزيز مقتدر، بعزة من لا تبهره الاختراعات ولا تستهويه، وقدرة المصمم المجاهد، يعرف أنه صريع القوى الجاهلية اليوم أو غدا إن لم يتسلح بالعلم والصناعة.

تعبئتنا الإسلامية تصفيف واستعداد للجهاد. وللقائد المجاهد مكانه في الصف الأول. ويضرب المثل في التقلل والعمل. نسمع مما نسمع في دنيا الشعارات دعوة إلى التقشف، وهذه كلمة كبيرة جرداء لا تصلح إلا لاستهلاك كلامي فارغ. ومدلول الكلمة غالبا ما يبقى في حيز النوايا التي لا تتحقق. والتقلل هو البديل الإسلامي عنها. القناعة وإطعام الطعام، وإشراك الضعيف، وإعطاء الراعي حقه ولو كان بجبل صنعاء كما يقول الإمام عمر بن الخطاب.

لو كانت القدوة تفيد الهمم الراكدة لاستفدنا من تقلل الصينيين، ولو كان للهمم الراكدة أن تعتبر لاعتبرت بصنيع عدونا الصهيوني الذي أقام في الصحراء جنات. بالمال اليهودي العالمي كما يقول الفكر السلبي التبريري. وأولى لنا أن نقسو على أنفسنا ونقول لأنفسنا حقائق أنفسنا. ولست أتكلم من وجهة نظر القومية الضيقة الموتورة التي تريد أن تنتقم، لكن أتكلم من منطق واقعي إسلامي كفيل لنا باليقظة والانتصار. وعند الصبي لا تجد عقلا

ناقدا، وانما تجد عقلا مبرارا يحسن الصراخ متى أخذوا لعبته. الصينيون أمة كانت منذ عشرين عاما أمة ممزقة هزيلة تنوء أرضها بمآت الملايين من المرضى والمهازيل. ونفخ فيها قائد جبار روح التضحية والتقلل والاعتماد على النفس، فرفضت المساعدات، وسددت الديون ولبس الخاصة والحكام لباس العامة من الفلاحين، وتحركت الأمة وحييت وعزت، وهي الآن تريد أن تبرز وأن تنقذ الإنسانية المتخلفة. وأعداؤنا الصهيونيون أقاموا المزارع الجماعية، الكبوتزات على التعاون والتضحية ونكران الذات والتقلل الشامل. ويقول المهندس الفلاحي الفرنسي دومون في كتابه عن إفريقيا : «في وزارة الفلاحية الإسرائيلية يمكن بسهولة أن تميز بين الموظف البسيط في عنقه رباط الرقبة وبين رؤساء المصالح والموظفين الكبار والوزير وأعضاء مكتبه وهؤلاء لا يحملون رباط الرقبة. ذلك لأن كثيرا منهم أعضاء مزرعة (كبوتز)، ويدفعون لهذه المؤسسة الجماعية كل أجورهم. وما يبقى في أيديهم من تعويضات إنما يكفي لان يعيشوا في ضيق شديد. وشراء رباط الرقبة. وهي علامة الطبقة البرجوازية في الدول المتخلفة، يقتضي منهم حرمانا وتقتيرا. وعندما يصل الإفريقيون إلى هذا الوعي فبوسعهم أن يأملوا تحسن أحوالهم»[1].

1. l’afrique est mal parie, René Dumont P.76, ed. le Sevil.

وليس إلا أمرا طبيعيا لمن كانت لديه عقلية التفاخر بالبزة واللعبة الميكانيكية أن يكون اقتصاده اقتصاد استغلال «Economie de traite»، وأن تتسابق إليه وسطاء التجار بالسلع البراقة الكاذبة يدفع ثمنا لها خيرات بلاده. لذلك تكثر في بلادنا السيارات الفخمة ونستورد الأطعمة الفاخرة لطبقة المترفين وفلاحونا يدفعون الثمن ويتلمظون غيظا، ثم لا يعملون ولا ينتجون إلا في نطاق معاشهم القروي ولا يثقون بساكن المدينة إن جاء يعلمهم تحسين إنتاجهم لأنه يجيء برباط رقبته وبعنجهية المتحضر الذي يخاطب أمة من الأغنام.

ويزيد عوزنا وفقرنا بتزايد الطبقة المترفة التي تأكل ولا تُطعم وتستهلك ولا تنتج، وعلى حساب مال المسلمين يتوسع الجهاز الإداري بوضع أبناء العمومة والأخوال في سجل الموظفين الطفيليين. وكل من جلس بلا حق في مكان السلطة عاث وارتشى.

جهاز إداري ثقيل وعقيم، وثقة لا وجود لها بين الحاكم المترف والمحكوم المعنى. ولا نظام ولا عمل، ولا طاعة ولا ضمير. وخيراتنا تتدفق خارج بلادنا.

حارب العرب قومنا إسرائيل وانهزموا وما قالوا نحن مسلمون، وإن كان الذي انهزم هو العروبة التي اتخذها قومنا وثنا. ولو علموا أن العروبة والقومية والعصبية هي مصيبتنا وسبب هزيمتنا،

ولو رجعوا إلى الإسلام، وعملوا باسم الإسلام ورموا رباط الرقبة، وظهروا بالسمت الإسلامي والتقلل الإسلامي، لكان لهم بداية عمل جاد وتعبئة تؤدي إلى النصر. لكنهم لما يعرفوا أن معركتنا ليست في فلسطين ولا في البنغال وإنما هي في نفوسنا. إن امتطيناها وغلبنا شحنا وأثرتنا وشمرنا عن ساعد ألفت أن تمتد للارتزاق عادت إلينا القوة وعاد النصر. إن عدونا الصهيوني يخترع سلاحه ويصنعه بيده، فأنى لنا أن نقف أمامه بأسلحة مستوردة. إن جندي العدو يعتني بسلاحه لأنه يعلم كم كلف صنعه وكم يخسر إن أتلفه، أما قومنا فسلاحهم هدية وعطية نزلت من سماء الصديق الحميم، فلن ينضب معين الأسلحة، ولا علينا أن تلفت أو غنمها العدو. لن نكون أقوياء كما تشاء عزة الإسلام إلا إن عبأنا الأيدي والأدمغة والأموال لنبني اقتصاداً إسلاميا. وفي الغد القريب لا تلوح بشائر اجتماع الإخوة على إسلامهم ليكون لهم اقتصاد متكامل، وأي تكتل سياسي لن يخدم الهدف الإسلامي لأنه تكتل نفعي مصلحي. فلنرجع إلى طلبتنا عند الانبعاث الإسلامي المرجو.

الشح والأثرة وعادات الترف، والمال الهين المأخذ الذي تمطره الدولة على موظفيها عوائق لتقدمنا الاقتصادي. ولذلك تتعثر كل محاولات الادخار بالمغريات المالية أو بالمغريات النفسية. ولا بد من

تغيير شامل للبنية الاجتماعية لتتغير الأحوال. لا بد من محاربة المال الكسول، ومن قطع الواردات الترفية، ومن تخفيض لأجور الطبقة المترفة. وهذا عمل تعبئة لا يكون إلا في جو جديد تتحقق فيه نيات القيادة الجهادية في ميدان العمل بالتصفية والتربية والتزكية كما وصفناها آنفا.

التنمية الاقتصادية للشعوب المتخلفة فن يدرس مستقل، ولكل إديولوجية نظرها في ذلك. وسواء دعانا هذا الفن الجديد إلى البداية بالفلاحة كما صنعت الصين أو بالصناعة الثقيلة كما فعلت روسيا تحت عصا ستالين الغليظة القاتلة، فإن مصدر الطاقة العملية هو الوعي الجديد الذي يحول الإنسان ويعطيه هدفا وحافزا. وبالعدوى يسري الوعي الجديد من قريب لقريب، وبالمثل الحي للقيادة والنخبة الإحسانية الإيمانية تعود الثقة وتعود إرادة العمل. وليس الطريق طويلا إن صح العزم.

والتقلل هو المبدأ والوسيلة للادخار. ألا نرى مثال أمة أصبحت في ظرف مائة عام ثالثة دول العالم، على ضيق أرضها وقلة مواردها وكثرة سكانها. إنها اليابان، بنت اقتصادا يضرب به المثل في القدرة على الإبداع والتكيف والتنوع بعد حرب دمرتها تدميرا. وهي اليوم يحسب لها حساب في العالم لأن لنجاحها سرا. وسرها التقلل. من بلاد المسلمين أمم محظوظة أو قل مفتونة، دَخْل الفرد

فيها ينيف على ثلاثة آلاف وخمسمائة دولار سنويا، وهذا هو معدل دخل أمريكا. لكن دخل قومنا المحظوظين من مال لم تصنعه أيديهم ولم تسع إليه أرجلهم، وإنما نبع لهم من الأرض، فهو مال كسول لا ينشط إلا في يد أبناك سويسرا وإنكلترا. والأرض التي نبع منها المال أرض تبنى عليها القصور. وكم يساوي معدل دخل الياباني الذكي الألمعي العامل الصانع المخترع ؟ إنه لايتجاوز عند كتابة هذه السطور أربعمائة دولار في السنة، أي لايصل إلى عتبة الدخل الأعلى للبلاد المتخلفة وهو ستمائة دولار. ومن هذه الأيدي العاملة المتقللة تخرج إلينا بضائع الاستغلال التي ندفع فيها مالنا. ولن يتعلم المسلمون أن يأكلوا خبزاً وزيتاً ويبنوا بمدخراتهم معامل تحررهم من الاستعباد إلا إن هبت عليهم ريح الحياة، ريح الإسلام منعشة للأرواح والعقول ومحررة للنفوس من شحها.

وأي اقتصاد لا يكون إسلاميا إلا إن أذهب عنا لعنة الربا. وهذه مشكلة المشاكل، لأن عليها تنعقد المطامع والأنانيات الشحيحة. المال طغيان وكسل إذا أتيحت له فرص التكاثر الربوي. وبالأرباح الربوية تغرف رؤوس الأموال الأجنبية خيراتنا. وبها يزداد غنينا غنى وفقيرنا فقرا. ويظهر أن لا محيد عن الربا في الاقتصاد المعاصر. وقد رجعت إليه روسيا بعد أن رفضته عشرات السنين. واتخذته الصين حافزا للادخار بين طبقة الفلاحين. المال الذي يجلب المال مناط

الهمم الأرضية، وعليه مدار كل المعاملات، وكل التوظيفات. قال الله تعالى: ﴿**وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمّاً وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**﴾ الفجر، 19-20، وقال : ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾ آل عمران، 14.

ومن البديهي أننا لن نكون مسلمين، ولن يكون انبعاث إسلامي إلا بمحق الربا لأن الله محقه. ولعنته تطاردنا أبدا منذ اخترع ديدان الفقهاء الحيل الفقهية التي تلبس الربا زيا شرعيا وتفتري بذلك على الله. وسبب خورنا وضعفنا وتخبطنا هو أكلنا الربا. قال الله عز وجل : ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ**﴾ البقرة، 275. وقال عز وجل من قائل : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ**﴾ البقرة، 278. وحق علينا قول ربنا، فنحن لا نحاول أن نقوم إلا اعترانا دوار كأنما يتخبطنا الشيطان، ونحن نخسر ولا ننتصر ونغرم ولا نربح لأننا أكلنا الربا فحاربنا الله ورسوله. ومن حاربه الله فأين المفر ؟

اجتهد علماء المسلمين المعاصرون، واقترحوا حلولا للربا قد تكون سبب خلاصنا في تعاملنا الداخلي[1]. لكن الربا الذي

---

1 لعل أهم اجتهادات رجال الاقتصاد المسلمين المعاصرين وأحقها بالاعتبار نظرية الأستاذ محمود أبي السعود، انظر كتابه : خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي، بيروت 1965.

ندفعه لنجلب رؤوس أموال تنعش اقتصادنا يبقى بلا حل. اللهم إلا حلا واحدا شجاعا، وهو أن نبلغ بالتقلل حد الضرورة الأساسية، أغنياؤنا وفقراؤنا، وندخر ما لنا لنوظفه في مصالحنا. وقد فعلت هذا أمة وثنية، فهل يعجز الإسلام في انبعاثه أن يفعل ؟ إن الإسلام لا يدعونا للانغلاق على أنفسنا. ولا بأس علينا أن نتعامل مع الأسواق العالمية بشروطها وأن ندفع الربا للضرورة لغيرنا. قال تعالى: ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ الممتحنة، 8. والعالم من حوالينا عالم جاهلية، لكنه لا يقاتلنا في الدين. فلا بأس من الاقتراض والاستعانة. لكنه الحل الأدنى والهمة الأحط. ولن تأتي النتائج إلا جزئية وبطيئة.

والجانب الثاني من تأملنا للاقتصاد يدلنا على السعي نحو الهدف لئلا نتيه في تكاثر يصحبنا إلى المقابر، إننا ننتمي إلى العالم القلة، إلى عالم اقتصاده اقتصاد معاشي مقصور على استهلاك في دائرة الأسرة، وإنما أخذ اقتصادنا يتوسع إلى اقتصاد سوقي منذ قليل، فكيف نمت عندنا حاجات جديدة دفعت بنا من الاقتصاد المعاشي إلى الاقتصاد الاستهلاكي ؟ وكيف نتحامى أن تلتهمنا عجلة التطور، إن سلكنا مسلك الغرب في اقتصاده، وتدفع بنا إلى إنتاجية «Productivisme» تدور حول نفسها، وتحدد وظيفة الإنسان على

الأرض في الإنتاج، ولغاية تلبية حاجات تتجدد بتطور الإنتاج ؟ وكيف نتحكم في سلسلة التطور حتى تبقى علاقتنا بالطبيعة علاقة متزنة، فلا تفسد التربة باستغلال عجول طائش ولا نبذر المعادن والمياه، ولا نفسد الهواء والمحيط الطبيعي ؟

يبدو أن السؤال الأخير بعيد عنا بعدا شديدا، لأنه سؤال يرد على البلاد المصنعة المفعمة. ونطرحه أحيانا تشبها وتظاهرا في المؤتمرات العالمية. ومع ذلك فنحن صائرون إن عاجلا أو آجلا إلى ما آل إليه غيرنا إن لم نعالج المسألة على ضوء اقتصاد إسلامي فيه القصد والتوازن. ولابد في أول الأمر أن نسير على خطة غيرنا ووفق ما نقتبسه من خبراتهم. وفي ميدان العمل والإنتاج نتعلم كيف نتفادى التكاثر المبذر.

يعتمد الاقتصاد العالمي اليوم على عمادين، صناعة الاستهلاك وصناعة الحرب. وتفرض الصناعة الأولى على الضمير العالمي صورة التفاوت المخجل بين من يأكلون ومن لا يأكلون. وتفرض الصناعة الثانية صورة قنابل الذرة والهدروجين والكوبالت، وصواريخ الدمار.

في هذا الوسط يهدد الإنسانية شبح الانفجار السكاني وشبح حرب النهاية. ولا ينصرف اهتمام البلدان المتخلفة، مهد التكاثر

السكاني، إلى شبح الأعداد البشرية الهابطة على الأرض بمعدل مولودين في كل ثانية، بقدر ما تنصرف إليه عناية البلاد المصنعة الغنية. كما أن القنابل والصواريخ لا تفزع الأمم الفقيرة بقدر ما تفزع صانعي الأسلحة المطلقة.

وينتج الإنسان الهلوع وينتج، وتستغرق جهوده وأمانيه غريزة التكاثر فيبذر خيرات الأرض ويصنع أسلحة لا تكاد تخرج من مصانعها حتى يكون الاختراع العلمي عفى عليها. ويتخم الإنسان الهلوع ويتلف الطعام وثلثا سكان الأرض جياع. ويتمتع بالكساء والصحة وثلثا سكان الأرض عرايا مرضى. وليس في أفق إنسان الاستهلاك إلا معامل أوسع وبضائع أكثر تنوعا وإغراء، وعقول إلكترونية تسخر للإنتاج ومن أجل الإنتاج. وفي أفق البلاد المتكاثر سكانها هلع من المجاعات وما يتلوها من اضطراب وعنف. وخوفا من هذا العنف أن يستطير ويعبر الحدود تقوم الأمم الغنية بالمساعدات، وتبحث عن طرق علمية للتنمية. وتجيء هذه المساعدات للبلاد العاطلة الجائعة صدقات تفثأ من ضراوة الحاجة لكنها لا تدفع إلى العمل، أو تجيئها في صورة خبراء ينظرون في أوراقهم وتخطيطاتهم ولا ينظرون إلى الإنسان البائس بجهله ومرضه وكسله.

إن حاجة أمة مسلمة منبعثة إلى تغيير الإنسان أكثر من

حاجاتها إلى أي عنصر مادي مهما كان. وقد غير الإسلام الأول الإنسان وسما به إلى ذروة النشاط والعلم والقوة. وإن عدنا إلى ربنا عاد إلينا الخير. ومواجهة القلة المادية التي نعاني منها، وتلافي الوقوع في هلكة الابتعاد عن القصد والتهالك على المادة في دوامة الإنتاجية هو الحكمة التي تنتظر الإنسانية من يعلمها إياها. وليس إلا المؤمنون إن أقاموا وجههم لله كما فطرهم.

الاقتصاد بالمعنى النبوي العام يريد منا أن نمحو أنانياتنا الشهوية ونبذل ونؤثر على أنفسنا ولو كانت بنا خصاصة. وأن نشرك المحروم والبائس في أموالنا. وبهذا وحده يذهب عنا الهلع والعنف والقلق. قال الله عز وجل : ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّين الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ المعارج، 19-25.

والمسلمون أبعد الناس في هذا الزمان عن المواساة والتعاون، وكأنما أثقلهم ركام تاريخ مجيد عنيف فلجأ كل إلى خويصة نفسه، يعالج شؤونه لا يعنيه غيرها. وتاريخ القوم الأغنياء كان فيه عنف أيضا، لكنه على تعاقب الأجيال تعلموا من العنف حكمة التعامل على الحق والعمل الجاد للكسب، وخلف لهم تاريخهم رأس مال مجمع وخبرة ومهارة. أما نحن فقد ذهب تاريخنا وبقينا عالة،

نبكي على ما فات، ونتهم الاستعمار والإمبريالية، ونتهم المؤامرة الاستغلالية. لهف نفسي على أمتنا المسكينة، لو اتهمت نفسها وبدأت في العمل لكان أولى لها من الفكر السلبي التبريري. نعم فعل الاستعمار بنا الأفاعيل، ونهب وابتز، وكل ضعيف يؤكل في عالم التكاثر والتناحر، ولا يغرننا الاستقلال السياسي، فإننا سنبقى عرضة للاغتصاب مادامت فينا أمراضنا وعاداتنا وقابليتنا للاستعمار. والتجديد المنشود يعيد إلينا صفاء الفكر مع صفاء الروح، وننتقل من صبيانية العقلية التبريرية المتأوهة إلى عقل ناقد تربوي لايضيع طاقاته في الاتهام والدعوى على المجرمين.

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفرح بغفار قوم أبي ذر، لأنهم كانوا يجمعون ما عندهم من طعام في ثوب ويقسمونه بينهم بالسوية، ويقول صلى الله عليه وسلم : «**هم مني وأنا منهم**». وقد ابتلانا الله تعالى بالأوبئة والقلة والفضيحة بين الأمم لأننا تركنا سنة نبينا. واستأثر كل بما عنده لا يقسم للمستضعفين ولا يرحم. وإن الله تعالى يدعونا في محكم كتابه لنتدبر آياته في أنفسنا وحوالينا. وأخبرنا أن ما يصيبنا من شر فمن جراء أعمالنا. قال تعالى : ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ الشورى، 30. وإذا تدبرنا آيات الله في أنفسنا ومن حوالينا نجد أننا في خصاصة لأننا لا نعمل، وليس من قبيل الصدفة أن انهزم المسلمون، تحت راية القومية، في مدى أربع سنوات

هزيمتين منكرتين على يد أنجس أعدائهم وبإمارة امرأتين. فذل أكثر من هذا لا يوجد ! لنرجع إلى الله. قال العلي القدير : ﴿ **وَلَنبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ البقرة، 155. فانظر إلى بلاء الله، ولن يرفع عنا سوط التأديب الإلهي حتى نفيئ إلى أمر الله، وندين بدينه، ونحكم بحكمه بيننا.

تلعب بقومنا العرب وإخواننا المسلمين القوميين أيدي كل عابث ولا ندري من أين أتينا. والذي تكسبه أيدينا من تنكر لشرع الله نعده تقدمية تحررنا من رجعية إسلام عتيق فاته الركب. أليس قد قام رئيس دولة من دولنا يأكل في نهار رمضان جهارا ويدعو لقطع العلاقات مع التقاليد البالية العائقة عن النمو؟ ولو فكر المفتون وأعطاه الله نورا لأدرك أن الصيام لا يعوق عن الإنتاج من يصوم إيمانا واحتسابا، ومن يكون حراً مالكا لوقته ووسائله. وما شرع الله للصائم أن يعمل في حر الهجير خاويا. ولو كان يملك وقته لغير أوقات عمله وفق ضرورات الصوم. وإن المسلمين المؤمنين المجاهدين انتصروا في بدر في رمضان وفي حطين أمام الصليبين، وهذا أعظم الجهد وأشده، تبذله القلوب المؤمنة المنطوية على التقوى والاحتساب.

وتلك عاداتنا في الكسل والتبرير والجراءة على الله، ولن يغير الله ما بنا حتى نغير ما بأنفسنا. هلا نظر المغرور إلى أثرتنا في تقسيم

الأرزاق، وهلا تدبر إيثار أعدائنا وحكمتهم. أولئك خلعوا رباط الرقبة ونحن في القصور والدثور. بين أجر أبسط عامل في بلادنا وبين أجر أكبر موظف نسبة واحد إلى مائة، ولا نذكر الأغنياء : أكبر موظف يأخذ من الدولة مائة ضعف أجرة العامل الفلاح إن كان محظوظا ووجد عملا. ولو كان هذا التفاوت الفاضح على ميزان العمرية لهان الأمر : الرجل وبلاؤه، والرجل وسابقته في الإسلام، والرجل وحاجته. لا وربك، إنما تنتهب أرزاقنا نهباً. وما كان لذوي البلاء والسابقة في الإسلام أن يأخذوا من مال الله فوق حاجاتهم لئلا يضيع الراعي بجبل صنعاء. لكنه عندنا مال الدولة وليس مال الله. ولنحن أكثر ظلما للمسكين من أفحش النظم الرأسمالية. وإزاء هذا نجد نسبة ما بين أحط الأجور وأعلاها عند روسيا واحد إلى عشرين. وإزاء هذا، وصدق أو لا تصدق فقد شهد به الأعداء، نجد نسبة أحط الأجور إلى أعلاها في الصين الجديدة نسبة واحد إلى أربعة ! الوزير يتقاضى أربعة أضعاف أجر العامل الفلاحي ! هذا العدل هو الذي أعطى الثقة للملايين العديدة في بر الصين، فأخذت تعمل وتكد وتبني الأمة العملاقة في سنين قليلة. وصلّى الله على سيدنا محمد الناصح لأمته، حيث أمرها أن تطلب العلم ولو بالصين، وقد آن أن نتعلم، فإن لم نتعلم فسلسلة البلاء لنا بالمرصاد.

القنابل الذرية ليست في متناولنا، ولن تكون. وليس لنا أن نضع السؤال اليوم، ولا أن نتيه في حسابات غد علمه عند الله. أما الإنفجار السكاني الذي يفزع العالم المترف الأول والثاني، فهو سعدنا ومدد الله لنا. وقد حشيت أدمغتنا بالدعوة إلى تحديد النسل، واتخذت الدعوة مكانها في التخطيطات «الجادة» للتنمية. ونحن نسمع ونطيع لأننا عبيد الفكر الجاهلي، ولأننا لا نملك أنفسنا ولا وقتنا ولا وسائلنا، فلا يظهر لنا رأي غير ما يراه الخبير الطاعم الكاسي. وترانا نتسابق في تطبيق «البرنامج» ونقنع الأرحام أن تعقم فلا تلد، ونقنع الناس أن الولد خطر على أرزاق الأمة. ولو قلبنا المعطيات الإحصائية بعقل حر وعزيمة على الجهاد، لظهر لنا أن العدد الكثير يعني الزيادة في السواعد العاملة، وأن زيادة السكان مدعاة إلى التقلل العام الشامل الذي يحيد بنا عن طريق الترف. ثم إن الخبراء أنفسهم في خلاف شديد، لا يسلم بعضهم لبعض أن تكاثر السكان لا يساعد على النمو حتى في البلاد المتخلفة[1]. وحرم الله قتل الأولاد مخافة الفقر. قال تعالى : ﴿**وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم**﴾ الإسراء، 31. وأحل رسول الله صلى الله عليه وسلم العزل لمن كان له عذر. وهذا هو القول الفصل، ولن يكون لأمة الإسلام في انبعاثها أن تتخذ تحديد النسل مذهبا عاما، وتبقى الرخصة للأسرة على

1 انظر كتاب تحديد النسل للأستاذ أبي الأعلى المودودي.

حسب ما يقضيه معاشها وظروفها. وتكاثر عددنا سعدنا ومدد الله لنا لأنه يشكل ضغطا على المترف والكسول لينزل الناس سواسية إلى التقلل والتعاون والتواسي، وتكثر أمة الإسلام طاهرة مجاهدة مؤمنة برسالة ربها، ويتحقق عندئذ رجاء صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام حين أمرنا : «**تناكحوا تناسلوا فإني مباه بكم الأمم يوم القيامة**» ويا خجلتنا إن جئناه عى صورة أعمالنا في الدنيا بعضنا بطين متخم كسول وبعضنا أكل الحقد قلبه يلعن من حرمه وأفقره، وإلى الكفر صيره، وقد «كاد الفقر أن يكون كفرا» كما يقول مولانا علي.

حاجتنا في انبعاثنا، أول ما نحتاج، للنخبة المؤمنة المجاهدة، تعلم الجاهل، وتضرب المثل للقاعد عن العمل، وللشحيح بما في يده، ريثما يتم التنظيم بوازع السلطان. وقد رأينا كيف تتكون هذه النخبة وكيف تربى وكيف تحقق ما حققه غيرنا من النمو الاقتصادي السريع، وهم قوم لا يرجون الله ولا اليوم الآخر وإنما يحفزهم للعمل الشرف الوطني والحماس القومي الثوري.

أضع هنا مثالا آخر من الصين لنتعلم، ولا يتأتى بوجه أن يقال : إنها دعوة لإسلام شيوعي أو صيهيوني لأني أقسو على الأمة المسلمة وأسرد لها شاهدا من عدوها. فهي النصيحة والتواصي بالحق

والصبر وإلا فنحن قوم خاسرون. ومثالي الذي أضعه تحد لشبابنا المثقف خاصة منهم من يدعي التقدمية والتضحية، ولا يقدر أن يعمل إن جاء وقت العمل. يقول روني دومون ناقلا عن كاتب يدعى كلودروا : «إن شابا صينيا حصل على دكتوراه في القانون من باريس بعثه الحزب ليشرف على الإصلاح الزراعي في الريف الضائع وسط الصين. وبدأ عمله بأن عاش في بيت أفقر فلاح في القرية، يعمل عمله، ويأكل طعامه، ويسكن معه في حجرته الوحيدة ويبيت قرب سطل العذرة»[1].

هكذا يعملون، وتحت أعيننا تبرز للوجود أمة قوية بعد أخرى بالتعبئة الماركسية التي فتنت العالم وفتنتنا. وإسلامنا يلعننا نحمله عبئا وقد جاءنا ليحررنا ويضع عنا إصرنا والأغلال التي كانت علينا. وتتيه الإنسانية، وتصير من جاهلية ذات رأس واحد استعمرتنا دهورا إلى جاهلية متعددة الرؤوس، ويفعل ذلك قادتنا وينحازون ويجرون الأمة إلى الصف الجاهلي ويكفرونها، وسوط الله عليهم لن يرتفع حتى يتوبوا ويتعلموا من آيات الله في أنفسهم ومن حواليهم. وتهلك الأمة كلها وفيها الصالحون لأن الخبث فشا وكثر. والدواء عندنا بين ظهرانينا، ولا ينبت في دار الإسلام غير الإسلام، وكل

1 المصدر السابق، 213.

نبتة خبيثة استوردها المفتونون تسمم الأمة ولا تعطيها صحة، وتفقرها ولا تطعمها.

ونرجع للاقتصاد لنعرف أن الإسلام يقصد بالإنسان الجانب الأيمن، جانب الطهارة والسعادة في الدارين، والسير إلى رضى الله هو الاقتصاد، واقتصاد المعيشة شرط لقوتنا على حمل الرسالة، وله قيمة نسبية، وليس هدفا لحياة الإنسان على الأرض. وإذا كنا نقارن بين أنفسنا وبين الجاهليات المعاصرة، فلا نقصد إلا الجانب المادي من قوتهم، وهي القوة التي نحتاج اليها، وعندهم الحكمة الإنسانية والخبرة، وعندهم تجارب تتجدد ويمكن أن نتعلم منها. وبعد ذلك فهم لا يزالون ينتظرون الخلاص، وينتظرون الجواب المركزي في حياة كل فرد ليخرجوا من حيوانيتهم. هذا السؤال لا تجيب عنه المعامل ولا المتاجر ولا البضائع : من أنا والى أين أصير ولم خلقت ؟ ويجيب عن هذا السؤال الإسلام، ويعطي المنهاج المؤدي للخلاص. ويعرض على الهمم معراج الرقي الروحي : إسلام فإيمان فإحسان، طاعة وجهاد وبذل، وهدم لأنانية النفس التي تحجبنا عن الله وذكره. ولكيلا نزيغ عن القصد، ونلزم الاقتصاد بالمفهوم النبوي، نرجع إلى المنهاج النبوي، والمبايعة النبوية والتعبئة النبوية والسمت والتؤدة.

الجهاد في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله هو العطاء الذي لا ينقطع للثمن الذي بايعنا الله على أدائه نظير ما يذخره لنا في دار الجزاء. قال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾ التوبة، 111. وقال : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ الحجرات، 15. وإنما كلمة تدل على الحصر، فالآية تقول إنه لا إيمان بدون جهاد بالمال والنفس في سبيل الله. وسبيل الله كلمة تذكر ومعناها غامض. وبتقصي آيات الله نعرف أن المقصود بسبيل الله هو حمل الرسالة وتبليغها. فكل جهد يبذل ليكون المسلمون أقوى وأشد شكيمة وأكثر إيمانا وتقوى فهو في سبيل الله. وإن كان للمسلمين ذلك فكل جهد بالمال والنفس لتبليغ رسالة الله فهو في سبيل الله. والمعنى الجزئي للجهاد العالق بالأذهان هو قتال العدو الكافر. وهو جهاد جزئي لايغني فتيلا إن لم يكن كل مؤمن في تعبئة مستمرة متجددة يبذل ثمن خلاصه في كل صباح ومساء، حيثما كان بقدرته العقلية والجسمية وبماله، يتقلل في المعاش ليحيي الإسلام. وكل جهد فاض بعد أن يقوى المسلمون، إيمانهم وذات يدهم، وبعد أن يصبحوا أهلا لحمل الرسالة فهو في سبيل

الله إن كان متوجها للضالين والكفرة بصفة الهداية لا العنف. ﴿**لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾ المائدة، 42، ولا إكراه في الدين. وإن كان من مفكري المسلمين المعاصرين من يريد أن يكون الجهاد لتبليغ الرسالة عن طريق السيف دائما فذاك اجتهاده. ولنا نحن أن نكب على حاضرنا الضعيف، وهو حاضر يطرح علينا سؤال : من أين الطعام والكساء، ومن أين العلم والتكنلوجيا، ومن أين القوة لندفع العدو الغازي ؟ فجهادنا أولا جهاد بناء أمة منهزمة مشتتة. وعلى أبناء جيل آخر أن ينظروا في أمرهم، ويختاروا أن يكونوا أمة مقاتلة إن شاؤوا وقدروا.

على أن الله تعالى الخبير القدير ما أرسل الأنبياء والرسل إلا ليقوم الناس بالقسط. قال تعالى : ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ الحديد، 25، والقيام بالقسط هو القيام بالتوازن الإسلامي والسمت الإسلامي في عالم الشهادة، ليكون حضورنا بهذا السمت ومثولنا بين الناس تبليغا عمليا وحملا للرسالة بالمثال والقدوة.

وقبل أن نرجع إلى الشهادة بالقسط، وهي زبدة كل جهاد، نريد أن ننظر في كتاب الله وسنة الرسول الكريم لنهتدي إلى حكم الله في المجاهد والقاعد. وذلك لأن الأمة الإسلامية في مجموعها

تقف موقفا سلبيا من مبادرات الذين يجددون لها بلاء بعد بلاء، وتكون «الأغلبية الصامتة»، وهي تقدر لو كان لها روح ونور أن تجتمع على خيارها لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وما تركت زحمة التاريخ العنيف الذي أضعف الأمة، وما ترك المفتونون من أبنائنا مهلة للأمة لتتبصر وتختار. لذلك اجتمعت على زعماء سياسيين ذوي مبادئ تقتبس من الغرب والشرق، ولا تقتبس من القرآن. وهكذا بدأت الأحزاب السياسية بالمطالبة بالاستقلال، وكان لا بد أن يخاطبوا المستعمر بلغته ومنطقه، لكن تحول هذا المنطق المستعار في أيديهم إلى عقيدة سياسية. وتبعت الأمة قادتها من الساسة، هم ينادون بجهاد العدو والمستعمر، والأمة تبذل مالها ودمها بنية جهاد، ونية الساسة وتصورهم للعمل تصطبغ بصبغة الكفاح السياسي أو الثوري، ولا يقولونها للأمة جهارا لأن الأمة مسلمة لا تستجيب إلا لداعي إسلامها. ونجح مثقفونا المغاوير في مسخ ضمير الأمة لكثرة ما رددوا من شعارات الثورة والنضال، ويوم واجهوا العدو الصيهيوني واجهوه باسم النضال الثوري، ونفس هذا النضال هو الذي شتت الصف وهو الذي باسمه نحيت نخبة الضباط عن القيادة العسكرية. وهكذا تحولت الأمة المجاهدة إلى جماهير شعبية حين تحول قادتها المثقفون إلى زعماء أبطال، هواهم مع القيم الاستعمارية التي تربوا في أحضانها. وغداة التحرير الوطني يضع المجاهد الشعبي سلاحه ويفسح المجال

للقادة والزعماء، فيرفع هؤلاء شعار الوطنية والقومية، ويحدث ذلك ضجيجا وحماسا في صفوف الأمة، ثم يفتر الحماس ويموت الحماس وتذهب الثقة لأن القادة والزعماء لا يحسنون البناء كما يحسنون صوغ الشعارات والخطابات، ولأن مقاومتهم للمستعمر كانت مطالبة ساذجة بالاستقلال ولم يصحبها استعداد وإعداد. وترى الذي كان بالأمس هتافا بشعار الوطنية والإخلاص والشهامة يتحول ذئبا أو ثعلبا عندما توضع في يده الأمانة. ويستعصي الأمر في يد الزعماء وينقلبون أو ينقلب بهم، ويهزمون في كل الميادين. وأحيانا يبدو لهم بصيص من شعاع الحكمة الأمية فينطقون في خجل وتلعثم باسم الإسلام. فمنهم من يجعل الاشتراكية مرحلة إلى الإسلام. ومنهم من يرى أن الإسلام يؤدي إلى الإشتراكية، ومنهم من يحط الرحال في درب الديمقراطية الإسلامية وهلم جرا.

كل هذا التضليل، وكل هذه الثقة المفقودة، وكل هذا الجهل بالإسلام حتى إنه ليرد إلى قيمة نسبية أرضية يقبل المقارنة مع الأنظمة الوضعية ويكون مرحلة لتحقيقها، كل هذا يطلب جهادا، جهادا في الهداية وفي رد الثقة وفي تعليم الإسلام وفي تربية المؤمن القوي الأمين. والمؤمنون القادرون على الجهاد قعدوا لما رأوا الفتنة، وخفتت أصواتهم، وإذا ارتفعت فإنما ترتفع للمطالبات

الجزئية بتحريم الخمر مثلا أو محاربة العري، كل ذلك مع كثير من الحوقلة وقليل من العمل. فما بال القاعدين، من انزوى إلى ركن المسجد يحوقل، ومن طلق أمر المسلمين لا يهتم به ؟ أهم مسلمون ؟ أهم خائنون لواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟

افتقد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان في سفر، أحد أصحابه. فأتي به إليه. فقال الرجل: «إني أردت أن أخلو بعبادة ربي وأعتزل الناس». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فلا تفعله ولا يفعله أحد منكم قط، قالها ثلاثا، فلصبر ساعة في مواطن المسلمين خير من عبادة سبعين سنة**»[1].

وقال الله عز وجل : ﴿**وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً**﴾ النساء، 95.

القاعدون مفضولون، والمنزوي عن أمر المسلمين لم يؤد واجب الصبر وواجب الحق. لكننا نجد حديثاً آخر يبين بيانا أكثر مقام من خشي الفتنة واعتزل الناس وكفاهم شره. وفي هذا الحديث مخرج للقاعدين اليوم. وإنما نجلي هذه النقطة لأن من الناس من يكفر الأمة لأنها لم تجاهد لترد الفتنة. وإذا أذن الله للإسلام بانبعاث فقد يجد من كان بالأمس ساكتا قاعدا الحرج في العودة إلى الجهاد، الجهاد كما يليق بالفتنة، جهاد إعلان الإسلام

1 رواه أبو داود في مسنده عن عسعس بن سلامة.

وجهاد ذكر الله وذكر رسوله بين الغافلين. ذلك لئلا يكون وسط الملحدين، وجهاد القيام بالقسط والشهادة به بين الظالمين، وجهاد ذكر الله وذكر رسوله بين الغافلين. ذلك لئلا يكون الجهاد تناكرا وتنافرا وتلاوما. يقول هذا الحديث الشريف: «**من خير معاش الناس رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ليس من الناس إلا في خير**»[1]. فالذين انحازوا إلى مساجدهم أو بيوتهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، الذين رجعوا إلى إسلامهم الفردي أمام الفتنة الطاغية، هذه الأكثرية الصامتة إن عادت إلى الجهاد فستعود على بينة من أمرها، وعلى مثال السوء الذي ضربه للأمة ولدان لا تقوى لهم ولا أمانة ولا ذمة.

لكن من يضمن لنا أن يكون للمسلم الفردي الوعي والاستعداد للانضباط ؟ من يضمن لنا أنه أهل للأمانة ؟ النضال مدرسة تربوية للمناضلين، ولذلك تكون للشيوعيين الصينيين نخبة قوية تخرجت من مدرسة عشرين عاما من الكفاح المسلح تخلف أثناءه

1 رواه مسلم عن أبي هريرة.

الجبناء والضعفاء، ولذلك نجحت الثورة الصينية. أما القاعدون من المسلمين، وكلنا قاعدون، فإن إعلان ولائهم لله وشرعه وسنة نبيه لا يكفي مؤهلا لحمل أمانة الجهاد. فمن يجاهد إذن ؟ القاعدون بالأمس من كان منهم في السياسة أو في عقربيته. والعودة إلى الجهاد توبة. ونعرف مؤهلات الناس في الميدان، ميدان العمل والبذل والجهاد. ويبدأ الإسلام كما كان بدأ أول مرة، ويكون المرء وبلاؤه، والمرء وسابقته في الإسلام، والمرء وقدمه في الإسلام.

الأمة بما هي أمة تتحدد وتتميز عن الأمم بصداقاتها وعداواتها وعلائقها المنفعية. وقيام انبعاث إسلامي سيثير اهتمام الأمم وخوفها وشكوكها. لا سيما واسم الإسلام مقترن في الأذهان بالجهاد المقاتل بالسيف والعنف. والعنف كان بدأه الصليبيون الغزاة، وحين اكتووا بنار الجهاد وكلمتهم شوكة المسلمين بقي اسم الجهاد في ضمائرهم علما على القتل والسفك. وفي عصرنا عنف شديد يتستر تحت أسماء مستعارة وتحت ظل توازن نووي عالمي. فإذا برز الإسلام برزته المرتقبة فستشرئب الأعناق وتتسمع الآذان ليعرفوا أجاءهم إسلام الجهاد، كما يتصورون الجهاد، ليفسد جو التعايش السلمي كما يسمون عنفهم المتستر. وإن الله حدد لهذه الأمة وظيفتها في العالم، وعين لها مطالب العداوة والمودة، وهذا كتاب الله يرشدنا إن أردنا رشادا.

بعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين ليقوم الناس بالقسط. فالقيام بالقسط وظيفة كل أمة مسلمة، وظيفتها أن تنتصب قائمة تعيش إسلامها بين الناس بقوة ونصاعة، ويكون قيامها هذا امتدادا للتبليغ الذي أمر به المرسلون. وهو تبليغ بالنموذج الحي القائم الذي يقول : هاؤم أمة مسلمة، انظروا إلى نظافتها ومودة أفرادها، وقوتها وتوازنها وكرامتها وأمنها ! فجهادنا بين الأمم قيام بالقسط أي بالميزان الشرعي والتوازن المطمئن. وفي عصر مضطرب كعصرنا، انتشر فيه العلم وتيسرت وسائل التعارف والتقارب والتواصل تكون الأمة المسلمة المنبعثة معرضا مفتوحا ترد عليه الأقوام لترى ما يحققه الإسلام لأهله من رخاء وأمن وسعادة. وقد حمل المسلمون السيف ليجاهدوا أعدائهم الذين أخرجوهم من ديارهم، ثم ليحرروا أمما مستعبدة لا يترك طغيان حكامها أن تبلغها الدعوة ويتيسر لنا ما لم يتيسر لهم، فجهادنا أن نبلغ بالمثال الحي وأن نقدم البرهان العملي قبل أن ننظر للناس، وهم اليوم يرون كل عشية ما يجري في العالم ويسمعون، ولا يؤمنون إلا بما يرون. يؤمنون مثلا بقنابل الصين وصواريخ أمريكا، لكن لا يؤمنون بالعدل ولا بالحرية والأخوة لأنها لا تتحقق لهم أبدا. وعندنا، إن آمنا بالله وجاهدنا فيه حق الجهاد، ستتحقق. وبذلك نبلغ الإسلام أحسن التبليغ وأبلغه، وتأتينا الأمم لتسأل عن سر أمننا

الاجتماعي وأخوتنا ورخائنا.

جهادنا في وجه الأمم جهاد إحصاآت، والإحصاآت هي أفصح لغات العصر وأكثرها دقة في التعبير. وإن روح العصر مادي محض، فأول ما ينتظر العالم منا أن نبرهن عن قدرتنا في إنتاج طعامنا أولا ثم في مزاحمتنا للأسواق العالمية بمنتوجاتنا بعد التصنيع. ومع مادية العصر فإن الإحصاآت التي تدمغ حجة الجاحد وتبلغ دعوة الإسلام هي التي تتعلق بالإنسان. الإسلام يصد المجرم عن جريمته ويدفعه عن الخمور والمخدرات، المسلم هادىء أمين، المسلم نظيف، المسلم عالم عامل، المسلم يؤثر على نفسه، وكل هذه حقائق تعبر عنها لغة الإحصاآت. ونعلم جميعا أنه ظهر في أمريكا التعصب والإجرام. مسلمون سود، وظهورهم على مسرح تاريخنا المعاصر آية من آيات الله معروضة علينا لنتدبر، إنه إسلام لفت الأنظار، خاصة أنظار الأمريكيين أنفسهم، لأنهم شاهدوا التحول السريع للزنجي العنيف القذر، كيف يصبح نظيفا منضبطا ناجحا في كل أعماله. ومع هذا فهو إسلام اسمي، إسلام يحدد نفسه بكراهية الشيطان الأبيض الأمريكي، وليس له بإسلام الرسل إلا علاقات وهمية. رجل اسمه إليا محمد يدعى أنه نبي ويحمل القرآن والتوراة ويعلم قومه صلاة ليست صلاتنا ووضوءاً ليس وضوءنا وعلما ليس علمنا بالله ورسله وغيبه. ومع ذلك فاسمع لما

يقوله أحد تلاميذته : «فإن هذا التبديل المتزايد في المعتقد يقلق علماء الإجرام قلقا بالغا... ربما سمعتم الحديث عن حالات لا حصر لها، قامت بعلاجها أمة الإسلام لانتزاع سم الإدمان. فقد كان مدمنو المخدرات يتوقفون صراحة إلى حد أن هيآت الصحة العامة كانت تطلب من المسلمين أن يبوحوا لها ببعض التعاليم»[1].

إسلام مبتور تبهر نتائج إصلاحه للإنسان علماء الإجرام والهيآت العامة للصحة. إسلام متنبئ جاهل، لكنه منظم. فما يكون لو انبعث الإسلام الحق ؟ إن العالم ولا شك يكتشف في مدة وجيزة الحضارة والتعاون الإنساني في أروع مظاهرهما، ومعهما نظافة الإنسان وطمأنينته. وابتداء مما يدخل تحت الإحصاء نتمم التبليغ فنعرف الجاهلية بقيمة الإنسان الخالدة عند الله المخلوق للكرامة والجنة.

تجاه العالم يخرج الإسلام قوة مسالمة، لكن قوة على كل حال لئلا نكون طعمة لكل آكل. وإعداد القوة والسلاح واجب مقدس. وجهاد الدعوة لن ينال الجاهلية خيره إلا عبر الإحصاآت.

نسميها جاهلية تسمية تحقيق لا تسميه كراهية وعنف، وليس لأنظمة الناس خارج حكم الله وشريعته إلا هذا الاسم. جهل بقيمة الإنسان وجهل بلا حلم. الإنسان الجاهلي للتراب والدود بعد موته،

1 مذكرات مالكوم إكس، الترجمة العربية، ص 224.

وهو في حياته للكدح والنصب والتكاثر. وما يجيء الفلاسفة بخير من هذا ؟ وحين يسألون : الإنسان لمن ؟ فأفضل جوابهم تجده عند هيدجر : الإنسان للموت ! وحين يدعون اللاعنف كما ادعى غاندي، فإنما كان ادعاء جبان خائر، وتحين له الفرصة فيعنف، وقد عنف غاندي على المسلمين في حياته وخاتلهم، وانقض خلفه على باكستان المسكينة الخائرة التي خانها ذووها.

حد الله للأمة الإسلامية مطالب عدائها وولائها فقال : **﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى﴾** المائدة، 82، فاليهود كانوا ولا يزالون وسيبقون العدو. والذين قالوا إنا نصارى علم الله أنهم كفروا حين زعموا أن الله ثالث ثلاثة، ومع ذلك فهم أقرب مودة إلينا. والعداء الصليبي حملت وزره الكنيسة المستعبدة للناس وتحمل اليوم وزر الدس القائمة به جيوشها المجيشة من المبشرين. ويشغل رجال الإسلام دس التبشير على الإسلام وكيده وما فتن المبشرون، رغم أموالهم القارونية وجيوشهم المنظمة، معشار ما فتن الإيديلوجيون. وكيد الكنيسة عقيم وسلطانها على الأمم المسيطرة ضعيف. وسياسة الإسلام المنبعث سلام لمن قالوا إنا نصارى ولو كانوا في حضن البيروقراطية السوفيتية مستعبدة إخواننا داخل حدود السور الحديدي. وسياسة الإسلام المنبعث سلام لمن على الأرض

إلا عدونا الذي عينه الله لنا في القرآن : اليهود والذين أشركوا. وأصحاب الشرك هم غير الأمم التي لادين لها. وما أقرب الكلمتين اللتين يتسمى بهما من صب الله علينا عذابه بهم جزاء ما كسبت أيدينا، اليهود والهنود ! ما أشبه الحرف والمعنى !

الإسلام سلام، وجهادنا جهاد قيام بالقسط وشهادة به بين الناس. وجهادنا الأكبر على أنفسنا لأن من شحها وأنانيتها جاءنا الخلل والفشل. رجع رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من غزوة فقال : «**رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر**». ويقف معاصرونا من رجال الإسلام أمام هذا الحديث حائرين، يستعظمون القتل بالسيف ومخاطر الحرب المصطفة ويستقلون جهاد النفس الذي سماه الرسول جهادا أكبر. ومن لم ينتبه لنفسه ويعرف ميلها الدائم إلى شهواتها وما يجب من صبر ومصابرة لردها إلى الحق لا يفقه كلام النبي. إن قتالك للعدو وقفة وصدمة ساعة، ونفسك ساكنة بين جنبيك تجرك للهلكة في كل حين، فإما أنت غافل تطلق حبلها على الغارب في «تعايش سلمي» لذيذ، وإما تريد أن تكون مؤمنا، ولن تكون مؤمنا حتى يكون هواك تبعا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلّم كما جاءنا في الحديث. جهاد المرء نفسه جهاد كبير ولا يطيقه إلا ذوو الهمة. ومن لا

يجاهد نفسه يقع تحت سلطان القهر الشرعي. الذين يجاهدون أنفسهم ليزكوها ويردوها عن أكل الخبيث إلى الطيب، وعن الحرام إلى الحلال، وعن طاعة الشح إلى طاعة الله، هم النخبة الإيمانية الإحسانية، وهم العمود الفقري لجماعة الانبعاث الإسلامي. وجهادهم داخل الجماعة بعد أن يتطهر ويتأهل لحمل الأمانة جهاد للقيام بالقسط والشهادة به بين المسلمين. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ**﴾ النساء، 135. ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ**﴾ المائدة، 8. ذلك جهاد المؤمنين، وسط الأمة في فتنتها، وهو ضرب المثال الحي للانضباط والنظافة والسمت والتؤدة والاقتصاد. وهو التواصي بالحق والصبر. وهو مكابدة العمل اليومي ومعاناته. وهو ممارسة الإسلام في البيت والشارع والمكتب والمعمل، في أوساط تتعامل على أسس أنانية بوجوه متجهمة وقلوب مظلمة وحياة قلقة مضطربة.

بين القوم تقوم، يأيها المؤمن طاهر القلب نيره، نظيف اليد والبزة واللسان، تصدق إن كذبوا وتؤدي الأمانة حيث يخونون وتعطي حق الصبر والتواصي عليه بين جماعة المؤمنين، وتفرض الشخصية الإسلامية والسمت الإسلامي بعد ضياعهما. وستلقى عنتا وستلقى استهزاء، ويسخر القوم من عقلك إن تحدثت عن الله وغيبه وجنه وإنسه وملائكته وجنته. فإذا صبرت وتابعت الجهد كنت مجاهدا، ولانتصار الإسلام ماهدا.

قيام المجاهد وسط الفتنة، الجهاد الإسلامي بالقسط، يطلب أن ينضوي المؤمن تحت راية الإسلام المعلن، وينتقل بالمبايعة من إسلامه الفردي إلى الإسلام الجماعي. ثم يشمر عن ساق الجد وساعد العمل ليصبح نموذجا متفوقا جذابا. متفوقا في ميدان الفكر والثقافة وفي ميدان النظام والعمل. وفي حياته الخاصة، وهي تربية أسرته، وفي توفير ماله وفي التقلل والأناة والحلم. تقول بعملك وعلمك وبشاشتك وحلمك، قبل أن تقول باللسان: أنا مسلم.

جهاد الدعوة الصادقة جهاد تأسيس وبناء، وجهاد القيادة الإسلامية المجددة جهاد حضانة وتنظيم. الدعوة الصادقة تتناول الإنسان من موضعه في تيه الفتنة، من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلا، وتنفض عنه قذر الجاهلية وغبارها، وتمندله وتهذبه وتوقظ روحانية الميتة ليجاهد نفسه فيذكر اسم ربه ويتزكى حتى تكون له ذمة، ويدخل في الأمر، ويبايع على السمع والطاعة في اتجاه جهاد إسلامي جماعي يكون في صفوفه مسؤولا عن القيام بالقسط والشهادة به بين الناس. أما القيادة الجهادية فلها وعليها تناول من لا يرجون لله وقارا متناولا جادا يقي الأمة المنبعثة شره. وجهادها وفق الشريعة المطهرة له طابع الحالة الاستثنائية التي خصصت لمن يحارب الإسلام جزاء حازما. ﴿**إِنَّمَا جَزَاء الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن**

يُقَتَّلُواْ أَوْ يُصَلَّبُواْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأَرْضِ﴾ المائدة، 33.

ربنا أرحم بعباده منا، وهو يعلم ما يصلحهم، وكل من حارب انبعاث الإسلام فقد حارب الله ورسوله وحق عليه قول الله.

وما يمكن أن يكون انبعاث إسلامي إلا تحت حضانة قيادة مجددة تجمع إرادة الأمة في يد قوية أمينة، قوية في الله أمينة على أمانة حملها وأقامها الأنبياء والرسل. وتنتهي سخافات الديمقراطية المستعارة وحرية الرأي كما يفهم حرية الرأي من لا رأي لهم. حرية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح والتواصي بالحق والصبر والبطش. بالفكر المشكك أيا ما كان. ونكرر أن كل هذا حلم من الأحلام إن زعم قيادة الجهاد الإسلامي رجل لا برهان له على صدقه، والبرهان الوحيد يتلخص في تجرده في شخصه ورده للمظالم وتصفيته للفوارق في الأرزاق. ومشروعية جهاده في برهانه، ولا صحة لهذا البرهان إلا إذا خاطب الناس أولا بما يفهمون. والذي يفهمه الخاص والعام لغة الخبز والأرض والمساواة. لغة الانضباط والتقلل لتغيير ما بنا، والا فنحن هالكون. وإلى الله المعاد.

أعبدة تتحرر

برز أمامنا ربعي بن عامر رضي الله عنه في المشهد الذي رويناه في أول هذا السياق نموذجا أخاذا للمجاهد القائم بشهادة القسط، لم يلهه بريق الرواق الفارسي والخدم والحشم، وواجه الجاهلية في دستها، وبلغ الرسالة برجولته وبيانه وبالمثال الحي للمسلم الحر القوي. وكان ربعي رجلا من عرض الناس، لم يعرف في تاريخ الصحابة كما عرف الكبار ذوو البلاء والقدم والسابقة. كان مشهد ربعي في رواق رستم لوحة رمزية للرجل المتحرر، للمؤمن الذي أصبح في جماعته طاقة لا تقاوم. وعودة الأمة إلى ما كانت عليه من صفاء الإيمان واستجماع العزم رهن بمعرفتنا للمنهاج الذي ربي عليه ربعي وأمثاله. وقد ترك لنا التاريخ أمثلة لاهتداء المؤمنين وتدرجهم في معارج الرقي الروحي على المنهاج النبوي الكامن سره في كتاب الله وسنة نبيه. ونحن نكتب أساسا لتجلي هذا المنهاج ولنقتنع بنجاعته لنتخذه مفتاحا للمستقبل المشرق بنور الهداية. ومن أكمل هذه الأمثلة اهتداء سلمان الفارسي كما سماه المسلمون. وهو رجل من ذوي الهمم العالية. ويفيدنا أن نتتبع قصته كما رواها ابن هشام، وهي تعرض علينا الإنسانية في جاهليتها، وهي إذ ذاك كما هي اليوم، وتقص علينا الأزمة

الروحية التي عاشها هذا الرجل الوثني قبل أن يرحل يجوب الأرض باحثا عن الهداية. ثم لقاؤه بالرسول صلى الله عليه وسلم وبيعته صحبته ودخوله في الجماعة المجاهدة. وليست الأزمة الروحية، أزمة رجل الهمة الذي يطرح على نفسه بحدة سؤال : من أنا وما مصيري؟ خاصة بالغزالي وسلمان، ولعل تدبرها ينير الطريق لمن يجيئهم السؤال أحيانا ثم يغفلون، عساهم ينبعثون في طلب الحقيقة كما انبعث سلمان. والدعوة الصادقة قائمة في كل زمان ومكان، وكل من طلب وجد، وكما بدأ الإسلام يعود، أساس بنائه رجال ذوو همة وتشوق لآفاق أوسع من دنيا المادة الطاغية. مثل سيدنا سلمان الفارسي. قال ابن هشام : «قال ابن إسحاق : وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن محمود بن لبيد عن عبد الله بن عباس قال : حدثني سلمان الفارسي وأنا أسمع من فيه قال : كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان، من قرية يقال لها جي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، لم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار (خادمها) الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة. قال : وكانت لأبي ضيعة عظيمة. فشغل في بنيان له يوما فقال لي : يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب إليها

فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد. ثم قال لي: ولا تحتبس عني، فإنك إن احتبست عني كنت أهم إلي من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري. قال : فخرجت أريد ضيعته التي بعثني إليها. فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون. وكنت لا أدري ما أمر الناس، لحبس أبي إياي في بيته. فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه. فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس. وتركت ضيعة أبي فلم آتها. ثم قلت لهم : أين أصل هذا الدين؟ قالوا بالشام».

ويخبر أباه باكتشافه للدين الجديد واستحسانه إياه. فيزجره أبوه ويضع في رجله قيدا. ويتفق مع النصارى على الهرب حتى وصل إلى الشام ودلوه على أفضل الناس دينا، وهو الأسقف في الكنيسة، ولم يجد عنده سلمان بغيته، فقد كان رجل سوء: «يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه ولم يعطه للمساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق». ويبغضه سلمان. ثم لقي سلمان رجلا صالحا من رهبان النصارى صحبه حتى حضره الموت، فأوصاه باللحاق بصاحب له في الموصل كان على مثل سيرته، ويموت هذا الراهب فيوصي به لآخر حتى صحب راهبا بعمورية. فلما حضرته الوفاة قال الراهب: « والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد

على مثل ما كان عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب. مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل به علامات لاتخفى : يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل».

واغتنم سلمان فرصة مرور تجار من قبيلة كلب، فأعطاهم بقرات على أن يحملوه إلى بلادهم. لكنهم غدروا به فباعوه من رجل يهودي. قال سلمان: « ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي. فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة. فوالله إني لفي رأس عذق لسيدي أعمل له في بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذا أقبل ابن عم له حتى وقف عليه فقال : يافلان، قاتل الله بني قيلة! والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعم أنه نبي... فلما سمعتها أخذتني العرواء حتى ظننت أنني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه: ماذا تقول! ماذا تقول!

فغضب سيدي فلكمني لكمة شديدة. ثم قال : مالك ولهذا ؟ أقبل على عملك. قال قلت لاشيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال».

ويريد الله لرجل نشأ في الترف، وتاقت نفسه إلى الخير فاقتحم في سبيله الغربة والرق أن يلتقي برحمة الله مجسمة في شخص رسول أرسله الله رحمة للعالمين. وكان عند سلمان علاماته التي بها يعرف صدق النبي كما علمه صاحبه. فجاء الرسول وصحبه بصدقة فأكل أصحاب النبي ولم يمد هو صلى الله عليه وسلم إليها يده. فقال سلمان : هذه واحدة ! ثم جاءه بهدية فقبلها منه وأكل منها. قال سلمان : « ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد، قد تبع جنازة رجل من أصحابه، وعلي شملتان لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدبرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصفه لي صاحبي. فلما رآني رسول الله صلى الله عليه وسلم استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس. فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه»

وأسلم العبد الفارسي فعرف منذئذ باسمه الإسلامي سلمان وشغله الرق حتى يسر الله له أن يخطو خطوته الكبرى ويندمج

في جماعة المسلمين اندماجا كليا. وكانت الجماعة قد تأسست على رجال كأبي بكر وعمر وعلى الأنصار أهل البلاد والنصرة والجهاد. وعرف سلمان الجماعة محبة ورحمة وتعاونا قبل أن يتعرف على أفرادها. عرف الجماعة حين جمعت جهدها لتنقده من الرق بعد أن أنقده الهادي الأمين من ظلام الشرك. يقول سلمان : «ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : **كاتب يا سلمان**. فكاتبت صاحبي على ثلاثمائة نخلة أحييها له بالفقير (الحفر والغرس)، وأربعين أوقية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية (فراخ النخل) والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمس عشرة ودية، والرجل بعشر، يعين الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية». ففقر لها سلمان هو وأصحابه فلما فرغوا غرس النبي صلى الله عليه وسلم النخل بيده الكريمة. ورأى سلمان ما لم يكن يعرفه أخوة وتعاونا وقدوة نبوية، قدوة في العمل وقدوة في السلوك. ثم اتصل سلمان بعالم الغيب كما اتصل الصحابة الكرام على يد النبي المؤيد المعصوم، فأصبح من أهل اليقين. اتصل بعالم الغيب بواسطة معجزة مادية يسرها الله لنبيه كما يسر مآت غيرها. لا جرم أن أصحابه كانوا قد آمنوا بالغيب قبله، كانوا حضروا بدرا وشاهدوا الملائكة تقاتل في صفوفهم، وكان السابقون منهم

تلقوا فرض الصلاة بعد الإسراء والمعراج، وكانوا قد رأوا جبريل لما جاءهم يعلمهم دينهم، يسأل عن الإسلام والإيمان والإحسان. وكان الإيمان بالغيب جزاء من عقيدتهم لأن الغيب جزء من حياتهم العادية. يقول سلمان : «فأديت النخل، وبقي علي المال : فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المعادن. فقال : ما فعل الفارسي المكاتب ؟ قال فدعيت له، فقال : خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان قال : فقلت : وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي؟ قال : خذها فإن الله سيؤدي بها عنك. قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم منها، وعتق سلمان. فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق حرا. ثم لم يفتني معه».

في عزوة الخندق كان لسلمان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم شأن. التقى مرة أخرى بهذه اليد الشريفة التي حررته مرتين وغرست النخل وهي تضرب بالمعول مع المسلمين. قال سلمان : «ضربت في ناحية من الخندق، فغلظت على صخرة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قريب مني. فلما رآني أضرب ورأى شدة المكان علي، نزل فأخذ المعول من يدي، فضرب به ضربة لمعت تحت المعول برقة. قال : ثم ضرب به ضربة أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى. قال ثم ضرب به الثالثة فلمعت تحته برقة أخرى». وهكذا يجاهد

الرسول القائد بيده الكريمة أشد الجهاد حيث عظمت الصخرة وعجز عنها المسلمون. ومع الجهاد يأتي المدد من الغيب. ويعمل الرسول صلى الله عليه وسلم بأقصى ما يملك من الجهد، لكنه في نفس الوقت يتحدث عن الغيب. قال سلمان: «فقلت : يا رسول الله ! بأبي أنت وأمي ! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب ؟ قال : **أوقد رأيت ياسلمان؟** قلت نعم! قال: **أما الأولى فإن الله فتح علي بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح علي بها الشام والمغرب. وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق**».

وهكذا حفر الخندق بإشارة من سلمان رضي الله عنه، وحفره سلمان، وجاهد إلى جانب الرسول الكريم. وأصبح سلمان ذا شأن. ذهبت العصبية القومية والتسخير الطبقي. وارتقى سلمان أعلى المراتب الإحسانية، وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن سلمان من أهل البيت كما رواه ابن هشام. وأهل البيت عند الله كما قال: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً**﴾ الأحزاب، 33.

ووسط الجماعة المسلمة جاهد سلمان وجاهد ومعه الشريف القرشي والعبد الحبشي، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ربما تعود إلى المسلمين عزتهم إن تعلموا من سيرة نبيهم وكلام ربهم أن عزة

المؤمن تقواه. قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ الحجرات، 13.

وكان سلمان كريما على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان كريما عليه كل تقي. ولعل المؤمنين، وهم في أحضان التربية النبوية، يمسون حساسية الفارس والحبشي، فنجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يشيد بهؤلاء المستضعفين ويبين كرامتهم على الله وفضلهم حتى يذهب أثر العصبية الجاهلية.

روى مسلم عن عائذ بن عمر أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب الرومي وبلال في نفر، فقالوا : والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها! (وكان أبو سفيان عدو المسلمين لم يسلم إلا عام الفتح، وما قاله الثلاثة فيه كان بعد إسلامه ولا شك). فقال أبو بكر : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم! وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: **يا أبا بكر ! لعلك أغضبتهم ! إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت ربك!** فأتاهم أبو بكر فقال: يا أخوتاه ! أغضبتكم ؟ قالوا : ما غضبنا. يغفر الله لك يا أخي».

وروى الترمذي بسند حسن عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « **إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة : علي وعمار وسلمان**».

إنها لنقلة بعيدة، تلك التي نقلت الدهقان المترف من ضيعة أبيه الغني إلى أديرة الرهبان ثم إلى حقول اليهودي ثم إلى رحاب الإسلام. وإنها لرفعة ما بعدها رفعة، رفعة المؤمن المحسن الذي صحب الرسول وبايعه وجاهد إلى جانبه وسوته مع شيوخ قريش

في معاملة الدنيا، ورفعته فوقهم عند الله، تشتاق إليه الجنة، ويغضب رب العزة لغضبه. أرأيت الأعبدة المستضعفين كعمار وبلال وصهيب وسلمان، كيف سادوا وكيف زال عنهم ميزان الناس المميز للأفراد بألوانهم وأنسابهم وموطن ولادتهم، ودخلوا في ميزان الإسلام الذي يعطي لكل قيمة تقواه وعمله؟. أرأيت نظاما دنيويا يحقق للبشرية ما تطلبه من إخاء وتعاون كما حقق الإسلام ؟ فارسي عبد تحرره اليد الطاهرة من عبودية أنانيته ومن عبودية الناس، وترفعه ليصبح عبدا لله وليصبح صاحب الرأي، يحفر الخندق ويعلم بذلك المسلمين كيدا من كيد الحرب ينتصرون به. حتى إذا جاء عهد عمر رأينا سلمان الفارسي عاملا له على بعض بلاد الفرس. ويجيئها عامل عمر يسير وحده ماشيا، فيحسبه بعض الناس أجيرا، فيأمره بحمل بضاعته فيحملها الأمير، ويسقط في يد الفارسي حين يعلم أنه الأمير. لكن سلمان يطيب خاطره، ويحكم وهو في ثيابه، ثياب عبد كريم على الله شرفه في تقواه لا في بزته. متقللا من الدنيا يضرب المثل ويواسي الضعيف الذي لا يجد.

وما كان سلمان في كل هذا بدعا بين الناس، وإنما هو نموذج آخر بين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. رجال رفع الله همتهم إليه، فلما التقوا بالهداية النبوية وأشرق في قلوبهم نور الإيمان كانوا أهلا للسيادة في الدينا والكرامة في الآخرة. وبتغيرهم من عصابة

رعناء متنافرة إلى جماعة منضبطة بدأ تاريخ الإسلام. وحين يشاء الله يظهر النور الذي أنزل إلينا مع قرآن ربنا، فنتحول من حالنا إلى حال أفضل بالصحبة والمبايعة والصدق والجماعة، بالسنة النبوية والإيمان بالغيب، وبذلك نصبح أهلا للسيادة والكرامة.

وأي نشدان للتغيير لا يتناول جوهر الإنسان ولا يصله بروحانيته ولا يصله بالغيب ليطمئن قلبه بذكر الله، فلن يصل إلى غاية. إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. التغيير المادي نفسه لا يمكن إلا بتعبئة تبعث في الإنسان حافزا نفسيا باطنيا، حافزا يرتبط بالنفس الهلوعة الجشعة. أما تغيير الله، تحويل الإسلام للإنسان، فتغيير من حيوانيتنا إلى حياتنا. وينقلنا لدار الكرامة من دار الهوان، ومع هذا النقل وأثناءه وبواسطته يبدأ جهادنا لنعد القوة ونستغني عن عدونا ونطعم جائعنا ونعلم جاهلنا، ونقوم في الناس بشهادة القسط كما قام سلمان وعمار وبلال، وما نحن اليوم إلا أعبدة في يد النخاسة العالمية تقدفنا يد إلى يد ونبيع أنفسنا لهذا المعسكر أو ذاك في غفلة عن قيمتنا ورسالة ربنا التي حملناها فلم نحملها، والمنهاج الذي حرر الأعبدة الأول كائن لايزال، ومتى ارتفعت همتنا إلى الله وذكرنا ربنا وموعوده المذخور لكل من آمن وعمل صالحا، اهتدينا إلى المنهاج، وخرجنا من الكبوة والنكبة والنكسة، وكان الله على كل شيء مقتدرا.

الجزء الثاني

من الظلمات إلى النور

من الظلمات إلى النور

يجري على ألسنة الناس من بني قومنا عندما ييأسون من الحلول السيايسة وما يتبعها من اضطراب، وعندما تجبههم حقائقهم المتخلفة وعجزهم، الحديث على الحل الإسلامي. وكأني بكثير ممن يلهجون بهذا الحل الإسلامي لا ينظرون إلا إلى النظام الشرعي مجردا عن المحتوى الروحي والعقلي وأسلوب العمل الإسلامي وسمته واقتصاده. وقد عرضنا المنهاج الإسلامي كما نراه في الجزء الأول من الكتاب. ونود أن نلخصه هنا نسميه : « الخصال العشر». وهي :

1 الصحبة والجماعة : وتتضمن هذه الخصلة صحبة الأخيار أهل الدعوة الصادقين، والانتقال من الإسلام الفردي إلى الإسلام الجماعي الملتزم، وثنائية الدعوة والقيادة الجهادية، وكل ذلك لا يتم إلا بالمبايعة بين ذوي الذمم.

2 الذكر : بمعناه الأعم الشامل، التبتل إلى الله وإقامة الوجه له بالإحسان، واليقظة الإيمانية لقيمة الإنسان وقيمة سلوكه على الأرض أمام نظر الله، وهذا ما يسميه الصوفية الأبرار « المراقبة». وبالخصوص ذكر اللسان لكونه المرحلة الأولى للتزكية الروحية وحضور مجالس الذكر، حلق الذكر كما يقول الحديث. والذكر

على يد شيخ مرب عارف بالله أنجع الوسائل للتيقظ الروحي في معارج الإيمان والإحسان. والذكر هو الطاقة المركزية في المنهاج. وتتزكى النفس بالذكر فتؤتى الإيمان، وعندئذ يشع عليها نور القرآن، ولذكر الله أكبر!.

3 الصدق : خروج عن خصال النفاق كما بينها الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يصدق إذا حدث وأن يفي إذا عاهد وأن لا يخون إذا اؤتمن.

4 البذل : بذل المال والنفس، وبذل المودة وبذل الوجه لجماعة المؤمنين، وبذل النصيحة. وكل هذا يقتضي الشجاعة والسماحة والنشاط.

5 العلم : العلم المنجي أولا، وهو العلم بشريعة الله وما فرض عليك، ثم العلم الدنيوي، الحكمة العملية، لأن بها قوام الأمة المفتقرة إلى النظام والتكنولوجيا، وبالعلم تعد الأمة القوة كما أُمرت.

6 العمل : العمل العبادي على الكتاب والسنة، والعمل المنضبط المنتج المنظم، والعمل الدائب بلا كسل، وامتلاك الوقت والوسائل. العمل المخلص لوجه الله، تقوى الله بالعمل الصالح.

7 السمت : سمت المؤمن القوي الجليل النظيف المهيب، وسمت الجماعة في مجلسها ونديها «فسيعلمون أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا». وسمت العمل الإسلامي المتميز عن صور العمل الجاهلي

وتفكير العقلية الجاهلية. ولا يصلح أن نستعمل كلمة السياسة وننسبها للإسلام، لأن محتوى الكلمة تسخير وتضليل وتوهيج، وكل ذلك ينافي السمت الإسلامي. ولا نتحدث عن الثقافة لأن محتوى الكلمة في ألسنة الجاهلية إنسية مغلقة حدودها العصبية القومية والعرقية، تقول : ثقافة عربية مثلا وتعني الإنسية العربية أي رجوع الإنسان العربي إلى خصائصه الأرضية التاريخية الزمنية. وبديل عن كل هذا، «السمت الإسلامي» افهم إن شئت : «سياسة بصدق» و «ثقافة حاملي الرسالة القائمين بالقسط». سمت المسجد وبهاؤه وهيبته والعدل والإحسان.

8 التؤدة : الأناة والصبر وتحمل الأذى بالنسبة للمؤمن في نفسه وسلوكه. ومعالجة الدعوة إلى الله بلا عنف، بالرفق النبوي. ويعطي الله على الرفق ما لا يعطي على العنف كما قال الرسول الكريم في حديث عائشة. وهذا هو معنى كون الإسلام رحمة، وبالتؤدة كأسلوب للعمل يتميز الإسلام عن الجاهلية العنيفة اللاصقة بالقيم الأرضية. والصبر والتواصي بالحق والرحمة.

9 الاقتصاد : قال قوم قارون لقارون حين استغنى وتكبر، ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾ القصص، 77. ومعنى الاقتصاد ألا تزيغنا الدنيا عن الآخرة، مع الصمود لهدفنا غير متظالمين ولا ضعاف، معدين

القوة المادية والسلاح، وموزعين للأرزاق توزيعا عادلا. وقد كاد الفقر أن يكون كفرا كما يقول مولانا علي كرم الله وجهه.

10 الجهاد : بذل الجهد باستمرار لتكون كلمة الله هي العليا وجهادنا والأمة مفتونة والجاهلية ضارية من حوالينا، هو القيام بالقسط والشهادة به بين الناس. ويقتضي ذلك أن نتفوق في كل الميادين وأن نعرض على الناس من حوالينا النظافة والتوازن والسعادة مشخصة في الأمة المنبعثة، وإنما بعث الله النبيئين مبشرين ومنذرين ليقوم الناس بالقسط.

جاذبية الأرض : لكي نخرج من الظلمات إلى النور، من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، يجب أن نتحرر من جاذبية القيم الأرضية لنصل حبلنا بالله ونرتفع عن مستوى الدابة. وقد مسختنا الجاهلية، تخاذلنا بين يديها وهواننا على أنفسنا، فنسينا قيمتنا. ونتبع سراب الجاهلية وهي تبحث عن نفسها، فنعي أنفسنا حسب مقاييسها وفلسفتها. وإذا رجعت الفلسفة عن البحث في الإنسان المجرد إلى البحث في الإنسان المظروف «L'Homme en situation» . رجعنا نحن أيضا نلتمس حقائقنا في ظروفنا «الفلكلورية» التي يتلهى بها الفكر الجاهلي منذ أن اكتشفنا. ويصنفنا فكره التصنيفي «Pensé classificatoire» فإذا نحن نتبجج «Authenticité» بأصالتنا ونتبجج بخصائصنا النوعية «Spécificité»، وننقطع عن قيمنا

لنلتصق بالظروف المكانية والزمانية ونحاكي مذهب الموضعية «Situationisme» في سعينا السياسي والاقتصادي، ضابطنا الهنا والآن «Hic et nunc» وكأننا قطعة حبل جاء بها السيل كما يقول مثلنا الدارج.

ولكي نرتفع عن مستوى الدابة، مستوى الكفر، لابد أن نرجع إلى ربنا ونصدقه ونذكره حتى يعطينا السمت الإسلامي لنخرج من مسخنا الذي جرته علينا أعمالنا. يقول الله :﴿**اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ البقرة، 257 ويقول عز من قائل : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ النور، 39-40. ويقول سبحانه : ﴿**إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ الأنفال، 22.

نتأمل كلام الله ونتدبره، فيعطينا المفتاح. إننا لا نخرج من الظلمات إلى النور ولا نرتفع عن مستوى الدابة إلا بالإيمان. وإن

فتح الله لنا باب التجديد وابتعث فينا قيادة جهادية تحولنا برفق إلى النور من ظلماتنا التي كسبت أيدينا، إن أحيانا الله بعد موتنا نكتشف أن بيننا وبين الجاهلية غيرية جوهرية «Altérité essen-tielle»، نكتشف أن المؤمن حي بين أموات. قال الله وقوله الحق: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ الأنعام، 122. والنور نور الإيمان، نور القرآن والسنة النبوية، وسبيله المنهاج النبوي والتربية النبوية.

كنزنا الضائع: إننا، أمة الإسلام، مؤتمنون على كنز الكنوز، ونحن عنه غافلون، وللأمانة مضيعون. وقد بعث الله لنا نوره القويم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فبلغنا الرسالة فهي كنزنا. لكن تعاورتنا الفتن وغم أفقنا الفكري بعد أن عميت البصائر، فلا نعرف قيمة كنزنا. ويراه الآخرون فيبهرون، ويشهدون بعظمة الإسلام والرسول.

بعض مفكرينا المعاصرين يرون أن ذكرنا لعظمة الإسلام والمسلمين قد يزيغ بنا عن اللحظة الراهنة. وهذا المفكر استشهد بمحاضرة له، سياسية لا إسلامية، أفسدها عليه «الغزو الفكري» إذ بث بين الناس في تلك الفترة كتبا لمؤلفة ألمانية تذكر فيها مجد الإسلام. ويرى هو أن الغزو الفكري يتربص بنا ليلهينا بماضينا

عن حاضرنا. وياليته انتبه، وهو الذكر الألمعى، إلى القضية انتباها مليا ليعلم أننا نحن نلهي أنفسنا ونمسخ مجد الإسلام. مؤلفة ألمانية عنونت كتابها هكذا : «شمس الله تسطع على الغرب» وذكرت الحضارة الإسلامية والعلم عند المسلمين. وعندما ترجم الكتاب إلى العربية أصبح عنوانه : «شمس العرب تسطع على الغرب». ها هي القومية، هذه العصبية النتنة تحول مجهودا يشكر وتسخره ليخدم القومية العربية، وأين الإسلام؟ ومن أي جانب يأتينا الغزو الفكري؟ إن بني قومنا أنكر على الإسلام من كل أعدائه في دعواهم الجاهلية. وإن كل مجهود يوضح لجيلنا مجد الإسلام ورسوله وحضارة المسلمين وعظمتهم غزو للجاهلية ونصر للإسلام إن كان تأمل ماضينا وكنزنا المنسي يدفعنا إلى العمل لنرد المجد لله ورسوله والمؤمنين.

لا نحب أن نمكث مع العقلية التبريرية التي تشكو العدو وتتعزى بأنها مغلوبة لعدو قوي ومتآمر كثير العدد والعدة. وإنما نورد شهادة مستشرقين رأوا شواهد النور ومعالم الكنز الضائع، لنخجل نحن من تهافتنا على القيم الأرضية ونزعم لأنفسنا أننا لن نحقق تقدما ولا تحررا إلا بالانسلاخ عن إسلامنا، عن قيمنا الروحية وانتمائنا لأمة مجيدة عفى عليها الدهر.

يقول عدو الإسلام رونان الفرنسي[1] : «إن الآثار والأسفار

1 هذه النقول من كتاب الأستاذ محمود أحمد مهدي : البرهان من القرآن ص 23 وما بعدها.

المحتوية على شتى العلوم والفنون التي أضفاها علماء الإسلام على الكون، والتي نقلتها الحملات الصليبية إلى جميع بلاد الفرنجة وما تقدمها من احتكاك بين العرب (المسلمين لا العرب، فالأندلس كانت دار إسلام لا دار عرب) وأوربا عن طريق الأندلس، أدى كل ذلك إلى إفعام المكتبات الأروبية الفقيرة الخاوية بكنوز الثقافة والترعرع العلمي في البيئة الأوربية بأسرها. كما رفع أفق شعوبها إلى أفق التمدن الذي نشاهدها عليه اليوم».

ويقول العلامة دوسي : «إن المدنية الأوربية، بل المدنية الغربية كلها، مدينة لعلماء الإسلام. ومن المدهش أن يصبحوا –وكانوا أول أمرهم على الفطرة (يقصد أنهم كانوا بدائيين قبل أن ينقدهم الإسلام من الظلمات إلى النور)– عنصرا فاتحا ويعتبروا سادة للعالم في مائة عام. ومن أشد العجب حماستهم العظيمة وسرعتهم البالغة في تحصيل العلوم وتكوين الثقافة اللازمة لعظمتهم حتى وصلوا إلى مستوى عال في مائة سنة، بينما نرى الجرمانيين، لما فتحوا الامبراطورية الرومانية، قضوا ألف عام قبل أن يقضوا على التوحش وينهضوا لإحياء العلوم»

ويقول المستر بيكتول : «إن القرآن الذي هو دستور المسلمين، هو الذي دفعهم إلى فتح العالم ومكنهم من إنشاء امبارطورية فاقت امبراطوريات اسكندر العظيم الكبير والامبراطورية الرومانية

سعة وقوة وعمرانا».

ويقول لوثورب ستودارد : «لقد سارت الممالك الإسلامية في القرون الثلاثة الأولى من تاريخها (650م إلى 1000م) أحسن سير. فكانت أكثر أصقاع العالم حضارة ورقيا وتقدما وعمرانا، مرصعة بجواهر المدن الزاهرة والحواضر العامرة، والمساجد الفخمة والجامعات العلمية المنظمة. وفيها مجموع حكمة القدماء ومخزن علومهم يشعان إشعاعا باهرا. وما انفك الشرق الإسلامي (والغرب أيضا وحيثما كان الإسلام) خلال هذه القرون يرسل إلى الغرب نورا».

ويقول عدو الإسلام كولد تسيمر: «إن الإسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى في الجاهلية (يقصد الجاهلية التاريخية جاهلية العرب البدائيين قبل أن يمن الله عليهم بنبي الرحمة). وهذان المثلان لا يتشابهان، وكثيرا ما يتناقضان. فالشجاعة الشخصية والشهامة التي لاحد لها، والكرم إلى حد الإسراف، والإخلاص التام للقبيلة، والقسوة في الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل، هذه هي أصول الفضائل عند العرب الوثنيين الجاهليين.

أما في الإسلام فالخضوع لله والانقياد لأمره والصبر وإخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأوامر الدين، والقناعة وعدم التفاخر، وتجنب الكبر والعظمة، هي المثل الأعلى للإنسان في الحياة ».

وننقل فيما يلي صورة رائعة لشاعر فرنسي مرهف الحس، تدبر حياة الرسول العظيم وبهره النور الإسلامي. يقول لامرتين[1] في كتابه عن تاريخ تركيا : «لم يحدث قط أن إنسانا اتخذ لنفسه -متطوعا أو مكرها- هدفا أجل وأروع من هذا الهدف : أن يمحق الخرافات التي حالت بين الإنسان وخالقه، وأن يقرب آلاء الله إلى الإنسان ويقرب الإنسان إلى الله، وأن يرسي دعائم فكرة الألوهية، هذه الفكرة المشرقة المقدسة، بين فوضى آلهة الوثنية المادية الممسوخة إذ ذاك...

ولم يحدث قط أن إنسانا حمل عبئا تنوء به الطاقة البشرية، وبوسائل في ضآلة وسائله، فإنه لم يكن يملك من وسيلة غير شخصه لتصوير هذا الهدف العظيم وتحقيقه، ولم يكن له من عون إلا رجال معدودون في ناحية قصية في صحراء شاسعة... وأخيرا فلم يحدث قط أن إنسانا حقق في العالم أعظم من انقلابه، أو أبقى على الزمن.

ذلك أن الإسلام في أقل من قرنين بعد ظهوره كان قد سيطر بعقيدته وسلاحه على الجزيرة العربية بأكملها، وفتح باسم الله فارس وخراسان، وعبر القوقاز والهند الغربية وسوريا ومصر والحبشة وكل ما عرف من الشمال الإفريقي وكثيرا من جزر البحر

---

1 نقلا عن مجلة «المسلمون» العددان 7 و8 شوال 1381هـ أبريل ماي 1962م.

الأبيض المتوسط واسبانيا وجزءا من فرنسا.

وإذا كان جلال الهدف وضآلة الوسائل وعظم النتائج هي المقاييس الثلاثة التي تقاس بها العبقرية الإنسانية، فمن ذا الذي يجرؤ على مقارنة أي عظيم من عظماء التاريخ بمحمد (صلى الله عليه وسلم)؟ إن معظم مشاهير الرجال لم يخلقوا غير السلاح والتشريعات والامبراطوريات. إنهم لم يؤسسوا -إن كانوا قد أسسوا شيئا على الإطلاق- إلا قوى مادية تراءت في أغلب الأحيان على مرأى من أعينهم، أما هذا الرجل فإنه لم يحرك الجيوش والتشريعات والإمبراطوريات والشعوب وبيوتات الملك فحسب، ولكنه حرك ملايين من الناس في ثلث الدنيا المعمورة آنذاك. وأكثر من هذا، كانت زلزلته للمنابر والأصنام والديانات والأفكار والعقائد والأرواح، وعلى أساس من كتاب، أصبحت كل كلمة فيه قانونا، استطاع أن يحقق قومية روحية (نقول نحن ولاية المؤمنين) مزجت بين شعوب متعددة الألسن والأجناس.

وقد خلف لنا الميزة الباقية للقومية المسلمة (نقول نحن للأمة المسلمة)، إلا وهي كراهية الآلهة المزيفة، والتوجه السافر نحو إله واحد منزه عن التجسيد. وقد كونت هذه الوطنية الروحية، الثائرة على كل منتهك لحرمة السماء، عنصر الخير في أتباع محمد (صلى الله عيه وسلم)، كما كان إدخاله لثلث العالم في دينه

معجزة. أو بالأحرى لم تكن هذه معجزة رجل، ولكنها معجزة الفكر (ولو درى لقال بلسان القرآن: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**﴾ المجادلة، 21. ولو درى لقال : إن الله يؤيد رسله والدعاة إليه بصدق وينصر من نصره).

لقد كانت فكرة التوحيد التي صدع بها وسط الأساطير الخرافية معجزة ما إن فاهت بها شفتاه حتى حطمت كل المعابد القديمة للأصنام، وأشعلت النار في ثلث الأرض. إن حياته وتأملاته وشجاعته في تسفيه خرافات قومه، وجرأته في تحدي شراسة الوثنية، وثباته في احتمال أذاها خمسة عشر عاما بمكة، ورضاه بأن يكون موضع سخرية الناس حتى لقد كاد أن يذهب ضحية بني وطنه. كل هذا، ثم هجرته وخطبه المتواصلة وكفاحه ضد العارقيل وإيمانه بالانتصار وهدوءه عند الشدائد هدوءا يفوق طاقة البشر، وعفوه عند الانتصار وطموحه الذي كان مكرسا لفكرة واحدة، ولم يكن قط سعيا وراء إمبراطورية، وصلواته التي لا تنقطع، ومناجاته لله، وموته ثم انتصاراته بعد موته على أعدائه...

إن كل هذا لايدل على ادعاء، بل على إيمان ثابت منحه القوة كي يبعث عقيدة، ولقد كانت هذه العقيدة ذات شقين : وحدانية الله وتنزيهه عن التشبيه والتجسيد. الأولى تعرفنا بالله تعريفا إيجابيا، والأخرى تنفي عنه ما لا يليق به. الأولى تحطم الآلهة الزائفة بحد

السنان، والثانية تبدأ الدعوة إلى الحق بمنطق البيان!

فيلسوف، خطيب، رسول، مشرع، محارب، هازم أفكار، باعث عقيدة يدعمها الفكر النير، وعبادة منزهة عن الأخيلة والصور. مؤسس عشرين إمبراطورية أرضية وواحدة روحية... ذلك هو محمد! (صلى الله عليه وسلم).

ألا يحق لنا بكل المعايير التي تقاس بها عظمة الرجال أن نتساءل : هل ثمة رجل أعظم من محمد؟»

مقاصد الإسلام : يخاطب القرآن من صفت نفسه وأوتي الإيمان، يخاطبه ليخرج من الظلمات إلى النور ويحقق مقاصد الإسلام. ويجمع الفقهاء هذه المقاصد في خمسة ابواب : (1) حفظ الدين (2) حفظ الدماء (3) حفظ الأموال (4) حفظ الأعراض (5) حفظ العقل.

1. أما صيانة الدين فمعناها التعلق بالرسالة المحمدية المحررة للإنسان الرافعة لقيمته من مستوى الدابة إلى مستوى الإيمان، من مستوى ولاية الشيطان، إلى مستوى ولاية الله. جاذبية الأرض تهبط بالإنسان ليتبع غرائزه وهواه، والدين هو الخضوع لله والسير وفق شرعه وحكمه، وبذلك ينجو من جاذبية المادة إذ يجد في الدين توازنا يمنحه من نصيبه من المتاع الدنيوي دون أن يزل في مزالق بهيميته، ويزكيه الدين حتى يصير متأهلا للمقام الرفيع فيكون مع الملإ الأعلى بروحانيته الطاهرة. ونحن اليوم في عالم تسوده الوثنية

بل الوثنيات، وثنية البضاعة، ووثنية البطولات الطاغوت، ووثنية الفكر الثائر على الله. ولكي يتسع الدين لحياتنا المفتونة المعقدة يجب أن تقوم الدعوة الصادقة والقيادة الجهادية بالتبليغ على مستوى وسائل العصر وأن تجتهد في التشريع والتنظيم بروح إسلامية جماعية. ولئن ضاعت جهود رجال حاولوا الخروج عن التقليد في الدين فلأنهم اجتهدوا في الفراغ خارج الدعوة خارج الممارسة بلغة الإيديولوجية. والاجتهاد والإجماع لايتأتيان إلا في جماعة مؤمنة. فالدين يزكي الفرد وينقله من إسلامه الفردي إلى إسلام جماعي بالصحبة والمبايعة، ويطهره ليمس القرآن قلبه ولتصبح السنة ضابطه. وبعد هذا فقط يأتي الإجماع ثالث أركان التشريع، إجماع جماعة مؤمنة لا إجماع قطيع متنافر متدابر عمي. وبعده يمكن الاجتهاد لحياة إسلامية قائمة تواجه العصر قائمة فيه بالقسط.

2. وأما صيانة الدماء وحفظها فمعناه السلام الإسلامي داخل الجماعة وخارجها. وقد وضع الله حدودا وسماها حدوده لكي لا يتجاوز المؤمن حقه إلى حق غيره. وبينه وبين حق غيره حدود الله أمر ألا يعتديها وإلا فقد ظلم نفسه وحق عليه «الحد» في الدينا والعذاب في الآخرة. السلام الإسلامي داخل الجماعة المنضبطة المؤمنة وفي علاقاتها بالناس هو البشرى التي يحملها الإسلام للإنسانية المعذبة، الجرائم والسطو والتناحر بين الطبقات، وكل هذه الظلمات

التي تعرضها علينا الجاهية مصبحة ممسية.

3. فأما حفظ الأموال، ما يعبر عنه العصر بالاقتصاد، فهو النقطة الحساسة في كل بناء جدي. ونجاح الانبعاث الإسلامي رهن بما يحققه من نمو اقتصادي سريع، خارج لعنة الربا، وبالرفق لا بالعنف. والاقتصاد في المنهاج النبوي كما نراه يهدف منذ البداية إلى تسخير الدينا ومواردها للآخرة، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة. وإن المسخ العام الذي ابتلي به المسلمون لما راودهم الفكر الجاهلي والمثال الجاهلي فراغوا إليه يسير بهم سيرا لاهثا وراء ركب الحضارة الجاهلية لا يجدون مهلة لمراجعة أنفسهم ولا يهتدون سبيلا لحل إسلامي يعطيهم الرخاء ومعه الطمأنينة التي يفتقدها الجاهليون. الاقتصاد الجاهلي اليوم يجري بأهله فيما يسمونه انسلابا وتشيئا، فالجاهليون يعانون أنفسهم كأشياء في دنيا الإنتاج ودوامته. يبتغون الزيادة في القدرة على الإنتاج «Productivité» لكن دولاب الاقتصاد يلتهمهم في إنتاجية «Productivisme» وهم وشيكون أن يدركوا أن مرضهم مرض النتاج «Productivite» ونصوغ لهم هذه الكلمة ولأنفسنا لنرجع إلى إسلامنا نحاوره ونمارسه ونسائله ليخرج الله لنا من أرضنا بركة ويضع لنا في عقولنا وأعمالنا بركة ويفيض علينا، إن آمنا وعملنا صالحا، القوة والبهاء.

4. حفظ الأعراض : انظر إلى هذا التعبير، الجاهلية تتحدث

عن أسرة الإنسان كما تتحدث عن أسر حيوانات أخرى. أما الإسلام فيتحدث عن الأعراض، عن الأسرة ومعها شرفها وقيمة الإنسان المؤمن حتى في مرافقه في البيت والزواج والمعاملة اليومية. المؤمن المكرم بإيمانه له عرض يصونه الإسلام، له شرف تحفظه عليه الشريعة، وتأمره أن يصونه بكل قواه، ومن مات دون أهله فهو شهيد. الأسرة الإسلامية قوامها وأساسها الرجل والمرأة، وبين الزوج وزوجه رباط شرف وعرض، بينهما معنى سام رقيق. ترى عند الجاهلين أسرة علائق أفرادها الحق والمصانعة والخيانة إن دعت الغرائز، أما المؤمن والمؤمنة فلهما عرض، ورباطهما يقدسه الله تعالى ويجعل للزوج المحسن لزوجه، من الجانبين، جزاء المحسنين. ويربط بهما ذريتهما بالطاعة والمحبة والبر. وتتماسك الأسرة المؤمنة على هذه الأ سس ويعم خيرها العم والخال وذوي القربى. ووظيفة الزوج القوامة يقابلها من الزوجة الحافظية، هو يقوم بقوة على شؤون بيته وحاجاته وهي تحفظ نفسها وتصون عرضها وعرض زوجها وتحفظه بالغيب. قال تعالى: ﴿**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**﴾ وقال: ﴿**فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ**﴾ النساء، 34.

وتدهور المرأة الجاهلية، وفتنة نسائنا بالمثال الجاهلي، لايكاد يتصوره العقل. وقد أصبحت المرأة العصرية متاعا وبضاعة في سوق

السلع، وهدرت كرامتها وبيعت بيع الرقيق. ويهوش عليها الرجل الذئب بشعارات التحرر والمساواة ويكذبها. وفي الانبعاث الإسلامي المرتقب دواء المرأة والأسرة بالرجوع إلى مفهوم العرض والقوامة والحافظية. وكرامة المؤمنة أن تشتبه بنساء النبي الكريمات. ولهن يقول الله تعالى : ﴿**يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ**﴾ الأحزاب، 32-33. قرن في بيوتكن يا مؤمنات، وأنجبن المؤمنين، وربين المؤمنين، ربين الجيل المنقذ للإنسانية.

ظلمت المرأة العصرية المسكينة وحرمت وسخرت. وقد خلقها الله تعالى لوظيفة هي أسمى وظيفة، خلقها لتربي الإنسانية وتحفظ الغيب. وذاك أشق عمل وأشرفه على وجه الزمان. فأين حظوها؟ إنها عندما تفكر بصدق تدرك الحق، وقد يفوتها الفوت فتعض على أصابعها ندما. هذه أستاذة جامعية، ضيعت حياتها بين الكراريس والأضابير، وتسلقت قمة المجد العلمي، ثم... قالت وهي تلقي خطبة استقالتها أمام مآت الطلاب والطالبات : «ها أنا قد بلغت الستين من عمري، وصلت فيها

إلى أعلى المراكز، نجحت وتقدمت في كل سنة من سنوات عمري، وحققت عملا كبيرا في المجتمع. كل دقيقة في يومي كانت تأتي علي بالربح. حصلت على شهرة كبيرة، وعلى مال كثير. أتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كله، ولكن، هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كل هذه الانتصارات؟

لقد نسيت في غمرة انشغالي في التعليم والتدريس والسفر والشهرة أن أفعل ما هو أهم من ذلك كله بالنسبة للمرأة... نسيت أن أتزوج وأن أنجب أطفالا وأن أستقر... إنني لم أتذكر إلا عندما جئت لأقدم استقالتي، شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئا في حياتي، وأن كل جهدي الذي بذلته طوال هذه السنوات قد ضاع هباء... فسوف أستقيل، وسيمر عام أو اثنان على استقالتي وبعدها ينساني الجميع، في غمرة انشغالهم بالحياة.

ولكن! لو كنت قد تزوجت، وكونت أسرة كبيرة، لتركت أثرا أكبر وأحسن في الحياة. إن وظيفة المرأة هي أن تتزوج، وتكون أسرة. وأي مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها هي بالذات. إنني أنصح كل طالبة تسمعني أن تضع هذه المهام أولا في اعتبارها. وبعدها تفكر في العمل والشهرة».

فهذه شهادة واحدة، وقد جمع المرحوم الشيخ مصطفى السباعي أمثالها كثيرة في كتابه «المرأة بين الفقه والقانون».

وفي حدود الله، حدود القوامة والحافظية والعرض، يفسح الإسلام للمرأة ميدان الجهاد والعمل والكسب. فهو يحط عنها إصرها والأغلال التي كانت في عنقها ويحررها كما يحرر الرجل سواء بسواء على المنهاج النبوي.

5. حفظ العقل، من المقاصد الإسلامية الأساسية. حفظه أولا من أن يتيه عن حدوده، ويدعي علم ما لا يعلم وما لا يمكنه أن يعلم. وإن كان الفقهاء يهتمون كثيرا بالخمر التي تذهب العقل، فإن اهتمام الإسلام بالعقل أوسع من هذا النطاق. هناك سكرة المال وسكرة الشهوة، وسكرة السلطان والطاغوت، وسكرة العقل الفلسفي الذي يريد أن يفسر العقل نفسه من داخل العقل ومن ظروف خلقية بيولوجية تتحكم فيه ولا يتحكم فيها. من كل هذا ينقذ الإسلام العقل، ويوجهه وجهة عمله، ويرده إلى الفطرة والنظرة الفطرية ويحرره عندما يرجع خاسئا وهو حسير معترفا بالخالق الفاطر. في عصرنا انتصر العقل بفتوحاته وكشوفه العلمية، هذا لا ريب فيه، لأن الكشف العلمي موضع طبيعي للعقل ونشاطه لذلك ينتصر. أما عندما يتوجه للإنسان يريد أن يعلم علمه ويفسر وجوده، عندما يتخذ ميدانا له ما يسميه العصر بالعلوم الإنسانية فإنه يتيه ويحوم دون أن يصيب الهدف. ويتحول عندئذ إلى عقلية تصنيفية تسمى الأسامي وترتب في صفوفها كلمات تصطلح لها على مدلول،

ويبقى المدلول وهما وسرابا. وصدق الله تعالى القائل : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ**﴾ النور، 39. سراب الأنثروبولوجيا المعاصرة التي لا تعرف إلا الإنسان الدابة : ﴿**ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ النور، 40.

يستنير العقل بالإيمان، ويعلم علم اليقين إن تزكى وذكر اسم ربه فصلى أن الإنسان خلق لأمر عظيم، للخلود في جنة الله ورضوانه ودار السعادة إن اتبع المنهاج وترك اللجاج.

دين ماركس : لن يكون الفكر الإسلامي فعالا إلا إن لامس الواقع المعاصر وعانقه وعالجه على كل وجوهه بعقل ناقد مفتوح وطمأنينة المؤمن. ودين ماركس كان وعدا وهميا وفلسفة تتحول من التأمل في الإنسان والعالم إلى دعوة تريد قلب الأوضاع، تريد التغيير. وما كان لدين ماركس أن يأخذ من اهتمامنا لولا أنه أصبح المحرك للإنسانية المعاصرة الضائعة. وهو دين أرضي، دين الإنسان الدابة. لذلك فإن له فعالية خارقة في جمع الهمم الجاهلية، وهمم بني قومنا المفتونين، نحو التغيير. وأمامنا مثال الصين القمين بكل عناية من جانبنا وبكل إعجاب لو كنا خلقنا دوابا مآلها التراب. ولو كان للإنسان الدابة اختيار حر لما اختار على دين ماركس دين الطاغوت الاستغلالي، على أن من يدينون بالماركسية

لا يكادون يمارسون إيديولوجيتهم على الأرض حتى يستحيلوا رويدا رويدا أبالسة الطاغوت الاستغلالي. والصين اليوم تحمل في يد قنابلها وصواريخها وفي يد أخرى وعد ماركس وماو بتحرير الإنسان من طاغوت الجبارين، وغدا تذهب الوعود وتلحق الصين بروسيا، وتخزي الإنسانية بأنانية جبابرة الشرق والغرب ما لم ينقذنا الإسلام.

هذا أحد كبار الاشتراكيين يصف دين ماركس[1]: «كانت رسالة ماركس المبشرة بالجنة الأرضية تعطي شعاعا من نور لملايين القلوب البشرية لأنها تعطي للحياة اتجاها ومعنى. يمكن أن نصف دين ماركس بأنه تشويه أو «كاركاتور» للدين الحق —ويمكن أن توجد حجج كثيرة تؤيد هذه النظرية– لكنه لا يمكن إنكار عظم هذا الإنجاز ولا الامتناع من الإعجاب به.

وليس مهما أنه لا يكاد يوجد من بين هؤلاء الملايين البشرية من يستطيع أن يفهم الرسالة ويقدرها حق قدرها، وهذا مصير كل الرسالات. النقطة المهمة هي أن الرسالة صيغت بصيغة يمكن معها أن تقبلها العقلية السائدة في ذلك العصر. وهذه العقلية بورجوازية في روحها. وليس غريبا أن نؤكد بأن الماركسية أساسا نتاج بورجوازي. وصل ماركس إلى هذه النتيجة لأنه، من جهة،

1 Capitalisme, Socialisme et Démocratie, J. A. Shumpeter, PAYOT, P. 22

عبر بقوة، لم يفقه فيها غيره، عن الشعور بالقمع والأذى. وهذا الشعور سلوك كثير من البؤساء يتأسون به. ومن جهة أخرى أكد أن علاج هذه الشرور بواسطة الاشتراكية حقيقة يمكن أن يبرهن عليها عقلانيا. لنلاحظ الفن العالي الذي بواسطته توصل هذا الكاتب إلى تجميع التوقان الإنساني الخارج عن نطاق العقلانية، هذا التوقان الذي طرحه الدين المتهاوى، وتركه يجري هنا وهناك كالكلاب التي لا رب لها، جمع هذا التوقان مع الميل المعاصر للعقلانية والمادية. وهذا التجميع كان ضروريا في عصر لم يكن مستعدا لقبول أية عقيدة لا تعتمد على أسس علمية أو شبه علمية «Pseudo scientifique» ولو قال ماركس موعظة ذرائعية لما كان لموعظته أي تأثير. والتحيل الاجتماعي لم يكن ليهتم به إلا بضع مآت من الاختصاصيين. لكن عندما تلف الموعظة في صيغ التحليل دون الغفلة لحظة واحدة عن مطالب القلب يتكون لماركس هذه التقنية التي جلبت له ولاء متحمسا وأعطت الماركسي هذا السلاح القوي : الثقة بأن الإنسان والقضية التي يخدمها لا يمكن أن ينهزما، وإنما ينتصران وجوبا. ولاشك في أن ماركس المبشر ليس كل أسباب نجاحه. القوة الشخصية والرؤية الحالمة، وبدون هذين لايمكن ظهور حياة جديدة أو معنى جديد للحياة، وهما يعملان بقطع النظر عن العقيدة».

لنترك من شاء أن يتدبر هذا الكلام العميق. ونحن لا نريد أن نخرج إلى عنترية مبارزة الفكر الماركسي، ولا أن نتذرع بقوة الخصم لنفسر انهزامنا. نريد أن نتعلم أن رجلا قال بقوة وإيمان حقائق عن استغلال الإنسان للإنسان وقال ذلك بحمية وغضب وبرؤية حالمة ووعد يؤكده بتحرير الإنسان على طريق الثورة والعنف. وهو يدعي العلمية «Scientificité». ويصبغ كلامه بصيغة شبه علمية لائقة بالوضعية والعلمانية «Positirisme et Scien-tisme» السائدين في عصره. ونتعلم أن حاجتنا، ونحن على الحق ومعنا قرآن ربنا وسنة نبينا، إلى من يقول لنا حقائق ديننا بقوة ورؤية إيمانية واضحة هي أكبر الحاجات. ولا يعنينا فتيلا، ونحن المصروعون في كل ميدان، أن نبارز الغزو الفكري مبارزة عنترية نظرية. إنما يغنينا ويحررنا أن يقوم فينا رجال الدعوة والقائد المجاهد المنشود بعمل، بممارسة كما يقول ماركس، بخطوات على المنهاج النبوي ليغير الله ما بنا.

ومن الناس من يلحد في دين ماركس، ويكفر به بعد أن رأى ما صار إليه الفكر الماركسي عندما نزل إلى ميدان العمل. ذهب الوعد والخرافة وتبخر الحلم في عنف ستالين واستغلال روسيا خروتشوف وبريجنيف. ولنسمع إلى علم من أعلام الفلسفة «الدوابية» فلسفة الوجودية في نزاعه مع ماركس. يقول اليهودي جان بول

سارتر صديق العروبة الحميم وحامي المضطهدين في العالم، وتسمع في كلامه تجاوب «العباقرة» اليهود اللاعبين بالعالم[1].

«لكن الماركسية، وهي وليدة الصراع الاجتماعي، لزمها قبل الرجوع إلى هذه المشاكل (مشاكل الوجود) أن تلعب دورها كفلسفة عملية، أي دورها كفلسفة تنير الممارسة الاجتماعية والسياسية. وينتج عن هذا فراغ عميق داخل الماركسية المعاصرة... وهذه أنيميا (فقر الدم) عامة. وليس من شك في أن هذه الأنيميا العملية ستصبح أنيميا الإنسان الماركسي، أعني نحن أناس القرن العشرين. إذا اعتبرنا أن الماركسية هي إطار المعرفة التي ليس وراءها معرفة. وباعتبار أن هذه الماركسية تنير ممارستنا الفردية والجماعية، أي أنها تحدد حياتنا. حوالي سنة 1949 وضعت على حيطان فارسوفيا إعلانات كثيرة تقول : «السل يقلل الإنتاج». وأصل هذه الإعلانات قرار حكومي ذو نية حسنة. لكن محتواها يبين، أكثر من أي شيء آخر، إلى أي حد أبعد الإنسان من أنثروبلوجيا تزعم أنها معرفة صدفة. السل موضوع لمعرفة عملية، الطبيب يعرفه ليعالجه، والحزب يحدد أهميته في بولونيا بواسطة إحصاآت... لكن هذا القانون، الذي نستطيع أن نقرأه في الإعلانات الدعائية، يحذف المسلول ولا يعطيه حتى الدور الأولي كوسيط بين المرض وعدد

1 Questions de méthode, P. 245.

الأشياء المصنوعة، يبين استلابا جديدا، استلابا مزدوجا. في المجتمع الاشتراكي، في مرحلة من مراحل نموه، العامل يكون مستلبا بعمله. وفي المستوى النظري/العملي تزدرد « المعرفة» الأسس الإنسانية للأنثروبلوجيا... ستتردى الماركسية إلى أنثروبلوجيا غير إنسانية إذا لم تجعل الإنسان أساسا لها».

أما نحن فلا نبارز الماركسية وإنما نرفضها جملة وتفصيلا. ولا نتبع نظريات الفكر الجبار معقلا معقلا لأن للبناء العقلاني الماركسي منطقه الداخلي وجاذبية الرؤية الحالمة، وللواقع المراكسي المنتصر في روسيا والصين بهاء وهيبة إذا قيس بماضي أمتين ساقطتين خرجتا بفضل الماركسية من بين مخالب الذئاب الناهشة القاتلة الكاسرة. إنما نرفض دين ماركس وواقع الماركسية لأننا لا نرضى بدين دوابي يحصرنا في أبعادنا الأرضية، ثم لا يحقق الحلم ولا يصل إلى غايته الموعودة ولن يصل. نرفضه كما نرفض العالم الجاهلي الآخر عالم النخاب والنتاج، كدوار وصداع وما لا يخطه اليراع.

العلم والإيمان : نسمع أحد قادة قومنا العرب يردد شعار «العلم والإيمان» فتخفق قلوبنا أملا وحلما بعيدا لكثرة ما خابت آمالنا. تخفق قلوبنا عندما نتخيل واقعا غير واقعنا المهزوم نستبدل فيه جهلنا علما وجاهليتنا إيمانا. ولعل

ألسنة الخلق تنطق بالحق، ولعل الحروف تتحول لنا حقيقة نعيشها بالعلم والإيمان، لا شعارا يقال ويهتف به لكن جهادا على المنهاج النبوي وعلى الدستور القرآني.

يمتاز عصرنا بالتقدم العلمي الهائل، بتفتح العقل العلمي على العالم وتسخيره للمادة والزمان والمكان. ومتى توجه العقل الإنساني إلى ميدانه الذي خلق له كان له النصر، لكنه إن رام ما لا يرام، إن حاول أن يصل إلى المعرفة تخبط ومسخ عقلية تصنيفية لا تجيد إلا تسمية الأسماء وترتيب مواضيعها على رفوف تسمى علم الاجتماع وتسمى الفلسفة وتسمى الأنثربولوجيا. الأشياء ينفذ العقل لغوامضها ويستجلي أسرارها ويصنع بها ما يشاء. أما الإنسان فكل المحاولات شبه العلمية لا تلاحظ إلا تقلباته وهلعه وعنفه، أما كنهه وكوامن باطنه فتنفيها الدراسات وتسمها على الخرطوم بطابع « الماورائية»، أو تسمها بأنها شبه كذا، شبه نفسية «Parapsy-chologique» مثلا، ثم ترجع هذه الدراسات إلى الإنسان تطبق عليه مناهج الدراسات الطبعية، تغرز دبابيسها في الحيوان الإنساني كما في الحشرات، وينظر الفيلسوف وعالم الاجتماع في موضوع دراسته فماذا يرى؟ ويحه ماذا يرى؟ إن على عينيه غشاوة الكفر والغفلة. لذلك لا يرى إلا حيوانا متطورا، فيصنفه في سلم الحيوانات، ويعطيه، كما يليق، اسما علميا لاتينيا تتبعه صفته الظاهرة. فهذا الدابة العاقلة «Homo sapiens» وهذا الدابة الاقتصادية

«Homo oeconomicus» وهذا الدابة اللاعبة «Homo ludens»، وهناك حتى الدابة المتدينة «Homo religiosus»، هذا الحيوان الغريب الذي يزعم أن له مصيرا خارج الأرض. وأن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لايعقلون.

غير أن الله تعالى تأذن أنه سيرينا آياته حتى نؤمن. يقول عز من قائل: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾ فصلت، 53. والعلم التجريبي المنكب على المادة ينتصر ويبدع ويكتشف، وكلما تقدم شوطا في كشوفه ازداد حيرة وازداد تواضعا أمام خلق الرحمن، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت.

كان لعلم الطبيعيات قواعد راسخة منذ عهد جاليليو ونيوتن. ودرج العلماء الطبيعيون على أرضية ثابتة فيما يرون حتى دهاهم النظرية النسبية والميكانيكا التموجية والفيزيقا المتقطعة «Physique des quants». ولا يزالون يكتشفون ما يزلزل يقينهم السابق ويبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وتضمحل القوانين الحتمية التي كانوا يظنون أنها تحكم لا تتخلف.

لنسمع أحد فطاحل العلماء يتحدث عن الذرات الشعاعية الضوئية واستعصائها على الباحث بالوسائل المعهودة، هذا العالم هو لويس دبرولي «Louis de Broglie» المتخصص في فيزياء الضوء

يقول[1] : «كان يظهر لي يقينا أن الجسيم لا بد أن يكون له في كل لحظة وضع في المكان والسرعة... ولهذا فإن الجسيم لا يتبع قوانين الميكانيكا الكلاسيكية... لا يمكن بصفة عامة، أن نزعم أن للجسيم لا وضعا ولا سرعة ولا مجرى معينة. وإنما يظهر الجسيم في اللحظة التي نجري فيها ملاحظة أو قياسا، يبدو لنا حينئذ أن له وضعا ما وسرعة ما. ومعنى هذا أن له في كل لحظة سلسلة من الوضعيات وسلسلة من الحركات الممكنة، وهذه الإمكانيات تتحقق فقط، مع شيء من الاحتمال، عندما تجري قياسا عليها... أما الموجة الضوئية فإنها أيضا تفقد، وبصورة أكمل من الجسيم، معناها الذي تعطيه إياها الفيزياء الكلاسيكية. إنها لم تعد إلا تمثيلا لاحتمالات تتوقف على درجة علم الذي يجري الاختبار. إنها شخصية فاعلة كما هو الحال مع التوزيعات الاحتمالية، وهي مثلها تتغير فجأة عندما يكتسب المختبر معلومات جديدة».

انظر كيف تخاطب الموجة المختبر وتحاوره وكيف تزيده بها معرفة كلما ترقى هو واكتسب علما جديدا. وانظر هذا الجسيم الموجود الغير موجود. إنه احتمال فقط لا زمن له ولا مكان، لكنه أيضا يحضر في الميعاد ليحدث المختبر عن قدرة الله وسعة ملكه.

1 Panorama des idées contemporaines, 1968 P. 625.

ومنذ سنين ظهرت أبحاث كثيرة تسأل الكشوف العلمية عن الحق الموحى به، عن وجود الله ووجود الآخرة وعن معجزة الجسم البشري. ولعلها بداية الهداية للإنسان الجاهلي إن رجع إلى نفسه واعتبر ما في جسمه عله يبصر، ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾ الذاريات، 21.

كتب الأستاذ وحيد الدين خان الهندي بإشارة من عالم المسلمين السيد أبي الحسن الندوي كتابا بالأردية عرب بعنوان «الإسلام يتحدى» جمع فيه شهادات علماء باحثين مسيحيين تثبت وجود الله ووجود الغيب وهو كتاب نفيس ينبغي أن يقرأه كل مسلم، ومنه نقتطف ما يلي :

يقول البروفسور سيسيل بايس هامان، وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا : «كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجدية تفاعلا كيماويا. هل أبطل هذا وجود الإله؟ فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟ إن الغذاء بعد دخوله للجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة لتصبح تفاعلا مفيدا؟ إن الغذاء بعد دخوله للجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة من خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض. فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!».

إذا كان لا مناص من افتراض أزلية هذا الخالق، فلماذا لا نؤمن بأزلية هذا الكون؟ وهذا الكلام لا معنى له، لأننا لم نعثر على صفات للكون، أية كانت، تثبت أنه خالق نفسه. ولقد كان لهذا الاستدلال حسنه ورواؤه حتى القرن التاسع عشر ولكنا اليوم، وبعد كشف «القانون الثاني للحرارة الديناميكية» نجد أن هذا الاستدلال فقد كل أساس كان يقوم عليه. وهذا القانون الذي نسميه «قانون الطاقة المتاحة» أو «ضابط التغيير» « Law of Entropy» يثبت أنه لايمكن أن يكون وجود الكون أزليا. فهو يصف لنا أن الحرارة تنتقل دائما من «وجود حراري» إلى «عدم حراري» والعكس غير ممكن.

يقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم، مضروبا هذا العدد في (500.000.000.000.000) من الملايين وفي كل مجموعة منها يوجد مائة مليار من النجوم، أو أكثر أو أقل، ويقدرون أن أقرب مجموعة من النجوم، وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة، تضم حيزا مداه مائة ألف سنة ضوئية (الضوء يقطع مسافة 300 ألف كيلومتر في الثانية الواحدة، والسنة الضوئية مسافة يقطعها الضوء بهذه السرعة في السنة). ونحن سكان الأرض، نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية. وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة

تتألف من سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة مليونان من السنين الضوئية. (هذا والكون يتسع من كل جوانبه في كل لحظة، وآلاتنا العلمية الراديو الكترونية تدرك من الكون عشر مليارات من السنوات الضوئية. فمن يحسب وأين نحن من ملك الله؟ لكنا إن آمنا فالكون لنا ونحن مركزه ومن أجلنا خلقه الله. ولدار الآخرة خير ولنعم عقبى الدار).

إننا نتحير إذا رأينا النظام المعقد لأسلاك التلفون، ونتحير إذا وجدنا أن مكالمة من لندن إلى ملبورن بأستراليا تتم في بضع ثوان. فإذا كان نظام أسلاك التلفون يوقعنا في هذه الحيرة، فما بالنا بنظامنا العصبي، وهو أوسع من هذا النظام وأشد تعقيدا! إن ملايين الأخبار تجري على أسلاك نظامنا العصبي من جانب إلى آخر ليل نهار. وهذه الأخبار هي التي توجه القلب في تدفقه وحركاته، وتتحكم في الحركات الرئوية. ولو لم يكن هذا النظام موجودا في أجسامنا لصارت الأجسام تلفيقا لأشياء مبعثرة، تسلك كل منها مسلكها الخاص.

لقد توصل العلماء خلال أبحاثهم، إلى أنه لا بد في المستقبل القريب وطبقا لقانون دوران الأجرام السماوية أن يقترب القمر من الأرض، حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء. (قال الله مخبرا بالحق : ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ**

وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ القمر، 1-3. صدق الله العظيم.

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تماما لصالح أهل الأرض. ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفا من الأميال على سبيل المثال فسوف يحدث طوفان شديد في البحار. قال الله عز وجل : ﴿**وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ الحج، 65.

وسوف أختم هذا الباب (يقول الأستاذ وحيد الدين خان) بواقعة رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور عناية الله المشرقي، وهو يقول: «كان ذلك يوم أحد من أيام سنة 1909 م، وكانت السماء تمطر بغزارة. وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور السير جمس جينز، الأستاذ بجامعة كمبردج، ذاهبا إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه. فدنوت منه، وسلمت عليه فلم يرد علي، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني : «ماذا تريد مني؟» فقلت له : «أمرين يا سيدي، الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر» فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور. فقلت له : «وأما الأمر الآخر فهو : ما الذي يدفع رجلا ذائع الصيت في العالم مثلك أن يتوجه إلى الكنيسة؟» وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة ثم قال : «عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء

عندي». وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت ليدي جيمس في تمام الساعة الرابعة بالضبط وأخبرتني أن السير جمس ينتظرني. وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي. وكان البروفسور منهمكا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني : «ماذا كان سؤالك؟» ودون أن ينتظر ردي، بدا يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها وجاذبيتها. وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز من هيبة الله وجلاله. أما السير جمس فوجدت شعر رأسه قائما، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله. وتوقف فجأة ثم بدأ يقول : «يا عناية الله! عندما ألقي نظرة على روائع خلق الله يبدأ وجودي يرتعش من جلال الإلهي، وعندما أركع أمام الله وأقول له : «إنك لعظيم» أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكون وسعادة عظيمين. وأحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة. أفهمت يا عناية الله خان لماذا أذهب إلى الكنيسة؟».

ويضيف العلامة عناية الله قائلا : «لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا في عقلي وقلت له : ياسيدي : لقد تأثرت جدا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسب آية من آي

كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم. فهز رأسه قائلا «بكل سرور» فقرأت عليه الآية التالية : «ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود. ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك. إنما يخشى الله من عباده العلماء» فصرخ السير جمس قائلا : ماذا قلت؟ إنما يخشى الله من عباده العلماء؟ ! مدهش! وغريب وعجيب جدا! ! إن الأمر الذي كشفت عنه بعد دراسة ومشاهدة استمرت خمسين سنة من أنبأ محمدا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك، فأكتب شهادة مني أن القرآن موحى به من عند الله، ويستطرد السير جمس قائلا : لقد كان محمد أميا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر... مدهش! وغريب وعجيب جدا! ! (انتهى كلام وحيد الدين خان).

من الظلمات إلى النور يهدينا الله بالعلم والإيمان، ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ النور، 39، ﴿**ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ**﴾ النور، 40. دين ماركس دين دوابي ظلماني، ونور الإسلام يشهد به أعداؤنا، ويشهد العلم بوجود الفاطر بديع السموات والأرض، والعقلية التصنيعية لا ترى إلا الإنسان الدابة.

وجوابنا عن الفكر الجاهلي والعمل السرابي الاستغلالي لا يجدي فتيلا إن انحصر في دائرة الكلام. إنما الجواب إقامة الدين وانبعاث الإسلام في أمة مؤمنة قوية تشهد على الحق بالحق، وتقوم بالقسط. وبدايتها تجربة علمية على المنهاج النبوي، تجربة شخصية قائمة على الصحبة والجماعة والذكر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاصريه داعيا لهذه التجربة : «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**». فقالوها وأفلحوا وايم الله. ومتى سمعنا الداعي إلى الله الصادق يتحدى بكلمة التوحيد، ويعد بالفلاح من قالها، من ذكر الله وتزكى، ومتى استجبنا لدعائه فسنفلح وسيتحقق كل واحد أن دين الله حق وأن من أطاع الله وجد في طاعته السعادة والقوة، واكتسب السمت والتؤدة والاقتصاد. وعلى الله قصد السبيل.

معرض المثلات

قال الله تعالى : ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ**﴾ الرعد، 6. المثلات في تاريخ البشر كثيرة، قرى أهلكها الله لكفرها وتكذيبها الأنبياء، وحضارات انهارت لما سقطت أخلاقها، والله يدعونا لتدبر هذه المثلات والاعتبار بمآلها. ولا نحتاج لشهادة الماضي لأن في حاضرنا الجاهلي الظلماني مثلات تعرض عليك بؤس الحيوان العمودي، الدابة العاقلة اللاعبة الغافلة. لنترك إلى حين دنيا الشيوعية الفاضلة في زعمها، الشيوعية العفيفة التي تقضي على الجهل بالعلمية وعلى الزنا والفقر وعلى الظلم والاستغلال، في زعمها، ولنطل إطلالة على عالم الانحلال الخلقي السافر، عالم الحرية والمتاع. ولن نطيل لأن أي جريدة أو مجلة تفتحها تحدثك عن الجريمة النظمة وعن الفاحشة المعروضة بشكل مغر، وعن انحدار المرأة إلى قيمة البضاعة، مع البضاعة في الإعلانات والسينما والتلفزة، جمال الأنثى يبيع السلعة ويباع معها. وتحدثك الجرائد، إن كنت تفكر، عن مساومات الساسة، وتحدثك عن فضائح الكبير والصغير. ولا تذهب بعيدا فإن أبواب السياحة تدخل علينا نماذج دوابية عبرة لمن اعتبر. هؤلاء الهبي تلامذة الصهيوني ماركوس، غطوا الأرض بقذارتهم وجراثيم أمراضهم، حيوانات تسعى على

قدمين. قذارة تفرزها الحضارة الاستهلاكية بطبيعتها. قذارة مفلسفة، فالدابة الشقية بحضارتها وعنف أهلها تدعي عدم العنف وتنتسب إلى حركة الاعتراض «Contestation» الذي ينشد التغيير. ترفض الدابة الشقية قانون المجتمع وضغطه وقمعه، وتريد أن تستبدل ببذخه وترفه التقلل، وبعجرفته المسكنة والتذلل وتريد حرية الجنس، أي بعبارة عامة الانخناس إلى الحيوانية في أبسط صورها. بيد أن الحيوان نظيف عفيف إذا قيس بفسق الذباب ونتانة الدابة العمودية الشقية. إلى هذا تنتهي الحضارة الاستهلاكية التائهة. ويحن إلى الاقتداء بها من لا يزالون وراء السور الحديدي أو القصبي، وسيقتدون متى تم لهم ما يريدون من اللحاق بالغرب في ميادين الإنتاج والاستهلاك. وهاك داهية الدواهي، المسرح الجديد، مسرح العري. دعك من هذه التفاهات السينمائية التي عفى عليها التقدم الثقافي، إن عري السينما وعهارتها ثقافة بدائية. هاهو مسرح العري، يحضره القوم ليتمتعوا بمشاهدة الدواب تتسافد، نعم نعم علانية وجهارا. ذهبت أيام الفسق المتستر وتحرر القوم.

المؤمن المطمئن ينظر إلى كل هذا ويرثي للدابة الشقية، ويرى تدبير الله للإنسان لينحط إلى الدرك الأسفل قبل أن يتيقظ ويطلب الخلاص، وليس ثم إلا الإسلام.

أمتنا ضعيفة مسخرة لخدمة جبابرة الاقتصاد العالمي وفي هذا عبرة ونحن كثير لكن كثرة غثائية كما عبر الرسول. ومصيبتنا في تقليدنا للجاهلية وأخذنا عنها أخذ الأعمى الأصم. فلنا في أنفسنا مثلات وعبر.

والصهيونية العالمية تمسك بيدها حبال الدمى البشرية وتلعب بها كما تشاء. ولها في كل ميدان رجال ذوو فكر ثاقب وعزم ماض على أن ينتصر «شعب الله المختار»، خاب ظنهم إن شاء الله أن ينبعث للإسلام بعث في جانب من جوانب الأرض الموبوءة. فلنا في وجود فسقة اليهود العباقرة مثلات وعبر. وانظر، عافاك الله، من يقود الفكر الإنساني ويرتاد له الطريق، أجهزة الإعلام في العالم أوكار للصهيونية، ومختبرات العلم ومحافل السياسة. ووجوه ثلاثة بارزة : ماركس ومركوس وفرويد. كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل ويحب أن يبردوا إليه رجلا حسن الاسم حسن الهيئة، وكان يكره الاسم المنكر. وما خلق الله من شيء عبثا. فماركس ومركوس ألفاظ تتكلم بفصاحة عن ارتكاس الإنسانية في حمأة الجاهلية حيث الصهاينة سدنة وقادة وماسكو أحبال الدمى البشرية.

الفكر الرائد: يلتقي كل فكر حر متشوف إلى الحقيقة الأرضية بالفكر الرائد فكر ماركوس وفرويد. وفي الفراغ المحيط يتجلى دين ماركس وفرويد كبديل للفوضى العامة والتدليس الكنسي

والعمي الجاهلي. ويتجلى دين اليهوديين بناء متماسكا منطقيا علميا يقدم للمتعطشين « المعرفة الصرفة». وفي هذه الأحبولة الشيطانية يقع أبناؤنا كما وقع أبناء أجيال ثلاثة منذ أزيد من قرن. لنأخذ مثلا لنا رفيق ماركس الحميم. كان إنجلز في شبابه شابا تواقا إلى معرفة الحق، وصدمه التدليس الكنسي فألغى الدين وصحب العملاق اليهودي، ودان بدينه. كتب إنجلز في شبابه إلى أحد أصدقائه ما يلي[1] : «إنني أدعو كل يوم، وأقضي اليوم كله داعيا أن تنكشف لي الحقيقة. لقد أصبح الدعاء هوايتي، منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي. إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم (عقائد التدليس الكنسي). إن قلبي يفيض بالدموع الغزار وأنا أكتب هذه السطور، قلبي يبكي، عيني تبكي، ولكنني أشعر أنني لست بطريد من رحمة الله، بل آمل أن أصل إلى الله الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي. وأقسم بحياتي أن عشقي وبحثي هذا لمحة من روح القدس. ولن أقلع عن تفكيري هذا، ولو كذبه الإنجيل المقدس عشرة آلاف مرة!».

في صفوف شبابنا التائه من يحملون مثل هذا التوقان إلى معرفة الحق. وفي الفراغ المحيط، وتدليس ديدان القراء تجار الدين ومثالهم الساقط، يرتمي شبابنا في أحضان الشيوعية وأنواع الفكر

---

1 من كتاب «الإسلام يتحدى»، ص 266.

الفوضوي أو العدمي. والجواب عن توقانهم لا تسعه السطور، وإنما يسعه ميدان العمل الإسلامي، وقيام الصادقين في الدعوة والجهاد حتى يجلو الإسلام في أعين الناس كافة نجاحه في الاقتصاد ونجاحه في إسعاد الإنسان. وألف سفر في مبارزة الماركسية وتمجيد الإسلام لا يغني فتيلا. سيما إن كتب أو نطق باسم الإسلام ديدان القراء تجار الدين.

نعزو إلى ماركس وفرويد دينا اخترعاه، وهو دس على الإنسانية وتشييء واستلاب كما يعبرون. ولا يهمنا أن نبحث هل قصد العالمان، في اصطلاح القوم، دسا وتوهيما، يكفينا أن نعلم أن الله تعالى يبتلي عباده ويسخرهم في هذا البلاء ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وخلق الله الشيطان وجعله فتنة، ومن الناس شياطين قد لا يدركون أي دور يقومون به.

يلخص الكاتب الانجليزي ر. ازبورن رأي اليهوديين ماركس وفرويد في الدين، إنهما يفسران للإنسان غروره إن اعتقد وجود الإله ويردان كل اعتقاد إلى الدابة العاقلة وتخبطها في مشاكل الاقتصاد وغوامض العقل الباطني، ونورد كلام الانجليزي لنتفرج على العقلية التصنيفية في أبرع مظاهراتها. يقول[1] : «نستطيع أن نمزج نظريات ماركس وفرويد في الدين بالشكل

1 Marxisme et psychanalyse, R. OSBORN, PAYOT, P. 83.

الآتي : إن العامل الموضوعي الذي يقود إلى الدين في نظر ماركس هو العجز الذي يخلق حاجة للحماية والاتجاه الكفيلين بتسليح الإنسان أمام تحديات العالم الخارجي. وهذا العجز في نظر فرويد يذكر بحاجة الطفل لحماية أبيه له، حماية توجهه الوجهة التي يحتاج إليها. لكن الراشد لا يرى بالطبع والده كما كان يراه وهو طفل. إنه اكتشف أن والده رهين بالجنس البشري وضعفه. فلكي يبحث عن حماية لا يمكن أن يلتفت إلى والده. ومع ذلك فإنه يحتفظ في اللاوعي بصورة أبيه أيام الطفولة، أبيه القوي الذي يعاقب ويكافئ على طاعة أوامره وإرشادته. وإلى هذه الصورة يتوجه ليلتمس الحماية والأمن عندما يهدد الواقع بأن يغمره. هذه الصورة، صورة الأب القوي يسقطها «Projeter» على العالم الخارجي فتكون له حماية، وهي صورة الأب القادر. وهكذا يكرر المؤمن بالدين بصورة مبالغ فيها ذكرى مواقف والده الأرضي الذي كان يلاحظه في طفولته، الأب السماوي قادر على كل شيء، يعلم كل شيء، إنه شديد ومع ذلك فهو مليء بالمحبة. نلاحظ في الدين الدور المهم الذي يلعبه «الأنا الأعلى» «Sur moi» المتمثل في القوى الخارجية التي تحكم حياة الإنسان. «إن الشعاع العجيب الذي ترسله هذه القوى في دماغ الإنسان»، كما يقول إنجلز، تقود الإنسان لكي يسقط الأنا الأعلى ثم يلتمس منه بعدئذ الحماية».

هكذا بسهولة ووفق العقلانية شبه العلمية يرجع الفكر الرائد الإنسان إلى نفسه، إنه في العالم وحده مع العالم، في الترتيب التوبوغرافي الفرويدي، الهذا ثم الأنا ثم الأنا الأعلى. وأمام هذه المبهمات الشبه علمية قوى خارجية يلخصها ماركس في مبدإ الاقتصاد ويلخصها فرويد في مبدإ الواقع. لاجرم مع هذا أن تكون القوة البهيمية الحيوية « La libido» الدافع الأول والأخير لأعمال الدابة البشرية. وانتصارها يتوج الدين الجديد، بانتصار مبدإ اللذة على مبدإ الواقع وبتسخير مكتسبات العلم المادية لتحقيق المجد الأرضي كما يصف مركوس العظيم.

ما بالنا وهذه التعقيدات الإسلامية، وفيها تفسير غيبي، وفيها الجن والملائكة والآخرة والجنة والنار. هذا ما يدور بخلد أبنائنا المعذبين في الأرض. ولولا أن الله تعالى جعل الهداية على يد البشر بهذه الطاقة النبوية الموروثة عند أوليائه الدعاة إليه، هذه الهداية المبنية على تجربة شخصية علمية تجريبية تحول بفعلها الإلهي من الظلمات إلى النور لما أمكن أن نعثر على أحسن مما عثر عليه الفكر الرائد. إن أحبار اليهود المحدثين يفسرون الإنسان والدين والحياة تفسيرا أنيقا بسيطا مغريا، فلذلك ترى شبابنا الحي يميل ويذهب به التيار. ومن يناقش أحدا منهم في جزئيات الفكر الرائد فإنما ينفخ في رماد، ومن يواجههم باللعن والعنف فإنما يفعل

ذلك لجهله بأبعاد المأساة. هاتو لهم واقعا إسلاميا ناجحا، وهاتوا لهم دعوة صادقة تتحداهم بالتجربة الشخصية، بالصحبة والجماعة والذكر، بالمنهاج الذي يتضمن الهداية والنور، وستجدون عند الصادقين منهم الاستجابة.

عبد الطاغوت: من أمتنا عافاك الله عبدة الطاغوت. المسخ الخنزيري رأيناه عند الحفاة العراة المتقممين رذائل الحضارة الهاوية، والمسخ القردي نراه عند أمثال خروتشوف اللاهث وراء البضائع الأمريكية، ويجتمع في أمتنا المفتونة كل هذا ومعه المسخ الأعظم مسخ عبدة الطاغوت. افتح مذياعك وتحسس لهجة بني قومنا العرب فماذا تسمع؟ تسمع زمجرة وزئيرا ووعيدا على العدو الغاشم، وكأنك أمام هدير البحر الطامي الذي يغرق الظلم والظالمين لكن تأن حتى تتبين أية آلهة يعبدون. إنه مايو العظيم، والميثاق والتهويم، وإنه شباط ونيسان، وأعياد يفرح لها الشيطان. وثنية الزمان تضاف إلى وثنية الأبطال. وقد جعل الله للمسلمين أعيادا وأمرهم بمحبته ومحبة رسوله، لكن ولاء عبدة الطاغوت يذهب للأوثان المنتصبة خزيا في تاريخنا. إن وثنية الزمان تدحرجنا إلى المهواة، إنه حزيران، وملحمة باكستان.

نستفيد إن علمنا بم يدين أبطالنا. إن هزائمنا ليست أحداثا اعتباطية، إنها يد الله القوية علينا حين خذلنا أنفسنا ولم ننصر

الله لينصرنا. بطل العروبة يتحدث عن الدين ونحن نسمع للعبرة لا للتشفي، فقد ذهب الرجل إلى ربه، وحسابه عنده، وبقيت لنا الهزائم والثبور وعظائم الأمور. يقول ناصر في استجواب صحفي هندي متحدثا عن الدين والدنيا بعد أن سأله الصحفي عما إذا كان مستعدا للانضمام إلى حلف إسلامي يتألف من العرب وغير العرب[1] : «إني رجل شديد التدين... ولكنك لا بد قد لاحظت أن الدستور الجديد للجمهورية العربية المتحدة لا يشير إلى دين الدولة... وسبب هذا أننا نؤمن بأننا عرب أولا... كما نؤمن بمحمد والمسيح... وقد ظهرا في أرضنا هذه ونبعا منها (وكأنه يقول : كما نبعنا نحن).

وكما أن العربي المسيحي لا يستطيع أن ينضم إلى تحالف مسيحي غربي فالمسلم العربي أيضا لايستطيع الانضمام إلى حلف إسلامي.

ومع أني كمسلم لا أرى مانعا من التعاون مع الجميع في مسائل الدين إلا أني لا أرى من الحكمة إقحام الدين في السياسة. (هكذا!)

إن الأضرار التي يسببها التعصب الديني شيء معروف لكل إنسان، وقد شهدنا آثاره في جماعة الإخوان المسلمين الذين كانوا يعملون لإعادة الملكية وربط مصر بجهة معينة وقد تم القضاء على هذه الجماعة بمعاونة الله والشعب، (مرحى بوثنية الشعب،

---

1 كتاب «الشعوبية الجديدة» لمحمد مصطفى رمضان، 1969، ص 129.

وهي الوجه المقابل لوثنية البطولة).

كما أننا جربنا ثمار إمراطورية إسلامية أيام الإمبراطوية العثمانية، وما أظن أحدا من العرب يفكر في إعادة هذه الإمبراطورية... وإذا كان لا بد في هذا الوقت من خلق جبهة إسلامية فإن هذه الجبهة سوف تضم تركيا والباكستان... وقد أصابتنا نتائج مريرة من جراء دعوتهم هذه (وكأنه يقول بلسان العصبية الأموية : ما بالنا والموالي ونحن العرب الأشراف!).

.... ولو وقع هذا لاأعتقد أن محاولة كهذه لإنشاء حلف دولي إسلامي على أساس ديني تكون خطوة في الطريق الصحيح (والطريق الصحيح ولاريب هو العروبة التي تربي قواد الجيش على سهر الليالي الحمراء ليلة الزحف وتربي الجندي العربي الاشتاركي المسكين على تسليم دبابته وتسليم ساقيه للريح).

يقول محمد مصطفى رمضان بعد هذا : «في كلام الرئيس «العربي» ردود بليغة على من يزعمون أن « القومية العربية» طريق إلى الدولة الإسلامية الكبرى. وفي حقيقة الأمر لقد كفانا سيادة الرئيس مشقة إسكات هؤلاء السذج وأولئك المغرضين. فجزاه الله عنا كل خير»).

ولو ترى إذ تقام للبطل الوثني دعوى عريضة مريضة فاسقة مريدة يدوس بها عبد الطاغوت قدس الإسلام والمسلمين. ويقوم

ديدان القراء على سدانة الدعوى في مجلة أكبر جامعة إسلامية. يكتب أحمد حسن الزيات في مجلة الأزهر عدد محرم 1383 تحت عوان : «أمة التوحيد تتوحد»[1] : «إن الوحدة المحمدية كانت كلية عامة، لأنها قامت على العقيدة، ولكن العقيدة مهما تدم قد تضعف أو تحول، وإن الوحدة الصلاحية (يقصد صلاح الدين الأيوبي الرجل الصالح) كانت جزئية خاصة، لأنها قامت على السلطان، والسلطان يعتريه الوهن فيزول.

أما الوحدة الناصرية فباقية نامية، لأنها تقوم على الاشتراكية في الرزق والحرية في الرأي والديمقراطية في الحكم. وهذه المقومات الثلاثة ضمان دائم للوحدة».

كبرت كلمة تخرج من أفواههم، يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن اجترأوا على مقام الرسالة. ومسخ أكثر من هذا لايكون. ولم لا يأفك الأفاكون وقد قضينا على هذه الشرذمة من الإخوان المسلمين الذين يحبون الله ورسوله ويدعون لوحدة إسلامية وعزة إسلامية! يقولون : القرآن دستورنا ومحمد الحبيب قائدنا ! وجواب الله دفاعا عن كرامة نبيه هو الخزي والدمار ما دام فينا من يعبد الطاغوت.

1 نقلا عن كتاب السيد أبي الحسن الندوي «الطريق إلى المدينة».

مجتمع الكراهية : أكرم الله العرب البادين البدائيين بأن بعث فيهم رسوله الأمين خلاصة العنصر الإنساني وجوهرته. فعزوا وبزوا وهم اليوم أضرى أعداء الإسلام على الإسلام. وهم اليوم عبرة لمن اعتبر وأمثولة وضحكة ولعبة للعالم. هم قومي آلم لما يألمون وأضج إلى الله من إلحاد الملحد وشرك الوثني، وأضرع إليه سبحانه ألا يؤاخذنا بما فعل السفهاء منا. وتكثر المثلات وتتعدد الويلات في قومي المفتونين. وأقتطف فيما يلي وصفا لمجتمع الإلحاد والكراهية كما عبر سعد جمعة الوزير السابق زمان هزيمة حزيران، وقد نفث نفثة مصدور في كتابيه وهو يبحث عن الإسلام فلا يهتدي إلا إلى الكره والانتقام والغيظ والخصام.

الانحلال الخلقي ليس وقفا على أناس الحضارة والثقافة، بل هو عندنا يكتسي صبغة المسخ لأن له خلفية ظاهرة تفضحه، يقول الدكتور عبد الصبور شاهين[1] : «أليس غريبا أن يكون بعض عتاة الملاحدة في مجتمعاتنا من يمتون إلى أسر ذات اتصال بالدراسة الدينية! وأن تنشر مجلة أسبوعية إحدى المانكان تمثل جامعة الأزهر الشريف، ثم تأتي بصورتها فإذا هي ترتدي ما ترتديه بنات باريس !! ودعك من أن تكون إحداهن فتاة غلاف، تنشر لها صورة عارية، أشبه بصور السابحات الفاتنات، وهي من بنات العلماء! إنهم

1 مقدمته لكتاب «الإسلام يتحدى»، ص 14.

جميعا وأضرابهم نتاج هذا الانفصام بين الفكر الديني وقضايا العصر».

يصور سعد جمعة ساسة العرب هكذا[1] : «إن بعض أقطاب العمل السياسي في الأردن كزملائهم في بقية الأقطار العربية (ولا ينبئك مثل خبير). فيهم المغامر الصلف غير المؤتمن، وفيهم أدعياء معرفة ومروءة ووطنية، لا يساوون ثمن هذا الورق الذي أكتب فيه. خير ما فيهم، ولا خير فيهم، إتقانهم نهش الأعراض، وتجريح الحرائر، والتشدق بهجر القول، والتمدح بوقاحة السمت. يغشون المجالس بالنكت السمجة، والظل الثقيل، ويغطون الصفاقة بالتدليس والنفاق. وفيهم ذوو نفوس رخيصة في سوق النخاسة، بدراهم معدودة. تستطيع أن تصطفي ما تشاء منهم عملاء وأذنابا. وقد جهلوا لتعاستهم أن الأصالة تنبع من الذات ولا تشترى بالعمالة. لو ارتدوا ألف ثوب من الوطنية الزائفة، وجاؤوا من الخارج بمليون شهادة حسن سلوك يوارون بها خزيهم وصغارهم، ويسترون بها ما يقترفونه في الداخل من جرائم خلقية، وفساد وسرقة، وتشجيع على التآمر والمتاجرة بمصلحة البلد كلها، ذلك أن الشرف لا يتجزأ، والخُلق لا يتجزأ، والوطنية لا تتجزأ، وهي صنعة نفس لا بضاعة تشرى وتباع. فمن كان متهما في ذمته، صغيرا في مروءته، خائنا في انتمائه الداخلي

---

1 مجتمع الكراهية، ص 266.

وعمله المسلكي لا يكون كبيرا في انتمائه الخارجي وعمله القومي!!

... في جلسة مجلس الأعيان الأردني يوم 9/3/1969 لمناقشة موازنة الدولة، موازنة المعركة، تبارى الخطباء من الأعضاء في فضح سخائم الحكومة. وأشاروا بالأرقام والوثائق إلى السرقات والرشوات والمحسوبيات والصفقات والتفريط في أموال الدولة، واجتراء على الحق وإعانة على الفساد ولم يتركوا زيادة لمستزيد. وكل تهمة من هذه لو صحت جرم مشهود يستحق أقصى عقوبة في ظروف عادية، بله ظروف استثنائية.

... فوقف رئيس الوزراء المتهم، لا ليرد على التهجمات الوثائقية الخطيرة بل ليقول بالحرف الواحد : إن ما ذكره السادة الأعضاء هو مفتريات أمر عليها مر الكرام -هكذا والله!- ثم اتجه بكلامه نحو الرئيس السابق الذي يزاحمه على السلطة، هان الطالب والمطلوب، وقال بالحرف الواحد أيضا : «الكل يعرف أن الأردن كان في زمن حكومة (فلان) -وأنا أعف عن ذكر الأسماء، وأحجم أن أمسها بقلمي فتتهك- يسير بسياسة انعزالية تآمرية معروفة في كل وقت تولي فيه مسؤولية الحكم. وإنني أتساءل: أين كانت تصرف أموال الأردن؟ وأجيب : كانت تصرف على المتآمرين الذين كانوا يأتي بهم من هنا وهناك... ومن منا لم يشاهد على شاشة التلفزيون السوري النقود الأردنية يعرضها ويفضحها من حصل

عليها من يد «دولته» بالذات؟ ومن منا لم يسمع بقضية الشيكات الموقعة من أجل المؤامرة ولمصلحة المتآمرين. وكلكم تذكرون أن فلانا هذا في عهد حكومته طلب من شخصين مسؤوليين كبيرين سحب ثلاثة مليار دينار من احتياطي الدولة للتآمر على دولة شقيقة؟ ومن لم يسمع تصاريح الدبابات المنسوبة إليه. فإذا مرت على هذا البلد فترة سوداء داكنة من الحكم البوليسي الاستخباري فهو زمنه.. وعندي الكثير، الكثير، ولكنني أكتفي بما سلف ردا عليه».

وجلست بعد سويعات إلى مذياعي، وأدرت المفتاح على محطة إسرائيل، فإذا بالمعلق يهدر : «أسمعتم يا أبناء الضفة الغربية ما دار في جلسة مجلس الأعيان... انظروا إلى من حكموكم عشرين سنة، كيف يتراشقون التهم المخجلة؟ وأقل ما يصف به أحدهم الآخر أنه عميل وخائن ومتآمر ولص!!!

مجتمع الكراهية والحقد والانحلال بين الخاصة والعامة على السواء! هم الحاكمين السلب والنهب، ومظاهر الأبهة الفارغة... وهم المحكومين صنمية ووثنية ونفاق، والوصول من أهون طريق... غاية المراد من رب العباد عند الرؤساء عبيد الشهوة عشاق أنفسهم وردة كبيرة ترشق في الصدور، وسيجار فخم يحمل بين الأصابع، ومواكب صخابة تحف بهم طبولها و «زماميرها» وبوقاتها، وإسرائيل

تدق الأبواب وتقتحم الحدود وتفتك بالمواطنين، حتى الألفاظ ماتت على أفواه الساسة وفقدت معانيها. تتغنى بالوطنية ولا وطنية، وبالإخلاص ولا إخلاص، وبالحرية والوحدة الاشتاركية، ولا حرية ولا وحدة ولااشتراكية... ونقول : الحياة الأمثل، ونحن نعني الحياة الأحط الأسفل. نحن عبيد أنفسنا، ثم عبيد غيرنا، ثم عبيد عدونا، نتمرغ ونتزلف، ونساوم ونزايد ونهزل، وعدونا يبني ويجد (انتهى كلامه وهو ألطف تعبيراته عن واقع مر خبره عن كثب واكتوى بناره).

ونكف نحن عن شهادات تثبت أن العالم الانقلابي العربي شر مما قرأت. وأفصح الشهادات لا يسطر وإنما تفضحه الهزائم المنكرة والذلة أصبحت مذهبا، التزلف إلى «الأخ الأكبر» وقرع ابواب الأسياد ليسمعوا شكوى المهازيل الغثائيين من عدوهم الضاري. وحسبنا ما علق به الإسرائيلي على مجلس الأعيان. وفي بلاد الانقلابية أعيانها يؤلفون الطبقة الجديدة والحال هي الحال. وإسلامنا ضائع. ووثنية المحكوم والحاكم مسخ تام، ولقد تداعت علينا الأمم كل ينهش على قدر قوته ودهائه وعلى قدر خورنا وانحلالنا.

واسوأتاه! واخجلتاه! وإسلاماه!

حضارة تحتضر : ومن المثلات في عصرنا تدهور حضارة

الغرب، ينبئ بذلك ترهل النظم القانونية بحيث تربت العدالة على كتف المجرم وترثي لحاله وتلتمس له العذر من ماضيه على نور، أقول على ظلمة، التحليل النفسي اليهودي. هذا برلمان انكلترا يبيح اللواط رسميا. وينبئ بذلك الترف والتخنث التظاهر بالفاحشة. وينبئ بذلك قلق الدابة المترفة ويأسها وتفشي الانتحار في أغنى الدول. وأمامي وصف عريض طويل يخبر عن مخازي التلفزيون السويدي الذي يعرض الأجسام العارية ويناقش بكل بساطة مشاكل المعاشر اللوطية، وشاب يخبر بألفاظ فجة عن تجاريبه أخجل من نقلها وحتى الإشارة إلى مصدرها. غلالة الحضارة الزائفة تنكشف عن عالم موبوء فيه العار والشنار، لا يعرف معنى العرض والشرف والمروءة. ومع هذا العالم نسير إلى حتفنا لا تمنعنا من ذلك الانقلابية أبدا.

هذا رجل رصين يصف زيف الحضارة، إنه كارل ياسبرز الفيلسوف المسيحي. يقول[1] : «نسمع منذ نيتشه، ويزداد الصوت ارتفاعا باطراد، من يقول: إن الإله مات! وتصبح الحياة الإنسانية حياة كتل. تضمحل الفردية ويخضع كل واحد لنماذج السلوك التي تفرضها الدعاية والسنما، وتتسوى الحياة اليومية على هذا الأساس. يشعر الإنسان

1 Panorama des idées contemporaines, 1968, P. 749.

أنه في خطر فيلتمس شرفه في «نحن» ويندمج في قوة جبارة... وهناك من يطيعون ويضحون بحياتهم ويخدمون بحماس ديني غامض زعيما أو حزبا. يقبلون أن يعيشوا في جو الكذب، وهم مستعدون لاقتراف أبشع الجرائم متى أمروا بذلك. ويشعر المرء أن إنسان العالم الحاضر يعيش فوضى مظلمة. إن غرائزه تنبعث بلا وازع. هناك شيء كان منضبطا في الظاهر، وهو اليوم يخرق غلالة الحضارة المكتسبة على مر التاريخ. علم النفس الحديث يكتشف هذه الأغوار السحيقة ويدرك مغزاها الجهنمي. وعلم النفس إذ يزعم أنه يستقصي علما هذه المخازي إنما يحاول أن يجد لها مبررا».

نكتفي بهذا لأن وصف الحضارة الهاوية لا تستنفذه مجلدات. ومن أين تبدأ وصفك، من السياسة الغابوية الثعلبية، أو من الاقتصاد الداويني هذا الأخطبوط الذي ضمنا بين أطرافه الرهيبة، أو من مجتمع منحل ساقط دوابي؟ إن إنسان الحضارة الغربية في ويل شديد. وإن يأسه من حضارته وخيراتها التي من ضمنها الهواء الفاسد والجريمة المنظمة وسدانة دولاب الاقتصاد الذي لا يرحم ويحول الإنسان إلى عجلة متدحرجة في يومها وغدها وليلها ونهارها، تموت مختنقة وتجن وتصرع ويصيبها أدواء العصاب والسهر والانتحار، ولا تجد سلوة إلا في الخمر والمخدرات... وغيرها من الويلات. في قرارة الإنسان الجاهلي رغم هذا بقية شهامة وفيه توقان إلى الخير متى

خلاه هلعه ونفسه يختبرها ويمرضها. هناك جمعيات الإحسان، وهناك كنائس يشمون فيها ريح الدين، الكنسي المثلث طبعا، لكنهم قالوا إنا نصارى وكلمة الله هي العليا. ورحمة الإسلام معروضة ورسالته خالدة يتقبلونها إن حملت إليهم. لكن من يحملها ؟ إن فتنتنا نحن بالحضارة المادية مسختنا، ولن نحمل الرسالة حتى نخرج من المسخ بالتزكي على المنهاج النبوي. رسالتنا لن تبلغ أحدا بالوعظ والإرشاد، وإنما تبلغ العالم كله بقيام أمة مسلمة حقا منبعثة عزيزة بإسلامها، لا تحمله عبئا تعتذر منه كما فعل ويفعل مسلمو الاشتراكية ومجمع الكراهية، بل يحملها إيمانها حتى تكون منارا للإنسانية تعرض عليها دين الله مجسما في تفوقها في الاقتصاد والنظام والانظباط وسعادة الناس. الحضارة المادية تراوغنا وتنافقنا وتدغدغ حساسيتنا حين تجارينا في وصف أنفسنا وصفا صبيانيا يعرض عن الحقائق بأننا أمة في طريق النمو، والحق أننا متخلفون وفي طريق تخلف أمعن وأبعد، لأن سرعة تقدم الحضارة المادية المذهل يتسارع وتتباعد معه الهوة بين مستوى قوتنا ومعاشنا ومستواهم.

جنة الشيوعية : قامت الثورات الشيوعية بالعنف لتخلص الشعوب من الاستعمار وحققت الديانة الماركسية لمعتنقيها، بشكل من الأشكال، تعبئة ضمنت لها تغيير الإنسان ونقله من الكسل إلى الجد ومن الجهل إلى العلم ومن الضعف إلى القوة. لكن هل

حولته إنسانا سعيدا، لا نسأل هل نقلته من دوابيته إلى كرامته الإنسانية، ومن مصيره الأرضي إلى إيمان ويقين بما خلق من أجله. لا نطرح هذا السؤال لأن الديانة الماركسية قامت أساسا على نفي ما تسميه بتوهيم الدين. لننظر فقط إلى عالم الشيوعية على مستوى أرضي بحت، وإن كانت التجربة الصينية اليوم تملك جاذبية خارقة عل مستوى أرضي محض، أشرنا إليها ونشير لأنها أعظم تحد نواجهه، فإنها لا تزال في عصر الأحلام والحماس وهي تنعت الروسيين بأنهم «مراجعيون» Révisionnistes لأن الروس عضتهم عجلة التقدم المادي وهالتهم المطالبة والمعارضة في صفوف شبابهم المثقف، وكهولهم أيضا بل وعلمائهم، وهوم بهم الخوف من أن يغلبوا في المسارعة إلى التسلح والمسارعة لإدراك مستوى المعيشة الأروبية الأميريكية. فلذلك رجعوا للاقتصاد الربوي، اقتصاد الربح، وغزوا الأمم الضعيفة التي تدين بدينهم. وليشهد شاهد من أهلها ليكون ذلك أبلغ فيما نريد. يقول موظف كبير اسمه فاركا كان عضوا في أكاديمية العلوم الروسية، في وصيته قبل موته، ألفها كتابا هربوه للخارج، نورد منه بعض الفقرات بالحرف الواحد[1] :

«إن النظام الخلقي الجديد المادي لم يحلل نظريا وليس له أساس فلسفي أو تاريخي. إنه يتحدد في إعلان عقدي بشعارات نظرية

1 Journal «Le Monde», 14 mai 1970.

لا تستطيع أن تؤثر بقوة وعمق على الأفكار. إن العلاقات السائدة اليوم بين المجتمع السوفيتي تساعد على ظهور بقايا تصرفات غير أخلاقية. فمن جهة تجد السعة المادية المبالغ فيها التي تتمتع بها الأرستقراطية البيروقراطية تولد في الطبقة المحظوظة، وخصوصا في أفراد أسرهم صلفا وكبرا وكثيرا من الانحراف الخلقي. وهذا يدفعهم لطلب المزيد من الرفاهية، واختلاس وبيع أمتعة الدولة، ويدفعهم لإرضاء شهواتهم الجامحة ويؤديهم أحيانا للجريمة. تحدثت الصحافة عن «التعفن» عندما تعرضت لهؤلاء الشباب الذين أفسدهم الترف. ويكثر الحديث عنهم وتجريمهم لكن ذلك لا يغير من الواقع شيئا.

وبخلاف هذا فإن مستوى المعاش عند عمال المدينة والبادية، معيشة هزيلة غير قارة، يدفعهم لتكميل عيشهم بالسرقة وتسبب سقوطهم الخلقي، هذا السقوط الذي تدل عليه ظواهر مختلفة منكرة. هناك الإدمان والاعتداء على الزوجة والأولاد، والخصام في الأسرة والامتناع عن العمل والإجرام وحتى الجرائم التي لا مبرر لها ولا معنى. وليس العجيب أن يدفع البؤس الشديد الناس إلى إفساد حياة أسرهم واقتراف الجرائم، إنما العجيب أن تجد أناسا لهم عمل قار وأجور حسنة في غالب الأحيان يجردون مدينتهم لا لبؤسهم ولكن لسوء تربيتهم ولانحطاطهم الخلقي. ويبلغ

هذا أحيانا حد الدوابية والصادية «Bestialité et sadisme». فمثلا رأينا رجلين يتراهنان في لعبة الورق من منهما يقتل أحد المارة أو أحد الزائرين.

وربما تظن أن الحال أحسن بالنسبة للطبقة المتوسطة في الاتحاد السوفيتي، ومستوى معيشتهم على تواضعه يمكنهم من التوسيع على عيالهم. لكن عند هؤلاء بأنفسهم تتجلى صفة نفسية في الضمير، صفة سلبية تظهر بقوة، ألا وهي غياب الوعي الديمقراطي والمسؤولية الاجتماعية. إن هؤلاء يقبعون وراء مصالحهم المادية ومصالح أسرهم ويطمعون أكثر ما يطمعون في حياة برجوازية. إن المواطن السوفيتي يهتم قبل كل شيء، بعد عمله، بشراء أكثر ما يقدر عليه من مواد الاستهلاك : شقة جيدة، وأرض يبنى عليها منزله الريفي «Datcha» وتلفزيون وثياب. إنه يدخر الدراهم ويفتخر بذلك أمام الأهل والجيران. ومثل هؤلاء يمثلون البرجوازية الصغيرة السوفيتية».

لنقف فحديث الرجل طويل يخبر بأشياء وأشياء. وتبقى أمامنا المثلات الجاهلية متشابهة حذو القذة بالقذة. إن الله عالم الغيب والشهادة أخبرنا أن الإنسان هلوع جزوع منوع إلا المصلين.

الذي أخلد إلى الأرض : يقول الله عز وجل : ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الأعراف، 174-175.

ويقول المفسرون إن الذي آتاه الله علما وآيات فانسلخ منها رجل يهودي اسمه بلعام بن باعوراء. كان صالحا فاشترى بآيات الله ثمنا قليلا وسحر وفسق. ولا يزال فسقة اليهود أشد الناس إخلادا إلى الأرض وكفرا بالله ودسا على الإنسانية. قال الله : **﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ﴾** المائدة، 66. فلنستثن هذه الطائفة منهم ويبقى في يدنا، تعبير يسخر منا لأننا نحن في أيديهم، الصهيونية المتآمرة على العالم.

ثم لنطمئن إلى أن مؤامرتهم فاشلة لنتفرغ لوصف كيد اليهود. يقول الله : **﴿كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾** المائدة، 64 وقال: **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾** الأعراف، 167. اليهود الفاسقون هم أعداء الله وأعداؤنا، وهم المفسدون وكيدهم في نحرهم ونارهم يطفئها الله ويسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب، ولئن سلطهم الله على قومنا المتنكرين لإسلامهم فليربينا وبيده سبحانه وتعالى ناصية عباده، وإنما يؤدب من يريد بهم الخير.

قتل اليهود الفسقة أنبياءهم وحرفوا التوراة وأفسدوا في الأرض.

نسبوا إلى أنبياء الله بهتانا وأجترأوا على حرم الله، وأمثولاتهم لا تقل وقاحة عن وقاحة الزيات في مقارنته الرسالة المحمدية المقدسة برسالة البطل العربي وتوهينه لدين النبي واعتزازه بالاشتراكية الناصرية.

هذه نبذ من تحريفهم للتوارة لعنهم الله وحاشا لله ومعاذ الله أنبياء الله[1] :

إبراهيم (عليه السلام) قدم زوجته لفرعون، وهذا منحه بقرا وجمالا وحميرا وقدمها لملك النقب (فصل 12 من سفر التكوين).

وإسحاق أيضا قدم زوجته لهذا الملك (سفر التكوين، فصل 20).

لوط زنى ببنتيه وأولدهما عمون وموآب (سفر التكوين، فصل 19).

يعقوب خدع أباه الأعمى ورشاه بصحن عدس ليمنحه البكورية وسرق صنم خاله الذهبي، وخدع أهل نابلس لأجل علاقة شدت بنته «دينة» بشاب نابلسي (التكوين، فصول 25، 27، 30، 31، 34).

روبين بن يعقوب زنى بزوجة أبيه (تكوين، فصل 37، 38).

داود زنى بزوجه أوريا فحملت بسليمان (سفر الملوك، فصل 1).

1 نقلا عن مقال الأستاذ الدكتور الزعبي، مجلة «الفكر الإسلامي» تموز 1971، ص 43 وما بعدها.

سليمان كان له ألف زوجة يعبد سليمان أصنامهن (ملوك، فصل 11).

واليهودي العالمي الصهيوني كان عبر التاريخ عدو الإنسانية أينما حل، يحمل معه الكيد والربا والدس، لذلك تجد عند كل المجتمعات حذرا متأصلا من اليهود. وقد افتضحت مؤامرتهم على الكويم كما يسمون غيرهم من الأمم حين اكتشفت بروتوكولات حكماء صهيون. ولأمر ما تجد رجلا شهيرا هو الأمريكي فورد جمع طائفة من العلماء والباحثين فألفوا له كتاب «اليهودي العالمي» يفضح بالأرقام مؤامرتهم على مر التاريخ. وقد خرج إلينا منذ قليل كتاب «أحجار على رقعة الشطرنج» كتبه أمريكي كرس حياته منذ خمسين عاما لفضح كيد اليهود. والكتابان موجودان بالعربية لم تصل إليهما يد اليهودي العالمي الذي يطير من الأسواق العالمية كلها أي كتاب يمس اليهودي العالمي.

نسرد سطورا من مخططات حكماء صهيون ونترك للقارئ أن يرجع للكتابين. يقول الحكاء المتآمرون[1] : «إن الله قد أنعم علينا، نحن الشعب المختار بنعمة السبي والشتات في

1 كتاب «المؤامرة ومعركة المصير» لسعد جمعة، ص 160.

الأرض. وهذا الأمر كان فيما مضى مجلى ضعفنا، فأصبح فيما بعد سبب قوتنا، إذا استطعنا أن نلج الباب الذي منه نبسط سيادتنا وسلطاننا على العالم كله... إن جميع الصحف التي تشرب من مائنا ستحمل شتى الوجوه والسحنات والنزعات والدعوات، من ارستقراطية إلى جمهورية إلى ثورية وحتى فوضوية. وستكون هذه الصحف كصنم له مائة ذراع ومائة عين لتهيمن على كل رأي وكل اتجاه، ولكي نصرف أذهان الجمهور المزعج المشاكس عن مناقشة الأمور السياسية ونبقيه في ضلاله، ننشئ له وسائل اللهو واللذة الرخيصة، ونقدم له ضروبا من الفن والأدب، هي في غاية التفاهة والقذارة والغثاثة فيغرق فيها، ونمضي نحن في التدبير والتخطيط والتآمر!.

ومتى ولجنا أبواب مملكتنا، لا يليق بنا أن يكون فيها دين آخر غير ديننا، وهو دين الله الواحد المرتبط به مصيرنا من حيث كوننا شعب الله المختار، وبواسطته ارتبط مصير العالم بمصيرنا. فيجب علينا أن ندمر جميع الأديان الأخرى على اختلاف صورها... ولكي يتم لنا تخريب جميع القوى التي تعمل على تحقيق الانسجام الفكري والتضامن الاجتماعي ما عدا قوانا نحن علينا أن نبدأ في تفكيك حلقات المرحلة الأولى من هذا، وهو الجامعات! فننقض أساليب التعليم من أساسها، ونفرغها في أساليب جديدة، ونهيء الأساتذة

تهيئة خاصة، وفق برامج سرية، وبهذا تقذف الجامعات كل سنة العالم بألوف من المخنثين الذي ينطلقون برعونة لتلفيق المخططات الدستورية، ورسم المشروعات الهوائية».

إن ما نسمعه يكاد يكون حلما طائشا وتحاملا على حفنة من اليهود لا يظهر لها بأس لولا أن اكتشاف المخططات واقع تاريخي وتدعمه أحداث ناطقة فصيحة. يحدثك وليام كاي كار في كتابه «أحجار على رقعة الشطرنج» كيف بدأت المؤامرة وكيف اكتشفت بالصدفة. ويحدثنا التاريخ القديم والمعاصر عن تطبيق الخطط بدقة ومهارة شيطانية. فلسفات أوربا وأمريكا أساتذتها البارزون يهود، ماركس[1]، ماركوس، فرويد، والقائمة طويلة. واقرأ لائحة كتاب الاجتماع فلن تجد إلا أسماء يهودية، لأن في علم الإنسان، ميدان المبهمات والتلفيقات والتصنيفات شبه العلمية يجد اليهود الحقل الخصب لتسميم الأفكار والتضليل وهدم القيم الأخلاقية وإيقاظ الغرائز. والساسة اليهود هم أقاموا الشيوعية، هذا تروتسكي ولينين (ولم يكشف أصله اليهودي إلا أخيرا) وزينوفيف وستاينبرغ وروزننفلد. وهل أتاك أن ستالين تزوج يهودية فرفعت أسرتها إلى الحكم ولعبت بالاتحاد السوفيتي زمانا قبل أن يبطش بهم الجبار

1 أستاذ ماركس حاخام يهودي يدعى هس، وهو واضع مسودة البيان الشيوعي, أنظر كتاب «مجتمع الكراهية»، ص 156.

الروسي عندما اكتشف أمرهم؟

ثم هذه أمريكا اليوم في يد الصهيونية العالمية. ولا عجب أن نشهد تخاذل أمريكا ودعمها لإسرائيل. فإن مخططات التلفزة الثلاثة الكبرى بأمريكا ملك لليهود NBC, CBS, ABC، والجرائد الكبرى أيضا، النيويورك التايمز، والواشنطن بوست وكثير كثير.

الجاسوسية العالمية هم سادتها، والثقافة الغثة، والنشرات الخليعة. وكيف لا والله تعالى أخبرنا أنهم ملعونون وأنهم يفسدون في الأرض.

في شهر ماي 1968 قامت ثورة الطلبة الفوضويين بفرنسا. وفرنسا لا تزال تعزو ذلك إلى عوامل اجتماعية. لكن من ينظر الأحداث بعين الخبير الحدر يجد مركز هذه الأحداث شابا يهوديا وقحا اسمه «كوهن بندت». يقول أستاذ جامعي نكر اسمه حتى لا يعرف، وجامعاتهم فحولها يهود برزوا أو تنكروا، يقول هذا[1] : «نتذكر أن كوهن بنديت أحرز على الشهرة يوم 8 يناير في نانتر، يوم تدشين وزير الشباب والرياضة للمسبح. كلفه الطلبة أن يجيب على خطاب الوزير باسمهم. وأجاب الشاب اليهودي الوزير المسيو ميسوف بوقاحة كانت النموذج النهائي لتصرفات الطلبة فيما سمي بعد حركة 22 مارس. طلب من الوزير أولا سيجارة ونارا،

1 Ces idées qui ont ébranlé la France, Epistémon,P. 58.

ثم سبه لأنه غفل في كتابه الأبيض عن الشباب لم يذكر الحرية الجنسية».

ويعطي اليهود المثال الوقح كما يعطون الفكر المصنف المعمي المضلل. نفس الكاتب يقول في الصفحة التالية : «وتنوقلت الأخبار واتخدت صورة الرمز وفهمت الحادثة على أنها شكل «أوديبي» للتصرف. ففي الحديث سب للأب وتجريده من قناعه الرسمي، وإهانة، بل الفتك بالوزير». ويزيد تيهانا وتضليلا بتفسيرات استواحاها من خرافات فرويد الوثنية الجاهلية.

ربما يقال إن كوهن بنديت طالب ككل الطلبة. والحق اتضح لي وشيكا. فمنذ عدة أسابيع أقيمت مناظرة حول فلسطين شارك أحد رجال الدعوة الإسلامية الأفاضل، سمعته يذكر أن رجلا تعرض له في الشارع قبل المناظرة وحاوره واحتج على أن المناظرة لم يمثل فيها رأي اسرائيل، ثم اقترح عليه أن يشارك في المناظرة... احزر من أعده الصهاينة لمثل هذه المهمات ؟ إنه كوهن بنديت بعينه !

ومن اجترأ على الله وحرف كتابه، كيف لا يجترئ على عباد الله ؟ إن اليهود الكفرة الملعونين، أحبارهم المتألهون كما يصفهم القرآن، قالوا على الله جل شأنه أكثر مما قالوه عن أنبيائه، فلا نعجب إن لحقتهم لعنته في الأرض بحيث مسخهم مسخا سرمديا

وسخرهم، وهم عباده، في أقذر الأعمال وأخزاها.

أنقل لك من ترهاتهم في التلمود القديم ما ينير لنا أعمالهم الحاضرة ومؤامراتهم وتحقيق لعنة الله عليهم[1].

«اعلم أن أقوال الحاخامات أفضل من أقوال الأنبياء»، وحوالي سنة 1500 قال أحد الحخامات: «إن من يقرأ التوراة بدون المشنا والجمار (جزأي التلمود) فليس له إله.

وكان الرابن مناحم يقول : إن الله (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة عويصة لا يمكن حلها في السماء. وأنه يجب الالتفات إلى أقوال الحاخامات أكثر من الالتفات إلى شريعة موسى.

وأما عن نظرة تعاليم التلمود إلى الله، فهي أن الله يخطئ ويصيب، لا بل إنه كثير الخطأ، وكثيرا ما يطلب إلى القائمين على أمر التلمود أن يغفروا له أخطاءه. وليست أخطاء الله تقع بينه وبين الذين اصطفاهم التلمود وجعلهم أكثر عصمة من خالقهم، بل إن أخطاء الله في التلمود قد وقعت منه في الكون الكبير حين خلقه فهو مثلا، كما تقول آيات التلمود، قد أخطأ لكون القمر أصغر من الشمس وعن هذه الخطيئة، كون القمر أصغر من الشمس،

1 صابر عبد الرحمن طعيمة : اليهود في موكب التاريخ، ص 467 وما بعدها.

تسجل آيات التلمود أن حوارا حدث بين الله والقمر، وأن القمر قال لله : أخطات حين خلقتني أصغر من الشمس، فاذعن الله لذلك، واعترف بخطئه وقالوا : اذبحوا لي ذبيحة أكفر بها عن ذنبي لأنني خلقت القمر أصغر من الشمس».

دع هذا كله واتل آيات ربك في القرآن الكريم يحدثك عن كفرهم ونقضهم الميثاق وعبادتهم للأحبار الحاخامات، وما تلى ذلك من حلول اللعنة عليهم والمسخ وطابع الفساد والإفساد في الأرض، ووقاحتهم على الله ورسله، وجبنهم وبهتانهم. ومنهم أمة مقتصدة كما أخبر الله تشهد على فسادهم. ونقبل شهادتهم لأن الصالحين منهم، وكلمة الله هي العليا في ذلك، ذوو ذمة، وقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي، فهو صلى الله عليه وسلم خط لنا الطريق في معاملة المقتصدين منهم. يقول الكاتب اليهودي «موشى مينوهين» في كتابه «انحطاط اليهودية في عصرنا»[1] :

«إن اليهودية التي بشر بها الأنبياء هي يهودية التسامح لا يهودية «النابالم». إن اليهود القوميين ليسوا يهودا ولا تربطني بهم صلة، لأنهم فقدوا كل شعور بالأخلاق اليهودية وبالمثل الإنسانية... وإنني لأشعر بالعار والخجل حين يقرن اسمي كيهودي بأمثال هؤلاء المجرمين، وبقضيتهم غير المقدسة».

1 سعد جمعة : مجتمع الكراهية، ص 157.

وبعد، فإن اليهود أعداؤنا عينهم لنا خالقنا، اليهود والمشركون. ونحن نداس اليوم تحت أقدام الممسوخين الملعونين وتحت أقدام عبدة البقر. تداس العروبة والعصبية القومية، حاشا الإسلام. وقد خر بطل العروبة وقواد جيشه المترفون لليدين وللفم أمام عدو الإسلام والمسلمين، ولم يهزم المسلمون لأن المسلمين لا يعرفون إلا إحدى الحسنيين، الشهادة أو النصر. ومعرفة أعدائنا يجب ألا تحيد بنا عن القصد، وترجع بنا إلى العقلية التبريرية الضعيفة التي تزين لنا أنصاف الحلول، وتهين كرامة المترفين من أصحاب الانقلابية وغيرهم إذ يلتمسون الرثاء العالمي ويقرعون الأبواب. إنما ينبغي أن نعرف عدونا اللاصق بالأرض المخلد غليها، ونعرف كيده وسريانه في عالم الجاهلية سريان العصب في الجسم لنعلم من أين نؤتى ولنعد القوة، ولنؤمن بربنا الذي وعدنا أن ينصر من ينصره ورسله.

المهدية : المهدية مذهب من يدعون الهداية دون غيرهم من الناس. وقد اشتهر مهديون استغلوا اسم آل البيت، وآخرون ينتسبون للصوفية. ونحن ندخل تحت هذا الاسم كل من ينظر إلى نفسه فيزكيها ويفسق الآخرين ويكفرهم ويعنف عليهم. وبهذا المعنى فأول مهدية في الإسلام مهدية الخوارج ثم ما تلاها من العصبيات النتنة التي تجمع الفضل في عصبية الدم أو المذهب أو المواطنة

أو الجمعية المتآمرة. الأمويون مهديون حين سموا المسلمين غير العرب موالي، وقد كانت كلمة تشريف (وستقرأ كيف عز صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي في آخر فصل من هذا الكتاب). وأصبح المولى عند بني أمية فمن بعدهم علما على المسلم من طبقة دون لاحق له ولا كرامة. ومهدية أيضا هذه الانقلابية التي تأكلنا. فما من جماعة تقوم إلا ومن ورائها جماعة أخرى تتآمر وتتحزب لأنها تزكي نفسها وتفضلها على الجماعة القائمة. ومهدية أيضا هذا الإكليروس المذهبي الذي ابتلينا به عبر التاريخ، يكفر هذا المذهب أتباع المذهب الآخر، ويكفر الشيعي السني والسني الشيعي، وقد جعلهم الله عباده المؤمنين ليتحابوا ويتحدوا والعصبية المذهبية تفرقهم. وفي الشيعيين شعب ومذاهب، وفي السنيين مثل ذلك، ومنذ جيل فقط أو أقل من ذلك كان المالكي لايصلي وراء الشافعي، وكان الأحناف في نظر السنيين المتعصبين كلابا. ونعوذ بالله أن ندعو إلى عصبية ومهدية. ولم يسلم الصوفية من هذه العفونات، بل إن لهم منها النصيب الأوفر، وبئس النصيب.

ومخرجنا من المهدية المذهبية والسياسية والاجتماعية تجاوز كل المذاهب في التربية والعمل إلى المحمدية، إلى الحنيفية السمحة، إلى كتاب ربنا وسنة نبينا. ولا بأس إن اجتمعنا على ما يجمعنا،

وهي أصول الإسلام الخمسة، وتركنا ما يفرقنا كل يجتهد حسب اجتهاده، على أن لا نهتك لله ورسوله وصحابته حرمة ولا نبغي في الأرض فسادا. مخرجنا التؤدة والسمت.

مجتمع الكراهية يغلي غليانا ناره العصبية القومية، ووقوده الزعماء السياسيون، وضحاياه هذه الأمة المسكينة. يقول سعد جمعة، وهو الخبير في شؤون قومنا العرب المعاصرين[1].

«فطيلة سبعة عشر عاما أتخمت الأمة العربية صراخا محموما بشعارات زائفة، وشبعت هجر قول، وشتيمة وتبجحا وغطرسة واستعلاء، وكذبا ودجلا ونفاقا، هي أبشع ما رواه تاريخ الشعوب من همجية ونزول أخلاقي. وكان هم القادة والزعماء أن يفتعلوا المواقف في الحارات والأزقة، «ليردح» بعضهم لبعض، ويسفه الواحد منهم أخاه، في كلام بذيء لا تنضح به إلا المواخير! والجماهير مستغرقة في هذيان الغيبوبة والهياج العاطفي.... تصفق وتصفق وتصرخ وتصيح في فوضى عارمة لا ضابط لغلوائها! وكم... وكم من جريمة خلقية وسلوكية وذوقية وإنسانية وعقلية وعاطفية قد ارتكبت باسم تلك الجماهير التي كانت تبحث عن الزعيم، عن المنقذ، عن المخلص! ومعذورة هي حين ظنت أن انتفاخ الأوداج ونزوات الصرع وصرخات البذاءة هي المقومات الحقيقية للزعيم المنتظر!»

---

1 المؤامرة ومعركة المصير، ص 114.

ويقابل تصارع الزعماء وضجيجهم المفسد عصبية ومهدية الفوضويين الشيوعيين، تلامذة فرويد ومركوس وماركس وما اشتق من ذلك من أنواع الإرتكاس. وعنف هؤلاء ووقاحتهم وتفاهة أحلامهم يذكرك بما قرأته منذ حين في مخططات حكماء صهيون. مهديو الشيوعية والفوضوية هم الشرذمة التي أراد اليهودي العالمي أن تقذف بها إلينا الجامعات اليهودية في مضمونها اللابسة للأسماء المموهة البراقة. وينسيك ما تقرأه عن هؤلاء كل الويلات، حتى سقوط العروبة تلعق التراب من ثكناتها الإديولوجية القومية. يقول سعد جمعة[1]:

«وبلغ السفه بهم أن يفلسفوا أسباب الهزيمة باحتقان الجسد العربي بالشهوة، واختلاله بالتشنجات والعقد، والالتواءات، لتمسكه بأوثان التقاليد والمبادئ الخلقية والدينية... تلك المفاهيم التي أصبحت أوثانا لا بد لتحرير الجسد العربي من البصق عليها وركلها بالأقدام- هذا أسلوبهم!-. ويتساءل شاعرهم الذي يقذفنا بمخازيه في «الوست هول» في الجامعة الأمريكية ببيروت، تحت ستار حرية الرأي والتفكير، يتساءل: «هل هذا وقت الحديث عن الحب والجنس، ونحن غارقون في المأساة حتى الركب؟ ويجيب نفسه : نعم ! هذا هو الوقت الذي يحاول فيه الإنسان

1 مجتمع الكراهية، ص 97.

العربي أن يغير ويتغير... إنه وقت الانقضاض على كل شيء... على كل قيمة خلقية»... ولو صدق لقال : ننقض نحن على القيم الخلقية ونترك لإسرائيل حرية الانقضاض على بلادنا وأموالنا وأعراضنا... ويكتب كاتبهم في ملحق «النهار» اللبنانية تحت عنوان : «امرأة بلادي للوجد والعشق والجنس»: لنتحدث عن حرية المرأة... دعوني أعترف لكم فورا أن حرية المرأة ليس لها غير معنى واحد. إنه المعنى الجنسي... المرأة في نظري هي مصب الأشواق والشهوات، هي مخلوقة غرامية لا معنى لها خارج الوجد والعشق والجنس. إن أقوى ما يحرك الرجل هو المرأة، هو أننا نشتهيها. أنا أؤمن بامرأة تعشق من أول نظرة... وإذا ارتفعت دون حريتها حواجز الأخلاق والتقاليد والعادات، تنظر إلى هذه الحواجز بابتسامة احتقار، وتتخطاها أو تحطم الحواجز من غير تفكير». (لتسمع المرأة المسلمة ولتع مكانها عند من يريدون تحريرها!).

القومية العربية مهدية قومنا، والقومية بصفة عامة مهدية أمتنا المفتونة ووثنيتها، وإذا اقترنت هذه القومية بالظلام الجاهلي واسم الصهيوني أخرجت إلينا ما ترى من مسخ.

أما والله لن يكون لنا شأن إن لم نرجع إلى الإسلام على كتاب الله وسنة رسوله وعلى المنهاج النبوي الكامل الذي يرقى

بالمسلم ويربيه على الإيمان والإحسان ويحرر عقله وإرادته من ظلام الجاهلية إلى نور الله نمشي به في الناس.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وصف العصبيات بأنها منتنة : عن جابر بن عبد الله قال[1] : «كنا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصاري : ياللأنصار! فقال المهاجر ياللمهاجرين! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **دعوها إنها منتنة**».

والتؤدة الإسلامية في زمن الفتنة دواؤنا، التؤدة السياسية تؤدة السمع والطاعة للأمير ما أقام الصلاة ولو طغى. وبالتؤدة يمكن للدعوة الإسلامية أن تبني بناء من الأساس يخلف البنية الاجتماعية بجماعة مؤمنة لحمتها وسداها الولاية بين المؤمنين والمؤمنات والإخاء والمحبة في لله، وعصمتها ولاية الله لمن تولاه ونصره لمن نصره وعز رسوله وآزر دينه.

هذا مولانا عبد الله بن عمر، بايع يزيد بن معاوية، ويزيد لا يحتاج إلى تعريف فهو الموسوم بالفسق. ولما خلع أهل المدينة يزيدا قال سيدنا عبد الله لولده وأهله: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «**ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة**»، وإنما قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله. وإني

1 البخاري.

لا أعلم غدرا أعظم من أن يبايع الرجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإني لاأعلم أحدا منكم خلعه ولا تابع في هذا الأمر إلا كانت الفصيل بيني وبينه[1].

والسيد الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سيد السنيين. والسنة هي المنهاج، والمنهاج صحبة وجماعة وذكر بالمبايعة الصادقة الوفية. وذاك هو البديل الوحيد لنا من نزف الملاحدة من أبنائنا تلامذة الجاهلية الصهيونية ومن فساد الزعامات والأساليب السياسية ومن عنف الانقلابية ومن كل هذه الويلات التي جعلنا بين الناس مثلات تعتبر حين لم نعتبر نحن بما وجه الله إليه أنظارنا من المثلات السابقة واللاحقة، ومن مثلاتنا في أنفسنا.

وعندما يأذن الله، وبيده مقارع البلاء نلوذ بجلاله، وتذهب ريح وثنيات البطولات والقوميات والجماهيريات وسائر العصبيات، يلتقي المسلمون في المسجد بيت الله لا يسأل أحدهم أخاه ما مذهبك وإنما يسأله عما فعل لتحقيق الحق وحمل رسالة الإسلام لتبلغ الإنسانية المعذبة المرتكسة في دوابيتها وفق ما خططه الفكر الصهيوني عنصر الشر والظلمة، وينتصر الإسلام وتسود عمله سمات النبوة: السمت والتؤدة والاقتصاد. وفي المسجد، بيت الله

---

1 رواه البخاري.

يتبايع المؤمنون بيع الله ورسوله، وما عقد بيت الله خليق أن يوفى به وأن يرفعنا من انحطاطنا إلى عزة موعود الله.

الترف : وقد تركت لآخر هذا الفصل أمثولة المثلات وأمهن، وأفظع العصبيات والأنانيات، ألا وهي الترف، الأثرة الشرهة الدوابية. ومن الدواب ما يأكل ولا يمنع غيره من خلق الله خير الله. وشر الدواب الشره الذي ينبح على الطعام. فالترف إخلاد إلى الأرض، ويكون المترفون عصبية قذرة ليست فقط مظهرا لانحطاطنا ومسخنا لكنها سببه الدائر معه المولد لثورة الثائرين وبؤس البائسين، وانحلال الخليعين. ويعرف الظلم بأنه وضع الشيء في غير محله، وبهذا التعريف يكون الترف افدح الظلم وأعتاه. ﴿**إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ النحل، 90. فإذا لم يكن العدل في توزيع الأرزاق فلا إحسان يمكن، وتنتشر الفحشاء ويظهر المنكر ويعم البغي. يعظكم لعلكم تذكرون.

ألا يا قوم إن مصحفكم سيخلفه، إن لم تنتهوا، كتيب صغير أحمر فيه وصفة لدواء غير الدواء الذي أصفه. وإن ثمانمائة مليون صيني كاسية طاعمة متساوية الأرزاق مثل مشع حاضر في أذهان كل من يقرأ ويسمع ويتحسس الأخبار من الجائعين والمحرومين. اقتحم الصيني مجلس الأمم المتحدة وتصدره ورفع عقيرته يلعن الإمبريالية، ويلعن الدب الروسي الهرم ويصفه بأنه طاعون

الاشتراكية الإمبريالية، ويلوح للشعوب المظلومة الفقيرة بأنه نصيرها. ويرشدها إلى الماركسية الماوية، ومع الإرشادات والمعونات الظاهرة دس «Subversion» وتجنيد للمساكين والمحرومين نحو العنف. إنه يا قوم الإسلام أو الطوفان، وإن ترف المترفين أهم أمراضنا وأشدها فتكا.

إن الانقلابية لا تبرئنا ولا تنجينا. وبين يدي كتيب لوزير مصري سابق يذكر فيه جهوده الضائعة في إصلاح الجهاز الإداري ومحاربة الرشوة، وينصح بتغيير الإنسان تغييرا جذريا، تغييرا لا تعطيه الانقلابية. لايغرننا أن الانقلابيين يكرهون الشيوعية ويحاربونها. فما دام في الأمة جائع يقرأ ويسمع ويرى تقدم الأمم المستضعفة بفضل الثورة الحمراء، فستجد المنظمات السرية المدسوسة جندا ونصيرا.

لم لا نقدر أن نصنع، لا أقول قنبلة كقنبلة الصين، بل إبرة نخيط بها أسمال البؤساء وديباج المترفين؟ والجواب واضح وجلي، هو أنه لن نستطيع صنع الإبرة ما دام فينا ذوو أسمال ولابس ديباج.

والعقلية التبريرية لا تنفك تعزو شرورنا وابتزازنا لأموال المساكين لعوامل خارجة عن حدودنا. ومن دعاة الاشتراكية والشيوعية من يصب نقمته على العدو الإمبريالي وحتى على العدو البرجوازي الداخلي، لكنك إن زرت قصره رأيت التناقض المزري بالداعي وفكره وضميره.

الدعوة الإسلامية المعاصرة

خبت جذوة الإخوان المسلمين حين جابهها الطاغوت العربي، ودب بين رجالها مستعجلون عنيفون. ودخلت الدعوة في السرية والتكتم، ونرجو أن يعيد الله لهذه الجماعة تألقها وفعاليتها، فقد كانت في عصرنا نبراسا أنار معالم الطريق، وإن ربنا لقادر أن يبعث للجماعة رجالا كالشيخ العظيم حسن البنا شهيد الإسلام عليه رضوان الله يجدد لها تربية وصحبة وذكرا. وفي البقية من رجال الجماعة البركة، ومن رجالها سيد قطب رحمه الله معلم الجيل الصاعد وأستاذه جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيرا.

وسنقف في هذا الفصل قليلا مع سيد قطب، والسيد الندوي أبي الحسن والسيد الأستاذ المودودي، بعد أن نذكر فضل جماعة رجال التبليغ.

ونود أن نشير ونحيي كل صادق يخدم الإسلام والدعوة، فمن رجال الدعوة أفراد يعملون في التدريس والوعظ والكتابة، ونتائج عملهم على قدر صدقهم وجهادهم، ولا يبلغ أثرهم أبدا مبلغ العمل الجماعي، ولكل عند الله أجره.

رجال التبليغ: من أبرز الجماعات المعاصرة وأبعدها أثرا جماعة

رجال التبليغ. ولهؤلاء السادة الكرام سمت المؤمنين وصبر الصديقين، ولهم في كل بلد جولات، وقد هدى الله إلى الإسلام على يدهم طائفة من النصارى والوثنيين. وإن لم يكن للجماعة فكر منظم فإن لهم منهجا ومضاء، ولهم في كل بلد من بلاد المسلمين مساجد وجماعات. لنترك رجلا من رجال الدعوة، من الإخوان المسلمين، الأستاذ الفاضل شيخ أدباء العربية يتحدث عنهم، وقد كتب هذا الفاضل، وهو السيد علي الطنطاوي عن الجماعة منذ أكثر من خمسة عشر عاما. والجماعة منذئذ لا تزيد إلا قوة وانتشارا، ويعم خيرها أرض الله وعباده، يقول[1] :

«أما دعوة رجال التبليغ فقد أسسها الشيخ إلياس، وألزم فيها تلامذته أن يبذلوا لها قليلا من أوقاتهم، ساعة في الأسبوع، أو يوما في الشهر، أو شهرا في السنة، أو أربعة أشهر في العمر، يسيحون فيها في البلاد على نفقة أنفسهم، لا يسألون أحدا معونة، بل لا يقبلون المعونة من أحد. يدعون إلى الله ويبلغون المسلمين رسالة الإسلام، لأنهم صاروا إليها، في الواقع، أحوج من غير المسلمين. ولم يكتفوا بالوصول إلى أقصى القارة الهندية، بل رحلوا إلى بلاد الإسلام الأخرى وقدموا الشام ومصر والعراق (وكل بلاد المعمورة أيضا). وقد رأيت منهم بمكة، ومشى منهم نفر

1 مجلة «المسلمون» عدد 10 سنة 1956، ص 17 .

مشيا من مكة إلى المدينة، ومن مكة إلى اليمن، يعرفون بدو الصحراء بالإسلام الذي انبثق من أرضهم، ولكنهم جهلوه حتى صاروا يحتاجون أن يقتبسوه من هؤلاء الشباب القادمين من الهند، الذين بلغوا في الإخلاص والتجرد، وعلو الهمة، والدأب على العمل أبعد الغايات».

يعمل رجال التبليغ عملا جماعيا ينبني على صحبة المتطوع الجديد لمن لهم القدم في الدعوة، وتتخذ المبايعة عندهم شكل النذر المتجدد للخروج في سبيل الله، ولهم أذكار مرتبة، وهم أشد الناس تعلقا بالسنة وبأعمال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله. أما صبرهم ورقة قلوبهم فيذكرك بالسلف الصالح، فهم الجوابون المشاؤون البكاؤون، زادهم الله بركة ونفع بهم هذه الأمة. وقد ألف لهم الشيخ الصالح سيدي محمد يوسف كتابا نفيسا يدل عنوانه «حياة الصحابة» على منهج الجماعة وهدفها. ومن مبادئهم الأساسية : ترك ما لا يعني، وكأني بهم يقصدون صرف أنظار أصحابهم عن الخوض والاضطراب السياسي الذي سرعان ما تنزلق إليه المنظمات.

المودودي: يقول نفس الكاتب السابق في نفس الصفحة التي تحدث فيها عن جماعة رجال التبليغ: «ولا أستطيع أن أغفل جماعة هي في رأيي أصفى الجماعات الإسلامية، وأقواها وأشدها تمسكا بالإسلام، وإن كان عددها قليلا جدا، هي جماعة المودودي».

وقد كثر العدد منذ كتابة الطنطاوي وزاد المدد، وجاهدت الجماعة الإسلامية بباكستان، وافتتن أعضاؤها بالأحداث الجسام التي عاشها المسلمون في تلك الأرض الإسلامية. وانشق بعضهم عن الأستاذ الجليل حين قرر أن تشارك الجماعة في العمل السياسي بالأسلوب المتاح، بالتقدم للانتخابات ومزاحمة الأحزاب بوسائلها. ولا تزال الجماعة أقوى جماعات المسلمين وأمتنها تركيبا وأدقها نظاما.

قامت جماعة المودودي حول رجل مجاهد كرس حياته منذ أكثر من خمسين سنة للدعوة والكتابة والتأليف. وكان قلمه أيده الله القوة الجامعة والطاقة المشعة في جهاد جماعته، فصحبته صحبة علم وثقافة وفكر لا صحبة روح.

ويهمنا قبل كل شيء أن ننظر في فكر الرجل لنرى أين نحن من منهجه، ولنكتشف مواضع القوة في فكره وعمله.

إنه رجل سني يوصي بالصحبة، لكنه لايعرف من أنواعها إلا تكتلا على المبادئ. أما الصحبة الصوفية فيتحدث عنها بتحرز شديد، بل إنه ينفر منها نفورا بينا. ولعله لم يعرف إلا جماعات المتصوفة المقلدين أو المحترفين، وحق له، إن كان الأمر كذلك، أن يحترز وينفر.

وهو في هذا على عكس رجال التبليغ، هؤلاء يتركون

لرجالهم حرية الأخذ عن المشايخ، ويوصون بزيارة الصالحين والتماس دعواتهم ويؤكدون في ذلك. أما أبو الأعلى فيتحدث في كتبه عن ربط العلاقة بالله وعن التقوى والذكر، ويوصي بكتم النوافل والتستر لئلا يدخل المصلي الرياء ويفسد عمله.

وأقوى ما عند الرجل من المنهاج النبوي المبايعة والتؤدة. فهو يكرر في كتبه أن من العبث محاولة أي عمل دون مبايعة والتزام، وهو يوصي بعدم العنف وبالتزام الأناة وبعدم الاستعجال.

وتمتاز كتاباته بالتبسط وبالاستعلاء على الجاهلية، فهو مع البارزين من رجال الدعوة والفكر، بل إنهم معه، فله فضل الأسبقية رضي الله عنه، في الاعتزاز بالإسلام وفضح مخازي الجاهلية، والتبشير بعالمية الرسالة المحمدية. ونظرا لقيام باكستان على أساس ديني، وما كانت تجسمه في قلوب المسلمين الذين انتظروا الانبعاث الإسلامي في باكستان، فإن هذا العالم الجليل ألف كتبا يصف فيها تنظيمات الدولة المرتقبة. ولم يتم ما أراد الداعي، فقد انحرف شباب باكستان المترفون ببلادهم إلى حكم غير إسلامي، ونجحت دعوة الاشتراكية، وانشقت باكستان، وكان ما نعرفه من حرب خاطفة تداعت علينا فيها الأمم تداعي الأكلة على قصعتها، وانقض المشركون الهنود على باكستان فمزقوها. وكان أبو الأعلى ينذر المسلمين بالشر إن لم يرجعوا إلى إسلامهم، فلعل الله يلهم المسلمين أن يعتبروا نكباتهم ليرجعوا إلى ربهم.

يحذر المودودي أتباعه من الصوفية المتأخرين، ويسميهم بأنهم اقتبسوا الطقوس من المجوس والرهبان. ويوصى بديلا عن طرق القوم بالرجوع إلى فعل الرسول الكريم. ويفصل في كتابه «تذكرة دعاة الإسلام» كيفية ربط العلاقة بالله، بالصلاة والذكر والصيام والتوبة، وينصح بالتفكر في اليوم الآخر ودراسة السيرة النبوية. ويتحدث لأتباعه، بلسان الخبير، أنهم يلقون متى أعلنوا توبتهم عنتا وتنكرا من ذويهم وأصدقائهم. بصفة عامة يوصي الرجل بجهاد النفس ورياضتها على الخير، ولا تجد عنده ذكرا لمجالس الذكر وللصحبة السنية التي سموها صوفية. مع أنه عندما كتب عن تجديد الدين في الإسلام لم يجد نماذج يقدمها إلا رجالا صوفية : عمر بن عبد العزيز وكانت له صحبة قبل أن يخترع اسم الصوفي، الشيخ أحمد السرهندي الصوفي، والشيخ ولي الله الدهلوي.

لا يمنعنا اختلافنا مع الرجل في هذه النقطة أن نعرف له فضله على هذه الأجيال من المسلمين، فله الأستاذية في الفكر الإسلامي المعاصر، على تفاوت في قيمة ما يكتب. ولله وحده الكمال، والرجل طرق مواضيع متعددة فيها الاقتصاد وفيها الفقه والقانون وفيها التربية الإسلامية. والذي يبقى بارزا في فكره هو هذا الوضوح في الموقف أمام الجاهلية ورفضها والاعتزاز بالإسلام والإيمان

بأنه رسالة الله الخالدة التي تنقذ الإنسانية من ظلمات الشرك والعنف. نورد فيما يلي شهادة رجل نحبه على بعد مسافة وهو أكثر منا خبرة بما يجري في ميدان الدعوة إلى الإسلام. يقول أبو الحسن الندوي[1] :

«وقد توفرت لمؤسسها (الجماعة) الأستاذ أبي الأعلى المودودي صفات عديدة ترشحه للزعامة الفكرية في شبه قارة الهند. منها : صفاء الفكر والاطلاع على مناهج الفكرة الحديثة، والثقة بفضل التعاليم الإسلامية وجدراتها للبقاء والانتشار، والاعتداد بالنفس ومواجهة الحضارة الغربية ونظمها بشجاعة، والقلم البليغ السيال، والأسلوب القوي الدافق. وقد كان لبحوثه العلمية التي كتبها في الهند التي كان يتكلم فيها عن مستوى عال وقوة وثقة، ولمقالاته ورسائله دوي عظيم في الأوساط الإسلامية التي كانت تعاني قلقا فكريا، وكانت في دور انتقال، وجلبت إليه عددا عظيما من عشاق الفكرة الإسلامية وهواة المجد الإسلامي، تكون بهم جهاز الجماعة الإسلامية الأول، وانتقلت القيادة بطبيعة الحال إلى باكستان على العمل الإسلامي الجديد الناهض، وخاضت في السياسة واكتوت بنارها وأباحت لنفسها استخدام الأساليب والمناهج السياسية والجمهورية للوصول إل الحكم، التي شددت عليها النكير وكانت

1 كتابه «الصراع بين الفطرة الإسلامية والفكرة الغربية» ص 114

تعتبرها الشعارات الجاهلية والحكم بغير ما أنزل الله والتحاكم إلى الطاغوت، وسمت ذلك «الحكمة العملية» التي تقبل التغيير والمرونة. وهنالك دب الخلاف في صفوف الجماعة، وانشق عنها بعض كبار المسؤولين والذين كانوا في طليعة الدعوة وفي مركز التوجيه»

ويريد الندوي أن يرجع أبو الأعلى إلى قلمه وكتبه، ويعتبر ذلك أنجع للدعوة وأنجح لمسعاها، وهنا نلمس العقبة الكؤود التي عرقلت الدعوات الإسلامية المعاصرة. فالإخوان المسلمون تكاثر عددهم بسرعة ولم تسمح بالتربية اللازمة لكل فرد، فطغت العقلية السياسية على السمت الإسلامي والتؤدة الإسلامية، وانحرف البعض عن الاقتصاد، وهكذا وقع لجماعة المودودي. غير أن أي جماعة إسلامية مخلصة إنما يكون هدفها الأعلى أن يعبد الله في الأرض وأن تبلغ رسالة الإسلام البر والبحر. ولم يتح للمودودي وجماعته أية وسيلة أخرى للعمل إلا المزاحمة في السوق السياسية بالوسائل الجمهورية. فهل يعد هذا نزولا عن الهمة العليا؟ قد يقول قائل: إن الجماعة لو انتصرت في الانتخاب وحكمت لن تستطيع أن تغير الناس من جهالتهم وتنقلهم إلى الإسلام والحياة الإسلامية بالضغط. وثم معارضة ستحارب الإسلام بحق النظام الجمهوري اللبرالي، فكيف يصح أن تعرض الدعوة للمهاترات السوقية؟ هذا

حق، وما فعله المودودي إنما فعله حيث لم ير مخرجا غيره، وله اجتهاده في أن مشاركة الجماعة بهذا الشكل في العمل حكمة عملية ومرونة.

ونحن نعرض هذا على منهاجنا، فنجد أن نقطة الانطلاق، وهي صحبة الولي العارف المؤيد الموفق وحدها، تمكن بما يصحبها من نورانية سماها أعداء الأنبياء والأولياء سحرا، من تحويل أمة بكاملها بما يشبه الموجة العميقة التي لا تقاوم. وأن حيوية الإخوان المسلمين، بفضل صحبة الشيخ البنا، شيء آخر غير العمل الجهادي المنظم في صفوف أبي الأعلى. وفي تاريخنا الحديث ظهرت أيضا حيوية الدعوة المؤيدة الصوفية عند السادة السنوسيين، ولقد أخرجت زواياهم علماء ورجال دعوة أدخلوا الإسلام إلى جل أنحاء إفريقيا، وأخرجت زواياهم مجاهدين من أمثال عمر المختار.

وعلى أي حال فالدعوة الإسلامية لا تكون تامة إلا بتجديدها بما كان عليه النبي وصحبه: وهو الصحبة أولا وأساسا والمبايعة والجماعة، وما يجيء بعد هذا بالتربية من التزام للسمت الإسلامي والتؤدة والاقتصاد. والدخول مع الرجس في مزاحمة نزول في نظرنا عن السمت والهمة العليا. وما كانت معاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليهود يثرب حين نزل بدارهم حيادا عن السمت الإسلامي، لأن اليهود بقوا أمة وحدهم، لا صلة لهم بحياة المسلمين

إلا مجابهة للعدو المشترك واحتراما للحقوق من الجانبين. أما تحويل الدعوة تحزبا يشبه تحزبا جاهليا عصبيا فهو اعتراف ضمني بمشروعية الأنظمة السياسية في دار الإسلام، وجازى الله أبا الأعلى عن جهاده واجتهاده أفضل الجزاء.

إن هذا السيد الكريم يرى أن انبعاث الإسلام يبدأ بإذكاء الطاقة الروحية بين المسلمين. يقول تحت عنوان: «الاستعداد الروحي»[1] :

«ولكن العالم الإسلامي لا يؤدي رسالته بالمظاهر المدنية التي جادت بها أوربا على العالم، وبحذق لغاتها وتقليد أساليب الحياة التي ليست من نهضة الأمم في شيء، إنما يؤدي رسالته بالروح والقوة المعنوية التي تزداد أوربا كل يوم إفلاسا فيها، وينتصر بالإيمان والاستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات، والشوق إلى الشهادة والحنين إلى الجنة، والزهد في حطام الدنيا وتحمل الأذى في ذات الله وهو الجرثومة التي انبنت حولها جماعة الأستاذ المودودي جرثومة فكرية محضة، فالصحبة عنده صحبة فكرية وإن كان هذا الفكر يدعو إلى تزكية روحية وسمو روحي وربط للعلاقات بالله كما يفصل ذلك كتاب الأستاذ المترجم إلى العربية بعنوان: «تذكرة

1 كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» ط 7، ص 270.

دعاة الإسلام».

وفي بلاد شبه الجزيرة الهندية بلاد السادة الصوفية، أهل الصحبة والروحانية العالية، يجد السيد المودودي من بين أصحابه من يفتقد هذه الروحانية فلا يجدها، وكأن هذا الاعتراض الذي نجد قصته تحت قلم الأستاذ ينبئ عن موقف تجاه الصحبة الصوفية أكثر وضوحا مما تبديه الكتب. نورد فيما يلي نقاشا حول الروحانية المفتقدة، ونتأمل جواب الأستاذ عنها ودفاعه بأن أعماله وأقواله طبق للكتاب والسنة. وكأن الأستاذ عندما يؤكد ذلك ينفي أن يكون للصحبة الروحية مكان في التربية الإسلامية يقول في كتابه المترجم بعنوان: «الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية»[1] :

«وكذلك قد بلغني أن من الناس من يرون أن الجماعة ينقصها ذلك الشيء الذي يعبرون عنه «بالروحانية» على حين أنهم لا يكادون يحددون بأنفسهم ما يريدون بتلك الكلمة من معنى. ومن ثم يرون أن يختاروا من الغاية ومنهاج السير إليها نفس ما اختارته الجماعة نفسها، ثم يرجعوا لتزكية النفوس وتربية الروحانية إلى الزوايا. والذي تنم عنه هذه الأفكار والآراء ضرورية. إنه لم ينضج بعد في الناس فهم الدين وإدراك تعاليمه بالرغم مما بذلنا

1 الكتاب المذكور بلا تاريخ ص 68. ترجمة السيد مسعود الندوي.

لهذا الغرض من الجهود المتتابعة. وها قد بينت[1] لكم آنفا «الإيمان والإسلام والتقوى والإحسان»، فإن كنتم ترون في هذه الكلمة شيئا اختلقته من تلقاء نفسي معرضا عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله، فلكم أن تنبهوني عليه وتهدوني إلى الصواب في أمره. وأما إذا كنتم تسلمون وتعترفون أن كل ما بينت من حقيقة هذه الكلمات الأربع هو موافق لما جاء في الكتاب والسنة، فتفكروا هل يمكن أن توجد تلك الروحانية التي أنتم في صدد البحث عنها في أماكن لم تتحقق فيها مقتضيات الدين ولم تتأصل جذور التقوى والإحسان ؟»[2].

أبو الحسن الندوي: هو من رجال القلم والدعوة إلى الله، رجل صوفي عاشر أهل الله حتى استنار قلبه وأشرقت فيه محبة الله ورسوله ومحبة الخير لهذه الأمة. كتبه الكثيرة تنبئ عن اهتمام بمنابع الروحانية الإسلامية وحركية الدعوة في ماضيها الوضاح وفعاليتها الممكنة في حياة الأمة الحاضرة والمستقبلة.

تجد عند السيد الندوي لهجا بذكر الرسول ومحبته، وتمسكا بالمنهاج النبوي، منهاج الصحبة والذكر والتؤدة والسمت، لذلك

---

1 الأمر إذن لا يعدو البيان العقلي .

2 في كلام الأستاذ تحامل على الزوايا، وكأنه ما عرف إلا نوع المتصوفة المرتزقة، ولو بحث كما بحث السيد أبو الحسن الندوي لوجد الصادقين أهل التقوى والإحسان.

لا يكتم ولوعه بالسادة الصوفية ولا إعجابه بالشاعر الصوفي شاعر المحبة الإسلامية والمجد الإسلامي والشوق إلى الآفاق الروحية العليا السيد إقبال.

لا نعثر فيما كتب السيد الندوي على ما يدل أن للرجل ممارسة ومعاناة لبناء الجماعة كما نجد عند أمثال السيد المودودي أو عند كتاب الإخوان المسلمين كالسيد البهي الخولي صاحب كتاب : «تذكرة الدعاة». والسبب في ذلك أن العالم الفاضل أمين ندوة العلماء بالهند يعيش تحت دولة مجوسية لا تقبل التجمعات خاصة التجمعات الإسلامية[1]. ومنهاج الندوة في العمل، والندوة تتكون من علماء أصحاب ميول الصوفية، يعتمد على بناء المدارس الدينية ونشر الدعوة بين المسلمين وغيرهم. ولهذا كان رأي السيد أبي الحسن ألا تستقل باكستان عن الهند وأن يمكث المسلمون كتلة واحدة وسط الدولة المجوسية يبثون دعوتهم. وكأنه رضي الله عنه عندما أبدى ذلك الرأي منذ زمن بعيد وقبل قيام باكستان كان ينظر إلى ما آلت إليه الأمور.

ومن أهم كتب السيد الندوي كتابه «ربانية لا رهبانية»، خصصه للحديث عن التزكية الروحية وعن المؤمنين المحسنين المسمون صوفية. وكان عنوان الكتاب يشير إلى الانحرافات الرهبانية التي

1 لا سيما بعد عدائها السافر للمسلمين الباكستانيين بعد أن ولغت في دمائهم وفرقت شملهم.

ابتليت بها الطوائف المتصوفة المحترفون. وفي هذا الكتاب يعقد السيد الجليل فصلا عن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ويذكر محاسن هذا الرجل العظيم ويشيد بفضله. وهذا وحده كاف لمعرفة قيمة أبي الحسن وفضله، فقد درج بعض المتصوفة على ثلب كل من عارض أو انتقد سلوك بعض الصوفية، وينهشون عرض شيخ الإسلام ويكفرونه لأنه ناقش الغزالي وابن عربي، ونقاشه كاف، في نظر الأغمار، ليغطي فضل عالم جليل وفحل من فحول المسلمين.

هذه نبذ من كتاب «ربانية لا رهبانية» تعطينا صورة عن فكر الندوي وعمق إدراكه للمنهاج النبوي منهاج الصحبة والذكر؛ يقول عن كمال الدين بالتزكية الروحية التي يحققها المنهاج النبوي :[1]

«فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة، يقر بها المسلمون جميعا، ولو ترك «المتصوفون» الإلحاح على منهاج عملي خاص للوصول إلى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحوا على «الغاية» دون «الوسائل»،

1 الكتاب المذكور، ص 14.

لم يختلف في هذه القضية اثنان ولم ينتطح فيها عنزان، وخضع الجميع وأقروا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الإسلام يحسن أن نعبر عنه بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، وأقروا بأنها روح الشريعة ولب لباب الدين وحاجة الحياة، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية، ولا لذة -بالمعنى الحقيقي- في الحياة الفردية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة».

ويذكر السيد الندوي شيخه فيسرد قصة حياته، وينتهي إلى اكتشاف المنهاج النبوي الذي من شأنه وحده أن يحيي موات الأمة. قال [1] : «وإن أكبر واجب ومهمة في هذا العصر هو إحياء الإخلاص والأخلاق وتجديدهما. وأكثر وسيلة للحصول عليهما هو الحب. والطريق إلى الحب الذكر والصحبة وعشرة عباد الله الصالحين والعارفين».

وهذا ما فعله الندوي، فقد صحب العارفين والتمس بركاتهم، ولا غرو فهو يذكر أن والده وجده كانا أصحاب زاوية، فالدر يخرج من معدنه. قال بعد أن ذكر دراسته لحياة العارفين، وفي كتابه نماذج منها ومن جهاد الصوفية وفاعليتهم في التاريخ [2] :

---

1 المصدر المذكور، ص 44.
2 المصدر السابق، ص 146.

«لقد نشأت بفضل هذه الدراسة على رغبة صادقة في الاجتماع بأمثال هؤلاء، والبحث عنهم، انتهت بي إلى الوصول إلى بعضهم الذين كان لهم فضل كبير في منهج الحياة الذي آثرته أخيرا، وأحب البقاء عليه.

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبا فارغا فتمكنا

وما هو منهج الحياة الذي آثر أن يبقى عليه الندوي ؟ إنه المنهاج النبوي منهاج الصحبة والذكر والتؤدة والسمت والاقتصاد يصفه لنا من عاشره وعرفه، وهو الأستاذ أحمد الشرباصي، فيقول في مقدمته لكتاب الندوي الأكثر ذيوعا وهو «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»: «وأخي أبو الحسن بعد هذا كله عدو للمظاهر الكاذبة، يتخفف في ثيابه وطعامه وفراشه، ويكره التكلف والمجاملة الزائدة، ولا يقيم للمال وزنا في حياته، وثقته بربه فوق كل شيء، ومثابرته على النضال في سبيل ما يؤمن به مضرب الأمثال، وإخلاصه العميق سر نجاحه بينما يفشل الآخرون».

وحيث يرى المودودي أن جذور التقوى والإحسان لم تتأصل يرى الندوي منارات للإسلام والجهاد والتقوى والإيمان. ذاك ينكر على الزوايا أن يتحقق فيها أية روحانية، وهذا يؤكد أن الإسلام ما ثبت على الزمان إلا بوجود هذه الزوايا، ولعل الأمر

راجع إلى تجربة الرجلين المتباينة، ولعل المودودي رجل الفكر والمجاهدة لم يتعرف إلا على متصوفة سطحيين، ولعله لم يحب أن يتعرف على شيء مجهول عنده منفر بما سرى في صفوف أصحابه من بدع وشعوذة. يقول الندوي عن هذه الزوايا الصوفية »[1] :

«وكانت نتيجة ذلك (تأسيس الزوايا وتنظيم التعليم والتربية الروحية بها) أن جرحى القلوب والفؤاد كانوا يجدون بلسما لهمومهم وأحزانهم في هذه الزوايا وملجأ لهم. إن حجر عطفهم وحبهم كان مفتوحا لكل من هجره المجتمع أو الأسرة أو تنكر له الحظ وأدبرت عنه السعادة. إن هؤلاء الذين لم يقبلهم أبناء أسرتهم أو طردهم أولادهم بعض الأحيان كانوا يقدمون إلى هؤلاء الصوفية والمشايخ ويعيشون في أحضانهم وفي كنفهم، ويجدون فيه كل ما افتقدوه من راحة البيت وأنس الأحبة».

هنا كلام يصور الزوايا كملاجئ خيرية يدخلها البائسون والمطرودون، فماذا تخرج لنا هذه الزوايا ؟ وما هو دورها في حياة الأمة ؟ وأية مزية لهذه التربية الروحية الصوفية ؟ عن هذا يجيب الندوي فيقول[2] : «ومما يجدر بالذكر ويسترعي الانتباه أن تلك القوة المعنوية

---

1 كتاب «ربانية لا رهبانية»، ص 117.
2 المصدر السابق ص 120.

والروحية، والشخصية القوية الفذة، والإخلاص والربانية، والحنان والعاطفة، والإقدام والشهامة التي نحتاج إليها للتضحية والفداء والإصلاح والفتح والتسخير، لا تنشأ ولا تظهر في أكثر الأحيان إلا بعد صفاء الروح وتهذيب النفس، والرياضة والعبادة. ولذلك نرى أن أكثر من قاموا بدور التجديد والجهاد في تاريخ الإسلام كانوا يتمتعون بمكانة روحية سامية.

سرح طرفك في هذه القرون الأخيرة تجد فيها أمثال الأمير عبد القادر الجزائري، والشيخ محمد أحمد السوداني، وسيدي أحمد الشريف السنوسي، والسيد الإمام أحمد الشهيد الذي كان شيخ طريقة وزعيما روحيا في جانب، ومجاهدا وقائدا مناضلا في جانب آخر.

الحقيقة أن هذه المجاهدات والرياضات وتزكية النفس والصلة بالله تنشئ في الإنسان حالة عجيبة من الشوق والوجد والحب والحنان، تتغلغل في أحشائه وتستقر في أعماقه، حتى تراه ينشد بلسان حاله ويقول: «إني لا أملك شيئا أفديك به إلا هذه الحياة التي أعرتني إياها، فهي منك وإليك ومن فيضك وفضلك».

فنهاية المطاف في هذه الرحلة الروحية والسلوك الطويل هي حب الشهادة، والغاية الأخيرة من هذه المجاهدة والرياضة هي الجهاد».

يقف فكر السيد الندوي ودعوته موقفا مباشرا إزاء مشكلة الإنسان في كل زمان. يقف مع المنهاج النبوي الذي يغير الإنسان ويرجعه إلى الفطرة ويسمو بروحانيته فيهيئه للتضحية والبذل ويجعل منه خلقا آخر غير هذا الإنسان العاطل من روحانيته الشقي بأنظمته وحضارته.

وإذ تجد المودودي يدعو إلى جهاد فكري يرمي لوصف النموذج الإسلامي المنشود وما يتيحه من حلول اجتماعية واقتصادية، ويرمي لتربية فكرية وتزكية بالمجاهدة دون الصحبة، يظهر لك الفرق واضحا بين المنهاج النبوي الذي يأخذ الإنسان أخذا مباشرا كليا شموليا من جميع نواحيه، وبين التناول الفكري الذي يجزئ الإنسان ويمسك في سبيل تغييره طريق التبشير بالمذهب الاقتصادي والاجتماعي والنموذجي. وإزاء فكر المرحوم سيد قطب المستعلي على الجاهلية لكن المعرض عن المشاكل الزمنية لأن قيام دولة الإسلام ستمحوها بمجرد ظهورها، يردك الندوي إلى الاعتبار الأساسي، إلى مكمن الداء في نفس الإنسان الغافل، ويدلك على السلوك الروحي وعلى المنهاج النبوي. وحيث يلتمس سيد قطب السلطة والحاكمية ينتزعها المؤمنون، يومئ الندوي إلى الانضباط والقوة النابعين من تربية الإنسان على المنهاج النبوي. مستخف بهذه القوة المعنوية لا يحتفل بها. ولا يحتفظ بالبقية منها

ولا يغذيها حتى نضب معينها في قلبه. فلما خاض العالم الإسلامي في المعارك التي تحتاج إلى الإيمان والصبر والثبات، وتحمل الشدائد والنكبات وزلزل بعض الزلازل، ولجأ إلى القوة المعنوية الكامنة في نفوس المسلمين، كانت كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، هنالك عرف أنه قد جنى على نفسه جناية عظيمة بإهمال هذه القوة الروحية وتضييعها، وبحث في جعبته فلم يجد شيئا يسد مكانها ويغني عنها».

يصف الأستاذ الندوي تخاذل المسلمين وانطفاء شعلة «الحمية الدينية» كما يسميها، والقرآن يسمي الحمية عصبية جاهلية، نشير لمثل هذا لنحاذي اللفظ القرآني والمعنى القرآني. لكن السيد الكريم لا يصف لنا الدواء لاسترجاع هذه القوة المعنوية، لا يعلمنا أن التربية الروحية، أن التزكية بالصحبة والجماعة والذكر هي دواؤنا، إنما يرى العلاج في دعوة حرة متناثرة، وهو معذور فليس ينتمي لجماعة، وإذن فلن يعلم كيف يكون بناء جماعة الدعوة ولن يعلم صعوبة بنائها وضرورة المبايعة كما يعلم المودودي.

يقول الأستاذ الكريم العزيز علينا: يخاطب المسلمين، ويكشف بذلك عن مذهبه في الدعوة[1] : «فالمهم الأهم لقادة العالم الإسلامي وجمعياته (لاحظ أنه لايفرق بين

1 نفس المصدر، ص 271.

الجمعية والجماعة) وهيآته الدينية وللدول الإسلامية غرس الإيمان في قلوب المسلمين وإشعال العاطفة الدينية، ونشر الدعوة إلى الله ورسوله، والإيمان بالآخرة على منهاج نشر الدعوة الإسلامية الأولى، لا تدخر في ذلك وسعا، وتستعمل لذلك جميع الوسائل القديمة والحديثة، وطرق النشر والتعليم، كتجوال الدعاة في القرى والمدن، وتنظيم الخطب والدروس، ونشر الكتب والمقالات، ومدارسة كتب السيرة وأخبار الصحابة، وكتب المغازي والفتوح الإسلامية، وأخبار أبطال الإسلام وشهدائه، ومذاكرة أبواب الجهاد، وفضائل الشهداء، وتستخدم لذلك الراديو والصحافة وكتب الأدب وجميع القوى والوسائل العصرية.

والقرآن وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا في العالم الإسلامي نار الحماسة والإيمان، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي، وتجعلا من أمة مستسلمة، منخذلة ناعسة، أمة فتية ملتهبة حماسة وغيرة وحنقا على الجاهلية وسخطا على النظم الجائرة».

لنمر مر الكرام على عبارات: نار، وأبطال، وملتهبة، وحنق وسخط، فإن كل هذه المعاني أجنبية عن فكرنا. نحن ننشد النور والجهاد والتؤدة لا الحنق، والرحمة الفعالة لا السخط المدمر.

يقول السيد الجليل إن مخرجنا من الورطة هو الدعوة الإسلامية

الأولى. ويتحدث عن القرآن وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم. لكنه لا يفسر لنا منهاج الدعوة الأولى ويعلمنا كيف نؤتى الإيمان قبل أن تخشع قلوبنا لذكر الله وتطهر لتكون وعاء للقرآن وبعدد وسائل الدعوة، ونحن نوافقه على استعمال هذه الوسائل. ويبقى الرجل مع الوعظ والإرشاد «وإلهاب» العاطفة بالخطب والتأليف. والتربية الإسلامية الجادة لاتعتمد على العاطفة الحماسية، بل تحذر منها أشد الحذر، إنما يربي الإسلام على الصبر البعيد المدى وعلى مراقبة الله وذكره ذكر خيره وجزائه في كل طرفة عين.

ولنا لقاء مع الأستاذ السيد في إيمانه بأن الإسلام لن ينبعث إلا بقيادة جهادية تساند الدعوة وتحمل أعباءها. إن كان السيد الندوي لا يخبرنا بمكان الصحبة والمبايعة والجماعة والذكر، فإنه ينتظر كما ننتظر ظهور قيادة عمرية تستجيب للدعوة وتجدد للمسلمين حياتهم.

يقول السيد[1] بعنوان: «الفراغ الأكبر والعبقري المطلوب»: إن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو وجود ذلك العبقري (هكذا) العصامي (ونقف عند كلمة عصامي لأن نفس عصام سودت عصاما. العصامي يكون نفسه ويربيها. وهذا لا يكون أبدا. ولن يخرج للمسلمين منقذ كون نفسه خارج صحبة رجال الدعوة الصادقين) الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، ويشق له طريقا

1 كتابه «الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية» ص 230.

خاصا بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها، طريقا يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة، وعن التطرف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم السطحية، متمسكا بالحقائق وأسباب القوة، وباللباب دون القشور.

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده وأمته طريقا مبتكرا يجمع فيها بين الإيمان الذي اختص به الأنبياء والرسل والدين الذي أكرمه الله وأمته به عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم... العبقري العصامي الذي يعامل الحضارة الغربية بعلومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها كمواد خام، يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والإنتاج والرفاهية وحب الابتكار في جانب آخر. ولا يعامل الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلا برمته ولا يقبل إلا على علاته، إنما يأخذها كأجزاء، يختار منها ما يشاء، ويركب منها جهازا يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة ونظرة خاصة إلى الدنيا، وسلوك خاص لبني النوع، وسعي خاص للآخرة، وجهاد دائم ﴿**حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ البقرة، 193...

هذا هو العبقري العصامي الذي لا يزال مفقودا في صفوف

القادة والزعماء في العالم الإسلامي على كثرتهم وتنوعهم، وهذا هو العملاق حقا الذي يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغارا متواضعين كالأقزام... وإنها أعظم تجربة وأبعدها أثرا. ليس في محيط العالم الإسلامي فحسب، بل في محيط العالم وفي محيط الإنسانية كلها. وإن التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها في الأقطار الإسلامية والعربية، ممسك قلبه ليسطر له سطور الثناء والإجلال، ويقلده الزعامة الحقيقية، ومركز التجديد في العالم الإسلامي، والعبقرية والعصامية في التاريخ الإنساني».

ما أحسن كلامك يا أبا الحسن، ونحن نسأل الله معك أن يبعث فينا رجلا على النموذج الذي ذكرت. لكنه لن يأتينا أبدا إلا من صحبة سنية، لن يأتينا إلا من الأفق الذي برز منه عمر بن عبد العزيز، وصلاح الدين، وابن تاشفين، كلهم جدد الدين وأنقذ المسلمين، وكان لكل منهم صحبة وهمة وتربية على يد أولياء الله أهل الله رجال الدعوة الصادقين. إذا كانت العبقرية والعصامية في عبارتك تعني الابتكار في الميدان الجهادي والاجتهاد في عويصات مشاكل الأمة المفتونة فنعم. وحياك الله يا أبا الحسن.

سيد قطب: مفخرة من مفاخر الفكر الإسلامي، وعلم من أعلام الأمة وأئمتها، حباه الله بكرامة الشهادة في سبيله، وساق على يده علما غزيرا فياضا، له ديباجة مشرقة وبيانا أخاذا،

مضافا إلى ذلك صولة الأسد الهادر وثقة المؤمن المستقتل، وصوته رحمه الله ورضي عنه أبلغ الأصوات وأبعدها صدى في كشف عورات الجاهلية وجلو النورانية الإسلامية وعزة المؤمنين بالله ورسوله. كان رحمه الله كاتبا مرموقا، فلما أكرمه الله بصحبة الشيخ الجليل سيدي حسن البنا اكتمل نضجه وعلا نجمه. وخلف على رأس الإخوان المسلمين، بعد نكباتهم وخيبة آمالهم بعد موت البنا وما تلا ذلك من انشقاق في الصف لضعف القيادة، نقول نحن لموت المصحوب المتبوع النوراني، خلف القائد الصديق على رأس الإخوان المسلمين، ونطق بالحق كما يعتقده، وكان صريحا تبلغ صراحته العنف والمجاهرة بالعداء للحكام الجاهلين في عرفه، المفتونين في فكرنا.

واستمات هذا الرجل العظيم حتى قتلوه، وبقيت كتبه سلوة للمؤمنين، وعبرة لرجال الدعوة ومثالا. ونحن إذ نتعرض لفكر سيد قطب نخبره ونستنطق سطوره نجد أنه خير من بحث عن المنهاج النبوي، عاشر أكثر من عشرين سنة يتدبر القرآن والسنة، وخرج من تأملاته بظلال القرآن، وبكتابه الذي من أجله قتل «معالم في الطريق». في هذين الكتابين وفي كتبه الأخرى الكثيرة نجد رؤية الإسلام صافية متعارضة تعارضا تاما مع ظلام الجاهلية، وينشد الرجل مفاصلة بين المسلم ومن ليس على هديه من أهله

وعشيرته، ويحب القوة في الدين والصراحة وحمل الرسالة بشجاعة وإيمان. ثم إنه مع كل هذا، ومع بحثه الطويل العميق عن المنهج، لا يتحدث إلا قليلا عن الصحبة، عن هذه الطاقة النورانية التي تقتبس من المصحوب المتبوع وتقلب عقل المريد الصاحب ووجهته. ولا يذكر هذا السيد المبارك المبايعة إلا في سياق الظلال ولا يبرزها كعامل أساسي لبناء الجماعة. ثم إنه يتحدث عن المجتمع الإسلامي الذي لا وجود له اليوم، ولا يميز بين المجتمع والجماعة. ولعله رحمه الله نسي أيضا أن الذكر، بمعناه العام الشامل، هو محور التربية الذي عليه تدور. ولست أهتدي كيف غاب كل هذا عن هذا المؤمن الثقة الذكر وعهده بأستاذه البنا قريب. والبنا ما بنى جماعته إلا بالمنهاج النبوي، بالصحبة والمبايعة والذكر.

الصراحة والقوة ومنابذة الجاهلية والحاكمية الإنسانية حاكمية الطاغوت، هذه المواضيع الرئيسية في فكر سيد قطب. وهو إذ يعرض فكره بالبيان الناصع والوضوح التام يأخذ بلب القارئ وعاطفته. ولعله رحمه الله حسب أن الفكر يغني عن الصحبة السنية التي سموها صوفية. وليس الأمر كذلك، فإن الموعظة البالغة البليغة، إن أثرت في السامع أو القارئ فإنما تذكي حماسا عابرا، ولا تخلق إيمانا ولا تبني جماعة. لنستمع إلى الكاتب البليغ والقلب

الكبير يعبر عن قوة الدعوة وعزة المؤمنين. يقول[1] : «لن نتدسس إليهم بالإسلام تدسسا. ولن نربت على شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة... سنكون صرحاء معهم غاية الصراحة... هذه الجاهلية التي أنتم فيها (ونحن نقول: الفتنة) نجس والله يريد أن يطهركم... هذه الأوضاع التي أنتم فيها خبث والله يريد أن يطيبكم... هذه الحياة التي تحيونها دون، والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم... والإسلام سيغير تصوراتكم وأوضاعكم وقيمكم، وسيرفعكم إلى حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها، وإلى أوضاع أخرى تحتقرون معها أوضاعكم في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى قيم أخرى تشمئزون معها من قيمكم السائدة في الأرض جميعا... وإذا كنتم، لشقوتكم، لم تروا صورة واقعية للحياة الإسلامية، لأن أعداءكم -أعداء الدين- يتكتلون للحيلولة دون قيام هذه الحياة، ودون تجسد هذه الصورة، فنحن قد رأيناها -والحمد لله- ممثلة في ضمائرنا من خلال قرآننا وشريعتنا وتاريخنا وتصورنا المبدع للمستقبل الذي لا نشك في مجيئه...

ونقرأ فيما يلي نظرة الرجل في الحاكمية، والقبض على زمامها، حقا لا يرد، متى قامت في البلد جماعة إسلامية. ولا يحدثنا رحمه الله عن الأسلوب، ويذكرنا كلامه بالخطبة الشهيرة التي سبق أن أشرنا

1 كتابه «معالم في الطريق» الطبعة المغربية ص 202.

إليها ونقلنا منها كلمات متوعدة فاه بها الشيخ البنا في المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين. ومن كل هذا يبقى الأمر مبهما فيما يرجع إلى وسائل إثبات الإسلام في الأرض، ومن خلال هذه الفجوات يبرز وجه العنف وتدبر الأيدي المسلحة غير المسؤولة فتنة، ولست أدري هل قرأ البنا وقطب السيدان الجليلان باب الفتن من كتب السنة وهل وقفوا على أمر الرسول القاطع بالسمع والطاعة للأمير ولو جار ما أقام الصلاة، وعلى أمره صلى الله عليه وسلم بالرفق ونبذ العنف، لست أدري ويحز في قلبي وقلب كل مسلم نكبة الإخوان، وقد كانت حركتهم أقوى وأعظم وأوسع حركة عرفها المسلمون منذ قرون وقرون. ويعطي الله على الرفق ما لا يعطي على العنف، صدقت يا مولانا يا رسول الله.

يقول سيد قطب[1] : «فالإسلام منهج الله للحياة البشرية. وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية -متمثلة في الحاكمية- وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية. فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمر موكول إلى حرية الاقتناع في ظل النظام العام، بعد رفع جميع المؤثرات (ونزيد نحن : مع استثناء المرتدين فهؤلاء حكمهم الاستتابة وإلا يتوبوا يقتلوا حدا وكفرا كما يقول الفقهاء). ومن ثم يختلف الأمر من أساسه، وتصبح له صورة جديدة كاملة.

1. نفس المصدر ص 108

وحيثما وجد التجمع الإسلامي (ولعله رحمه الله يقصد الجماعة الإسلامية) الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام. مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان. فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا لمسألة مبدإ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة في المراحل التاريخية المتجددة؛ ولا نخلط بين دلالتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل».

وحين يتحدث رحمه الله عن أصل الرسالة الإسلامية الغيبي، فإنه يتخطى شخص الرسول الذي تتجمع فيه القوى الغيبية بالعمل الإنساني، ومن شخصه صلى الله عليه وسلم يستقى الإيمان وتوخذ القوة. يقول[1] :

«والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركة آتية من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري، إنها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر، تنشئ لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات، وتحدد لهم منهاجا للعمل يترجم هذا التصور. الدفعة الأولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من

1 نفس المصدر. ص 154

نفوس الناس ولا من مادة الكون، إنها -كما قلنا- آتية لهم من خارج النطاق الأرضي، ومن خارج المحيط البشري، وهذا هو المميز الأول لطبيعة المجتمع الإسلامي وتركيبه. إنه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الإنسان وعن محيط الكون المادي.

وبهذا العنصر الغيبي الذي لم يكن أحد من البشر يتوقعه أو يحسب له حسابه، ودون أن يكون للإنسان يد فيه في -ابتداء الأمر -تبدأ أولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الإسلامي. ويبدأ معها عمل «الإنسان» أيضا، إنسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي، الجارية بقدر الله وحده. وحين يؤمن هذا الإنسان الواحد بهذه العقيدة (وفاته أن هذا الإنسان ليس كالناس فهو نبي رسول معصوم، بشر لا كالبشر، مؤيد من الله بالوحي والمدد الغيبي) يبدأ وجود المجتمع الإسلامي (حكما). إن الإنسان لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه، إنه سينطلق بها، هذه طبيعتها، طبيعة الحركة الحية. إن القوة العليا التي دفعت بها إلى هذا القلب تعلم أنها ستتجاوزه حتما! إن الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة إلى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما. وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر (هكذا)، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي

الذي لا يدين لهذه العقيدة، ولا تسود فيه قيمها الأساسية القيم التي أسلفنا الإشارة إليها وهنا يكون المجتمع الإسلامي قد وجد (فعلا)».

أحب إلينا من عبارات: القوة العليا، وطبيعة الحركة، وتخطي شخص الرسول، كلام أوضح بلفظ قرآني نبوي. ويرحمك الله يا سيد قطب فقد جاهدت وأبليت في جهادك البلاء الحسن.

التلفيق الحضاري: من بين كتابنا المسلمين المعاصرين رجل مكثر تحمل كتبه عناوين إسلامية، ويقبل على قراءته الشباب المتعطشون للإسلام. هو مالك بن نبي مؤلف كتاب «فكرة الإفريقية الأسيوية» غداة مؤتمر باندونغ، وكتاب «كومنولث إسلامي» وكتاب «وجهة العالم الإسلامي» وكثير غيرها. وكل من ينتمي إلى الإسلام ويدين بدين الله فهو أخونا، وكل من نصح لله ورسوله والمؤمنين ونفع الأمة بعلمه وعمله فهو سيدنا وحبيبنا. بيد أننا نحب الوضوح ونحب أن تسير الدعوة الإسلامية على بصيرة من أمرها. والأستاذ مالك بن نبي طالب حضارة وثقافة، كما يعترف بنفسه وكما يدل على ذلك العنوان المشترك لدراساته وهو: «مشكلات الحضارة»، وليس طالب إسلام ولا رجل دعوة. ويظلمه بعض إخواننا، كالأستاذ غازي التوبة في كتابه «الفكر الإسلامي المعاصر» إذ يعده

من رجال الدعوة والإصلاح ويقرنه بالإمام الشيخ محمد عبده. ولو أن غازي التوبة وقف في المقارنة عند ضعف عبده ومالك أمام تحدي الجاهلية لهان الأمر، لكنه يذهب في المقارنة بعيدا ويظلم بذلك الرجلين. فعبده رحمه الله عاش في غبش الليل المظلم الذي خيم على المسلمين قرونا، وكان له الفضل في النهضة الإسلامية، لا يضيره، إن شاء الله، أن يلتمس الصلح مع الجاهلية العاتية وأن يرد الغيب الواجب الإيمان به إلى تفسيرات لا ينكرها العقل، كما فعل عندما رد الجن إلى جراثيم الأمراض التي كشف عنها معاصره باستور. أما مالك فرجل سياسة وفكر وحضارة وثقافة، يصلي لله ويصوم ويعلن إسلامه، وهذا شيء كثير جدا، لكنه لا يميز واقعين متميزين واقع جاهلي ظلماني وواقع إسلامي نوراني، في التاريخ الأول أو التاريخ المستقبل.

صفق السيد مالك بن نبي لمؤتمر باندونج، وهب ليكون منظر العالم الثالث، وأهدى كتابه لبطل العروبة. ودعا في كتابه إلى مزج حضارات العالم الثالث على محور طنجة-جاكرتا مارا بالهند، وتركيب حضارة إسلامية هندوسية. هاك ما يقول[1]: «ومن ناحية أخرى، فإن الاتصال في تركيب فكرة الإفرسيوية لا يمكن أن يتحقق إلا باتصال الفكر الإسلامي بالفكرة

1 «فكرة الإفريقية الأسيوية» الطبعة الأولى ص 286.

الهندوسية بواسطة الحوار والمواجهة. ومن هذا الاتصال نستطيع أن نقدح شرارة تركيب الفكر الإفرسيوي التي يستطيع كل بلد، من طنجة إلى جاكرطا، أن يتعرف فيه على جزء من عبقريته الخاصة، وأما من الناحية الثالثة فالاتصال يهدف أساسا إلى تحقيق العالمية فيما بيننا، أما من الوجهة التربوية فإن مشكلة الاتصال تواجهنا بمشكلة توجيه التعليم، وهنا يجب على القادة المسلمين أن يفتحوا عقولهم أكثر للقيم الثقافية في الهند وفي العالم».

أظن أن في هذا ما يكفي لتصنيف الرجل، فإن كان متمسكا بإسلامه الفردي فمرحى وحيهلا، أما فهم الإسلام وتفهيمه والحديث عنه، فالفقرة السالفة والتزلف إلى البطل السفاك قاتل علماء المسلمين ومشردهم نقط سلبية حاسمة في حكمنا على الرجل.

ولكي لا نغمط الرجل حقه، نتركه يتحدث عن كتبه والغايات التي من أجلها ألفها. يقول[1] : «كتبي كلها بعناوينها المختلفة أدرجت تحت عنوان عام، هو «مشكلات الحضارة»، لأن المجتمع الإسلامي، لا يعاني عندما تحل به أزمة سوى مشكلة واحدة، هي مشكلة حضارته في طور من أطوارها يتلاءم أو لا يتلاءم مع ضرورات الحياة. فعندما يتحقق شرط الانسجام تكون الحضارة مزدهرة، فيكون المجتمع

1 مجلة «الفكر الإسلامي» تموز 1971، ص9.

بمثابة العقل السليم في الجسم السليم، وإن لم يتحقق هذا الانسجام تحل بالمجتمع في هذا الطور من أطوار حضارته كل المحن التي يعاني تحت أسماء مختلفة، من استعمار إلى جهل إلى فقر الخ، بينما هي في الحقيقة كلها أعراض لمرض واحد هو فقدان الحضارة، إذن فكتبي أردت أن أخصصها من ناحية لدراسة أعراض هذا المرض ومن ناحية أخرى إلى تقييد طرق علاجها».

مرضنا في رأي الرجل هو فقدان الحضارة، ويوصي بتغيير الإنسان لهدف واحد : الحضارة! هذا واضح كل الوضوح، والانسجام المتحدث عنه هو انسجام بين الإنسان والزمن والتراب كما يفسر مالك في كتبه، ويسمى ذلك معادلة حضارية. إنه طالب حضارة لا حامل رسالة. وفاقد الشيء لا يعطيه كما يقول فقهاؤنا. ويعز علينا أن نرجع الحق إلى نصابه مخافة أن نمس من يحب الإسلام، لكن الحق أحق أن يتبع، والمسلمون لن تقوم لهم قائمة إن غاصوا في بحر الظلمات بحر الثقافة الجاهلية والحضارة الجاهلية يبغون عندها النموذج والمثال. الإسلام دين الله جاءنا به رسله عليهم السلام ليخرجونا من الظلمات إلى النور، ليحولونا من مستوى «الدوابية» اللاصقة بالأرض إلى قيمة الإنسان المكرم عند الله المعد للآخرة ونعيمها أو سعيرها. وإنما تأتي الحضارة والثقافة بناء حتميا وتعبيرا عن واقع حياة الإنسان. وحضارة وثقافة الجماعة المؤمنة المنبثقة عن الضمير النظيف

والقلب النير والإيمان والبذل والسمت والتؤدة والاقتصاد النبوية، شيء غير حضارة الجاهلية وثقافتها، وزنيمة هي حضارة ملفقة، وماذا نسمي الفكر الذي لا يكمل إلا بتفتحه على ثقافة مجوسية[1] ؟ ويحكم يا قوم! ويحنا والله وكيلنا!.

الدرس: آثرنا أن نعرض لأمثال السيد مالك بن نبي نصيحة وتحذيرا لشبابنا الباحثين عن إسلامهم، وتركنا الحديث عن مفكرين مسلمين ذوي أصالة، من علمائنا الأجلاء، وشبابنا المؤمن مكتفين برجال الدعوة البارزين. ونود الآن أن نتعلم من المقارنة بين فكر وعمل هؤلاء الرجال وبين المنهاج النبوي كما رتبناه في الخصال العشر. لنحن عند أنفسنا أحقر من أن نطاول الرجال المجاهدين وإنما نتعلم منهم، ومن خلال نظرتهم، مواقع الحكمة، وليس معنا والله إلا ما فتح الله لنا في قرآنه وكلام نبيه حبيبنا صلى الله عليه وسلم، فمنهما نستقي نطلب الله أن يجلو لنا الحق وإلينا ومنا الخطأ، ومن ربنا الكريم التوفيق.

1. الصحبة والجماعة : الأستاذ الكريم أبو الحسن الندوي رجل قلم ومنبر، يبدو من كتبه وخطبه ومقالاته أنه لم يعان صعوبات تكوين الجماعة، في نفسه صحبة صوفية فهو يكتمها، ويرسل قارئه

---

1 انظر جواب المرحوم سيد قطب على مالك واعتراض هذا عليه : «فكرة الأفريقية الأسيوية» طبعة أولى ص 293 وكتاب «معالم في الطريق» الطبعة المغربية، ص 141.

لحياة الصحابة وتاريخ المسلمين. وقد قدم الكتاب «حياة الصحابة» للمرحوم الشيخ محمد يوسف مؤسس جماعة رجال التبليغ، وله بالجماعة وأستاذها إعجاب لتمسكهم بالسنة تمسكا فريدا. وأشار لضرورة الصحبة بقوله : «ولم يزل ولا يزال الدين يوجد من الأحياء، ويقوم بالأحياء. ولم يكن الإنسان في دور من الأدوار غبيا عن القدوة والصحبة»[1].

أما السيد المودودي فصحبته صحبة فكر أولا وأساسا، على فكر إسلامي مرتبط بالمنابع ارتباطا وثيقا. وتجده يعبر عن روابط الجماعة وعن الإسلام بالقومية الفكرية. فالإسلام عنده قومية فكرية، ولست أدري أيعتقد الأستاذ أن هذه القومية، ككل القوميات، تقتضي عصبية ورفضا للأجنبي الخارج عن الفكرة التي يدعو إليها. والنقطة الإيجابية عنده هي أن لا عمل إلا بمبايعة. لذلك التم شمل جماعته رغم وقوفه وإياهم في فهم الصحبة على أنها صحبة فكر. وانشقاق الجماعة وما طرأ عليها من تغيرات تشير إلى ضعف في التكوين يرجع إلى فقدان نورانية القائد الصوفي.

وبمقارنة هذه الجماعة، التي يعدها الطنطاوي أصفى الجماعات الإسلامية، بتماسك جماعة الإخوان المسلمين وروحانيتهم العالية وقوتهم يظهر مكان الصحبة والتربية الروحية. عند الشيخ البنا

1 كتابه «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الطبعة الثالثة ص 246.

تربية صوفية روحانية هو محورها ومركز قوتها، وعنده نظام جماعي بالمبايعة والضبط العسكري. وإذ يشير المودودي على أتباعه بالتبتل والتكتم والحذر من الصوفية، يضع البنا لجماعته أورادا ووظيفة ومراقبة صوفية، ويسمي حركته حركة صوفية، وحرص المودودي على الطاعة نقطة إيجابية أخرى لكنها لا تعوض الصحبة الصوفية.

أما السادة رجال التبليغ فقد كان مؤسس جماعتهم وابنه المرحومان من رجال الله أهل التقوى والإحسان. فصحبتهما رضي الله عنهما أعطت الجماعة قوة على الجهاد وتحملا لا يقدر عليهما إلا من أيده الله بنصر من عنده. وقد وضع الشيخ إلياس رحمه الله أورادا نبوية لجماعته، وبنى على النذر للخروج في سبيل الله نظاما وضبطا للأعمال والوقت يبلغ في كثير من الأحيان دقة العمل العسكري في حالة الطوارئ.

وبنية الجماعة عند رجال الدعوة المعاصرين تبرز في أكمل صورها عند الإخوان المسلمين. للمريدين درجات يترقى فيها الأخ، ومع كل ترقية واجبات أوسع وطاعة أشمل. ويحث رجال التبليغ على طاعة الأمير طاعة كاملة كما تقضي السنة النبوية. غير أننا لا نرى عند هؤلاء السادة إلحاحا على تقسيم المراتب، والله ألح على ذلك إذ بعث جبريل عليه السلام ليعلمنا ديننا، ليعلمنا أن الإسلام يرقى بالمسلم

إلى الإيمان ومن الإيمان إلى الإحسان بالعمل والمجاهدة، بالصحبة والذكر. ولعل أدعياء التصوف، هؤلاء المتصوفة المحترفون، بما ابتدعوا من طقوس ما أنزل الله بها من سلطان غموا على المسلمين حياة الإسلام الروحية حتى لا يروا صفاء السنة النبوية، والسمة الأولى لأتباع الرسل الأولين وهي الصحبة. لهذا وربما أيضا لتفاوت رجال الله في مراتب سلوكهم لا نجد أثرا عند جماعاتنا المعاصرة لذكر المعراج الروحي ومعرفة الله تعالى والكمال الذي يكرم الله به عباده. نعم لرجال التبليغ كرامات يؤمرون بكتمها كما هو الأليق، ويحذر المودودي والبنا من الكشف حتى لا يعتمد عليه الأتباع ولا يقفوا عنده. كل هذا صواب، لكن جانب الغيب وجانب الكمال والاكتمال والسعي إليهما لا أثر له.

جماعة سبقت كانت أقوى بنية وأكثر تمكنا في ميادبن التربية العملية والسلوك الصوفي السائر بالمريد لكماله الروحي، هي جماعة الإخوان السنوسيين على عهد الإمام محمد بن علي الشيخ المؤسس حامل السر. وكانت بنية الجماعة تعتمد على تصنيف صوفي : فهناك العامة والخاصة وخاصة الخاصة أو قل بلسان نبوي : مسلمون ومؤمنون ومحسنون.

وأخاف أن يكون عسيرا على رجال الدعوة في زمان الديمقراطيات أن يعترفوا أن في الإسلام طبقية. ولكيلا نضيع مع أوهام الجاهلية

نكرر أن الله تعالى فضل من يخلص له على من لا يخلص وفضل المجاهدين على القاعدين، وكذب الأعراب الذين قالوا آمنا وردهم إلى مرتبتهم مسلمين. ففي الإسلام طبقية أساسها الصفاء والإخلاص والبذل، وأعلاها من يخدم الجماعة ويضحي من أجل نفعها. وهذه الطبقية طبقية خدمة وعمل لا طبقية استغلال واستعلاء، وإنما الرجل وبلاؤه، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وقسمته من الله ورسوله. فهذا تفاوت في الجهاد والعمل، ويطلب الرقي في سلم الطبقية الإسلامية من مطلب صعب من محو الأنانية المتكبرة، ومن إقامة الوجه لله تعالى ورعاية عباده وحقوقه.

2. الذكر: جماعة المودودي وجماعة رجال التبليغ تعتمدان على الأذكار النبوية الفردية، وعند الإخوان المسلمين أذكار جماعية يحث الشيخ رحمه الله عليها ويسميها وظيفة. ويجعل من الواجبات العشر على الإخوان المسلمين: قراءة الوظيفة وحضور مجالس الذكر. والذكر هو المحور الذي تدور عليه التربية الروحية بعد الصحبة. وبالذكر يتكشف عن البصيرة غواشيها، ويتصل الذاكر بالغيب، وبالإيمان بالغيب تنفتح أبواب الهداية بالقرآن.

3. الصدق: نجاح كل دعوة يتوقف على صدق الداعي، وعلى مقدار صدقه تكون فعالية الصحبة ونورانيتها. لانعني بالصدق هذه الأخلاق التي تخرج الإنسان من النفاق فقط، وهي قول الصدق

والوفاء بالعهد والأمانة، وإنما نقصد الصدق مع الله. ولا شك أن الجماعات التي نستعرضها أسسها رجال صادقون وإلا لما كتب لها النجاح. وللصدق مع الله درجات ومراتب، ومقام الصديقية العظمى أعلاها، وعلى تفاوت مراتب الرجال في هذا السلم تتفاوت روحانية القيادة وقوتها.

وبالتقاء صدق الطلب مع صدق الدعوة تتكون الجماعة بسماتها الإسلامية، بالولاية بين الله ورسوله والمؤمنين. وصدق الطلب معناه توجه الهمة إلى الله تعالى وإلى ما عنده، ولا يقدر على هذا كل الناس. لا يستطيع عامة الناس أن يتجردوا عن حظوظهم الدنيوية ليخلصوا القصد للمولى سبحانه ويكون جهادهم لوجهه الكريم. لذلك فإن جماعات الدعوة قد يتسرب إليها من له قصد غير القصد الصادق، ومثل هذا لا تفيد فيه التربية. ومتى اتخذت الدعوة شكل تجمع سياسي قائم على المطالبة كان خطر التسرب أعظم. ولعل العبرة التي بين أيدينا، وهي أعظم درس نتعلمه من جماعتي الإخوان المسلمين وجماعة الأستاذ أبي الأعلى، هي أن هذه المطالبة كانت السبب في وهن الجماعتين وكانت السبب فيما آل إليه أمر الإخوان المسلمين من عنف. تسابقت الأعداد الكثيرة من الناس للجماعة كما تتسابق للحزب السياسي الذي يضمن الظهور والوظائف والشفوف على الأقران. وحملت هذه «الجماهير» المنحرفة

القصد والصدق معها أساليب العمل السياسي واستعجاله وعنفه.

وفي هذا الصدد فإن لجماعة رجال التبليغ المنعة التامة من الانحراف عن الصدق لأنها قائمة على الواجب لا على المطالبة. والتربية عند هذه الجماعة تتم عبر الجهاد الشديد والعمل الجاد والصبر على الأسفار والأتعاب وأذى الناس. وهذا لا يقدر عليه إلا الصادقون. وكل جماعة دعوة تقوم على المطالبة تتعرض للتسرب المنافق كائنة ما كانت تربيتها وصحبتها ومبادئها. ولم يكن للمنافقين أثر في صفوف صحابة النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان المسلمون أقلية مضطهدة بمكة. إنما تكاثروا عندما أصبح للمسلمين شوكة وصولة ومغانم وشفوف. والذين دخلوا في دين الله أفواجا بعد الفتح لم تكن صفتهم البارزة هي الصدق في طلب الله وما عند الله، بل كان منهم الخائف والطامع، وكان منهم الوصولي والمرتزق.

4. البذل: يلح الشيخ البنا في وصاياه العشر على الصحبة ودوام الصلة بالجماعة وعلى الذكر والمحبة للإخوان واستماع نصيحة من لهم واجب النصيحة. ولا نجده يحث على البذل مثلما يحث أبو الأعلى المودودي. أما رجال التبليغ فمن مبادئهم الأولى أن يسافر المبلغ على نفقته وألا يقبل معاونة من أحد أيا كان. والمنهاج النبوي يجعل الإيمان رهنا بالعطاء والبذل، بذل المال أولا والنفس ثانيا، وبدون البذل والعطاء لا يكون إيمانا. ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا**

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الحجرات، 15.

يجعل الشيخ البنا من المنجيات العشر تشجيع المشاريع الوطنية، ويتحدث عن البركة التي يضعها الله في قروض الجماعة. ثم إن الجماعة أسست مساجد ومدارس ومستوصفات، وكان لها نفقات كثيرة. فقد كان بذل ولا ريب، كما هو الشأن عند المودودي، وتحتاج هذه الخصلة إلى إشارة خاصة لأن من الناس من يقف عند وهم شائع أن الدعوة الصادقة لا تمس الدرهم. وليس غلط أفدح من هذا، وإن الاطلاع على أحوال الرسول وصحبه تبرز لك أن الناس إنما كانوا يتفاضلون، وإنما كان إيمانهم يتجلى بوضوح على قدر بذلهم لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وما حث الله في القرآن، بعد الذكر، ما حث على النفقة والبذل.

وإذا كان الغرض من التربية الإسلامية، التربية الروحية والعملية والعقلية، أن تذوب أنانية الفرد ويذهب انطواؤه على مصالحه وشهواته، فإن أقرب الوسائل وأنجعها لمعرفة درجة إيمانه اختباره في بذل ما يملك. فإن كان شحيحا بدرهمه على الجماعة فإنه لا يزال مع نفسه وهواها، ولا يكون شحا إيثار المسلم أهله ومن تحت كفالته بالضروريات الواجبات ولا بما يصلح به أمر معاشه. ومن وصايا السيد البنا لمريديه أن يستصلحوا أموالهم ويتحاشوا الوظائف

الحكومية ما أمكن، وأن يجمعوا المال في مشاريع خاصة بالإخوان، وكان للسادة السنوسيين اهتمام كثير بالتجارة، وكان على كل مريد أن يسعى ليحصل على المال الكثير. وهذا كله فهم سليم لمقتضيات الدعوة إلى الله، وإذا كانوا يقولون أن عصب كل حركة هو المال، فإن المال الذي يبذله عضو الجماعة المسلمة، جماعة الدعوة، يؤدي هذا الوظيف ومعه وظيف تربوي سام. قال تعالى: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾ التوبة، 103، وسواء كانت هذه الصدقة الزكاة الواجبة، أو البذل الواسع الكريم فالمال مطية المؤمن للبر، وصدق ربنا حيث نصحنا : ﴿**لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ آل عمران، 92.

5 العلم: رأينا كيف يجعل السيد الندوي الوعظ المقروء والمسموع والتبليغ بكل الوسائل العصرية طريقا للدعوة. أما السيد المودودي فيهتم اهتماما خاصا بنقل علوم الحكمة إلى البلاد الإسلامية ويوصي بإعادة صياغتها صياغة إسلامية. ويتفق الإخوان المسلمون والباكستانيون من جماعة المودودي على وجوب الدرس والتعلم لكل عضو من أعضاء الجماعة. ولا نجد لرجال التبليغ أثرا في هذا الميدان ما عدا كتاب الشيخ القيم عن حياة الصحابة. ولا يخفى على كل مسلم أن العلم واكتسابه واجب بالضرورة على كل مسلم ومسلمة كما ينص الحديث. والمنهاج النبوي يقتضي اكتساب علم الشريعة أولا، علم ما فرض الله عليك وما حرم، وعلم السنة وحياة النبي

والأصحاب، ثم علم الحكمة الدنيوي، وفي حالة تخلف المسلمين وتنكرهم للدين، يعد اكتساب العلم بأنواعه وإدخاله في حيز التطبيق جهادا في سبيل الله. وهنالك علم ذوقي غير مكتسب يهبه الله لمن خشيه وجاهد في ذكره وسبح اسمه، وهذا لا يد للإنسان في نيله، إنما هو هبة لدنية تخص صاحبها ولا تعم الجماعة.

6. العمل: رجال التبليغ ينحصر عملهم في تبليغ الإسلام لأهله الغافلين عنه أولا ثم لأهل الملل. أما العمل عند رجال الدعوتين الأخريين، فيشمل العلم والثقافة والاقتصاد وكل مظاهر الحياة كما يشمل التربية العملية والروحية والخلقية. ومنهج العمل عند الإخوان المسلمين ونتائجه أوضح وأبعد أثرا منه عند غيرهم. إن عمل الجماعتين يهدف إلى نبذ الحياة الجاهلية ومقاطعتها وإحلال الإسلام محله في دنيا العمل، في المسجد والسوق والبنك. وتذهب هذه المقاطعة عند المودودي إلى مقاطعة المحاكم الوضعية وإن كان ذلك يؤدي لضياع حقوق المؤمن. ويوصي البنا بمقاطعة البضائع الأجنبية والأعياد الأجنبية والتقاليد الغربية.

7. السمت: رجال التبليغ رجال السنة، عملهم كله من قيام وقعود ونوم وأكل وتعبد ومشي يسير طبقا للسمت النبوي. وهم في هذا لا يجارون. أما السمت الجماعي، سمت العمل، كما عرفناه في الجزء الأول من هذا الكتاب، وهو استبدال أساليب

السياسة ووسائلها ومظاهرها بسمت إسلامي قائم على مبايعة القيادة الجهادية وعلى جدية العمل في المسجد بهيبته وجلاله وقدسيته، وبما يليق بكل هذا من هدوء وطمأنينة ومنابذة للسياسة كما يفهمها المحترفون، فكل ذلك بقي وصايا لم تنفذ. فالسيد البنا يوصي بفك الأحزاب السياسية، ويسمي السيد المودودي مشاركته في تسابق الأحزاب على صناديق الانتخاب «حكمة عملية». لكن الجماعتين لم تستطيعا أن تتجاوزا السياسة إلى سمت إسلامي لأنهما لم تجدا قيادة جهادية، آمنت بضرورة هذه القيادة أو لم تؤمن، ولعل سعي الشيخ البنا للقاء فاروق ويأسه منه أرجعاه إلى ميدان المطالبة بالتغيير ومنازلة الخصوم السياسيين في الجرائد والمظاهرات.

8. التؤدة: لو قدر لك أن ترى جماعة من رجال التبليغ، وقد يتاح لك ذلك بسهولة فهم رضي الله عنهم في كل مكان، لرأيت عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. الصبر هم رجاله والتحمل والأناة قوتهم والدأب على العمل ديدنهم. والسيد المودودي يوصي بعدم العنف ويوصي بالصبر، وما دخل حلبة السباق على الأصوات بالأسلوب السياسي إلا تفاديا للعنف. هذا ما أظنه والله أعلم. أما الإخوان المسلمون، لهف نفسي عليهم، لهف نفسي على شباب طاهر، على أيد متوضئة وقلوب يملأها الإيمان، فقد طحنها العنف في مواجهتها

الباسلة للجاهلية المترفة، جاهلية الحكم العاتي، اغتال فاروق الشيخ فأثار غيظ جماعة ممن كانوا يحملون السلاح. وأفلت مع استشهاد الشيخ رحمه الله زمام القيادة من يد ضعفاء الرجال ممن خلفوه. ولعل في كلام الشيخ رحمه الله بذرة هذا العنف، فإنه هدد في خطبة المؤتمر الخامس أن يغزو كل جبار عنيد متى توفر له إثنا عشر ألف رجل. وبظهور العنف استفحلت الفتنة، ونجد لها صدى في عنف القول عند السيد الجليل سيد قطب وأخيه محمد قطب ومن تبعهما.

9. الاقتصاد: الاقتصاد في معنييه كما شرحنا في الجزء الأول من هذا الكتاب: اقتصاد النفقة والتقلل من المتاع وعموم الرخاء، والصمود إلى القصد وعدم الانحراف عن الهدف. أما التقلل فهو أحد الميزات الظاهرة لرجال التبليغ، ويبلغ بهم التقلل درجة التقشف. ونجد في الطرف الثاني بعض الإخوان المسلمين يرون أن رجل الدعوة ينبغي أن يكون له سمت كريم وحياة مادية كريمة. رجل التبليغ يلبس الخلق من الثياب تشبها بالرسول وصحبه، ويتقلل في طعامه ونفقاته بما يشبه مجاهدة الصوفية الأولين. ولعل التوسط في مثل هذه الأمور أجدى وأنفع للدعوة. وعامة الناس لا يقبلون على داع يريد لهم من أول الأمر ما اختاره لنفسه من شظف العيش. واستثمار الأموال كان أحد أهداف جماعة الإخوان المسلمين، استثمارا

إسلاميا خاليا من الربا يعطي العامل حقه موفورا. وقد نجحوا في ذلك نجاحا ملحوظا.

أما سلوك الطريق بقصد، أما معالجة القصد ورصده لئلا تزيغ الدعوة عن هدفها، فلا نظن أن من نتحدث عنهم من الرجال يغفل عن ذلك. وهم صادقون وهبوا حياتهم لله، إنما يتعسر الاقتصاد بهذا المعنى لوجود عناصر لما تكتمل تربيتها ونضجها بين الصفوف، وحتى في مراتب القيادة. فربما يغلب عندئذ الأسلوب السياسي الاضطرابي، ويضيع السمت وتذهب التؤدة ويحل محلها العنف. وهذا خطر يهدد كل دعوة تتفتح للجماهير الكثيرة بسرعة وبدون اختبار المرشحين للعضوية وابتلائهم. وقد يفرح رجال الدعوة بوافد له علم أو جاه أو مال أو مهارة فيرفعونه فوق قدره، وهو ضعيف الهمة خابي الروحانية، ومن مثل هذا يتسرب الانحراف، سيما إن أعطيته مقاليد التربية والتوجيه. وراجع تاريخ الإخوان المسلمين بعد وفاة الشيخ فإنك واجد أن كبوتهم ترجع إلى ما ذكرنا.

10. الجهاد: الجهاد عند السيد المودودي وسيلة نشر الإسلام، وهو جهاد السيف، وهو ماض إلى يوم القيامة. وعند الإخوان المسلمين مثل هذا التصور، وإن كانت الدعوة تتخذ شكلا جهاديا آخر، كما يقول سيد قطب، فإنما تفعل ذلك لمقتضيات الحال،

استراتيجية مرحلية، حتى إذا قويت الجماعة وملكت الوسائل فبالقوة تضرب كل مارد جبار، وبها تزيل العراقيل أمام الدعوة المبشرة الهادية. أما رجال التبليغ فإن وضعهم داخل بلد وثني حتم عليهم جهادا من نوع خاص، جهاد ضرب المثل بالصبر والتقلل والسير في رحاب الأرض لحمل الرسالة. ومن مبادئهم ترك ما لا يعني. فهم بهذا وديعون في جهادهم لا يرون في آفاقهم إمكان قتال، ومع هذا فهم في الجهاد الأكبر.

ويتحدث الشيخ رحمه الله عن الجهاد في رسالة خاصة، ويضيف فيها الحديث الذي رواه البيهقي ويقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر». فالجهاد عند الإخوان جهاد سلاح قبل كل شيء. ولا شك أن الأمر كذلك إن دهم العدو بلاد المسلمين. وقد برهن شباب الإخوان في حرب فلسطين عن فعاليتهم أمام العدو، وعن قوة إيمانهم.

لكننا ننظر في المنهاج النبوي فنقرأ وصية الرسول صلى الله عليه وسلم لنا ألا نعنف في زمان الفتنة ولا في أي زمان على المسلمين ولو فسقوا، وأن نسمع ونطيع ولو ولي عبد حبشي ما أقام الصلاة. والدعوة موجهة قبل كل أحد إلى الغافلين من المسلمين. فجهادنا بينهم جهاد قيام بالقسط، جهاد تمثيل للإسلام وقيمه وسمته وتؤدته، ولا نجد هذا التقسيم عند السادة رجال الدعوة.

فهم يجاهدون الأحمر والأبيض، العدو الخارجي والداخلي، ولعل هذا ناشئ عن تكفير الحكام الذين نبذوا شرع الله وحكموا بالطاغوت. وهؤلاء إن أقاموا الصلاة، قوم جائرون، ورسولنا يحذرنا من حمل السيف على السلطان ولو جار.

ونجد أثر هذا العنف، عنف القول عند مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، عنف العمل عند أتباعه من بعده، على شكل فتنة طاشت معها الأحلام، ونزل فيها بعض علماء الأزهر منازل الطغام، فقد كتبوا يكفرون الإخوان المسلمين ويصفونهم ويسمونهم أبشع الأسامي، ومن يكون، ويحكم، مسلما إن لم يكن الإخوان المسملون؟ ثم إن الإخوان ينفون عن أنفسهم كل التهم وهم محقون في ذلك فإن من تربى تربية إسلامية كاملة، روحا وعقلا وعملا، خليق ألا يحمل السلاح على أخيه المسلم ولو جار. ومن حملوا السلاح فتية جاؤوا بعنفهم، واندسوا بين الصفوف ولم يستسلموا للتربية ولا انضبطوا بنظامها، أما عنف القول عند سيد قطب، فهو جهد الصادق في اجتهاده، هكذا يعتقد وله عند الله أجر المجتهدين.

أما بعد فإن خصالنا العشر تكون منهاج تربية داخل الجماعة، وهي في نفس الوقت منهاج عمل شامل لأمة منبعثة عزم الله لها أن تنبذ لباس الجاهلية وتتحلى بحلة الإسلام. إنه المنهاج النبوي

الخالد على الصحبة والجماعة والذكر. إنه المنهاج النبوي كما عاشه الرسول وصحبه، يكمله وصاياه صلى الله عليه وسلم الخاصة بزمن الفتنة.

وقوامه الصحبة الصوفية بشروطها كأساس ومنطق. وثنائية الدعوة والقيادة الجهادية، وتحرير العقل بالذكر والتزكي، وتحرير الإرادة وتعبئتها بالمبايعة بين ذوي الذمم الصادقين. ويتلو ذلك العمل على علم وبصيرة والجهاد ببذل النفس والنفيس والسمت والتؤدة والاقتصاد، المنهاج النبوي ليس منهاج عنف ولا انحراف، إنه منهاج القيام بالقسط، ومن قام بالقسط، خاصة بين الغافلين، كان في منازل الشهداء والصديقين، قال تعالى: ﴿**شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ**﴾ آل عمران، 18. فأولوا العلم القائمون بالقسط يحملون شهادة التوحيد مع الله وملائكته ورسله.

وملاك الأمر في منهاج التربية، ولا تربية بدون طاعة. ويدرك هذا بالتجربة من مارس الدعوة. فلذلك تكون المبايعة شرطا حاكما في كل دعوة، وشرطا حاكما في الانبعاث الإسلامي الذي يريد أن ينتقل من مخاتلات المنهج السياسي إلى السمت الإسلامي، إلى العمل الجاد، إلى التعبئة والقوة لئلا تأكلنا الانقلابية، ولئلا نزداد فضيحة بين الأمم، وإنه الإسلام أو الطوفان!

التجربة الشخصية

يبحث المسلمون عن إسلامهم الضائع، ويبذلون في البحث جهودا ضائعة، بعضهم يراه قومية وعصبية، ووقد برهنت مأساة باكستان على أن الإسلام ليس قومية ولا وحدة فكرية كما يعبر الأستاذ المودودي، وبعضهم يراه أصالة وخصائص نوعية ولونا فلكلوريا يكسب صاحبه شخصية مميزة وانتماء حضاريا وثقافيا لكيان إسلامي تاريخي غامض.

وليس الإسلام شيئا من كل هذا، إنه عند الفرد تجربة شخصية واكتشاف للنفس وغوامض الوجود بما تيسره هذه التجربة الشخصية، متى توفرت ظروفها، من الالتقاء بعالم الغيب، وهو للأمة حياة وقوة إن استجابت لداعي ربها وقام فيها جماعة تربط بينهم أواصر الولاية والمحبة والتآزر وتشد همتها مبايعة لقيادة جهادية مؤمنة، الإسلام حياة ووعد صادق بالسعادة في الدارين وبالنصر والتمكن في الأرض لمن نصر الله ورسوله وجاهد بماله ونفسه في سبيل الله، إنه عزة لله ورسوله والمؤمنين.

ويتوقف الانبعاث الإسلامي على التجربة الشخصية، على الممارسة الفردية والاكتشاف الفردي لحقيقة الوجود، وهذه التجربة لا يقوم مقامها الإخبار ولا الوعظ، ولا تمكن إلا مع الصحبة، وأول

صفات الجيل الأول من هذه الأمة أنهم صحابة، وكان إيمانهم قويا بلغ درجة اليقين لأنهم صحبوا المعصوم صلى الله عليه وسلم، وانكشف لهم ببركة محبته سر وجودهم ووجود العالم، فأصبحت قلوبهم هشة خاشعة تسمع كلام الله فتتدبر وتأتمر، وجاء يقينهم من الالتقاء بالغيب حين ذكروا الله في حضرة رسوله، شهدوا معجزاته الكثيرة صلى الله عليه وسلم، وشهدوا الملائكة في غزوة بدر تحارب بإزائهم، وأخبرهم الرسول وأخبرهم ربهم في قرآنه بوجود الجن واستماعهم للقرآن، وكان منهم ذوو كرامات وخرق عادات، ومن خرقت له عادات هذا العالم الحسي، عالم الأسباب الظاهرة، علم علم اليقين أن وراء الحس عوالم كثيرة، وتيقن بوجود الجنة والنار ووجود ما أخبرنا الله به من عوالم غيبه، وبهذا يتحرر عقله ويتم استعداده لبذل نفسه في سبيل الله تعرضا لموعود الله الذي لا يتخلف.

التجربة الشخصية، متى توفرت الصحبة الصادقة، الصاحب الصادق وكان الطالب راغبا صادقا، هي تجربة علمية تتحدى الجاهلية الكافرة بما وراء الحس المفتونة بالظواهر التي لا تخضع للمنظومات العلمية العقلانية. هذه التجربة الشخصية نعرض نماذج منها في حياة الرسول وصحبه، وفي شهادات رجال الله الذين سماهم الله أولياءه وسماهم الرسول صلى الله عليه وسلم أهل الله وخاصته وسماهم الناس صوفية، وإن كان المتصوفة المحترفون لابسو الخرق والمرقعات

تظاهرا، وكاتبو التمائم ارتزاقا، أصحاب الصخب والتعصب أعطوا للمسلمين نماذج سلبية عمت عليهم الحق حتى ضللوا وكفروا كثيرا من أهل الله، وحتى نفوا إمكان هذه التجربة الشخصية التي ترفع المريد من إسلامه الظاهر إلى مقام الإيمان وحلاوته إلى مراتب الإحسان.

الرسول الكريم وصحبه: من المعلوم بالضرورة أن الرسل عليهم السلام بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وتجري عليهم أسباب المعاش والحياة. لكن لهم أيضا طاقة يجعلها الله لهم برهانا وحجة، فلموسى عليه السلام عصاه تلقف ما يأفك الساحرون، ولعيسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم معجزات لا تكاد تحصى، وأكبرها هذا القرآن المعجز وهذه الشخصية المتزنة الجاذبة، وهذه الطاقة الخفية التي تفعل فعلها في القلوب، وسماها الكفرة في كل زمان ومكان سحرا وجنونا، ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ**﴾ الذاريات،52-53.

1. «هَمَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **أفضالة ؟** قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: **ماذا كنت تحدث به نفسك ؟** قال : لا شيء، كنت أذكر الله، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم،

ثم قال : **استغفر الله**، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده على صدري حتى ما خلق الله شيئا أحب إلي منه، قال فضالة : فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت : هلم إلى الحديث، فقلت يأبى الله علي والإسلام»[1].

مثل هذه القصة كثير جدا في حياة الرسول الكريم، تأمل اتصال الغيب وتأييد الله الخفي لنبيه في القصة، علم الرسول ما بقلب الرجل، وهذا سماه الصوفية كشفا، وهو لصالحي الأمة وراثة نبوية، وأمر الرسول فضالة أن يستغفر الله، ويسمي الصوفية هذا إذنا في الذكر، ونتج عن لمس الرسول صدر فضالة تحول في اللحظة نفسها من الكراهية إلى المحبة، ومن النفاق إلى الإيمان، وإيمانه حول سلوكه فأعرض عن المرأة، هكذا بصحبة الرسول ومجالسته ومخالطته تم تحويل جيل الصحابة، ومن الناس من يعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ناقلا للوحي كساعي البريد، وينفرون منه صلى الله عليه وسلم ويعدون مشركا من توسل به إلى الله، وهؤلاء قوم سفهاء يندسون في صفوف المسلمين ويدعون تارة الانتساب إلى السلفية وتارة إلى السنة الطاهرة، والسنة بريئة منهم والإسلام، كيف لا والله تعالى صلى على نبيه وملائكته وأمرنا بالصلاة عليه، وهو تعالى جعل محبته خاصة

1 زاد المعاد.

لمن أحب رسوله واتبعه وآزره وعزره، ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ آل عمران،31، فليس سنيا ولا مؤمنا من لايحب رسول الله، وإن امتاز الصوفية المحسنون بشيء فبمحبتهم لله ورسوله ولهجهم بالصلاة على الهادي البشير كلهجهم بذكر ربهم، وانظر رحمك الله في القصة التالية أين بلغت عند الصحابة محبتهم لرسول الله وكيف آثروه على النفس والأهل.

2. روى البخاري عن ابن جرير عن ابن زيد قال : «دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عبد الله بن أبي قال : **ألا ترى ما يقول أبوك**؟ قال : ما يقول بأبي أنت وأمي، قال : يقول: **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل**، فقال : صدق والله يا رسول الله، أنت والله الأعزُّ وهو الأذل، أما والله لقد قدمت المدينة وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر مني، ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيتهما به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **لا**. فلما قدموا المدينة قام عبد الله بن عبد الله على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال : أنت القائل : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لا يأويك ظله ولا تأويه أبدا إلا بإذن من الله ورسوله، فقال : يا

للخزرج، ابني يمنعني بيتي، يا للخزرج ابني يمنعني بيتي، فقال : والله لا يأويه أبدا إلا بإذن منه، فاجتمع إليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخله إلا بإذن من الله ورسوله، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال : **اذهبوا إليه فقولوا له : خله ومسكنه!** فأتوه فقال : أما إذا جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم».

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم هجروا من بيوتهم وفارقوا الأهل والولد والمال، وتحولوا خلقا جديدا بفضل الصحبة، وظهر لهم في حياتهم وفي أنفسهم آيات، كما ظهرت على يد الرسول آيات، وهاك بعض كرامات الصحابة.

3. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : «لما حضرت أحد دعاني أبي من الليل فقال: ما أُراني إلا مقتولا في أول من يقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وإني لا أترك بعدي أعز علي منك ومن نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن علي دينا فاقضه واستوص بأخواتك خيرا، فأصبحنا فكان أول قتيل، ودفنت معه آخر في قبره، ثم لم تطب نفسي أن أتركه مع آخر، فاستخرجته بعد ستة أشهر فإذا هو كيوم وضعته غير أذنه، فجعلته في قبر على حدة» أولياء الله لا يأكلهم التراب وإن لهم لإلهاما من الله صادقا.

4. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن**

يك في أُمتي أحد فإنه عمر، رواه البخاري ومسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيء قط: إنه لأظنه كذا إلا كان كما يظن. رواه البخاري.

ونقل التاريخ أن الإمام عمر كان في خطبة بالمسجد فصاح فجأة : يا سارية الجبل الجبل، وكان سارية في جيش أحاط به العدو، فسمع كلمة عمر على بعد المسافة وتسلق وجيشه الجبل فنجوا.

وكرامات الصحابة وأهل الله في كل زمان كثيرة، وليست مقصودة في ذاتها لأن خرق العادة قد يحدث استدراجا من الله على يد مشرك، وإنما هي تأييد منه سبحانه، قال تعالى ﴿**بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ**﴾ آل عمران، 125-126، وإلا فالجهاد والعمل يطلبه الله منا برهانا على صدقنا وبعملنا نكتسب رضاءه عز وجل، وعندما التفت المسلمون إلى الكرامات ووقفوا عندها يعيشون مع مناقب الأولياء ويعرضون عن الجهد والبذل والعمل ذهبت ريحهم لانحرافهم عن القصد، وكل لقاء بالغيب لا يرد الإنسان إلى العمل الصالح، إلى السعي الدائب لنصر الله ورسوله، فهو مضيعة للوقت وتفويت لفرص النجاح.

وقد يقول القائل إن الصحبة لا تتجدد وهي للأنبياء والرسل

خاصة، وجوابنا في قوله تعالى: ﴿**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾ الرعد، 7 وفي وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**» فأرسلك لتبحث عن خليل مؤمن، ونجد في كلام الإمام علي كلمة الهادي كما جاءت في القرآن، ونجده كرم الله وجهه يجعل النجاة في صحبة الهادي والاعتصام به، يقول[1] : «رحم الله عبدا سمع فوعى، ودعي إلى الرشاد فدنا، وأخذ بحجزة هاد فنجا» وقد كان رضي الله عنه رجل دعوة، فانظر : كيف رتب مراحل الدعوة من الاستماع الواعي إلى الدنو من الداعي إلى النجاة بالتمسك بقوة بالهادي، ومن أمسكته بحجزته فقد تعلقت به تعلقا كاملا.

ما هي الصحبة المتجددة، وكيف تتجدد التجربة الشخصية الروحية وما هي نتائجها ؟ أسئلة جوابها في شهادات أولياء الله الذين خبروا السلوك الصوفي وعلمونا الطريق.

المتبوع المقدم: لعل أهم تجربة شخصية ترك لنا صاحبها وصفا كاملا لمراحلها هي تجربة أبي حامد الغزالي، في كتابه «المنقذ من الضلال» عرض علينا أزمته النفسية وتخبطه مع مذاهب عصره حتى يئس منها جميعا، كان يطلب الحقيقة فلم يعثر عليها إلا في التجربة الشخصية على المنهاج النبوي، وجدها في الصحبة

---

1 «زهر الآداب»، ج 1، ص 41.

والمبايعة والذكر، وجدها عند أهل الطريق، أهل المنهاج النبوي والمحجة البيضاء، يقول رحمه الله.

«ثم إني لما فرغت من هذه العلوم (كل المذاهب العقلية والنقلية) أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، وحتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله».

ثم يصف لنا صراعه مع نفسه، وقد كان عالم بغداد وحجة أساتذها وما يطلبه من الحق يقتضي صحبة لابد أن يخرج لطلبها، يقول[1] : «فلم أزل أفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوما، وأقدم فيه رجلا، وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي : «الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟

1 المنقذ من الضلال.

وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع ؟» فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول : «هذه حالة عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإذا أعرضت عنها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة».

ولم يزل رجل الهمة التواقة في نزاع مع نفسه وهواها حتى مرض مرضا شديدا يئس الأطباء من علاجه فلجأ إلى الله تعالى فأيده في طلبه، وخرج من بغداد حتى لقي شيخه، وسماه متبوعا مقدما، يقول[1] : «فمن كان لله كان الله له، حتى أنه في الوقت الذي صدقت فيه رغبتي لسلوك هذه الطريق، شاورت متبوعا مقدما من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن (تأمل حجة الاسلام عالم بغداد الأكبر بدون منافس يرجع إلى شيخه فيما يظهر أنه أمر واضح لا غبار عليه، لكن من يئس من نفسه وسمت همته إلى الله وعرف مكان السادة المشايخ الصادقين لا يسعه إلا أن يسلم لهم القياد، فهم أطباء نفسانيون يعلمون أمراض النفوس ومخابئ هواها)، فمنعني وقال : السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية

1 «ميزان العمل» دار المعارف ص 222.

بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال ووطن وعلم وولاية، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجودها وعدمها، ثم تخلو بنفسك في زاوية تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، مجموع الهم، مقبلا بذكرك على الله تعالى، وذلك في أول الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر الله تعالى، فلا تزال تقول: الله، الله، مع حضور القلب وإدراكه، إلى أن تنتهي إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، لكثرة اعتياده، ثم تصير مواظبا على الذكر من غير حركة اللسان، ثم تواظب إلى أن لايبقى في قلبك إلا معنى اللفظ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيآت الكلمة، بل يبقى المعنى المجرد، حاضرا في قلبك على اللزوم والدوام».

هكذا أذن له شيخه ونظم له أذكاره وأوراده، وعندما يقرأ بعض المغفلين مثل هذا يظنون أن السر في الكيفية فيعكفون في زاوية يذكرون كما كان يذكر الغزالي، والنتيجة أن مثل هؤلاء يجنون من حيث فاز الغزالي وأدرك مناه، وفرق ما بينهما أن الغزالي أخذ الإذن من شيخه وهم أخذوا الكيفية من الأوراق، إنما السر في إذن الشيخ المأذون حامل السر، ومن علامات الشيخ المأذون أن يأذن في الاسم المفرد «الله» دون أن يحصر العدد، فإن بذكر

الاسم الجامع يقع الفتح للمريد، ومن ذكر الاسم الجامع بلا إذن وأكثر منه أو ذكر بإذن من لا إذن عنده جن، هذه تجربة معهودة، ولا تحاول أن تتحداها، وقد رأينا من تحدى ذلك فأصبح عبرة للمعتبرين، ثم إن الخلوة، هذه العزلة الجسدية تمكن المريد من جمع همته على الذكر، فإن أمر بها الشيخ كانت هي الدواء، وإن اختارها المريد الحر فلن يجد فيها إلا مشقة وبلاء، وقراءة الأوراق والأخذ عنها مزلقة خطرة لطب التزكية، وفي خضوع الغزالي لمتبوعه المقدم الذي رده من اجتهاده في المواظبة على التلاوة إلى الذكر حتى يؤتى الإيمان، وقد أخبرنا سيدنا عبد الله بن عمر أنهم كانوا على عهد الرسول يؤتون الإيمان قبل القرآن.

ولما أخذ الغزالي الإذن عكف على الذكر حتى فتح له، يقول[1]: «ثم دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة، اشتغالا بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما حصلته من علم الصوفية، فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طوال النهار، وأغلق بابها على نفسي... ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره ينتفع به، إني

1 المنقذ من الضلال.

علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلون بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».

هذه هي الشهادة التي أداها هذا الرجل الذي علمه الله من لدنه علما، وهي في غاية الوضوح والبساطة والقوة والصدق، لذلك نجد كثيرا من الناس يختارون، إن لزم الاختيار، تصوف الغزالي على تصوف غيره، وهم لو علموا لتبين لهم أن الطريق واحدة هي طريق القوم بالاصطلاح المتأخر، وهي المنهاج النبوي المبني أولا على الصحبة، وإن كان بعض أهل الله يعبر عن تجربته تعبيرا مخالفا لتعبير الغزالي فليس معنى ذلك أن السلوك الإيماني الإحساني المسمى صوفيا أصناف، بل هو ألوان ودرجات، وقد قرأت للفاضل المؤمن السيد علي الطنطاوي مقالا يفضل فيه تصوف الغزالي على تصوف الشعراني وابن عزيز، وتجد عالما جليلا مثل السيد رشيد رضا يتتلمذ للغزالي زمانا ثم يرجع عنه إلى ظاهر الشرع مع

الشيخ ابن تيمية، ويعذر من لم يجد شيخا يربيه ويأذن له إن لم يعلم أن القوم رضي الله عنهم يستقون من معين واحد ولو اختلفت المشارب، ويعذر إن وجد في كلامهم ما يكفرهم عليه الناس، وهم رضي الله عنهم إنما يعبرون عن تجربتهم بصدق، وإن قال أحدهم ما لا يسعه القول وظهر من لفظه ما لا تتحمله حويصلة الضعفاء من الرجال فكلامهم لا يعدو الإخبار عما أخبر الله به في الحديث القدسي المتواتر: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها**».

ولئن قال الحلاج قولته فذلك لضعفه عن الكتمان، وقد قال مولانا عبد القادر الجيلي: «لو أدركت الحلاج لأخذت بيده» وقالها بعده غيره من الفحول.

أما فتح الغزالي فيتحدث عنه ببعض التفصيل منثورا في كتبه، ويفيدنا الغزالي أيضا في دفع المتصوفة المحترفين الموجودين في كل زمان ومكان، ويكفي أن يكون لأهل الله أوليائه حظوة عند الناس ليسعى كل من هب ودب يحاكيهم ويلبس الخرق ويفتعل الأحوال، وانظر باب الرياء في كتاب الغزالي: «كتاب الأربعين في أصول الدين» فإنك تجد وصفا للمرائين الدجالين من أدعياء التصوف.

طريق الوصول: كتب ولي الله تعالى الإمام الشعراني كتبا كثيرة أهمها كتابه «لطائف المنن» فيه يذكر حياته ومجاهدته وأحواله، ويقرأ اليوم بعض الناس مثل هذا الكتاب فلا يرون إلا خرافات وعقلية متخلفة عامية، لأن الإمام الشيخ رضي الله عنه يحدث عن لقائه للجن وعن كراماته وكرامات غيره من الأولياء، ويصف لقاءه لظَلَمة المماليك يشفع عندهم للمظلومين، ويصف مجالس الذكر وتربية المريدين وطبقة أدعياء السلوك من المتمشيخين. والمستشرقون يقرأون هذا فلا يرون ولا يرى تلامذتهم إلا خليطا من الثرثرة البليدة، وهيهات أن يشم رائحة المسك ويتمتع بشذاه خنافس العقلانية الجاهلية.

وحين يذكر الشيخ والأخذ عنه وضرورة الصحبة لمن أراد سلوك الطريق يزعق بعضهم ويدعي أن ذلك بدعة ومنكر، ويأتي هذا القول خاصة من الذين يعتبرون الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ساعي بريد، ويأتي من أمثالهم المفتونين. والشعراني في كتبه ينصحك إن أردت التخلق بما يصفه لك من الفضل والفضائل أن تصحب شيخا مربيا عارفا، ويكرر رحمه الله النصيحة لا يمل، وجزاه الله عن المسلمين خيرا، ويقول في كتابه «الميزان الكبرى»[1] :

«فصل: إن قال قائل كيف الوصول إلى الاطلاع على عين

1 الطبعة 1، ص 20.

الشريعة المطهرة التي يشهد الإنسان اعتراف جميع المجتهدين مذاهبهم منها ويشهد تساويها كلها في الصحة كشفا ويقينا لا إيمانا وتسليما فقط وظنا وتخمينا، فالجواب: طريق الوصول إلى ذلك هو السلوك على يد شيخ عارف بميزان كل حركة وسكون، بشرط أن يسلمه نفسه يتصرف فيها وفي أموالها وعيالها كيف شاء، مع انشراح قلب المريد لذلك كل الانشراح».

وتسليم النفس للشيخ شيء تأباه النفس وتنفر منه، وارجع إلى أزمة الغزالي انظر كيف سلم نفسه لمتبوعه المقدم، وقد أجمع القوم رضي الله عنهم على أن من لا شيخ له لا يشم رائحة السلوك، نعم هنالك المجاذيب الذين تجذبهم الحضرة الإلهية مباشرة، وهؤلاء يرفع عنهم التكليف ولا ينتفع بهم، يقول الشعراني [1]:

«فإن قلت فما حكم من أكل الحلال وترك المعاصي وسلك بنفسه من غير شيخ، فهل يصل إلى هذا المقام من الوقوف على العين الأولى للشريعة؟ فالجواب: لا يصح لعبد الوصول إلى المقامات العالية إلا بأحد أمرين، إما بالجذب الإلهي وإما بالسلوك على يد الأشياخ الصادقين».

المدد الفائض : وأهم من معرفة ضرورة الشيخ واتباعه، معرفة من يصحب، أيصحب أولياء الله الذين في القبور؟ أيتم

---

1 نفس المصدر، ص 21

السلوك بالاتصال بروحانيتهم؟ وهل يمكن هذا الاتصال؟ ثم إن من طبع البشر الاعتراف بالموتى، والاعتراف بالولاية واختصاص الله بفضله من يشاء، فإذا أشرت إلى شخص بعينه حي يسعى، وقفت النفس الأمارة بالسوء وأنكرت واستعلت. إن الاتصال بروحانية الأنبياء والأولياء يتيسر لمن فتح عليهم، لكن السلوك والتربية لا تتأتى أبدا إلا بصحبة الأحياء من أهل الله، ولنحدد ما عممناه، فإن صحبة شيخ واحد والاقتصار عليه شرط في طريق القوم، إلا إن أذن ذلك بصحبة غيره، والموتى بهذه المعنى لا يصحبون، ذلك ما يقوله ولي الله سيدي أحمد التجاني مكررا وصية تركها كل الأكابر لأتباعهم، لكن الأتباع يفضلون التبرك بصاحب القبر، وبذلك تكونت مذاهب وطرق، كل يقول: نحن صوفية. ولا ضير! إنما ينبغي أن نميز بين من له شيخ يربيه حين يسعى ويأمر وينهى، وبين من سكنت في قلبه محبة ولي راحل إلى الدار الآخرة، ومحبة أهل القبور من أولياء الله وأحبائه فضل يؤتيه الله من يشاء، لكنها محبة لا سلوك، قال الشيخ الأكبر سيدي أحمد التجاني[1]:

«قاعدة». اعلم أن الله سبحانه وتعالى جعل في سابق علمه ونفوذ مشيئته أن المدد الواصل إلى خلقه من فيض رحمته هو في كل عصر يجري مع الخاصة العليا من خلقه من النبيئين والصديقين،

1 جوهر المعاني ج 2 ص 100 طبعة 1382.

فمن فزع إلى أهل عصره الأحياء من ذوي الخاصة العليا وصحبهم واقتدى بهم واستمد منهم فاز بنيل المدد الفائض من الله، ومن أعرض عن أهل عصره مستغنيا بكلام من تقدمه من الأولياء الأموات طبع عليه بطابع الحرمان، وكان مثله كمن أعرض عن نبي زمانه وتشريعه مستغنيا بشرائع النبيئين الذين خلوا قبله، فيسجل عليه بطابع الكفر. والسلام. (يعني رضي الله عنه أن الولي الحي يمد مريده وأن الميت إنما يترك كلاما ووصية، وما جاء عن بعض أهل الله من تصرفهم أحياء وأمواتا لا ينصب على الإمداد والتربية أبدا)».

ثم يقول رضي الله عنه : «والدليل على أن الصحبة لا تكون إلا للحي قوله صلى الله عليه وسلم لأبي جحيفة رضي الله عنه : «سل العلماء وخالط الحكماء واصحب الكبراء»، فالعالم دلالته على الأمر العام أمرا ونهيا بما يوجب المدح عند الله وسقوط اللائمة عن العبد، ونهايته الجنة، والحكيم دلالته على التقرب إلى الله تعالى بالطهارة من أهوية النفوس ومتابعة الهوى، ونهايته منازل القربة. والكبير دلالته على الله من حيث محو النفس والبراءة من التدبير لها بكل ما يجلب المصلحة لها دنيا وأخرى، وبكل ما يدفع المضرة عنها دنيا وأخرى، ونهايته الله. ثم قال : يؤخذ من هذا أن الصحبة لا تكون إلا للحي، إذ الميت لا يصحب ولا يكلم ولا

يخالط. انتهى».

نكتب هذا نصيحة لمعاصرينا الباحثين عن الحقيقة، إن طرق القوم متعددة تتراوح بين المحترفين، ومنهم من له جوقات رقص تعرض ألعابها في عواصم أوربا، وبين تابعين أتقياء محافظين على أذكار مشايخهم، وللمستقيمين منهم عند ربهم خير الجزاء، لكن بغية الطالبين عند الشيخ العارف المأذون، وفي زماننا يرجع كثير من مفكرينا المسلمين إلى كتب القوم يستنطقونها، ويعييهم الطلب لأن سوق التصوف عامرة ملونة، فمن أين للطالب الغرير أن يعثر على الكبريت الأحمر والروح المطهر الذي يأخذ بيده إلى الله؟ ونحن نخبر الطالبين أن الذي يعز وجوده هو صدق الطلب من المريد، فإذا صح منه العزم وطرح عنه أوهانه، وجد بغيته، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الفتح الأكبر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤيدا بالمعجزات، والقرآن والحديث مليئان بأخبار الغيب، الجن والملائكة والآخرة والجنة والنار، وأول ما اتصل النبي صلى الله عليه وسلم بالغيب الرؤيا الصادقة، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل عند صلاة الصبح أصحابه من منهم رأى رؤيا فيؤولها له، وذكر الله في القرآن رؤيا الملك وتعبير يوسف لها، وقال في غزوة بدر : ﴿**إِذْ يُرِيكَهُمُ**

اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ﴾ الأنفال، 43، فجعل للرؤيا أهمية في الحياة العملية، وكان صلى الله عليه وسلم يحدث عما وقع لصالحي من كان قبله من الكرامات ويعرضها على أصحابه ليزدادوا إيمانا ويقينا، وهكذا حدثهم عن كرامة جريج الراهب وعن البقرة التي كلمت صاحبها حين ظلمها وحمل عليها وحدثهم عن الفتية الذين حصرتهم الصخرة في الكهف.

وأول فتح يقع للمريد في طريق القوم الرؤيا الصادقة، سنة الله في خلقه ووراثة نبوية للصادقين، وبعد ذلك يفتح الله لمن شاء بما شاء يقظة ومناما، ونهاية ذلك الفتح الأكبر، وبه يكمل السالك وتنجلي عنه الحجب.

ونورد هنا شهادة عبد من عباد الله أمي أو يكاد، يصف لنا ببساطة وصدق ما حدث له حين اصطفاه الله وقربه إليه فأبصر بنور الله وسمع بسمعه، يقول مولانا عبد العزيز الدباغ[1]:

«فلما بلغت باب الفتوح (باب من أبواب فاس) دخلتني قشعريرة ثم رعدة كثيرة، ثم جعل لحمي يتنمل كثيرا، فجعلت أمشي وأنا على ذلك، والحال يتزايد إلى أن بلغت إلى قبر سيدي يحيى بن علال نفعنا الله به وهو في طريق سيدي علي بن حرازم، فاشتد الحال وجعل صدري يضطرب اضطرابا عظيما حتى كانت

1 كتاب «الإبريز» طبعة محمد علي صبيح، ص 9.

ترقوتي تضرب لحيتي، فقلت: هذا هو الموت من غير شك! ثم خرج شيء من ذاتي شيء كأنه بخار الكسكاس (آنية طبخ)، ثم صارت ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل، ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي، فرأيت جميع القرى والمدن والمداشر، ورأيت كل ما في هذا البر، ورأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأيت جميع البحور، ورأيت الأرضين السبع كل ما فيهن من دواب ومخلوقات، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنا أنظر ما فيها، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة، فجاء ذلك النور من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي ومن أمامي ومن خلفي، وأصابني منه برد عظيم حتى ظننت أني مت، فبادرت ورقدت على وجهي لئلا أنظر إلى ذلك النور. فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيونا، العين تبصر والرأس تبصر والرجل تبصر، وجميع أعضائي تبصر. ونظرت إلى الثياب التي علي فوجدتها لا تحجب ذلك النظر الذي سرى في الذات، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حد سواء، ثم استمر الأمر علي ساعة ثم انقطع».

وبقية كتاب الإبريز تتمة للفتح وإخبار عن الغيوب وعن أنوار الذات ومعرفة الله وصحبة رسوله، ومن يقرأه من العامة العقلانيين يتوهم أن بالرجل خبالا أو يخرج لك واحدة من هذه

المصطلحات التي زودته بها العقلية التصنيفية الجاهلية لتحديد نوع المرض النفسي الذي يصاب به أولياء الله، وحاشا معاذ الله أن تنفذ البصائر المعمية إلى أسرار الله ولو عرضها عليهم صادق مسكين كسيدي عبد العزيز، نعم إنهم عندما يتلقون مثل هذه الشهادة من رجل فصيح القلم والجنان مثل سيدي محيي الدين بن عربي يستعظمون ما يقرأون ويعزون للرجل الصالح فلسفة وعبقرية فلسفية، لكن ما قولهم في الأمي الذي خرج من بيته يسعى في رزق أهله حتى أخذته قشعريرة وتنمل جسده كما يقول، وتلا ذلك علم لدني غزير فياض كالبحر حار في تفسيره جهابذة علماء زمانه وعلماء كل زمان، سيدي عيد العزيز حفظ في صغره حزب «سبح» فلما فتح الله عليه تتلمذ له العلماء وفسر لهم عويصات مسائلهم في الحديث والفقه وعلوم الشريعة الأخرى وعلوم الكون، وكانوا يقرأون عليه كلاما لا عهد له به فيقول: هذا قرآن، أو هذا حديث قدسي أو حديث صحيح أو مكذوب، وما في كتابه رضي الله عنه لا يحمل في صفحة، وإنما يرجع إليه من يطلبون الحقيقة حتى تكل أذهانهم، إن كان طلبهم صادقا، ويلتمسوا لأنفسهم شيخا يربيهم كما ربى عبد العزيز شيخه وكما ربى أولياء الله من صحبوهم من الأكابر.

طريقتنا الإسلام: الشيخ محمد عبده علم من أعلام الإسلام

في القرن الحاضر، تخرج من مدرسته رجال مثل السيد رشيد رضا حملوا راية الدعوة ودافعوا عن الإسلام بما كان لديهم من وسائل وعلى قدر اجتهادهم رحمهم الله، وللشيخ محمد عبده المزية الكبرى في زيادة الدعوة تغطي كل نقص ينسب إليه رحمه الله.

وكان لمحمد عبده تجربة شخصية، تجربة صوفية، في شبابه، وسأل شيخه أول اتصاله بالنورانية الإسلامية، ما طريقتكم؟ فأجابه أن طريقتنا الإسلام، وبمثل ذلك يجيب كل مؤمن حملوه أسماء وألقابا خلفها لنا التاريخ الإسلامي المليء بالفتن، والطرق الصوفية عديدة كثيرة، فتجد الصوفية يعرفون جماعتهم باسم الشيخ المؤسس، والصادقون منهم لا يعرفهم التعريف الكامل إلا أنهم مسلمون محمديون، أما المحترفون الزائغون فتقيدهم باسم خاص وعكوفهم على عادات وبدع يبتغون بها عرض الدنيا فتحجر ومهدية وعصبية ما أنزل الله بها من سلطان.

ويضيع الباحث عن حقائق الإسلام بين مذاهب الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة وبين الطرق الصوفية فيسأل كما سأل محمد عبده الشاب: ما طريقتكم؟ ولا يقف عند السؤال من يرى انتهاك حرمات الله باسم الإسلام والتصوف، فيبرز لمحاربة أصحاب المرقعات الراتعين في كسلهم وبدعهم، وتسوقه انطلاقته الهاجمة فيحمل على أهل الله الصادقين، ويكفر ويطعن حيثما لاح له ما لا يعرفه من

صريح الإسلام وظاهره، وهكذا يقف أمثال الشيخ ابن تيمية رحمه الله موقف الخصم العنيد من رجال الله، فهو يكفر ابن عربي لأن هذا الولي حاول أن يعبر عما لا يعبر عنه، وما عدا الصوفي الكبير أن أنبأ بما تحمله الألفاظ عن الحديث القدسي المتواتر الذي أخبرنا فيه المولى عز وجل أنه يصبح عين العبد وسمعه ويده. وما سلم من ابن تيمية إلا الشيخ عبد القادر الجيلي قدس الله روحه، فهو يجله ويعظمه ويشهد بسلامة عقيدته. ويعلم من يقرأ كتب القوم أن الجيلي رضي الله عنه يكتب مواقفه مع الحق سبحانه، فيقول: خاطبني الحق، وسألت الحق فأجابني. ولعل الإمام ابن تيمية رضي الله عنه لم ينكر مثل هذا لأنه وقف على الحديث الذي أوردناه يخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم أن في هذه الأمة محدثين، فلم ينكر مقالة الجيلي، ولعل ابن تيمية إنما طعن من طعن سدا للذرائع.

على أن الحق الساطع ببراهينه وآياته تهطع له الأبصار وتدين له العقول، ويرجع علماء الإسلام الباحثون الصادقون إلى التماس وسيلة للعلم أسمى من العقل، يلتمسون نور الإيمان والإحسان عند الشيوخ المربين عندما تنقطع بهم أسباب العقل المسجون في عالم الحس المنقطع عن الغيب، وهكذا رجع الغزالي والفخر الرازي وسلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام، وكثير كثير من العلماء الأعلام، وابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية الأكبر يكتب ثلاث مجلدات في

شرح رسالة للهروي أحد كبار العلماء بالله رجال الله. ومن علمائنا المعاصرين من أعوزتهم الأسباب للاتصال بالشيخ البصير المتبع يرشدهم إلى الطريق، فوقفوا من التصوف موقفا محيرا، يمجون الصوفية الصادقين ويشهدون بأثرهم البين القوي في إصلاح الأمة عبر التاريخ، لكنهم لا يعرفون مكان الصحبة والقدوة ويحسبون التصوف فقها باطنيا لتزكية النفس ضروريا يطبقه المسلم على نفسه، ومثالنا الأقوى على هذا الأستاذ المودودي أيده الله وأمد للمسلمين في عمره.

كان علماء المسلمين صوفية في كل بقاع الأرض وفي كل العصور، وكان الواحد منهم يسرد سلسلة شيوخه أو مشايخه في التربية الروحية، ولما طغت موجة الذين تحجروا وحجروا الناس على تدين قاس أجرد لا أثر فيه لرحمة الإسلام ومحبة الله لعباده ومحبة العباد لله ورسوله، أحجم الناس عن التربية الروحية فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم، فكثير منهم من يرون أن الرسول الكريم ساعي بريد انتهت مهمته، وبئس ما يرون.

طريقتنا الإسلام، لا تلتبس المحجة البيضاء بغيرها من الطرق والمذاهب، وإن كان علماء الكلام ينسقون كلمات ومعاني في موضوع الذات والصفات، وإن كان الفقهاء يكرسون حياتهم، جازاهم الله خيرا، لضبط الشريعة ونصوصها، وإن كان غير هؤلاء يمسك من

الإسلام بسبب، فإن الصوفية يلتمسون في المنهاج النبوي وسيلة لاكتساب الطاقة الروحية التي تحقق لهم التوحيد ذوقا وتحبب إليهم شريعة الله والوقوف عند حدوده.

يرى الناس عند الصوفية مظاهر تحجبهم عن الجواهر، فيسارعون إلى الحكم على ما لا يعملون. الصوفية يلهجون بالمحبة والذوق، ويتحدثون عن الغيب ومعرفة الله، ويلبسون المرقعات ويحضرون مجالس الذكر والسماع، هذا ما يعرفه العامة عن الصوفية، وقد يلتقون بجماعة مزركشة مرقعاتها وافرة لحاها تتحدث عن الأحوال والمقامات والمحبة والذوق، وسلوكها أبعد عن الإسلام من سلوك المردة الكافرين، فيعمم العقل العامي حكمه ويقول: هؤلاء هم الصوفية! وهذه شنشنتهم! وله العذر في ذلك إن كان لا يملك من التأني والذكاء ما يمكنه من استقصاء البحث حتى يجلس مع الصادقين. للناس العذر في عدائهم للصوفية لأن محترفي المرقعات والسبح كثيرون، يمشون على بطونهم زحفا لكل وليمة.

جمع لفظ الحديث النبوي المحبة والذوق في قوله عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث من كُن فيه ذاق حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»، ومن ذلك قوله : «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد**

رسولا». وتحدث القرآن الكريم عن الصحبة والاتباع وتصديق المتبوع وتخصيص الله بعض عباده بالعلم اللدني وإطلاعهم على الغيب في قصة موسى والخضر عليهما السلام.

ومجالس الذكر وردت فيها أحاديث أوردنا بعضها، ويبقى لنا من مظاهر الصوفية التي ينكرها العامة فيسألون: ما طريقتكم؟ لبس المرقعات والسماع. إن الصوفية الكرام أطباء للقلوب وهم يعلمون أن النفس الحيوانية تهفو دائما إلى عاداتها وشهواتها، فهم يعالجونها تارة بالعزم والحزم وتارة بالمراودة والملاطفة. يأمر الشيخ مريده بلبس المرقع خاصة إن كان يعلم أن في المريد كبرا واعتزازا بالبزة. يسمي الصوفية هذا بخرق العادة. ولكي يخرق الشيخ للمريد عاداته ويوصله إلى الموقف الفطري، إلى النظرة الفطرية بين يدي الفاطر الخالق، يمنعه من عاداته، فيأمره بالصوم والصمت والعزلة والسهر ولبس المرقع وغير ذلك. هذه رياضة ومجاهدة، وصفها الغزالي ووصف مواقع الحكمة في التحلي بها، وتحديد الأعمال والكيفيات في ترويض النفس يرجع أمره للشيخ، ومن الشيوخ من لا يفرض ذلك على مريديه. وعلى قوة حال الشيخ مع الله يتوقف الأمر في ضرورة اتخاذ الخلوة وخرق العادات ومجاهدة النفس بالرياضة.

وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كانوا يفعلون ذلك، كفاهم الذكر لما قال لهم الرسول الكريم وللناس كافة : «**قولوا لا إله إلا**

الله تفلحوا»، ومن يرفض أعمال الصوفية في المجاهدة بزعمه أن ذلك بدعة ما عرفها الرسول وصحبه، إنما يبرهن على جهله بكَوامِنِ النفس وضرورة علاجها لتصفو لها العبادة والسعي إلى الله.

والسماع الصوفي معالجة للنفس بطريقة أخرى. إن النفس الحيوانية تطرب لسماع الموسيقى، أي أنها تلين فتكون لديها قابلية عند نشوة الطرب للميل حيثما تمال. فإن كان الغناء دنيويا فاجرا كان الطرب سبيلا للفجور، وإن كان السماع يحمل معاني سامية مالت النفس بسهولة إلى حيث يدعوها النشيد الصوفي. ويكفينا أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم سمع أصحابه يغنون وردد معهم عندما بنوا المسجد وحفروا الخندق، ويكفينا أن مسجده صلى الله عليه وسلم كان مسرحا لمجلس فرح فيه المسلمون، ذلك حين جاء كعب بن زهير ينشد رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته المشهورة، تتضمن غزلا جاهليا، وتتضمن مدحا للرسول وصحبه، وما أنكر على كعب منكر غزله، وإنما طرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنشده :

إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول

فخلع عليه الصلاة والسلام بردته. يسمع الرسول الكريم وصحبه غزلا فيه مثل قول كعب في مسجد الرسول:

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكي قصر منها ولا طول

فلا ينكرون، وإنما يطربون لما تخلص إليه الشاعر، وما بقي من القصيدة صنعة وفن استعملا في خدمة الإسلام وتمجيد الرسول وصحبه.

ويروي أحد كبار علماء المسلمين، والخصم الأول للصوفية، رحمه الله، وهو الإمام الشاطبي، في كتابه «الاعتصام» قصة أمسك فيها الفاروق عمر رضي الله عنه برجل كان يتغنى، يقول الشاطبي[1] :

«حكى أبو الحسن القرافي الصوفي عن الحسن (يعني الحسن البصري إمام الصوفية التابعي الجليل) أن قوما أتوا عمر بن الخطاب رضي الله عن فقالوا : يا أمير المؤمنين، إن لنا إماما إذا فرغ من صلاته تغنى، فقال عمر: من هو؟ فذكر الرجل، فقال: قوموا بنا إليه، فإنا إن وجهنا إليه يظن أنا تجسسنا عليه أمره، قال: فقام عمر مع جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتوا الرجل وهو في المسجد، فلما أن نظر إلى عمر قام فاستقبله فقال: يا أمير المؤمنين، ماحاجتك ؟ وما جاء بك ؟ إن كانت لنا كنا أحق بذلك منك أن نأتيك، وإن كانت الحاجة لك فأحق من عظمناه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال له عمر ؟ ويحك، بلغني عنك أمر ساءني، قال: وما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال أتتمجن في عبادتك ؟ قال : لا يأمير المؤمنين، لكنها عظة أعظ بها نفسي،

1 كتاب الاعتصام ج 1 ص 369.

قال عمر: قلها! فإن كان كلاما حسنا قلته معك، وإن كان قبيحا نهيتك عنه فقال:

وفـــؤاد كلما عاتبـته ... في مدى الهجران يبغي تعبي
لا أراه الدهـــر إلا لاهـيا ... في تماديــه فقد بـرح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا ... فنى العمـر كذا في اللعب
وشباب بان عني فمـضى ... قبل أن أقضي منـــه أربي
ما أرجى بعده إلا الفـــنا ... ضيق الشيب على مطـلبي
ويح نفسي لا أراهـــا أبدا ... في جمـــيل لا ولا في أدب
نفس لا كنت ولا كان الهوى ... راقبي المولى وخـافي وارهبي

قال: فقال عمر رضي الله تعالى عنه:

نفس لا كنت ولا كان الهوى ... راقبي المولى وخافي وارهبي

ثم قال عمر : على هذا فليغن من غنى».

يقف العامة عند المظاهر ويسائلون الصوفية ما طريقتكم؟ وهكذا سأل محمد عبده شيخه بعد أن وجد في صحبته راحة وطمأنينة ما كان يعرفهما، يقول السيد رشيد رضا[1] حاكيا كلام محمد عبده بعد أن ذكر كيف كان في صغره عازفا عن الدراسة حتى لقي خاله، وكان صوفيا طريقته مدنية:

---

1 في كتابه «تاريخ محمد عبده» ج 1 ص 22 – انظر أيضا من هذا الجزء صفحات 20 وما بعدها، 106 وما بعدها، 927 وما بعدها.

«في اليوم السابع سألت الشيخ : ما طريقتهم، فقال : طريقتنا الإسلام، أو ليس كل هؤلاء الناس بمسلمين؟ قال : لو كانوا مسلمين لما رأيتهم يتنازعون على التافه من الأمر، ولما سمعتهم يحلفون بالله كاذبين لسبب ولغير سبب، هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي من المتاع القديم، متاع تلك الدعاوي الباطلة، والمزاعم الفاسدة، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجحون، وإن كنا في غمرة ساهين، سألته : ما وردكم الذي يتلى في الخلوات أو عقب الصلوات؟ فقال : لا ورد لنا إلا القرآن، نقرأ بعد كل صلاة أرباعا مع الفهم والتدبير، قلت: أنى لي أن أفهم القرآن ولم أتعلم شيئا، قال : أقرأ معك، ويكفيك أن تفهم الجملة، وببركتها يفيض الله عليك التفصيل، وإذا خلوت اذكر الله على طريقة بينها. وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن، فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا، وعظم عندي من أمر العرفان ونزوع النفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لي إلا هم واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد إماما يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن

قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد، هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من محبة أحد أقاربي وهو الشيخ محمد درويش خضر من أهل كنيسة أورين من مديرية البحيرة، وهو مفتاح سعادتي إن كانت لي سعادة في الحياة الدنيا، وهو الذي رد لي ما كان غاب عن غريزتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما أودع في فطرتي».

شهادة محمد عبده نشيد فرحة عظيمة بلقاء الشيخ وصحبة الشيخ، الشيخ مفتاح سعادته وهو الذي كشف له من أمره ماكان مستورا، ووسع له ما كان ضاق، وأيقظه من غفلته ليطلب المعرفة وأدب النفس. وبهذه البساطة، بساطة اللقاء والصحبة والذكر، بساطة التجربة الشخصية الصوفية، تجدد لرجال كرام دينهم وحياتهم وانفتحت أمامهم سبل الخير وصفت لهم عكرات الأيام. ومن صحب الكرام شم عطرهم وتزود منه على حد تعبير الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم. وبقي لمحمد عبده هذه الذكرى العطرة، ولم يسلك رحمه الله على يد شيخ مرب يبلغه مقصده، وإنما عكف على التعلم والتعليم ترده إلى الخير بركة الشيخ درويش. وظن رحمه الله أن التصوف صحبة ساعة وهبة من نسمات الخير يعيشها المرء لحظة ثم يمضي، لذلك نجده في أخريات حياته يفكر في الانعزال عن ميدان السياسة ليخلو بعشرة شبان يربيهم تربية صوفية. وهكذا يغلط كبار علمائنا فلا ينفذون إلى حقائق السلوك وما يتطلبه من صبر ومداومة للذكر وقيام بشروط

الصحبة حتى يأتي أمر الله.

البنا: يجدد الله للناس آياته فيبعث فيهم دعاة قائمين على الحق يتخذهم سبحانه حجة على خلقه. من هؤلاء الرجال في عصرنا الشيخ حسن البنا. رجل مر في سماء المسلمين مر القمر المنير، أضاء لقوم الطريق، وكان فتنة للمترفين والفاسقين، فحاربوه رضي الله عنه حتى قتلوه. وقد ظهر البنا في فترة عمية، الإسلام أنكره أهله، والثقافة الجاهلية سممت فكر الولدان المغرورين، فكان علما اهتدى به جيل كان ولا يزال جيل التضحية من أجل دين الله وجيل الكرامة والعزة بالشهادة لله.

شيخ الإخوان المسلمين رجل مجدد ابتعثه الله ويسر على يديه انبعاثا كان وعدا مشرقا فرحت بطلعته أفئدة المؤمنين، وحاول إطفاءه أعداء الدين، ووقع في فتنته حتى بعض مهازيل القراء وديدانهم.

وشيخ الإخوان المسلمين معجزة قائمة بذاتها، إنه شاب برز من حيث لا يحتسب الناس بروز الشهاب الثاقب، حداثة سنه وضعف وسائله حير الناس لما رأوا نجاحه الباهر واستقطابه للهمم ومحبة القلوب حتى قال عنه أديب العربية الأستاذ الجليل علي الطنطاوي بعد أن أشاد بخصاله النادرة[1] :

1 مجلة «المسلمون» العدد 10 رجب 1375 ص 23.

«رحمة الله عليه، فلقد كان مجدد الإسلام في هذا العصر وكان من نوادر الدنيا وآحاد الدهر، وما أظن أني سأرى مثله أبدا».

فمن أين تكونت هذه الطاقة ومن أين جاءت هذه الجاذبية وهذا التأييد الإلهي الذي به تيسر للشاب الطاهر بناء جماعة طاهرة مجاهدة؟ إنها الصحبة، وإنه سر الله الذي يودعه قلوب الذاكرين. والشيخ البنا رضي الله عنه يلح في كتبه على هذه النقطة، ويلح على التربية الروحية وعلى الذكر والمداومة وعلى الأوراد والوظيفة الجماعية، ويلح على الروحانية الصوفية، ومع ذلك فقليل جدا من الإخوان المسلمين من يدرك تمام الإدراك أنه ما كان لحسن البنا أن يرشد ويربي لو لم يكن هو قد تلقى تربية عن شيوخه الصوفية، وأن سر نجاح الدعوة الإخوانية لا يكمن في الفكر الإسلامي والخطب لكن في صفاء قلب الشاب، صفاء أورثه إياه ما كان اقتبسه بالصحبة والذكر من نورانية لا إله إلا الله.

وقد كتب البنا رحمه الله مذكراته يذكر فيها صحبته منذ الصبا، ويتحدث فيها عن شيخه ومجاهداته، ونورد فيما يلي فقرات من مذكراته شهادة للتجربة الشخصية التي عرفها البنا ومارسها وصبر عليها سنوات طويلة، ولصبره على الصحبة والذكر كان له من القوة والتأييد، ولم يقدر لمحمد عبده رحمه الله، وله صحبة أيام

معدودات، أن يربي ويبني ما كان يطمح إليه.

هذا حسن البنا الطفل يلتقي برحمة الله ويحس بسكينة الله في مجلس الذكر، ويكون ذلك أول خطوة للداعية الموفق الجليل في طريقه إلى الله، يقول[1] : « وفي المسجد الصغير رأيت «الإخوان الحصافية» يذكرون الله تعالى عقب صلاة العشاء من كل ليلة، وكنت مواظبا على حضور درس الشيخ زهران رحمه الله بين المغرب والعشاء، فاجتذبتني حلقة الذكر بأصواتها المنسقة ونشيدها الجميل (يقصد السماع الصوفي) وروحانيتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشاركوهم ذكر الله تبارك وتعالى، فواظبت عليها هي الأخرى، وتوطدت الصلات بيني وبين شباب هؤلاء الإخوان الحصافية... ومنذ ذلك الحين أخذ اسم الشيخ الحصافي يتردد على الأذن فيكون له أجمل وقع في أعماق القلب، وأخذ الشوق والحنين إلى رؤية الشيخ والجلوس إليه والأخذ عنه يتجدد حينا بعد حين، وأخذت أواظب على الوظيفة الزروقية صباحا ومساء».

اتصل البنا الصغير بالإخوان الحصافية بعد وفاة شيخهم،

---

1 مذكرات الدعوة والداعية. ط 2 ص 9. 1376

فقد مات الشيخ والبنا في الرابعة من عمره، وإنما نفحته صحبة الأفاضل من أصحاب الشيخ، ويسمى التعلق بالشيخ بعد وفاته في اصطلاح الصوفية تبركا في مواجهة السلوك الصوفي، سلوك المقامات والرقي إلى الكماليات، الذي لا يكون إلا على يد شيخ مرب حي مأذون إذن التربية، على أن شخصية السيد الحصافي رضي الله عنه وورعه واستقامته كان لها أبلغ الأثر في قلب الشاب المتبتل فلما اقترن ذلك الحب بالذكر والتلاوة كان له بركة عظيمة أخرجت لنا حسن البنا الفذ رحمه الله، ها هو يصف لنا شيخه الراحل[1]:

«فكانت دعوته مؤسسة على العلم والتعليم والفقه والعبادة والطاعة والذكر، ومحاربة البدع والخرافات الفاشية بين أبناء هذه الطرق، والانتصار للكتاب والسنة على أية حال، والتحرز من التأويلات الفاسدة والشطحات الضارة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل النصيحة على كل حال حتى أنه غير كثيرا من الأوضاع التي اعتقد أنها تخالف الكتاب والسنة مما كان عليه مشايخه أنفسهم، وكان أعظم ما أخذ بمجامع قلبي وملك علي لبي من سيرته رضي الله عنه شدته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه كان لا يخشى في ذلك لومة لائم، ولا يدع الأمر والنهي مهما كان في حضرة كبير أو عظيم».

---

1 نفس المصدر ص 10.

عصم الله حسن البنا من أصحاب البدع والفتن من محترفي الزي والسبحة، وظهرت له مبشرات ثبتته على عمله حتى بايع البيعة الصوفية، يقول[1] : «وظللت معلق القلب بالشيخ رحمه الله حتى التحقت بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور، وفيها مدفن الشيخ وضريحه وقواعد مسجده الذي لم يكن تم حينذاك، وتم بعد ذلك. فكنت مواظبا على زيارته كل يوم تقريبا وصحبت الإخوان الحصافية بدمنهور، وواظبت على الحضرة في مسجد التوبة كل ليلة، وسألت عن مقدم الإخوان فعرفت أنه الرجل الصالح التقي الشيخ بسيوني العبد التاجر، فرجوته أن يأذن لي بأخذ العهد عليه، ففعل، ووعدني بأنه سيقدمني للسيد عبد الوهاب (نجل الشيخ) عند حضوره، ولم أكن إلى هذا الوقت قد بايعت أحدا في الطريق بيعة رسمية، وإنما كنت محبا وفق اصطلاحهم».

ويكتب البنا بعد هذا عن التصوف ومكانه في التزكية الروحية وكيف انحرف المتصوفون المتفلسفون ويلح على ضرورة إصلاح الطرق، ثم يتحدث عن تبتله ومواظبته على الذكر، وكيف كان يرحل مع الإخوان رحلات طويلة لزيارة أضرحة الصالحين، وكيف كان يعتزل أحيانا ويصوم عن الكلام متوجها إلى ربه يفكر في آلائه.

---

1 نفس المصدر ص 13.

ومن ثمرات الذكر الرؤيا الصالحة وهي المبشرات التي يرثها المؤمن عن نبيه، وهي نوع من الكشف يكرم الله به الصادقين من عباده، يقول البنا[1] :

«وإن من فضل الله تبارك وتعالى أنه يطمئن ويسكن نفوس عباده، وإذا أراد أمرا هيأ له الأسباب، فلا زلت أذكر أن ليلة امتحان النحو والصرف رأيت فيما يرى النائم أني أركب زورقا لطيفا مع بعض العلماء الفضلاء الأجلاء يسير بنا الهوينا في نسيم ورخاء على صفحة النيل الجميلة، فتقدم أحد هؤلاء الفضلاء، وكان في زي علماء الصعيد، وقال لي: أين شرح الألفية لابن عقيل؟ فقلت: هاهو ذا، فقال: تعال نراجع فيه بعض الموضوعات، هات صفحة كذا، وصفحة كذا، لصفحات عينها، وأخذت أراجع موضوعاتها حتى استيقظت منشرحا مسرورا، وفي الصباح جاء الكثير من الأسئلة حول هذه الموضوعات، فكان ذلك تيسيرا من الله تبارك وتعالى، والرؤيا الصالحة عاجل بشرى المؤمن، والحمد لله رب العالمين».

حسن البنا رجل أكرمه الله بمحبة أوليائه وأجلسه في مجالس ذكره، وأيقظ فيه غيرة على الإسلام وتشوقا لموعود الله وتوقانا لنيل رضاه، فمن صحبة الأخيار انبعث في قلبه هذا الحب الإلهي الذي

---

1 نفس المصدر ص 32.

يغمر قلب المؤمن فيحب لإخوانه ما يحب لنفسه، ومن صحبة الأخيار توطدت في نفسه مثل الاستقامة على دين الله وإخلاص العمل له، ومن نور الأخيار اقتبس حتى أصبح لله ذاكرا وإلى دينه داعيا، وعاشر كثيرا من الناس بعد ذلك فاطلع على ما يرتكب باسم التصوف من الحماقات والبدع التي وقاه الله شرها إذ وضعه صغيرا في حجر الرجال الحصافية رضي الله عنهم.

الصحبة والأواصر: يكتب المسلمون كثيرا في هذه الأيام عن الصوفية والتصوف، منهم من يكتب تاريخا يتقعر في فهمه فلا يتجاوز السطح لعمايته عن الهداية والنور الذي أنزل إلينا مع قرآن ربنا، ومنهم من يكتب مناقب أولياء الله وتاريخهم تبركا ومحبة، ومنهم من يبحث عن إسلامه ويشم عند أهل الله عبير الصدق والسمو الروحي، ومنهم من يكتب شهادة لله يؤديها لإخوانه دالا على الطريق متحدثا عن تجربته هو، من هؤلاء البنا رحمه الله، ومنهم السيد عبد القادر عيسى الذي كتب بعنوان «حقائق حول التصوف» كتابا جمع فيه آداب وعلم الصوفية الكرام متحدثا من زاوية من صحب وذاق، ولعل من أحسن ما كتب مؤلَّف السيد عبد الباري الندوي بعنوان : «بين التصوف والحياة». في كتابه حديث عن شيخه ونقل لأقوال الشيخ وأحواله، وقد قدم الكتاب للقارئ الأستاذ المجيد السيد أبو الحسن الندوي، يقول السيد عبد الباري الندوي تحت عنوان «الصحبة والأواصر»[1]:

1 كتابه «بين التصوف والحياة» ط 1 ص 128.

«إن ضرورة البيعة العظيمة هي هذه الرفقة، أو صحبة الشيخ وإحكام الرابطة به، ليسلم الطالب من أخطار الطريق وعثاره، وهو أمر بديهي لا يحتاج إلى دليل، فالرجل لا يستطيع أن يستغني حتى في الأمور التافهة الواضحة من أمور الدنيا عن صحبة ماهر عارف بحقيقته وكنهه وإعانته للبراعة فيه، وشتان بين معلومات فن والتبصر في ذلك الفن... أما في هذه الأيام فقد أصاب الناس عدوى هذا المرض كالوباء (مرض الاستغناء عن المرشد الناصح)، وبالأخص في أمر دينهم، بحيث ينهضون للتجديد والاجتهاد في الدين، فضلاً عن الاتباع، معتمدين في ذلك على مجرد القراءة والمطالعة، فمن نتيجة ذلك أن كثيرين من أصحاب المعلومات الدينية والدراسات الواسعة الذين لم يصحبوا شيخا يَضلون ويُضلون وإني لا أعد حالة أمثال هؤلاء إلا كحالة مسلم حديث الإسلام، تلقى إسلامه كله من مطالعة الكتب، ويقوم بكل أعماله من صلاة وصيام وزكاة وحج، وجميع فرائضه وسننه وأركانه وشروطه، باستعانته بالكتب، ومن المطالعة فيها. إنه ليستطيع أمي تربى في بيئة المسلمين المتدينين، وفي وسط ديني، أن يصلي ويصوم بطريق أحسن، بمجرد مشاهدة آبائه ومن حوله يصلون ويصومون. وكذلك لا تجد فنا من الفنون ولا شعبة من شعب الحياة إلا ولا بد للبراعة فيها من صحبة رجل ماهر فيها».

ويذكر الندوي بعد هذه المقدمة التي قد لا يستسيغها كثير من الناس حديث شيخه في الموضوع. ومعذور جدا من لم يجلس في مجلس عارف بالله أن يستثقل كلام الندوي، يقول شيخ السيد الفاضل عبد الباري الندوي:

«أترى وصل أحد إلى الكمال والجودة بمجرد مطالعة الكتب؟ وإنه لأمر ملموس واضح أن الرجل لا يقدر على عمل النجارة إلا إذا جلس مع النجار زمانا، ولا يقدر على أن يتناول آلة من آلات النجارة البسيطة ويرفعها كما يرفع النجارون، إلا إذا جلس مع نجار حاذق يتعلم عليه، ولا يقدر على إجادة الخط إلا إذا جلس عند الخطاط أبصر كيف يتناول القلم، وكيف يمره على الورق، فغاية الأمر أن أحدا لا يستطيع أن يصبح كاملا إلا إذا جلس عند شيخ كامل، وأن صحبته لازمة».

ويدلي السيد الندوي بعد هذا بشهادته، يقول[1] :

«وإنه إذا تسنت له الصحبة لأمد أطول استنارت بصيرته حتى يصبح يعتقد حالته السابقة شيئا من الحماقات والسفاهات، وقد كان هذا شأن محرر هذه السطور وقصته، فقد كنت درست كتبا، وعشت في وسط أصحاب العلم المجرد، ونلت شهادة الفراغ، وكنت أعد نفسي من الكتاب والمؤلفين، ولم أكن دون أترابي وزملائي في

1 المصدر السابق ص 131.

الفطانة والذكاء، بيد أني بعدما حضرت مجالس حضرة الشيخ عدة مرات، استبان لي أنني لم أكن إلا رجلا من الأغبياء الأجلاف من ناحية الفهم الديني والبصيرة الدينية، يقول الشيخ:

«خذ رجلا غير عالم، مهما كان عاقلا، ولم يكن صحب عالما محققا، فابعثه في صحبة محقق لستة أشهر، إني أحلف بالله أن ذلك المحقق سيثبت ويجعل هذا العاقل مقرا بلسانه بأنه سفيه، وليس عندي طريق للإقناع من أن أحلف بالله، وليس وراء الله للمرء مذهب، فلو احتجت إلى حجة أكبر من هذه، فعليك بالامتحان والتجربة العملية، وذلك بأن تطلب إجازة لمدة ستة أشهر، واسألني عن اسم محقق، ثم ترى أنك ستقدم وأنت تقول: «إني عاقل»، وتنصرف وأنت تقول: «إني كنت سفيها» لأنك كسبت العقل ببركة صحبة ذلك المحقق».

دع البصيرة العلمية والدينية، أو الباطنية، فمقامها عال، وخذ الحياة اليومية؛ فالذي نسميه فيها : الأدب والحضارة والأناقة لقد شعرنا، بعدما حضرنا مجالس الشيخ وصحبناه أياما، بأننا كنا مخدوعين وآخذين بالقشور والمظاهر، حضر شاعر من جونبور وقد كان متحليا بالمدنية وأخلاقها ومظاهرها، ولما رجع بعد قضاء عدة أيام (مع الشيخ) كتب رسالة فحواها:

«إن الذي كنا نسميه ثقافة وأدبا عرفنا عنها، بعد ما حضرنا

هناك في «تهانة بهون» أنها لم تكن من الثقافة والأدب في شيء».

وقال طبيب بعد ما قضى عدة أيام ههنا: «إن الأمور التي كنا نعدها من الكمالات ظهرت نقائض، والتي كنا نعدها فضائل ظهرت معايب».

إلى هنا نقرأ في كتاب السيد عبد الباري الندوي، ولله دره وهنيئا له أن ظفر بالشيخ المربي الذي قلب له باطن الأشياء حتى بدت له حقيقتها، وأذاقه بكيميائه الروحية سر الوجود، وقد والله جربنا وكنا نعد أنفسنا كما وصف الندوي فبدا لنا بصحبة أهل الله أننا لم نكن إلا سفهاء، ولا يحسبن الخلي أن الشاعر والطبيب نبذا الحضارة والثقافة بعد صحبة شيخهم، إنما هي يقظة إلى قيمة الإنسان في الكون، فقد كانت تستهلكه وتذهب به قيم نسبية يعبدها تسمى حضارة وثقافة، أما بعد يقظته إلى قيمته عند الله فهو يتحكم في القيم النسبية ويصرفها مصارفها ويسخرها لإيقاظ إخوانه من الغفلة المهلكة عن الله وعن اليوم الآخر، والسالك من الصوفية لا يدبر عن الدنيا وإنما يكون أحرص الناس عليها لأنها مجال الربح والخسارة في حساب الله وميزانه.

الكرامات والتجليات: الدكتور عبد الحليم محمود شاب معاصر، هو من علماء المسلمين الأجلاء، تعرفت عليه في بعض كتبه فوجدت عنده نسمة أهل الله وأحببته قبل أن أطلع على كتابه في سيرة

مولانا أبي الحسن الشاذلي، وعندما قرأت هذا الكتاب علمت من أين كان للرجل طلاوة وحلاوة، وتبدي الأقلام ما تخفيه الصدور، الدكتور عبد الحليم محمود رجل صوفي متعلق بروحانية السيد الشاذلي رضي الله عنه، وهذا ما يسميه الصوفية تبركا، إذ لا تصح الصحبة إلا للأحياء، أما الشهداء الأحياء عند ربهم فإنما يتبرك بهم، ويرحم الله الشيخ التجاني فقد علمنا أن المنتقلين للدار الآخرة لا يصحبون، أي لا يحصل للمريد سلوك في المعراج الروحي إلا إن صحب الأحياء، والدكتور عبد الحليم لم يخبرنا بصاحبه إنما حدثنا عن شيخ المشايخ الشاذلي رضي الله عنه وعنا به، والذي سرني كثيرا أن الدكتور الفاضل تحدث بكل صدق وأمانة عن كرامات الأولياء وعما حصل له من تجليات نورانية، ويفيد الدعوة إلى الله، والناس في ظلام وحيرة وكفر، أن يشهد المؤمنون لله تعالى بما ييسر الله لهم من تيسير الإسلام ورحمته وبركته، والذي يحدث بما رأى وسمع وذاق يضيف شهادته لسلسلة الشهادات التي أثبت بها أولياء الله على مر الأزمان إيمانهم بالله وبغيبه لأنهم اتصلوا بهذا الغيب حتى صار إيمانهم يقينا وعلمهم تحقيقا.

كتاب السيد الدكتور عن شيخه أبي الحسن كتاب نفيس في خاتمته ذكر للكرامات وشواهد على ثبوتها من الكتاب والسنة، وأهم من كل ذلك في نظرنا شهادة الكاتب نفسه، يقول[1] :

---

1 كتابه «أبو الحسن الشاذلي» القاهرة 1967 ص 204.

«في فترة من الفترات ابتلاني الله بموضوع شق على نفسي وعلى نفس المحيطين بي، واستمر الابتلاء مدة كنا نلجأ فيها إلى الله طالبين الفرج.

وذات يوم أتى عندي بعض الصالحين، وكان على علم بهذا الابتلاء، وأعطاني ورقة كتبت فيها صيغة من صيغ الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال: اقرأها واستغرق فيها وكررها منفردا في الليل لعل الله يجعلها سببا في تفريج هذا البلاء.

واعتكفت في غرفتي بعد صلاة العشاء، وأضأت نور الغرفة، وأمسكت الورقة بيدي وأخذت في تكرار الصيغة واستغرقت فيها، وإذا بي أرى فجأة أن الحروف التي كتبت بها الصيغة مضيئة تتلألأ نورا، ومع أن الغرفة كانت مضيئة فإن الحروف كانت تتلألأ نورا في وسط هذا النور.

فحمدت الله وعلمت أن أبواب الرحمة قد فتحت، وأن هذا النور رمز لذلك وفعلا أزال الله الكرب وحقق الفرج بكرامة هذه الصيغة المباركة.

وأمر آخر من خوارق العادات شاهدته بنفسي:

في ذات صباح كنت جالسا في المنزل، في غرفة المكتب كعادتي، وكنت في تلك اللحظة مطأطئ الرأس، ثم رفعت

رأسي ناظرا أمامي، وإذا بي أجد أمامي إنسانا فأخذت في تأمله دون أن أشعر قط بخوف أو فزع.

كان طويلا، أقرب إلى النحافة منه إلى السمنة، يميل لونه إلى السمرة، وعلى رأسه شال أبيض أو ما يسميه الحجازيون: «الغطرة» وكان في وقفته منحنيا قليلا، وقد تأملت ملابسه أيضا في تفاصيلها وشكلها.

لم يتحدث معي ولم أتحدث إليه، وبعد فترة ونحن على هذا الوضع، أنظر إليه في تحديق ويمد عينيه إلي في نظرات ثابتة، أخذ يشف شيئا فشيئا، وألاحظ أنا في وضوح التدرج في هذه الشفافية، وانتهت الشفافية بزواله تماما دون أن يتحرك من موضعه، ذلك ما شاهدته بنفسي وماذا يكون خرق العادات غير هذا.

إن الذين ينكرون خرق العادات، وينكرون الكرامات لأولياء الله إنما ينكرون شيئا أثبتته تجارب الإنسانية منذ أن وجدت الإنسانية، وأثبته القرآن الكريم، وأثبته جمهور الأمة».

انتهى ما أردناه من كلام العالم الشاب، وفرق ما بين العقلية الخرافية وعقل المؤمن الساعي إلى ربه أن العقلية الخرافية تحوم كالفراش حول مناقب الأولياء وكرامتهم وتجعلها هدفا لآمالها الواهية، وتتحدث عن الأموات وتنسب لهم من الخوارق ما كان

وما لم يكن، تستحلي ذلك وهي نفسها أبعد ما تكون عن سلوك المؤمنين وعملهم، بينما يتعرف المؤمن على الغيب، بالإيمان بما أخبره به ربه وباليقين إن أكرمه الله ويسره لذكره حتى يكشف عنه حجاب الكثافة الحسية، حتى إذا تيقن بوجود غيب الله وأمره فزع إلى الأوامر والنواهي ليكون في عمله وسيرته كما شاء الله، مستقيما على الكتاب والسنة ساعيا فيما يصلحه ويصلح أمته.

لئلا تأثم قلوبنا: أخبر الله عز وجل في كتابه أن من كتم الشهادة، الشهادة الشرعية التي تترتب عليها حقوق الناس، فإنه آثم قلبه، والشهادة لله أسمى من هذه الشهادة الشرعية، ولدي شهادة أؤديها أخشى أن يأثم قلبي، وأتأثم من الكتمان في زمامنا هذا الذي طغت فيه الفتنة وتلاطمت فيه أمواج الضلالات والخرافات والأوهام الفلسفية وشبه العلمية، أتأثم من الكتمان لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم توعد بالنار من كتم علما كان عنده، والمسلمون اليوم يجهلون دينهم، وحتى من كان على مسكة من إيمان تحرج أن يقول على ملإ من الناس: إني آمنت بالله وبغيبه، وملائكته وجنه، وجنته وناره.

وسبة كبيرة في أفواه السفهاء من أبنائنا وأساتذتهم من أعدائنا تلك التي تسم المسلمين بالغفلة وتسم عقيدتهم بالغيبية، لأن دين الله وقرآنه مبني على أنه سبحانه الفاطر الذي علم الإنسان عن طريق العقل علوم المادة المحسة وعلمه عن طريق الوحي والنبوة علم ما لا سبيل للعقل في إدراكه، ويأبى الملحدون أن يكون ثم غير ما وصلت إليه

حواسهم، لهذا تكون شهادة الصوفية الأبرار، مهما تنوعت، تعزيزا لدعوة الإسلام.

ويرحم الله أخي عبد الباري الندوي الذي شهد على نفسه، كما أشهد على نفسي، إنه كان يحسب نفسه كيت وكيت قبل أن يجلس بين يدي شيخه، ولست بحمد الله أخشى أن أتهم بدعوى صلاح وتقوى، فقد من الله علي بلقاء أوليائه وصحبتهم فانكشف لي من جملة الأوهام وهم نسبة العمل إلى نفسي، فإن شهدت بفضل فهو لذوي الفضل علي، وإن تحدثت فبما أنعم علي ربي، وأنا المفلس إلا من كرمه تعالى وعطائه.

كنت منذ صباي أبعد الناس عن الصوفية وعن اعتقادهم، وكنت، تدفعني ريح تيار كريه، أو قل تيار ريح كريهة، أكفر الطرقيين لشركهم بالله في زعمي، وزادني نفورا من الصوفية والطرقية أن من المحترفين للسبحة من كانوا مطية للاستعمار ويسخرهم في أغراضه يمشون على بطونهم.

ولما أراد الله بي خيرا أنبهني إلى نفسي، وكنت عندئذ في أوج ما يمكن أن يطمح إليه مثلي من صحة وعافية وسمعة ومكانة اجتماعية. لم أكن أعلم شيئا عما يسمى بالأزمة الروحية كما وصفتها تجربة الغزالي مثلا، لكن حصل لي يأس من نفسي وتوقان لمعرفة الحقيقة عن وجودي، وكنت نشأت في عبادة الله

وتلاوة القرآن منذ صباي، فما أحد أحق بالاستغناء بما عنده مني، وكنت قرأت كتبا كما يعبر عبد الباري الندوي.

فلما خلق الله تعالى الكريم في اضطرارا إليه التفتت إلى الكتب أستنطقها، وعجت على أصحاب الرياضات المجوس وهالني ما عندهم من خرق العادات ودرست كتبهم، لكن الله حماني من أن أميل إلى مذاهبهم بما سبق في علمه، واطلعت في تجاريب اليهود والنصارى الروحية، ثم رجعت إلى كتب الصوفية أستقصيها وأنشد المفتاح الذي يفتح باب المعرفة، فوجدت أنهم رضي الله عنهم مجمعون على أنه: «من لا شيخ له فلا مدخل له في أمرنا هذا، ويلحون على أن صحبة الميت لا تكفي، وكنت أنظر فيما كتبه بعض فطاحل العارفين بالله فلا أطيق الاستمرار في قراءتهم لغرابة ما ينطقون.

ولما أيأسني طلب الشيخ، لما أراه من عموم الكفر وقلة الصالحين، عولت على الرجوع إلى المجاهدة بنفسي وشمرت على ساعد الجد، ودخلت في مهامه بلا مرشد، فداومت التلاوة والذكر والصوم والجوع والسهر والعزلة، وبمثل هذا يتروحن المتروحنون ويجذب المجاذيب. وفعلا شعرت بأن زمام نفسي أخذ يفلت من يدي ولا أزداد مع الأيام إلا انعزالا واستيحاشا من الناس وضيقا بهذه الحياة الدنيا.

حتى إذا أراد الله أن يتم علي نعمته لقيت على غبر ميعاد رجلا لم أكن أعرفه، نطق من دون أن أستنطقه، وأخبرني بأن ما كنت أطلبه موجود، وأن الشيخ المربي في البلاد على قيد أنملة ممن كان يائسا من وجود شاذلي أو جيلي في هذا العصر.

كنت قرأت كتبا وقارفت من هذه الثقافات الأجنبية، وكانت العقلانية الماركسية الفرويدية مرتعا لنشاطي الفكري منذ أمد بعيد تعيش بل تعشش في ذهني جنبا إلى جنب مع إيمان فاتر لا تذكيه العبادة التي نشأت عليها، ولم تكن العقلية العقلانية تفتتت أثناء أزمتي في البحث عن الحقيقة، لذا دخلت طريق القوم أحمل معي أوزار عادات جاهلية وعبء أوهاق ثقافية تؤله العقل لا يضعفها تشوفي وتوقاني للمعرفة الكاملة. وأخذ عني العهد الصوفي مقدم الطريقة، وحضرت أول مجلس للذكر فهالني ما رأيت ؟ قوم يذكرون الله ويبكون ويصعقون وتقشعر جلودهم وتضطرب أعضاؤهم. ونفرت أشد النفور مما رأيت كما كنت نفرت من المسلمين الطائفين حول الكعبة يتراكضون ويتزاحمون بثياب رثة وهيآت ينكرها من تعود مجالسة العصريين الأنيقين. كنت قرأت في الكتب وصفا مثاليا للمسلم المثالي، وكان الخيال سبق إليه صورة «جنتلمان» حسن البزة متزن الحركات، وهذه مأساة شبابنا عشتها مرتين، وأنكرت حقيقة الإسلام حول الكعبة في أشخاص

رجال ونساء حملهم الشوق والمحبة والطاعة لله إلى بيت الله فجاؤوا كما هم، لا تنم الثياب والهيآت عن إيمانهم وإنما ينم عنه حماسهم وصدقهم، وأنكرت حقيقة الإيمان في مجلس الذكر لأن في مجلس الذكر رجالا من المساكين رثة ثيابهم لكن قلوبهم غضة ندية تتحرك لذكر الله وتضطرب الأعضاء وتطفح العيون بدمع الشكر لله والمحبة له تعالى.

وألهمني الله الصبر على حضور مجالس الذكر، وأخذت أتلو الأوراد المأذونة بعد أن طرحت أورادي التي أنشأتها لنفسي من قبل، وكان ذلك علي شاقا جدا. ولبثت نحو ثلاثة أسابيع أو أكثر أحضر مجالس الذكر وأتلو الأوراد وأنا في شك من أمري. ألست مغرورا أن أتبع رجلا، ورجلا لم أره ولا أعرف عنه إلا ما أخبرني به رجل لقيته على غير ميعاد وأخبرني دون أن أطلب إليه ذلك ؟ ثم أرجع إلى نفسي وأتأمل ما يمكن أن يسميه الغافل صدفة فيخيل إلي أنها كرامة من الله وتيسير، ألست أطلب شيخا مربيا من زمان ؟ ثم أليس القوم يؤكدون أن من صدق في الطلب فلا بد أن يلتقي بمن يأخذ بيده ؟ ثم ما بال رجل لا أعرفه يخبرني بوجود الشيخ في لحظة كنت فيها في اضطرار كامل ؟

بعد أسابيع قليلة كنت جالسا أتلو أورادي أذكر الله منفردا فشعرت فجأة بحالة جديدة، كنت قرأت عند أصحاب الرياضات

المجوس اليوكيين وصفا لما يسمونه الصمت الباطني، وكانت حالتي المفاجئة أمثل ما توصف به أنها صمت باطني، راحة شاملة لا توصف، ذهبت الهموم والأفكار والأتعاب وحل محلها الهدوء. إنها الطمأنينة التي تحصل بذكر الله كما أخبر الله في كتابه. لست أدري هل كانت حالة عابرة أم هي دائمة متصلة، لا أستطيع أن أحكم اليوم، وإنما حكمت في تلك اللحظة نفسها لأنني كنت حديث عهد بالحالة السابقة. أما وقد جمع الله بكرمه سبحانه همومي فجعلها هما واحدا هو جنابه المقدس فإخال اليوم أن مقارنة حالة الغفلة بحالة الذكر لا يتأتى أبدا التعبير عنها، ويرحم الله السيد التهانوي شيخ عبد الباري الندوي حين تحدى من له رغبة في ذوق ما يذوقه الذاكرون، لا أطلب أنا ممن له رغبة، وحتى ولو كان معها شك، أن يأخذ إجازة ستة أشهر، بل بضعة أسابيع، بل أسبوعا واحدا، وليسألني، كما قال الشيخ التهانوي، عن اسم عارف بالله يعاشره ويجلس بين يديه يذكر الله أسبوعا.

بعد شهرين من دخولي الطريق سافرت إلى حضرة الشيخ رضي الله عنه، وبقيت في ضيافته ثلاثة أيام، وفي أول مجلس معه رحمه الله ذقت الحال، والحال قوة باطنية وحلاوة تساور القلب والجسم معا، ويصحبها بكاء وقشعريرة، وكنت قرأت عند الصوفية وصفا للحال وما عرفت ما يعنون حتى ذقت. ومن الناس من

تكون طلبته في طريق الله حصوله على الحال، ومنهم من يذهب به الحال ويستخفه فيفتر عن ذكر الله وعن العمل الصالح، ويتحول حاله إلى اضطراب شيطاني إن لم يعصمه الله. والحال وجد لا يملك الإنسان معه نفسه، فهو غلبة. ومن قرأ سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن يذوق الحال يجد وصفا لحال الرسول الكريم حين ينزل عليه الوحي فيتصبب عرقا وتأخذه البرحاء، وحين يخطب في الجمعة فتعلو نبرة صوته ويحمر وجهه. هذه أعراض الحال وهي تتنوع، والناس يعرفون ما يسميه بعض الصوفية عمارة، وما يسميه الملاحظون حلقات الرقص الصوفي. إن هذه العمارة استدعاء لحال وتعرض له وتواجد وحنين إلى لذة الحال، ومن أنكر على الذين يفتعلون الحال ويصطفون «ليرقصوا» معذور ومعه حججه، لا سيما إن تدهور الصوفية المقلدون إلى احتراف الرقص ونسبوه للصوفية الأبرار. على أن الحال لا عبرة به وليس المقصود من السلوك، بل هو يكون أحيانا حجر العثرة والملهاة المهلكة للسائر متى وقف عنده.

ورجعت من ضيافة حضرة الشيخ في حالة لا أجيد أن أعبر عنها، يكفي أن أقول إني انتقلت من حالة الغفلة الدوابية إلى حالة يقظة وذكر.

وكنت أسمع كثيرا من إخواني الذاكرين يخبرون عما يحدث

لهم من تجليات وفتوحات، وأسلم لهم الأمر كما يدعو لذلك أدب الطريق، حتى جاءتني الرؤيا الصادقة بفضل الله تعالى وتلاها تجليات نورانية في حالة اليقظة لا في النوم، ورأيت الأجسام النورانية على غرار ما قص الدكتور عبد الحليم محمود، وحصل لي من حالات الكشف الشيء الكثير، ولست أفخر بما ليس لي فيه يد، فنعمة الله تستدعي منا الشكر بالتحدث عنها.

كنت أعلم أن الصوفية يأمرون المريد بكتمان أحواله مع ربه يخافون عليه الغرور أو العوائق النفسية، لكن شيخي الأول رحمه الله كان يأمرنا بألا نكتم، لأن تحدث بعضنا إلى بعض بما يفتح الله عليه يقوي العزائم. وكذلك كان الرسول الكريم مع صحبه يقصون عليه كل صباح، بطلب منه، رؤاهم فيؤولها أو يؤولونها. وكأن وقتنا هذا بعد أن عم فيه الظلام العقلاني بحاجة إلى من يجهر بالغيب والإيمان به. وأكتب كل هذا وأنا واع كل الوعي أن مثقفينا سيأخذ بعضهم شهادتي وشهادة أمثال الدكتور عبد الحليم محمود مأخذ الهزل سيجدون في ترسانة التحليل النفسي هنات يفسرون بها الانحراف المرضي الذي يصاب به من يزعم أنه رأى ما لا يراه الناس. ولا يهمني أصحاب السطوح والحروف، أما من يرغب في المعرفة فله مني ومن السيد التهانوي رحمه الله ورضي عنه تحد أن يخصص أياما يسألني فيها عن اسم شيخ يذكر الله في حضرته.

أمر مرا سريعا على الكرمات لأنني حضرت منها وسمعت من إخواني الثقات ما لا أحصيه، لكنني أذكر أعظم الكرامات وأنصعها بيانا وإعرابا عن الحق والتوفيق، أذكر ما رأته عيناي من تحول الناس فجأة من الشقاء للطمأنينة ومن الانحراف والإجرام إلى الاستقامة والطهارة، وأذكر من أعرفهم من المدمنين الذين تسممت دماؤهم بالكحول وعجز الطب عن معالجتهم، أحدهم أعرفه باسمه اعترف أنه كان مدمنا منذ ثلاثين سنة وأقلع عن الشرب في مجلس واحد من مجالس الذكر، وآخرون كثير تركوا الشرب بعد أيام قليلة من حضورهم مجالسنا، وأذكر ملحدين تابوا إلى الله في جلسة واحدة، وشبابا جاؤونا من الزوايا المظلمة التي يقبع فيها اللصوص بالليل فتحولوا إخوة طاهرين يغدون في غلس الفجر إلى المساجد، وآخرين جاؤونا من هذه الجامعات العصرية يحملون بضاعة ماركس ومركوس فعرفوا الحق وذكروا الله وأصبحوا دعاة للإسلام وسط السخرية والأذى من أقرانهم بشجاعة وثبات يضربون المثل بأخلاقهم واجتهادهم وطهارتهم.

وأختم حديثي عن تجربتي وشهادتي بما من شأنه أن يبعث القلق والرعب في أصحاب العقلانية مخافة ألا يجدوا في ترسانتهم ما به يفهمون أن رجال الله أهل الله أهل الطريق يتحدثون عن الفناء والبقاء، إذ أن العبد لا يعرف الله بنفسه، وإنما تتأتى له

المعرفة إن فنى عن وجوده. يقولون إن وجود الحادث الممكن حجاب عن الله، فإذا فنى العبد عن وجوده الحادث كان الله ولا شيء معه.

المبتدئون مثلي المتعثرون بتقصيرهم وكسلهم لا يحق لهم أن يتحدثوا عن مقامات الرجال. لكن فضل الله علينا معشر المريدين المبتدئين أن يذيقنا من هذه المقامات ما يسميه الصوفية لوائح وبوارق لنزداد مع ربنا صدقا وإليه سبحانه رغبة وشوقا.

حصل لي ذلك بحمد الله ومن فضله الفائض على خلقه ثلاث مرات، في المرتين الأوليين فنيت عن وجودي بوعي ثابت ليس وعيي ولا أتبينه، لم يبق لي وجود ولست أدري كم دام ذلك لأنه أخذني بغتة، ثانية أم دقائق؟ أما في المرة الثالثة فإني فنيت وكان مع الفناء وعي بوجود الله، وعي ليس وعيي ولا أتبينه. وتلك حالة تقف أمام وصفها الألفاظ عارية مسكينة تضج إلى ربها من قصور المخلوق عن إدراك الخالق وتفيء إلى تنزيه ربنا عز وجل عن الزمان والمكان، عن الحين والأين. والفناء شيء غير الغيبوبة، تنبيه للغافلين!

ورجال الله أهل الفناء والبقاء والمعرفة والارتقاء لهم القدم الراسخ في هذا الذوق، وللسالكين المريدين في أحضان التربية أمثالنا عاجل البشرى بتأييد الله.

أكرمني الله تعالى بصحبة ولي من أوليائه عارف بالله غني به بضع سنوات، وبعد صحبته بزمان عثرت في بعض كتب القوم على وصف الشيخ الكامل. نعتوه بأنه لا يدعي مقاما ولا صلاحا ولا تظهر عليه الكرامة ولا الكشف إلا إن أذن له في إظهار ذلك. وقد كان والله شيخي الأول المرحوم بكرم الله الصامت الناطق المسكين الذي كان يطلب دعاء الخير من البر والفاجر حسن ظن بالله وعباد الله. ولولا أن الله تعالى جعل على يده هذه الهداية الشاملة لكل من اتصل به وأحبه، وأظهر عليهم الكرامات والفتوحات الباهرة لما عرفه أحد ولبقي سرا من أسرار الله وكنزا من كنوزه الخفية.

وقد انتقل إلى ربه عن هذه الدنيا، وذهبت تلك اليد الكريمة التي أحيتني من موات تغمده الله برحمته، وجازاه عن أبنائه الروحيين خير الجزاء، وإنما سلاني وسلا إخواني عن فقدان الشبح الترابي بيننا أنه رحمه الله ما ذهب حتى ترك لنا رجلا رجلا، أجلسه بالإذن في التربية، وأخبرنا أن خلفه رضي الله عنه أوسع منه باعا في هداية الخلق وتربية المريدين، فنحن اليوم بين يدي درة يتيمة عارف بالله كامل، هو السميذع الأديب وهو الطبيب الأريب الحبيب، متعنا الله بصحبته ومحبته، فلا نزال عليه عاكفين وببابه واقفين، وأتم الله لنا نورنا ببركته وجعلنا من الواصلين إلى حضرته.

أولياء الله

خلق الله الإنسان ليبلوه وليجازيه في الدار الآخرة عن سعيه في هذه الدنيا. وأحاط الله خلقه بحجاب الكثافة المادية وظلمات الغرائز البشرية، وبعث إليهم رسله مبشرين ومنذرين، وجعل نجاة الخلق في تصديقهم واتباعهم للرسل ولمن يجدد لهم الدعوة من أولياء هذه الأمة. فأولياء الله بين ظهرانينا هم الدعاة إلى الله على بصيرة، وهم أهل الله أهل النور والتقوى، فمن فزع إليهم كان له من الله نصيب.

والإنسان في عصرنا تتولاه حاجاته المتجددة وضرورات عاداته التي ترديه. فهو ولي نفسه وشهواتها، ونفسه وما يتعاورها من شياطين، أولياؤه يردونه ويهبطون به أسفل الدركات في دوابيته الجشعة الأثرة. والإنسان المعاصر شقي بنفسه تستعبده أشياء حضارته، شقي بأبناء جنسه يتكالب في معمعة النزاعات الاقتصادية والسياسية والجنسية لا يستقيم له أمر، فهو إلى الإسلام أحوج من أجيال سبقت، وهو ينتظر دعوة مخلصة تنقذه وتخط له طريقا للسعادة، طريقا لاحبا يتبين فيه وجوه الربح والخسارة في نشاطه على هذه الأرض بل في كده الكالح عليها. إن جاهلية العصر وظلامه لن تنجلي

عن الإنسان السعيد إلا باكتشاف نور الإسلام يهتدي به الجاهلي ويستنير به المسلم الجغرافي.

ونور الإسلام لا يتم بالدعوة الحرفية، دعوة الإصلاح الإسلامي الجزئي في حياة الفرد والجماعة، إنما يتم بالدعوة للمنهاج النبوي الذي يضع في متناول الناس الإسلام الرحمة الإسلام المعراج: إسلام ثم إيمان ثم إحسان.

بحياة التنظيم الشرعي الذي فرضه الله نقضي على النزاعات والاضطرابات، لكن حياة الروح وحدها تضمن إمكان قبول الناس لشرع الله وقانونه. والتربية الروحية تتناول الفرد في أخص خصائصه، ووعيه بوجوده ومصيره، وفي هذه العقدة المركزية التي يبوح بوجودها أو لا يبوح، وهي عقدة الموت وما بعد الموت. بالتزكية الروحية يكتشف الإنسان عالم الغيب فتنحل عقده كلها ويتوجه إلى ربه يتلقى الهداية والرشاد.

تعلم الإنسان اليوم كيف يسيطر على الطبيعة ويسخرها وكيف يغزو الفضاء وكيف يستغل طاقات الذرة وطاقات العقل البشري. وتعلم كيف يقتصد في استعمال وسائله العلمية ليوفر وقتا يفرغ فيه إلى نفسه. لكنه لا يعلم وجها آخر للفراغ إلى نفسه غير الاسترواح والعطلة ومتاع الحس. هذه حضارة الاسترواح «Civicivilisation de loisirs» بلغها الغربيون وسيبلغها الإنسان المتخلف

إن لم تبلعه قبلها صواعق الموت الذري. فهل إذا بلغ العقل مداه في ميادين المعرفة المادية والاختراع يفيق العقل من غفوته لينقذ الإنسان من كبوته؟ أم سيستمر الإنسان في غوايته كافرا؟

المسلمون كانوا أحق أن يقوموا بدعوة إيجابية للإسلام، بحركة مبادرة يلفتون بها نظر الإنسان لقيمة الإنسان. لكن حال المسلمين ذلة وتنازع وتنابز بالألقاب وهزيمة في الاقتصاد وميادين الجهاد. ولن يحمل الرسالة من هذا وصفه.

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ﴾ البقرة، 257، متى آمن المسلمون بربهم تولاهم الله ووفقهم ليخرجوا من ظلمات الأهواء والأثرة والتواكل إلى نور الاتباع والبذل والعمل. ويبقى أمل الإنسانية وأمل المسلمين في النهضة والانبعاث منوطا باكتشافهم لسر الولاية الخاصة هذه التي يكرم الله بها خاصة عباده المؤمنين ويجعل على يدهم إرشاد الناس وسوقهم إلى حضرة ربهم.

الولاية الخاصة هي قمة ما يبلغه الإنسان المتطهر المتزكي المتقرب إلى الله، فيحيا إن تولاه الله حياة طيبة أبدية في الدنيا والآخرة في مقعد صدق عند مليك مقتدر. والولي نبراس يضيء الطريق أو نجم به يهتدى أو شمس للمعرفة ساطعة. فهم درجات عند ربهم وصاحب الإذن منهم يحمل رسالة الإسلام يجدد الدعوة ويلوح بالراية فينضوي إلى نوره ولوائه من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا.

إن المنهاج النبوي في اجتهادنا لانبعاث إسلامي يتضمن ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية. وقد تحدثنا في هذا الكتاب عن شروط صحة القيادة الجهادية وآن أن نعرف من هم أولياء الله الذين بصحبتهم يتجدد إيمان الفاترين وبمددهم الفائض من ربهم يسطع النور الدال على باب التوبة للعاثرين.

بهاء القربة : نستمع إلى أولياء الله يتحدثون عن أولياء الله. الحكيم الترمذي المحدث الصوفي ولي الله تعالى يصف الولاية وعلامات الأولياء فيقول[1] :

«الأولياء هم الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى؛ قد علاهم بهاء القربة ونور الجلال وهيبة الكبرياء وأنس الوقار. فإذا نظر الناظر إليهم ذكر الله تعالى، لما رأى عليهم من آثار الملكوت. والقلب معدن هذه الأشياء ومستقر النور... فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد، تأدى إلى الوجه ذلك النور. فإذا وقع بصرك عليه ذكرك التقوى، ووقع عليك مهابة الصلاح والعلم بأمور الله تعالى. ومتى كان على القلب نور سلطان الحق ذكرك الصدق والحق ووقع عليك مهابة الحق والاستقامة. وإذا كان عليه نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله ذكرك عظمته وجلاله وسلطانه. وإذا كان على القلب نوره -وهو نور الأنوار-

1 كما نقله في «كتاب ختم الأولياء» للحكيم الترمذي طبعة بيروت، ص 457 .

بهتتك رؤيته» (نوادر الأصول ص : 140).

هذا تفسير قوله عليه الصلاة والسلام: «**إن لله رجالا إذا رؤوا ذكر الله**»، يغطيهم سبحانه بهيبته وجلاله، فيحملك توقيرهم إلى خشية الله، وتحملك محبتهم إلى محبة الله، هم أولياء الله من أحبهم وصدق في صحبتهم حق على الله يوم القيامة أن يكون ممن ينادون إلى ظل الله. روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لاظل إلا ظلي!**». وفي أحاديث كثيرة إن المرء يوم القيامة مع من أحب، فطوبى لمن أحب الله ورسوله وأحب أولياء الله الدالين عليه.

السعادة القصوى: عبد الرحمن بن خلدون البحاثة الطلعة أثل لنا في مقدمته فصلا نفيسا عن التصوف والصوفية، وألف كتابه «شفاء السائل لتهذيب المسائل» قال فيه القول الفصل في ضرورة صحبة العارف الواصل لمن أراد سلوك طريق الله. وانتهى نظره إلى أن مجاهدة التقوى ومجاهدة الاستقامة لا تحتاج لصحبة عارف إنما تحتاج لمجاهدة وعبادة. أما مجاهدة الكشف والاطلاع فيقول عنها[1].

«المجاهدة الثالثة مجاهدة الكشف والاطلاع : وهي محو

1 المصدر السابق . ص 514 ينقل عن «شفاء السائل»

الصفات البشرية، وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة، حتى يقع له ما يحصل به الموت من ذلك أو ما يقرب منه (هكذا كان المشايخ يربون مريديهم، وهناك طريق المحبة والشكر قائمة على مداومة الذكر مع الاستقامة على شرع الله. ثم محاذاة شطر الحق باللطيفة الربانية، لينكشف الحجاب، وتظهر أسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان. وهذا هو العلم الإلهامي الذي قدمنا أنه يحصل بالتصفية.

ولهذه المجاهدة عند القوم شروط، فالأول حصول التقوى الذي قدمنا شرح مجاهدتها... والشرط الثاني حصول الاستقامة التي قدمنا أيضا شرح مجاهدتها.

الشرط الثالث الاقتداء بشيخ سالك، قد خبر المجاهدات، وقطع طريق الله، وارتفع له الحجاب وتجلت له الأنوار. فهو يعرف أحوالها ويدرج المريدين في عقباتها حتى تتاح له الرحمة الربانية، ويحصل له الكشف والاطلاع»

ويقول ابن خلدون عن معرفة الله تعالى[1] :

«اعلم أن معنى السعادة حصول النعيم واللذة باستيفاء كل غريزة ما تشتاق إليه من مقتضى طبعها، وذلك هو كمالها. فلذة الغضب بالانتقام، ولذة الشهوة بالغذاء أو النكاح، ولذة البصر بالرؤية، ولذة هذه اللطيفة الروحانية بحصول العلم والمعرفة لأنه، كما

1المصدر السابق ص 511 ينقل عن «شفاء السائل».

قدمنا، مقتضى طبعها وغريزتها، ثم تتفاوت اللذات بتفاوت الغرائز في أنفسها.

وقد تبين أن هذه اللطيفة أكمل الغرائز المدركة، فلذتها بالإدراك أتم وأعظم. ثم تتفاوت لذتها أيضا بتفاوت المعلومات: فالعلم بالنحو والشعر والفقه ليس كالعلم بالله وصفاته وأفعاله، والاطلاع على أسرار السوقة ليس كالاطلاع على أسرار الملوك ومواطن تدبيرهم...

فإذا كان في المعلومات ما هو أجل وأشرف، وفي العلوم ما هو أتم وأوضح، وكان الشوق إلى العلم به شديدا، فالعلم به ألذ العلوم لا محالة. وليس في الوجود أعلى ولا أكمل من خالق الأشياء وموجدها ومرتبها. وهل يتصور أن تكون حضرة في الكمال والجمال أعظم من الربوبية التي لا يحيط بمبادئ جلالها وصف واصف ؟ فإذن الاطلاع على أسرارها والعلم بترتيبها المحيط بكل الوجودات، علما لدنيا إلهاميا، واطلاعا كشفيا، هو أعلى أنواع المعارف وأكملها وأوضحها وألذها، وأحرى ما يحصل به الابتهاج والفرح ويستشعر به الكمال.

فقد تبين أن العلم لذيذ، وأن ألذ العلوم معرفة الله وصفاته وأفعاله وتدبير مملكته، بالعلم الإلهامي اللدني الذي قدمنا شرعه. ولا سيما من طال فكره في ذلك وحرص على الاطلاع على أسرار الملكوت

فإنه يعظم فرحه عند الكشف بما يكاد يطير له. وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق، والحكاية فيه قليلة الجدوى. ولقد يستشعر شيئا من هذه اللذة طلاب العلم الكسبي عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي يطول حرصهم عليها وشوقهم إلى معرفتها».

استكشاف الحق: الإمام الغزالي كتب إحياءه لعلوم الدين وضمنه علما جديدا أنكره أمثال العلامة ابن تيمية. ومن تلبث في داره قمين أن ينكر العالم إذا حدثه عنه من جاب البلاد وعرف منها الجبال والوهاد. يقول الغزالي[1] : «فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر وفاض على صدورهم النور لا بالتعليم والدراسة والكتابة بالكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى. فمن كان لله كان الله له ! وزعموا أن الطريق في ذلك أولا بانقطاع علائق الدنيا بالكلية وتفريغ القلب منها، وبقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العالم والولاية والجاه. بل يصير إلى حالة يستوى فيها وجود الشيء وعدمه. ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب. ويجلس فارغ القلب مجموع الهم. ولا يفرق فكره بقراءة قرآن ولا بالتأمل في تفسير ولا بكتب حديث وغيره، بل يجتهد ألا يخطر بباله

1 «إحياء علوم الدين» ج 3 ص 19 نقلا عن المصدر السابق.

شيء سوى الله تعالى. فلا يزال بعد جلوسه في الخلوة قائلا بلسانه: الله! الله! على الدوام مع حضور القلب حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك اللسان ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه. ثم يواظب عليه إلى أن يمحى أثره على اللسان ويصادف قلبه مواظبا على الذكر. ثم يواظب عليه إلى أن يمحى عن القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجردا في قلبه حاضرا فيه كأنه لازم له لا يفارقه، وله اختيار إلى أن ينتهي إلى هذا الحد، واختيار في استدامة هذه الحال بدفع الوسواس. وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله. بل هو بما فعله صار متعرضا لنفحات رحمة الله، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من الرحمة. كما فتحها على الأنبياء والأولياء بهذه الطريق.

وعند ذلك، إذا صدقت إرادته، وصفت همته، وحسنت مواظبته فلم تجاذبه الشهوات ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يلبث، ثم يعود وقد يتأخر. وإن عاد فقد يثبت وقد يكون مختطفا. وإن ثبت قد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فن واحد. ومنازل أولياء الله تعالى فيه لا تحصر كما لا يحصى تفاوت خلقهم وأخلاقهم. وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء

ثم استعداد وانتظار فقط».

خصوم الغزالي يعزون إليه وإلى فكره هذا الانعطاف في تاريخ المسلمين الذي أدى إلى ترك العمل والعكوف على طلب الآخرة مع الزهد في الدنيا وقطع العلائق عن المال والولد كما يعبر الغزالي. ولهؤلاء الحق لو كان الغزالي خاطب عامة الناس واقترح المجاهدة مذهبا اجتماعيا، إنما كتب الغزالي لجماعة تقل في كل زمان ومكان من ذوي الهمم العالية، ثم إن ما وصفه من الزهد في الدنيا وقطع العلائق إنما هو رياضة موقوتة وسوك لفترة معينة يأتي بالتصفية الروحية التي تصعد بالفرد إلى مراتب الكمال الروحي، فإذا تمت هذه التزكية أصبحت المجاهدة غير ذات موضوع فهي كانت وسيلة لا غاية.

والذي وصفه الغزالي من المجاهدة هو السلوك الذي أوصاه به شيخه كما ذكر ذلك في كتابه «ميزان العمل»، نقلنا بعضه فيما سبق. وليست الكيفية التي وصفها تنفع إن لم يقع للمريد سلوك على يد الشيخ المربي.

ويوضع هنا اعتراض عام على الصوفية واتهامهم بالانعزال عن ميادين العمل والانتاج. والصوفية الحق عبر التاريخ كانوا رجال جهاد في أنفسهم وفي ثغور المسلمين، وإنما سميت رباطاتهم بهذا الاسم لأنها في الأصل كانت مرابطة إزاء العدو.

ويتهم الصوفية بالانعزال ذوو الفكر العلمي عندما يجدون أن الصوفية ما كانوا يثورون على الحاكم الجائر، وإنما يدخلون عليه ويعظونه ويشفعون عنده لذوي الحاجات. وسلوك مثل هذا يذهب بالأغرار إلى فهم الصوفية فهما منحرفا. إن هؤلاء السادة يتبعون السنة لا يحيدون عنها، ويقرأون وصية الرسول الكريم بالطاعة ولو لعبد حبشي، ولو لجائر ما أقام الصلاة، فلا يسعهم إلا الاتباع.

وإذا عم الكفر وعطلت شريعة الله فالذي ينعزل عن الناس فارا بدينه سائر على الكتاب والسنة. في بعض الأحاديث أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على جماعة المؤمنين ما داموا أقلية في وجه المعطلين للشريعة وفي كتاب الله تعالى اعتراف وتزكية للذين اعتزلوا فارين بدينهم. قال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلّاً جَعَلْنَا نَبِيّاً**﴾ مريم، 49. وقال عز من قائل عن أصحاب الكهف : ﴿**وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً**﴾ الكهف، 16.

فأية سلك طالبو الحق المستكشفون للحق فطريقهم لا يشقونها إلا بالحق. وما زكاهم الله تعالى بنوره وفتح لهم من رحمته إلا لأنهم وقفوا عند حدوده وتحببوا إليه سبحانه بالفرض والنفل حتى أحبهم واصطفاهم.

علم الأولياء: تقدم العقل البشري في ميادين العلوم التجريبية شأوا بعيدا، لكنه بقي حائرا أمام ظواهر لا تخضع للعقل. وظاهرة غريبة أن يسخر الأسطول الأمريكي في سرية عسكرية لإجراء تجارب عن اتصال الفكر الخفي «Télépathie». إنه اعتراف العقل العقلاني أن وراء الأكمة ما وراءها. وفي عصرنا عصر الاختراع العلمي يطغى تيار الرياضات المجوسية اليوكية، هؤلاء الهنود الذين جابوا العالم ينشرون تعاليمهم ويبشرون بالرياضة الروحية التي تأتي بالسعادة والتوازن. إنهم يبيعون بضاعتهم للإنسان الغربي الكالح الكادح وتؤيد دعواهم خوارق العادة التي يراها القاصي والداني. هؤلاء «الفقراء» الهنود يذهلون العقل العقلاني بما يعرضونه من قدرات خارقة للعادة تبهر المفكرين والمتفرجين. ثم إن عند الإنسان المتحضر ميلا عظيما إلى الروحانيات بصفة عامة، هذا ما يسمونه استحضار الأرواح، وهكذا انكلترا لا تكاد تجد فيها رجلا ولا امرأة لم يشاهد الأشباح في القصور أو لا يؤمن بوجود هذه الأشباح. وهناك في جزيرة هايتي وفي إفريقيا عبادة «الفودو»، عبادة شياطين تخاطب الناس وتشاركهم حياتهم اليومية. وفي بلاد المسلمين حركات دائبة لمن يكلمهم الشيطان ويسخرهم ويسخر بهم.

في العالم كله غيب محير يظهر عيانا لعامة الناس وينكره العقل

العقلاني، وفي الإنسان ميل إلى الغيب فهو يتزيد في هذه الظواهر الغيبية، ويخاتل المحتالون الناس فيندسون لهم باسم هذا الغيب يتصيدون الأغبياء. وفي الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مائتي ألف مشعوذ، واحد لكل ألف مواطن ! منهم المنجم وقارئ الكف ونجي الشيطان وبائع الطلسمات !

إن الإنسان حيوان غيبي كما يقول بعض الفلاسفة. وإنه ليحيط به عالم مليء بالعجائب والغرائب. والمؤمن بكتاب الله وسنة رسوله يعلم أن لله خلقا غير ما نراه بأعيننا ومجهراتنا، ويعلم أن الشيطان شيطانان، شيطان من الناس هم الفسقة المفسدون، وشيطان من الجن يوسوس لأصحابه ومطاياه ويزين لهم الكفر والفسوق والعصيان.

حضر الشيخ محمد عبده رحمه الله في زيارته لأوربا مجالس ما يسمونه استحضار الأرواح، وعصمه الله أن يقع فيما وقع فيه الطناطاوي الجوهري وأمثاله، ففسر ظاهرة تحرك الموائد وظهور الكتابة والإخبار عن الغيب التفسير السديد. قال إنه الشيطان، إنه الجن القرين الذي أخبر عنه القرآن والحديث، أو شيطانه كما عبر الرسول، حتى إذا مات الإنسان بقي القرين يدلس على الناس ويوسوس لهم؛وهكذا يخط القرين خطا كخط الميت ويحدث عن أسرار لا يعلمها إلا

الميت وهكذا. وفي بلاد المسلمين اليوم أندية شيطانية يستحضرون فيها الشياطين يلاعبونها وتضحك عليهم. وما «الفودو» والزار وما شابه ذلك إلا ظواهر شيطانية لا تنحصر في إفريقيا وهايتي، بل تجدها بصفة من الصفات وتحت اسم من الأسماء أينما حل الإنسان.

أما الرياضات اليوكية وما شابهها فتنتج لأصحابها كشفا وقدرة على خرق العادات. ويسمي أولياء الله أهل النور والحق اكتساب هذه القدرة فتحا ظلمانيا.

هذا ولي الله تعالى مولانا عبد العزيز الدباغ[1] الرجل الأمي يشرح لنا الفتح الذي يقع لمن سمت همته وتطلعت لما وراء الحس، واتخذ لبلوغ غايته سبيلا. نعلم أن اليوكيين وأمثالهم من أصحاب الرياضات يسلكون طريقهم إلى الشقاء على يد شيخ يدلهم على طلبتهم، لكن حقيقة ما يصلون إليه تجدها عند من علمهم الله من لدنه علما وأعطاهم رحمة. يقول السيد عبد العزيز الدباغ : « وأما أهل الحق فلهم فتح في أول الأمر وفي ثاني الأمر. أما الفتح في أول الأمر فجميع ما سبق لأهل الظلام في هذا العالم سمائه وأرضه. فيشاهد صاحب هذا الفتح الأرضيين السبع وما فيهن والسماوات السبع وما فيهن ويشاهد أفعال العباد في دورهم وقصورهم، لا يرى ذلك ببصره، وإنما يراه ببصيرته التي لا

1كتاب «الإبريز» طبعة محمد علي صبيح، ص 303.

يحجبها ستر ولا يردها جدار، وكذا يشاهد الأمور المستقبلة مثل ما يقع في شهر كذا وفي سنة كذا. وهؤلاء وأهل الظلام في هذا الفتح على حد سواء. ولذا يقال: الكشف أضعف درجات الولاية، أي لأنه يوجد عند أهل الحق ويوجد عند أهل الباطل. وصاحبه لا يأمن على نفسه من القطيعة واللحوق بأهل الظلام حتى يقطع مقامه ويتجاوزه».

فهذا هذا. أما علم أولياء الأمور المتجاوز لكشف العوالم فهو بغية السالكين طريق الله تعالى، ويصفه السيد الجليل هكذا.

«وأما الفتح في ثاني الأمر فهو أن يفتح عليه في مشاهدة أسرار الحق التي حجب عنها أهل الظلام، فيشاهد الأولياء العارفين بالله تعالى، ويتكلم معهم ويناجيهم على بعد المسافة مناجاة الجليس لجليسه، وكذا يشاهد أرواح المؤمنين فوق القبور، والكرام الكاتبين والملائكة والبرزخ وأرواح الموتى التي فيه، ويشاهد قبر النبي صلى الله عليه وسلم وعمود النور الممتد منه إلى قبة البرزخ. فإذا حصلت له مشاهدة ذات النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة حصل له الأمان من تلاعب الشيطان لاجتماعه مع رحمة الله تعالى وهي سيدنا ونبينا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم. ثم اجتماعه مع الذات الشريفة سبب إلى معرفته بالحق سبحانه، ومشاهدة ذاته الأزلية، لأنه يجد الذات الشريفة غائبة في الحق هائمة في مشاهدته سبحانه. فلا يزال الولي ببركة الذات الشريفة يتعلق بالحق

سبحانه ويترقى في معرفته شيئا فشيئا إلى أن تقع له المشاهدة وأسرار المعرفة وأنوار المحبة. فهذا الفتح الثاني هو الفاصل بين أهل الحق وأهل الباطل».

ويشرح ولي الله تعالى خرق العوائد الذي يأتي به أهل الظلام، ويفصل الملكوت النوراني والظلمة الشيطانية الخائضة في دائرتها سدنة الباطل: «وأما الفتح الأول فإنه كما يقع لهم يقع لأهل الظلام، فيقع لهم الفتح في مشاهدة الأمور الفانية ويتمكنون من التصرف فيها؛ فترى المبطل يمشي على البحر ويطير في الهواء ويرزق من الغيب وهو من الكافرين بالله عز وجل. وذلك أن الله تعالى خلق النور وخلق منه الملائكة، وجعلهم أعوانا لأهل النور بالتوفيق والتسديد وخرق العوائد. وكذلك خلق الظلام وخلق منه الشياطين وجعلهم أعوانا لأهل الباطل بالاستدراج والمزيد من الخسران والتمكن من الخوارق».

أكتب هذا وأعلم أنه قول ثقيل لا يستسيغه الغافلون عن الله تعالى. ولقد مضى علي زمان كنت فيه أبحث عمن يعطيني الخبر اليقين عن وجود الجن ومخالطتهم للبشر، ورحلت في طلب ذلك رحلات بعيدة. ولما من الله علي بصحبة أوليائه بدا لي الحق واضحا أبلج وجاءتني البراهين مما حدث لي أو لأقرب الناس إلي، على أن مأخذ

الحق في كتاب الله وإخبار رسوله، وأصبح إيماني بالغيب والحمد لله يقينا لأن الغيب عشته وبلوته ولمسته.

أين الباب؟ لا يزال المسلمون منذ القديم يتشوفون إلى موطن الأولياء، إلى المغرب، ويترقبون ظهور أهل الحق وطلوع الشمس من مغربها. ويسمي أهل الله بلاد المغرب أرض الأولياء كما يسمون بلاد المشرق أرض الأنبياء، وبرز من المغرب سادة أجلة مثل الشاذلي والمرسي والبدوي والرفاعي وجد الشعراني وكثير كثير. وقد ألقى السيد الجليل الحكيم الترمذي منذ القرن الثالث أسئلة ما أجاب عنها كلها إلا الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي المغربي. وبعد أربعة قرون ظلت فيها الأسئلة السبعة والخمسون والمائة لغزا مغلقا، جاء الحل والفتح على يد ولي الله، سلط الله عليه حيا وميتا، ألسنة المنكرين وبطشهم، فكفره من كفره. وتعلق به طلاب الحق يخالون أن باب المعرفة هو الاطلاع الفكري على علوم الأولياء. ومحيي الدين أجاب عن الأسئلة وضمنها الإرشاد إلى الباب الحق، إلى الشيخ الحي حامل سر الاسم المسمى قطبا وغوثا.

وألف محيي الدين بن عربي كتيبا بأسلوبه الغامض عنوانه: «عنقاء مغرب في معرفة ختم الأولياء وشمس المغرب»، وفيه، بل ليس فيه إلا إشارات لموطن الأولياء.

السؤال الخامس والثلاثون بعد المائة من أسئلة الحكيم الترمذي

يتعرض لاسم الله الأعظم، ويجيب ابن عربي بأن أولياء من سبقنا من الأمم أعطوا حروف هذا الاسم دون معناها، وأولياء هذه الأمة منهم من له المعنى دون الحروف ومنهم من جمع بين المعنى والحروف.

والسؤال الذي يليه يطلب : أين باب هذا الاسم الخفي على الخلق من أبوابه؟ ويجيب ابن عربي رحمه الله تعالى في كتابه : «الجواب المستقيم» بأن بابه بالمغرب الأقصى[1].

ثم يرجع ابن عربي في كتابه «الفتوحات المكية» فيجيب بشيء من التفصيل[2].

« الجواب: بالمغرب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[3] : «**لاتزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة**». وعليه تطلع الشمس من المغرب عندما يسد باب التوبة ويغلق فلا ينفع نفسا إيمانها ولا ما تكسبه من خير بذلك الإيمان. والمؤمن لا يغلق له باب. وكيف يغلق دونه وقد تجاوزه وتركه وراءه؟ فمن عناية المؤمن غلقه حتى لا يخرج عليه بعد ما دخل منه. فلا يرتد مؤمن بعد ذلك، فإنه ليس له باب يخرج منه، فغلق باب التوبة رحمة بالمؤمن ووبال على الكافر.

1كتاب ختم الأولياء ص 308

2 المصدر السابق نقلا عن الفتوحات ج 2 ص 121

3 هذه رواية لمسلم وقد حار بعضهم في فهم الحديث، وقرأ بعضهم الغرب بدل المغرب و أولوا ذلك تأويلات واهية.

وجعله الله بالمغرب لأنه مجلى الأسرار والكتم. وهو سر لا يعلمه إلا أهل الاختصاص. فلو كان هذا الباب بالشرق لكان ظاهرا عند العام والخاص، ووقع به الفساد في العموم. وهذا يناقض ما وجد له العالم من الصلاح».

اختصاص بلاد المغرب بهذه الخصوصية، بكونها موطن الأولياء حقيقة لمسها حتى أعداؤنا المستعمرون. ودرس المستشرقون تاريخ المغرب وتاريخ رباطاته فصنفوا تاريخنا ووصفوا المرابطية «maraboutisme » بأنها مذهب اتباع الأولياء المرابطين أصحاب الزوايا. ولفت نظر المستشرقين طقوس ابتدعها أدعياء الطريق ووقفوا مع «الفولكلور» الملون لا يميزون بين الأحوال الربانية والأحوال الشيطانية وأنى لهم!

وانبعث طائفة من علماء المسلمين الأجلة أمثال السيد ابن باديس يحاربون الطرقية باسم إصلاح سلفي متطهر، وكان لهؤلاء العلماء المبجلين اليد البيضاء على الدين لأنهم حرروا بعض بسطاء الناس ممن كانوا يستغلونهم باسم الطريق. لكن علماءنا الأفاضل ما كان بيدهم معيار الحق ليعرفوا المحق من المبطل، وهكذا احترق الأخضر باليابس، وحشر الإصلاحيون طلاب «الزردة» وطلاب الحق في زريبة واحدة، وبدعوا وكفروا، ولهم عند الله ثواب المجتهدين.

الذين يزعمون أن المرابطية داء هذه الأمة محقون مخطئون

في آن واحد. محقون بقدر ما تكون المرابطية ستارا لدعوى كاذبة، لاحتراف يفتري على الله وعلى الناس. وبهذا المنطق يمكن أن نقول إن علماء هذه الأمة هم داؤها لأن سمت العلماء وكلام العلماء يتبناه الفاسق الجاهل ليغر به الناس. وبهذا المنطق يمكن أن نقول إن المذاهب السنية داء هذه الأمة لأن من الناس من يستتر تحت اسم السنية أو السلفية ليكذب على الله وعلى الناس، وهكذا الشيعة الأخيار لأن الباطنية والروافض يندسون تحت الاسم.

ومن لا يعرف من المرابطية والتصوف إلا الزردة والعمارة وبناية الزاوية وما يغشاها من لحى طويلة وسبح غليظة مغبون مرتين، مغبون على مستوى التحقيق الفكري، مغبون في معرفة طريق الحق طريق التزكية والطهارة القلبية. أفلا ينظرون كيف تكون هذه الزوايا مستشفى لأمراض القلب ما دام يعمرها شيخ مرب عارف بالله، فإذا انتقل إلى الدار الآخرة ولم يترك وارثا مربيا تحولت زاوية التبرك إلى مدرسة بشكل من الأشكال تحافظ على تعاليم الدين وتؤوى إليها المؤمنين؟ أفلا ينظرون فعالية الزوايا السنوسية مثلا وأثرها البليغ في حياة جزء كبير من قارة إفريقيا، كيف علمت هذه الزوايا وكيف ربت الدعاة والمجاهدين؟ أفلا ينظرون إلى مآت من الزوايا المنتشرة في دار الإسلام يشع منها روح الطهارة والإيمان؟ السادة التجانية أدخلوا الإسلام إلى افريقيا كلها،

وحين طغى الكفر في بلاد المارد أتاتورك كان السادة التجانية والنقشبندية وإخوانهم من رجال الطريق الذاكرين أول من جهر بإسلامه في الشارع في مظاهرات 1945 و1950.

في بلاد المشرق استوت الطرقية على نظام تبركي يسالمه من لا يعتنقه، وباستثناء فتن قديمة انتهت إلى غايتها كف المسلمون في المشرق عن مطاردة الصوفي وهمزه ولمزه. أما في بلاد المغرب فقد تركت الإصلاحية السلفية خطا هجوميا لا تزال به أثارة من تصلب، وإن كنا نرى اليوم من هؤلاء السلفية الإصلاحيين من أخذ يعض على أصابع الندم على ما فرط في حق الصوفية، ولأنه لم يتعلم أن يميز بين الغث والسمين. أما في المشرق فقد كثرت الكتابة عن التصوف ممن اطلع على الكتب في غالب الأحيان، وقليلا ما يكتب رجال الطريق أهل الذوق. فإذا كتب مفكرون عن التصوف فغالبا ما يمجدون أمثال الجنيد والجيلي ويتملون بذكر المناقب والأخلاق العالية. وممن يكتبون عن التصوف اليوم رجال فكر خاضوا في لجاجات سياسية أو فلسفية[1] ، حتى إذا أعياهم البحث رجعوا يبحثون عن الطريق إلى الحق وعن الباب، فأين الباب؟

1 خالد محمد خالد يكتب عن التصوف والصوفية بعنوان «الموعد الله» وانظر ما يكتبه في هذه الأيام رجل فتنه الفكر العقلاني في زمان هو مصطفى محمود، ثم تاب ورحل من الشك إلى الإيمان.

وفد علينا رجل من علماء إحدى جامعات الشرق، وبلغني أنه يطلب الشيخ المربي. فسعيت إليه وأخبرني أنه جاب الصحاري والجبال في هذه البلاد يطلب شيخا فما وجد. وأخبرته أنا بما أعلمه ودللته على الخير فأبدى عزمه على الرحلة إلى حيث دللته. وما سمعت عن الرجل بعدها إلا بعض خطبه يكون فيها كالهزبر الكاسر. حتى لقيته يوما، وما عرفني، في غرفة مريض من ذوي الصلاح الديني والجاه الدنيوي، فرأيت الرجل يقبل اليد والركب يتوسل في قضاء حاجة من حوائج معاشه، فعلمت أن الذي هو أعز من الكبريت الأحمر ليس الشيخ المربي وإنما هو صدق الطلب.

ووفد إلى هذا البلد بعض علماء المسلمين ومفكريهم ورجال الدعوة الإسلامية منهم؛ فبلغني أن الكثيرين يسألون عن الشيخ المربي، وكأنهم يتوقعون ظهور العنقاء المغرب، لكن من يتولى الإجابة عن سؤالهم: أين الباب؟ قوم لا يعلمون أن لطريق الحق بابا يولج منه، ومنهم من حمل الإصلاحية أسمالا مهلهلة وقد حملها أمثال ابن باديس رحمه الله لباس صدق وتقوى.

لقاآت تاريخية

كان للصوفية الكرام فعالية عظيمة في تاريخ المسلمين، هم كانوا مجددي الدين وحاملي لواء الحق. وإن كان ممن ينتسبون إلى طريق الله رجال عنف تسموا مهديين فإن رجال الله كانوا العلماء العاملين وكانوا المجاهدين وكانوا هداة تقاة. اقرأ كتاب الندوي : «ربانية لا رهبانية» ففيه الغناء.

إن أول من حارب الاستعمار وأقوى من حارب الاستعمار في بلاد المسلمين عالم صوفي يعرف الناس جانب حياته كمجاهد عالم ويطوي من له نيات خفية أن أول صفة لهذا الرجل هو أنه صوفي. إنه عبد القادر الجزائري طيب الذكر قدس الله روحه. ليس قصدي أن أقص حياته أو أسرد أحداث جهاده. إنما أحب أن أنبه من يريدون معرفة تاريخ هذه الأمة إلى قراءة كتابه «المواقف» في ثلاث مجلدات عسى أن يجدوا عناصر تعينهم على إصدار حكم نهائي في حق الصوفية، أهم رجال خمول أم رجال عمل، أقصد الصادقين لا المحترفين.

وأحب أن أورد قصيدة قالها عبد القادر رحمه الله يوم لقي شيخه وأخذ عنه وهو السيد محمد الفاسي. يقول في هذا الصدد

السيد جواد المرابط[1] :

«أما المرحلة الثالثة فهي التي تم له فيها الفتح العظيم. وكان ذلك عندما سافر حاجا سنة 1279 حيث أقام في مكة سنة ونصفا مقبلا على العبادة والخلوة، وحيث التقى فيها بالشيخ الجليل العارف بالله محمد الفاسي رئيس الطريقة الشاذلية وتتلمذ عليه. وهو ما يشير إليه الأمير في قصيدته الرائية التي مطلعها:

أمسعود جاء السعد والخير واليسر   وولت جيوش النحس ليس لها ذكر

والتي يقول فيها:

أمولاي طال الهجر وانقطع الصبر   أمولاي هذا الليل هل بعده فجر؟
أسائل كل الخلق هل من مخبر   يحدثني عنكم فينعشني الخُبر؟
إلى أن دعتني همة الشيخ من مدى   بعيد ألا فادن، فعندي لك الذخر
فشمرت عن ذيلي الإطار وطار بي   جناح اشتياق ليس يخشى له كسر
فأنعم بمصر ربت الشيخ يافعا   وأنعم بقطر طار منه له ذكر
فمكة ذي خير البلاد فديتها   فما طاولتها الشمس يوما ولا النسر
بعا كعبتان كعبة طاف حولها   حجيج الملا بل ذلك عندهم الظفر
وكعبة حجاج الجناب الذي سما   وجل فلا ركن لديه ولا حجر
وشتان ما بين الحجيجين عندنا   فهذا له ملك وهذا له أجر
وفيها حلا لي الذل من بعد عزة   فيا حبذا هذا ولو بدؤه مر

1 كتابه «التصوف والأمير عبد القادر االحسني الجزائري» ط 1966 ص 28.

وذاك من فضـــــــل الإله ومنه   علي فما للفضل عد ولا حصر
فقل لملوك الأرض أنتم وشأنكم   فقسمتكم ضيزى وقسمتنا كثر !

لله در المجاهد الكبير، ولئن تاه بهمته على الملوك فإن قصيدته هذه ومعانيها الدقيقة تتيه أن يفهمها غير ذويها الذين دعتهم همة الشيخ كما دعت عبد القادر إلى مجد الدنيا والآخرة.

كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودي في كتابه : «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» عرضا لجهاد من نشروا الإسلام ودافعوا عن صفائه، ولم يجتمع لديه إلا وجوه صوفية كرام أمثال عمر بن عبد العزيز والأئمة الأربعة والغزالي والشيخ أحمد السرهندي وولي الله الدهلوي وآخرين. وكتب السيد الجليل أبو الحسن الندوي كتابه: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» فلم يجتمع له إلا رجال صوفية كرام أمثال الغزالي وأحمد بن حنبل والجيلي وجلال الدين الرومي وآخرين.

ونحن في هذه الصحفات القليلة نعرض إلى أثر الصحبة الصوفية في حياة الأمة. هؤلاء الصوفية الوديعون المسالمون الأقوياء متى انتهكت حرمات الله يسعون بدعوة مفتوحة إلى التوبة لعامة الناس وخاصتهم، بل إنهم يبذلون الجهد كله لإصلاح رجال السلطان لأن بصلاحهم تصلح الأمة كلها. إنهم يؤمنون بما سميناه بلغة العصر: ثنائية الدعوة والقيادة الجهادية. إنهم لا ينازعون ذوي الأمر

أمرهم بل يحملون إليهم كما يحملون لعامة الناس بشرى الرحمة التي جاء بها الرسول عليه الصلاة والسلام. ومتى وجدوا استجابة من السلطان تحول تاريخ الأمة ورجع إليها خيرها وقوتها.

هذا مولانا عمر بن عبد العزيز الشاب المترف ربيب القصور ظهر بعد ظلمة الفتن الأموية يعيد شؤون المسلمين إلى نصابها، وإنما بعثته صحبة ولي لله صالح. وهذا صلاح الدين الأيوبي ظهر في زمن ضعف فيه المسلمون وتخاذلوا، وإنما أصبح صلاحُ الدين صلاحَ الدين بصحبة رجل صالح، وهكذا في المثالين الآخرين من الأمثلة الأربعة التي نسوقها.

إن هذه اللقآت التاريخية، لقآت رجال الدعوة برجال السلطان، أزمنة حاسمة في تاريخ الأمة تحدث عندما تشتد بالمسلمين الأزمات وتنهكهم المحن.

همة عالية: قال السيد الجليل مولانا عمر بن عبد العزيز بعد أن ولي الخلافة :

«إن لي نفسا ذواقة تواقة، كلما ذاقت شيئا تاقت إلى ما فوقه، ولقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان، ثم تاقت نفسي إلى العلم بالعربية فأصبت منه حاجتي، ثم تاقت نفسي إلى فاطمة بنت عبد الله فتزوجتها، وتاقت نفسي إلى الإمارة فوليتها، وتاقت إلى الخلافة فأدركتها، فلما ذاقت الخلافة ولم يكن شيء في الدنيا

فوقها تاقت نفسي إلى ما عند الله في الآخرة».

الهمم الذواقة التواقة محض استعداد قد تتجه للخير فتنفع الناس وقد يسوء اتجاهها فتكون أنكى على الناس لأنها تصبح شرا مكررا لا حد له. وهمة عمر بن عبد العزيز رفعته من انحلال الأمراء وطغيانهم إلى درجة الصديقين المجاهدين. فما سر هذا المعراج، وأية قوة أمسكت بلابس الحرير صاحب المشية العمرية التي يضرب بها المثل وسارت به مسيرة الرجال؟ يقول ابن عبد الحكم[1]: «فقدم رجاء (بن حيوة) على عمر ضيفا وأقام عنده، ولم يأل عمر في إلطافه وإكرامه وتقريبه، وأقام عنده أياما... ثم رغب رجاء في صحبة عمر وصداقته على النسك والعبادة».

وإذن فقد كان لعمر صحبة مع رجاء، صحبة على النسك والعبادة، وهذه الصحبة السنية سموها فيما بعد صحبة صوفية. رجاء بن حيوة صحب أميرا مترفا فعبدا الله معا، ولما حضرت سليمان بن عبد الملك وفاته أشار عليه رجاء بتولية الأمر لعمر، وبعد تولي عمر الخلافة كان صاحب رأيه ووزيره هذا الرجل الصالح.

وجدت الهمة الذواقة التواقة من يواجهها ويربيها، فبلغت شأوا بعيدا في إصلاح حال المسلمين. ويرجع الفضل للصحبة الخيرة التي أتاحها الله للأمير وأتاح بها للأمة فرصة لتطل إطلالة قصيرة على

1 نقلا عن كتاب «الخليفة الزاهد» لعبد العزيز سيد الأهل. ط 3 ص 89

عهد العمرية الفاروقية. ولئن كان مولانا عمر بن الخطاب ورث خلافة لن ينازعه فيها منازع والناس لا يزال الإسلام طريا في قلوبهم، فإن عمر بن عبد العزيز ورث ملكا عضودا وورث ترفا وتهالكا على الدنيا وفسادا كبيرا فقاوم التيار وجاهد حتى قتلوه رحمه الله، وما جاءه الخير والقوة إلا بصحبة الأخيار. فمن هو رجاء الصاحب الناسك؟

يقول عنه ابن عبد الحكم[1] : «وكان رجاء بن حيوة بن جرول الكندي من أهل الأردن العلماء، وكان أعبد أهل زمانه من أهل الشام، مرضيا حكيما صاحب بلاغة وأناة ووقار. وكانت الخلفاء تعرفه بفضله فيتخذونه وزيرا مستشارا وقيما على عمالهم وأولادهم. وقد وقف بين الخلفاء وقسوتهم وشهواتهم مواقف كبيرة منذ عبد الملك بقدرة مداخله عليهم. فلما كان سليمان أصبح لرجاء عنده من الخاصة والمنزلة ما ليس لأحد، وجعل سليمان يثق به ويستريح إليه».

وعقد له الأصبهاني في كتابه «حلية الأولياء» ترجمة تشير إلى الوقار والصدق وحسن السمت. وتلك صفات رجل الدعوة، وما وصفه ابن عبد الحكم من مخالطته للحكام رد ضمني للذين يظنون أن المؤمن النقي لا يغشى الحاكم. رجاء يقف بين الخلفاء وبين شهواتهم وقساوتهم يعظ ويوعد ويقول كلمة الحق. وتلك

1 المصدر السابق ص 88.

شيمة الصوفية الأبرار لا ينعزلون عن الدنيا وهمومها إلا ريثما تصفو قلوبهم من الشوائب، فإذا كان لهم ما راموه من ذلك حملوا كلمة البشرى كل محمل وسعوا إلى إصلاح الناس محتسبين لله، باذلي النصيحة لله ورسوله وكتابه وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم. هذا الإمام الغزالي يعترف بإمامة المقتدر العباسي ويسعى لإصلاحه، حتى إذا يئس رحل ليوسف بن تاشفين الرجل المجاهد فلم يدركه وحال بينهما الموت. وهذا الشعراني يقص علينا كيف يدخل على السلاطين لقضاء حاجات الناس. ليت شعري ماذا يسمي أصحاب الإيديولوجية مثل هذا : واقعية سياسية ؟ أو بدائية فكرية ؟ وما يهمنا ! فإن القوم الكرام مسلمون قبل كل شيء والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. فمذهبهم سنية واتباع ورفق وترفق.

هدف رجال الله الفعالية في الإصلاح، تلقوا الأمر بذلك من كتاب ربهم وسنة نبيهم فهم يتداولون النصح بذلك ويتناقلونه بينهم. وقد نقل صاحب الحلية عن رجاء بن حيوة ما يلي[1] :

«حدثنا أبو حامد بن جبلة، حدثنا محمد بن اسحق حدثنا سوار بن عبد الله حدثنا سالم بن نوح عن محمد بن ذكوان عن رجاء بن حيوة قال: إني لواقف مع سليمان بن عبد الملك، وكانت لي منه منزلة، إذ جاء رجل، ذكر رجاء بن حيوة من حسن هيئته، قال : فسلم

1 كتاب «حلية الأولياء» ج 5 ص 172

فقال : يا رجاء ! إنك قد ابتليت بهذا الرجل وفي قربه الوقع (الهلاك) يا رجاء ! عليك بالمعروف وعون الضعيف ! واعلم يا رجاء أنه من كانت له منزلة من السلطان فرفع حاجة إنسان ضعيف، وهو لا يستطيع رفعها، لقي الله يوم يلقاه وقد ثبت قدميه للحساب. واعلم يا رجاء أنه من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته. واعلم يا رجاء أن من أحب الأعمال إلى الله فرحا أدخلته على مسلم. ثم فُقد، فكان يرى أنه الخضر عليه السلام».

هكذا تنتهي الرواية؛ يرى رجاء أن نجيه وناصحه كان عبد الله الذي آتاه رحمة وعلمه من لدنه علما. وللصوفية لقاآت مع الخضر والذي قصدنا إليه هنا أن رجاء وأمثاله من أهل الله قوم يقفون لنصرة الضعيف ورفع حاجاته وقول كلمة الحق عند السلطان الجائر.

وكتب عمر بن عبد العزيز ربيب الرجل الصالح وصاحبه ونجيه صفحات مجيدة في تاريخ الإسلام. إنه رد المظالم ! وما أدراك ما رد المظالم! إنها رجولة تبدأ بالتجرد، تجرد القائد المجاهد ينبذ نبذ النواة ما كان عليه عاكفا من شهواته وقصوره. ويخرج القائد المجاهد إلى الناس في ثيابه القصيفة تضم قلبا كبيرا وعزما ماضيا، ويشد على يد المستغلين وينشر الخير وينظم الأمر. وكان لعمر رضي الله عنه جولات، في مدته القصيرة التي لم تتجاوز عامين،

في ميادين التثقيف والإصلاح الاجتماعي وضبط الأموال وتقويم الحكام والرعية.

إن لنا في ابن عبد العزيز أسوة، أسوة لرجال الدعوة في انتظار رحمة الله تأتي بتدبيره تعالى على يد من شاء هدايتهم من حكام المسلمين بالرفق الإسلامي والتؤدة لا العنف، وأسوة لحكامنا إن قدروا أن يتبينوا خطوط القوة في سيرة حفيد الفاروق ويلتمسوا لأنفسهم سيرة على نمطه، ولهم فيه أسوة أن يردوا الظلامات ويجمعوا إرادة أمة مفتونة خائرة ليوجهوها وجهة الخير، وجهة الله ورسوله، قبل أن يغتالها غول الحلول الثورية الشيوعية الكافرة السائرة إليها دولنا على درب الانقلابية.

فيما يلي نبذ من أخبار مولانا عمر بن عبد العزبز ليست تفي بالحاجة إلى معرفة سيرة الرجل الفذ لكنها تضع معالم الطريق.

ولي الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك، فلم يرض حتى رد بيعته على الناس وجعلهم في الخيار فأبوا أن يقيلوه. فعندها التفت إلى نفسه : «فأما ثيابه فقد نزعها، وغسل عنه ذلك الطيب، ولبس كساء بثمانية دراهم. وأما شعره فقد دعا الحجام فأخذ منه كل فضلة، ثم أمر ببيع ما عنده من متاع ومركب ولباس وعطر، فبلغ بيعه ثلاثة وعشرين ألف دينار وأربعة وعشرين، ثم دفع المال

إلى بيت المال»[1].

وبطل الأبهة والسرادقات وضم كل ذلك لبيت المال. ونظر في من حوله فرأى رجلا عرفه بالصلاح فجعله أخص الناس به :

«ثم نظر عمر في وجوه الحرس فرأى عمرو بن مهاجر الأنصاري، وكان تقيا، فقال له عمر حين رآه : والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن، ورأيتك تصلي في موضع تظن أن لا يراك أحد، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي»[2].

وعمد إلى بيته فجرد نساءه وبنيه من كل فضلة، وجرد بيت سليمان وكان مليئا بالجواري عرضن على عمر كالدمى فسرحهن.

ثم غاب عن الناس مع مولاه مزاحم الرجل الصالح ثلاثة أيام جمع فيها سجلات الإقطاعات، التي في يد بنى أمية، ثم خرج على الناس في ثياب قدرها رجاء بن حيوة باثني عشر درهما : حلة من قميص ورداء وسراويل وقباء وعمامة وخفين. ووقف مزاحم دونه فخطب الناس قائلا بعد أن حمد الله وأثنى عليه[3] :

«أما بعد فإن هؤلاء (يعني بني أمية رهطه) أعطونا عطايا ما

1 عبد العزيز سيد الأهل : «الخليفة الزاهد» ص 99.
2 المصدر السابق ص 101 نقلا عن ابن عبد الحكم.
3 المصدر السابق عن ابن الجوزي ص 104.

كان ينبغي لنا أن نأخذها، وما كان ينبغي لهم أن يعطوناها. وإني قد رأيت ذلك ليس علي فيه دون الله محاسب. وإني قد بدأت بنفسي وأهل بيتي. اقرأ يا مزاحم! فجعل مزاحم يخرج سجلا سجلا وعهدا عهدا وكتابا كتابا لعمر أو للأمراء، ثم يقرؤه فيأخذه عمر وبيده الجلم فيقطعه، ومازال حتى جاء الظهر ونادى المؤذن للصلاة».

وأمر عمر ألا ينتفع أحد بأرض مغتصبة، ونادى أن ليس لأحد مال إلا بما في كتاب الله.

هكذا بدأت السيرة المجيدة؛ فبعد أن اكتسب عمر «قابلية التصديق» «Crédibilité» عند الناس تيسر له أن يدخل الإصلاحات الجذرية التي كانت خليقة أن تغير مجرى تاريخ الأمة لو لم يعالجه ثعالب رهطه الجبناء ويدسوا له الموت. إن إخلاصه وصدقه مع الله مكناه من الفوز على الفتنة والأثرة لأنهما هيئا له أن ينتصر على نفسه بالحق.

المترفون من أمرائنا، أمراء الأسر العريقة وأمراء الانقلابية، يتخبطون في مُدْلَهِمِّ الفتنة لا يصلون إلى خير، أولئك يعميهم ترف المال والعقار، وهؤلاء لا ينهضون من مس الهوس الفكري والترف المذهبي. وليس المفتاح إلا الصدق مع الله تعالى والرجعة إلى دينه بعزمة كعزمة عمر، يقص بجلمه سجلات الباطل وعهوده.

ولسجلات مترفينا وعهودهم أظلم عند الله لأنها ما تتناول العقار تستأثر به فقط، وإنما يخط فيها مواثيق وبنود تحل ما حرم الله وتلغي شريعة محمد رسول الله.

ما أروع الأسوة التي عطر الله بها تاريخ بني أمية، تاريخ القومية والعصبية والظلم، إذ أخرج من صفوف بني عبد شمس شابا مؤمنا ترك وراءه زخرف الحياة وأبهة الملك، يخاف ربه فلا تصده هيبة الخلق ولا يعتريه وهن في سبيله سبيل الله ورسوله. كان رضي الله عنه يدخل على بناته يسلم عليهن بعد صلاة العشاء. فدخل يوما فلما أحسسنه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب. فسأل الحاضنة : ما شأنهن ؟ فقالت : إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن، فبكى عمر ثم قال لهن: يا بناتي! ما ينفعكن أن تتعشين الألوان ويمر بأبيكن إلى النار ؟ فبكين حتى علت أصواتهن.

هذا الرجل القوي بقوة الله طهرت روحه حتى أصبح أمين الله في أرضه يبطش بالحق ويهدي إلى الحق، وبتوفيق الله وتسديده وجهد المؤمن التائق لرضى ربه أقام عمر العدل ووضع الظلم فجاءه من الله النصر المبين إذ عم الخير كل الناس حتى فاض المال فلا يجدون له موضعا. حكى رجل من ولد زيد بن الخطاب قال : «انما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفا، فذلك ثلاثون شهرا،

فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء. فما يبرح حتى يرجع بماله، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله. قد أغنى عمر بن عبد العزيز»!

إن الحل الإسلامي لمشاكلنا الدنيوية لن يتأتى أبدا بالعنف لأن العنف على المسلمين زيادة في الفتنة، والفتنة وموقظها ملعون بلسان الشارع، فلا يزكيه الله لأنه خروج عن قانون الله. ونحن إذ ننشد قائدا مجاهدا تبزغ عينا طلعته من دنيا الترف الفكري المذهبي أو دنيا الترف التالد الغارقة فيه قادتنا، وإذ نعرض سيرة الخليفة الخامس عليه السلام، وإذ نكتب المنهاج النبوي لتغيير الإنسان نبحث عنه من مطلب التزكية الروحية، من فلاح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى، إنما نلتمس مخرجا لضيق حاضرنا وظلمة المستقبل في أعيننا بالرفق الإسلامي والعزيمة المؤمنة، بالصدق مع الله والتعرض لموعوده. وإن قوانين الاقتصاد والاجتماع يراها شبابنا وذوو الشأن منا المفتونون تتعقد في أزمة صراع طبقي لها حل واضح حتمي في صحف الشيوعية وواقع الثورات الاشتراكية، إنه العنف الثوري. وإنها لنشوة في أحلام شبابنا المثقف على نهج الفكر الملحد أن يتتبعوا «مراحل» التعاقد الذي ينتهي إلى غاية مرسومة يتولى عندها زمام الأمر ثوريون أبطال يحسنون منطق الجدلية ويحسنون السلوك الجدلي الذي يقضي أن تفني طبقة طبقة

حتى يهلك الظالمون. ونرى رحمة الله في أفق هذه الأمة تبشر بخلافة على منهاج النبوة؛ حين يصنع الله لنا ويضطرنا للجوء إليه ويبتعث فينا رجلا كعمر بن عبد العزيز رحمه الله.

رجال الرباط: آل أمر الأمة بعد الفتنة الكبرى وبعد يزيد والوليد إلى أثرة وترف، ولم يبق هم للخليفة الأموي في هداية الناس إلى ربهم، وحاول سيدنا عمر بن عبد العزيز أن يعيد الأمر إلى نصابه حاملا رسالة من زعم المترفون أنهم له خلفاء، فكانت الشهور الثلاثون زمن جهاد في كل الواجهات، جهاد لهداية الخلق لا لجباية أموالهم بالباطل. وكتب الخليفة الصالح إلى عامل له اشتكى أن الناس يدخلون في الإسلام تفاديا لدفع الجزية : «ويلك إن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا».

وبعد وفاته رضي الله عنه رجعت الدولة دولة جباية كما كانت، وقوي الطغيان الأموي، واستشرت العصبية العرقية، واستبعد الذين كانوا يسمونهم موالي بمعنى الاحتقار ولم تكن الكلمة على عهد الرسول وصحبه إلا عنوانا لمن دخل في ولاية المسلمين ومحبتهم. أقصي الموالي من ميادين العمل وامتهنوا، وتلك خاصة بارزة من خصائص الجاهلية، حتى بلغ السيل الزبا وثار «الموالي» وحكم بنو العباس، فتضاعف الترف باتساع المملكة، وكان هرون والمأمون وسلسلة الأمراء الذين أنفقوا كنوز الأرض

في الولائم البرمكية الجامعة بين إقدام العربي وحيويته وبين الترف الفارسي الكسروي.

يقول السيد أبو الحسن الندوي واصفا تدهور المسلمين وترفهم[1] : «ولم يكن رجال الحكومة، حتى الخلفاء، أمثلة كاملة في الدين والأخلاق، بل كان في كثير منهم عروق للجاهلية ونزعاتها، فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والاجتماع، وأصبحوا أسوة للناس في أخلاقهم وعوائدهم وميولهم. وزالت رقابة الدين والأخلاق، وارتفعت الحسبة، وفقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، لأنها لا تستند إلى قوة لديهم ولا تحميها حكومة، وإنما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب، والدواعي إلى خلافها متوافرة قوية. فتنفست الجاهلية في بلاد الإسلام ورفعت رأسها، وأخلد الناس إلى الترف والنعيم وإلى الملاهي والملاعب، وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتارا. ونظرة في كتاب الأغاني وكتاب الحيوان للجاحظ تريك ما كان هناك من رغبة جامحة إلى اللهو، وتهافت على الملاهي والملذات ونهمة للحياة الدنيا وأسبابها، وبهذه السيرة، وبهذه الأخلاق المنحطة، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع أمة أن تؤدي رسالة الإسلام، وأن تقوم في الدنيا مقام خلفاء الأنبياء، وتذكر

1 «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمون» الطبعة السابقة ص 134.

بالله والآخرة، وتحض على التقوى والدين، وأن تكون أسوة للناس في أخلاقها، بل لا تستطيع أن تتمتع بالحياة والحرية زمنا طويلا : ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ الأحزاب، 62».

ونتيجة ترف المترفين تتمزق دولة بني العباس في الشرق ودويلات الطوائف في الأندلس، وهكذا شهد القرن الخامس تقهقرا ينذر بزوال الإسلام في الأندلس لولا أن قيض الله للإسلام رجلا خرج من رباط صوفي هو يوسف بن تاشفين. وشهد القرن السادس تصلب الصليبيين في بلاد المشرق وطغيانهم حتى قيض الله لهم صلاح الدين الرجل المجاهد التقي، وشهد العالم الإسلامي بعد ذلك زحف التتار الذين مزقوا ملك بني العباس، لولا أن الله أرسل عليهم جيوشه من المماليك لهلك المسلمون. وكان للمماليك تربية صوفية وفتوة، ويذكر المقريزي أنه كان لهم أوراد معلومة هي من صميم تربيتهم العامة، كما يذكر الشعراني في طبقاته الكبرى كيف كان بيبرس قاهر التتر يخرج بحفاوة بالغة مع جيوشه احتفالا بمقدم السيد أحمد البدوي ولي الله الكبير وكيف كان يتذلل بين يديه. صوفية كل هؤلاء الرجال الذين ابتعثهم الله لإنقاذ الإسلام في عصور الظلمة السابقة، ومن الصحبة لأولياء الله ننتظر الخلاص من ورطتنا الحالية.

بنو العباس كانوا في القرن الخامس سادرين في قصورهم،

والفاطميون قبعوا في مصر لاهين عابثين، بينما قويت شوكة الفرنجة في البر والبحر. وفي بلاد المغرب الأقصى برزت طائفة البرغواطيين المارقة الكافرة وعم بلاؤها. في هذه الأثناء كان في مشارف الصحراء المغربية الجنوبية رجل يسمى عبد الله بن ياسين يؤسس رباطا صوفيا تخرج منه الرجال الذين حرروا الأندلس من العدو الغازي وزادوا في عمر الإسلام بالأندلس قرونا عدة.

عبد الله بن ياسين تلميذ رجل صوفي يدعى وجاج، وكان وجاج صاحب رباط صوفي شيخه سيد قيرواني يدعى أبا عمران الفاسي، صوفي سنده ينتهي للإمام الجنيد. وإنما قدم بلاد الملثمين في الصحراء مع أمير تلك البلدة يحيى بن إبراهيم الذي جاء بالفقيه الصوفي ليحيي سنة رسول الله. وعظم الملثمون الداعي الشاب عبد الله بن ياسين وسمت مرتبته بينهم، عظموه وقدسوه. ورباهم رضي الله عنه تربية رجولة وفروسية على التقلل والتعفف كما تريد السنة النبوية وكما هو شأن أصحاب الرباط الصادقين. يتحدث مؤرخ معاصر عن الرباط في ذلك العصر كما يلي[1] :

«كان أهل الرباط يتقللون من الطعام، فلا يكاد يزيد على الشعير والزيت.. كانوا يتقشفون في الملبس كتقشفهم في المأكل، لا يلبسون إلا الخشن الذي يستر العورة... وقد خدمت هذه الرباطات الإسلام

1 كتاب قيام الدولة المرابطية للدكتور حسن أحمد محمود 1957، ص 133.

أجل الخدمات وأسدت إلى السنة المحمدية أيادي بيضاء، فعصمت أهل المغرب، لم تعبث بهم يد الفتنة في وقت انتشرت فيه المذاهب الضالة... كما عمل المرابطون على نشر الإسلام والدفاع عن حوزته وإعلاء كلمته. وكانت الرباطات ملاجئ يعتصم بها الناس وقت الفتنة... حتى إنه ليخيل إلينا أن أهل الرباطات هؤلاء هم الذين حملوا لواء المقاومة السنية، وهم الذين دكوا صرح الفتن المذهبية في إفريقية والمغرب».

وبينما كانت في رحاب دار الإسلام قصور تشاد وتعمر، وثغور تهمل ويدخلها العدو، أخذ عبد الله بن ياسين يربي جيلا قويا على الكتاب والسنة. يصف المؤرخ منهاج التربية في رباط الصحراء هكذا[1]:

«ولم يكن عبد الله بن ياسين في الواقع مجرد فقيه يفتي بين الناس فيفسر القرآن ويروي الحديث، بل كان رجلا نافذ البصيرة بعيد النظرة ذكيا خبيرا بالمجتمع الذي يعيش فيه، له قدرة خارقة على التأثير في نفوس مريديه... وروى المؤرخون أنه كان يتردد طويلا قبل أن يضم المريد إلى زمرته، فإذا وافق على إدخاله في رباطه ألزمه أن يطهر روحه من الدنس والرجس، وأن يسلم إسلاما جديدا، وأن يحاسب على ما اقترفت يداه من إثم في حياته السابقة.

1المصدر السابق، ص 142.

ولما تم لعبد الله بن ياسين ما أراد من تربية نخبة قوية طهرت أرواحها وقويت عزيمتها خرج للجهاد جهاد نشر الدعوة إلى الله. لكنه لم ينازع ذوي الأمر أمرهم، وإنما بقي مرشدا مربيا وترك الإمارة لأهلها حتى آلت إلى تلميذه يوسف بن تاشفين. يقول المؤرخ [1] : «وقد قنع عبد الله بن ياسين في هذا المجتمع بدور الإمام الذي يعلم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقود الناس إلى الطريق السوي».

وآل الأمر للمجاهد العظيم خريج الرباط الصوفي رجل الإسلام الفذ يوسف بن تاشفين فحمل راية الجهاد وحارب الكفر في بلاد المغرب وهزم الكفرة المردة وتهيأ له فتح الله للمسلمين على يده في مواجهة الصليبية الحانقة الغازية لبلاد الأندلس.

وكأن الزمان لم يتحول منذ القرن الخامس، فالمسلمون اليوم خائرون أمام عدوهم، وفتن الضلالات البائدة أعقبتها فتن المذهبية الاشتراكية والنزاعات الإيديولوجية. ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أحوجنا إلى رجال دعوة يصرفون هممهم للتربية والتبشير بموعود الله مدركين كما أدرك عبد الله بن ياسين أن الدعوة والقيادة الجهادية دعامتان للنهضة الإسلامية ! وما أحوجنا لقائد مجاهد مثل يوسف بن تاشفين!

---

1 المصدر السابق، ص 145.

إن كان للمولى عمر بن عبد العزيز فضل التخلي عن ملك ظاهر مترف فإن فضل يوسف أن حافظ على سمت الرباط وتقلله لم تفتنه الشهرة والقدرة. رضي الله عنهما من شهمين كريمين !

يقول المؤرخ في وصف يوسف المجاهد[1] : « وكان يوسف بن تاشفين كفئا لذلك المجهود المضني (مجهود الجهاد) وهذه المسؤوليات الجسام (لما له من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته) فقد توفرت له الصفات التي تجمع حوله قلوب شيوخ قبائل المرابطين أصحاب عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة... فقد كانت شهامة يوسف وشغفه بالحرب التي كان يقودها بفطنة وحسن طالع يسبغان عليه جلال الفروسية التي تلهب حماسة الجند، فيندفعون وراءه اندفاع الصاعقة. كما كان جوده وتقشفه واحتقاره لمظاهر الترف في ملبسه ومسكنه أسوة حسنة وقدوة يحتذيها كل مرابط مخلص. بل بلغ من تقشفه وزهده أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ولا يشرب سوى لبنها، فلا نعجب إذا كان يوسف قد استطاع بهذه الصفات النادرة التي توفرت له أن يؤلف القلوب ويذكي الحمية في النفوس ويصبح سيد الموقف بلا منازع».

وكانت تنتظر هذا الرجل السيد مهمة عظيمة، فقد كان البر

1 المصدر السابق، ص 222.

الأندلسي في أحلك ساعاته، يقول المؤرخ[1] :

«إن الأوضاع في الأندلس تناهت في السوء، وأصبحت الحياة فيها شاقة عسيرة، ووضح للناس أن النهاية آتية لا ريب فيها؛ تحكمت الذاتية في أطماع الناس شعبا وحكاما، وأصبح الأمراء يعيشون لساعتهم لا يحسبون حسابا لغدهم، منغمسين في الترف متهافتين على الملذة. وكان من الممكن أن تضطلع إمارة إشبيلية بحركة توحيد القوى الإسلامية في شبه الجزيرة، وكانت الظروف ترشحها لمثل هذه الزعامة، ولكن أمراءها أعمتهم الأهواء الخاصة، وابتاعوا السلم الزائف بأفدح الأثمان، ومدوا أيديهم للطاغية يحالفونه ليفتك بإخوانهم في الدين».

تهيأ المجاهد الكبير مستشعرا تقوى الله متدرعا بالصبر والإيمان، فعبر إلى الأندلس ولقي العدو الفاتك الصائل على فلول الأمراء الخائرين المترفين، فكانت معركة الزلاقة وما فتح الله ليوسف يومها عيدا للمسلمين. يقول المؤرخ[2] :

«وكان لهذا النصر صدى عظيم في الشعور الإسلامي العام، إذ سرعان ما تناقله الناس في الأندلس والمغرب، واحتفلوا به أبلغ احتفال، وراح المؤرخون يشبهون يوم الزلاقة بيوم القادسية

---

1 المصدر السابق، ص 259

2 المصدر السابق، 284.

واليرموك، وعمت الفرحة بلاد المشرق حتى قيل إن الإمام الغزالي هنأ يوسف بهذا النصر، واعتبره الأمير المثالي الذي كان يرجو أن يظهره الله ليعيد للإسلام سابق صولته وقوته، كما كتب الأمراء المعاصرون إلى يوسف مهنئين مباركين».

صلاح الدين: يصلح الدين كلما قيض الله رجلا يجدد في نفسه جهاد التائبين ويجدد بسيرته للناس القدوة الحية الكاملة وبجهاده شؤون المسلمين. ويشاء الله أن يكون من بين هؤلاء الرجال مجاهد تائب متطهر حمل لقب صلاح الدين بعد أن كان للدين صلاحا.

صلاح الدين الأيوبي معجزة من معجزات الله. يبرز في زمن بلغ فيه الفساد أقصى ما يمكن أن يبلغه، وهجم فيه عدو قوي متماسك شرس والمسلمون شيع وطوائف في كل مدينة مملكة، ولكل أمير حاشية مترفة تتباهى وتتنافس بما تناله من أموال المسلمين تبددها في ملذاتها. وفي الشارع فتنة وفي الأندية فتنة، وللدعوات الهدامة سوق رائجة.

وهيأ الله السيد نور الدين بن زنكي فمهد لصلاح الدين. صلاح الدين التائب من مجونه، الرجل الذي قارع الصليبيين وهزمهم وضرب مثلا للرجولة والشهامة. كتب عنه الأستاذ علي الطنطاوي يقول[1] :

1 مجلة «المسلمون» العدد الثالث 1374.

«هذا الذي أخذ الدنيا بسيف الظفر، ثم جاد بها بيد الكرم، هذا الذي روع أوربة مرتين؛ مرة حين قهر جيوشها بسيفه ومرة حين شَدَهَ نفوسها بنبله. هذا النموذج الأتم للقائد المنصور، وكان المثل الأعلى للحاكم المسلم، وكان الصورة الكاملة للفارس النبيل، والمسلم الصادق. وكان المحرر الأعظم، حرر هذه البلاد، الشام وفلسطين، من استعمار الأوربيين بعدما استمر نحوا من مائة سنة.

هذا الذي انتزع من أصدقائه ومن أعدائه أعظم الإعجاب وأصدق الحب، وترك في تواريخ الشرق والغرب أكبر الأمجاد وأعطر السجايا. وكان اسمه من أضخم الأسماء التي رنت في سمع الزمان، ودوت في إرجاء التاريخ، وخلدت على وجه الدهر : «صلاح الدين الأيوبي».

سقطت على أقدامه الدول، ووقفت على أعتابه الملوك، ودانت له الرقاب، وانقادت إليه الخزائن. ومات ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهما ودينارا ذهبيا واحدا. ولم يترك دارا ولا عقارا. فجهز وأخرجت جنازته -كما يقسم القاضي ابن شداد- بالدَّيْن!!».

يذكر ابن شداد القاضي أن صلاح الدين تاب عن المحرمات والملذات التي لا يتنزه عنها مثله من الأمراءِ ولا يفصل لنا كيف تمت هذه التوبة، ومن كان المرشد الذي أخذ بيد الشاب المترف حتى جعل منه رجلا. ولعل ابن شداد رحمه الله لم يتعرض

لذلك لأن الصحبة الصوفية كانت أمرا عاديا في القرن السادس والسابع فقد كانت الرباطات والخانقاهات منتشرة في المشرق انتشارها في المغرب. ونجد عند المقريزي إشارة إلى هذه الصحبة فيذكر اسم القطب النيسابوري، ويخبر أن صلاح الدين أخذ عقيدته عن الدليل. يقول المقريزي[1] :

«ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بقلعة تكريت سنة 532. كان أبوه نجم الدين أيوب واليا بها، ثم انتقل بابنه إلى الموصل، وصار منها إلى الشام، وأعطي بعلبك فأم بها مدة. ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة وجالس مشايخ أهل العلم، فجمع له الإمام قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمود بن مسعود النيسابوري عقيدة تحوي جميع ما يحتاج إليه. فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده، ويأخذها عليهم. وكان يواظب على الصلاة مع الجماعة حتى قال يوما: «لي سنون ما صليت إلا في جماعة»، وكان إذا مرض استدعى الإمام وحده وصلى خلفه...

وكان صلاح الدين رحمه الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله، قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء. وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حسنا».

---

1 «السلوك لمعرفة أحوال الملوك» ج 1 القسم الأول، ص 41.

كان الرجل إذا ذاكرا لله حسن العقيدة قد أخذ عقيدته عن دليل. ولا إخال أن المقزيزي يقصد دليل علماء الكلام إنما يقصد الصحبة الصوفية. وزكي الملك العادل بتقريب العلماء والأفاضل من المسلمين وأعلامهم، مثل القاضي الفاضل، والقاضي ابن الزكي، والقاضي ابن شداد. وكان يأتى إلى العلماء والصالحين يزورهم، فقد أخذ أولاده وزار بهم الحافظ الأصفهاني في الإسكندرية. وكان كثير التهجد والدعاء والبكاء، يلجأ إلى الله كلما دهمته الشدائد.

ومن تقواه رضي الله عنه استمد هذه القوة الكبيرة وهذه الهمة السامية والسجايا والمزايا والشجاعة والفتوة والكرم. ذكر الله ودعاه حتى أنار قلبه فأصبح طاقة هائلة نفاذة، وانصرف همه إلى أحوال المسلمين المنكسرين المشتتين المنهزمين فكرس أوقاته وكل جهوده لسعي واحد هو الجهاد في سبيل الله. قال ابن شداد[1]:

«ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيما، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبته الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده. وقنع من الدنيا بالسكون في

1 النوادر السلطانية ص 16،نقلا عن ابي الحسن الندوي في كتابه «إلى الإسلام من جديد».

ظل خيمته تهب بها الرياح ميمنة وميسرة. وكان الرجل إذا اراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد».

إننا اليوم ننهزم أمام أعدائنا لأننا نؤثر الدعة والعيش الرغد على خيمة الجهاد. ولا تبنى الرجال المتطلعون إلى موعود ربهم بالنظر في صحف الايدولوجية وسجلات القوم الكافرين، انما تبنى الرجال في المسجد في صلاة الجماعة وفي الخلوات يذكر فيها اسم الله ويدعى فيها الله ويبكى فيها خوفا منه تعالى وشكرا له وتزلفا إليه. وبالصحبة للأخيار تتفتق الهمم من أكنانها وبالذكر تزول غشاوة الغفلة عن القلوب. هذا هو المنهاج النبوي الذي صنع عمر بن عبد العزيز واليوسفين الصالحين. ولا تقوم لنا قضية ولا نجتمع من شتاتنا ولا نقف أمام عدو إلا باكتشاف هذا المنهاج والسير على هديه.

يوسف بن أيوب كان في نفسه صغيرا، فهو متواضع حليم لا يغضب لنفسه أبدا لهواها عليه. هذه هي الفتوة الصوفية، وهذه سمة الأقوياء الذين تحول الدنيا حولهم لأنهم ذكروا الله ونسوا أنفسهم. ومن ذكر نفسه ونسي الله كان من الهالكين، وتمكث مع شهواته ونزواته عن جهاد الكرام. صلاح الدين رضي الله عنه كان يبذل من ذات يده ويبذل من ذات نفسه لا تعترضه متعة التملك والتعالي. فهو كان قائد المعارك يخوضها بنفسه ويكون في ميدانها أكثر الكماة بلاء وأعظم الرجال نصيبا من الإجتهاد والاستبسال،

قال ابن شداد في واقعة عكا : «وهو (السلطان) كالوالدة الثكلى، يجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد، ويطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي بالإسلام وعيناه تذرفان بالدموع. وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنتها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاما البتة، وانما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب».نعم، رجل مؤمن يهتف بالإسلام ويذرف الدموع! هذا هو القائد المجاهد الذي نحتاج إليه اليوم، يكون على مثال صلاح الدين، يبيع نفسه لله وينسى لهوه، ويرصد كل التقوى وكل الجهد لبناء الإسلام والذود عنه.

إن من بين دعاة الإلحاد والفكر في دار الإسلام اليوم قوم يرون أن المعركة الأولى يجب أن تكون في عواصم بلاد المسلمين. يريدون أن يتقاتل المسلمون وتسفك دماؤهم حتى تنتصر العقيدة الإيديولوجية أولا وينهزم الإسلام، وبعدها ينظر الباقون هل لهم عدو في القدس وغيره من ثغور المسلمين. ولن يجدوا ولا شك عدوا لأن الإيديولوجية دين يسوي بين اليهودي والمجوسي والعربي الذي انسل من تقاليد الإسلام!

معاذ الله أن يأتي المسلمين خير ممن همهم في الرياش والقصور

أو همهم في النصب البطولية التي يحلم بها كل مرشح للزعامة الاضطرابية أو من المفتونين المترفين بالفكر الجاهلي العنيف. وإن اللص السافر الذي يهرب الأموال متخفيا لينفقها في شهواته أقل خزيا من اللصوصية المستترة تحت شعارات الحفاظ على الثورة. وكلاهما عند الله مخزي ممقوت.

ذكرنا صلاح الدين بفساد الدين وخراب الذمم في عصرنا. ولا بد للمصدور من أن ينفث. وإنما قصدنا أن ندل على باب التوبة والرجولة، على منهاج التربية الإسلامية التي أخرجت للناس نماذج ساطعة للطهارة والقوة والفعالية. يرحمك الله يا ابن أيوب فقد بلوت البلاء الحسن، وعند الله كرم المثوى والعطاء لمن خشيه سبحانه وجاهد في سبيله.

بقية الخلفاء الراشدين : في القرن العاشر الهجري فتنت الدولة المغولية الإسلامية بملك جبار اسمه «أكبر» بلغت فيه المفاسد والضلالات منتهاها كما يعبر الأستاذ المودودي. كفر الأمبراطور «أكبر» واخترع للناس دينا جديدا مزج فيه تعاليم الإسلام بترهات المجوسية الهندية، ثم أخذ يتنكر للإسلام شيئا فشيئا حتى كان كفرا صريحا وحتى أصبحت أسماء أحمد ومحمد وما شاكلها من أبغض الأسماء عند الملك وحاشيته لبغضهم صاحب الرسالة الإسلامية صلى الله عليه وسلم. وانتهى الأمر بالملك الكافر أن ادعى الألوهية واتخذ للدولة شعار

«الله أكبر» يرجع الألوهية إلى نفسه. وكان سلام رجال البلاط أن يقول المسلم : الله أكبر، ويرد عليه الحاضرون: جل جلاله. وقتل العلماء واضطهد الناس في دينهم. وضاقت الدنيا على المسلمين سيما والفتنة بالدعوات الزائفة دعوات الباطنية «والفلاسفة» وأصحاب البدع استشرت وعم بلاؤها.

في هذه الأثناء بعث الله للمسلمين في الهند رجلا نحيفا ضعيفا تربى على يد شيخ صوفي «باقي الله»، إنه الشيخ أحمد السرهندي الذي جاهد في الله حق جهاده، جاهد بالحكمة والموعظة الحسنة، ودعا إلى الله على بصيرة وربى المريدين. وشاء الله أن يتخرج من زاويته نادرة من نوادر الزمان هو الملك الصالح «أورنك زيب» من حفدة الطاغية أكبر. من زاوية السيد السرهندي تألق نور صبح جديد لم يلبث أن أضاء بلاد الهند حتى عاد الإسلام إلى عزه وصفائه. بالمنهاج النبوي، منهاج الصحبة والجماعة والذكر، حييت أمة الإسلام بالهند كما حييت به أول مرة وتحيى. وبالمنهاج النبوي تخرج المنقذ الفاضل الأواه القائد الجهادي حفيد الطاغية الجبار.

ولنا أن نتأمل تدبير الله تعالى على المنهاج النبوي منهاج الصدق والتصديق بالنظرة الفطرية والنظر العقلي معا. إن الله جل شأنه يصرف أمور عباده لا يحجره المنطق البشري، ويخرج الحي من الميت كما يشاء. وتفاؤل الصوفية وانتظارهم لفرج الله ورفده لا

تمنعهم من السعي والعمل، إنما يكون موعود الله للمؤمنين هاديا لهم يسلكون إليه على الأمر والنهي. هذا رسول الله الأمين عليه الصلاة والسلام يحدثنا أن الله سيعيد الخلافة على منهاج النبوة بعد فساد الزمان، وهذا هو يأمرنا بالرفق وعدم العنف والدؤوب على العمل بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى يأتي أمر الله، ويتحقق التدبير الإلهي في التاريخ وموعود الله للمؤمنين على المنهاج النبوي بالرفق والتؤدة. الشيخ النحيف الضعيف الصوفي مولانا أحمد السرهندي ما قاتل بالسيف وما جاهد كفر أكبر بالعنف، إنما دعا إلى ربه فأيده الله، حتى إذا انتقل إلى ربه دخل زاويته طفل صغير كان هو معقد التدبير الإلهي بعد أن طغى الكفر وعم خراب الدين.

نتقل أخبار الملك الصالح «أورنك زيب» عن مقال للأستاذ الفاضل السيد علي الطنطاوي[1] :

«ولما مات أكبر وولي ابنه جهان كير (أي زمام الدنيا) استطاع الشيخ محمد معصوم السرهندي بن الشيخ أحمد السرهندي أن يشرف على تربية طفل صغير هو أحد حفدة جهان كير.

ولم يكن هذا الطفل كبير إخوته، ولا كان ولي العهد، ولم يكن يؤمل له أن يلي الملك. ولكن الشيخ وضع في تربيته جهده، وبذل له رعايته كلها، فنشأ نشأة طالب في مدرسة دينية داخلية بين

1 مجلة «المسلمون» العدد 5: 1374 ص 81 وما بعدها.

المشايخ والمدرسين، فقرأ القرآن وجوده، والفقه الحنفي وبرع فيه، والخط فأتقنه، وألم بعلوم عصره. وربي مع ذلك على الفروسية ودرب على القتال.

... وكان جلوسه على سرير الملك سنة 1068، وكأني بكم تظنون أن هذا الملك الذي ربي بين كتب الفقه وأوراد النقشبندية سيدخل خلوته ويعمل من قصره مدرسة أو تكية يصلي ويقرأ في كتب الفقه ويسيب أمور الدنيا ويهملها زاهدا فيها ! كلا يا سادة ! وما هذه خلائق الإسلام، ولا هذه طريقة العمل لإسعاد الناس وإقامة العدل ورفع الظلم وجهاد الكافرين المفسدين في الأرض. كل ذلك صلاة كالصلاة في المحراب (نقول نحن : بعد أداء صلاة الفرض) بل هو خير من صلاة النفل (نعم !) وصوم التطوع. وعدل ساعة أفضل من عبادة أربعين سنة ! (نعم نعم !).

لذلك ترونه لبس لامة الحرب من أول يوم (وكان يومئذ في الأربعين) ونهض بنفسه يقضي على الخارجين ويقمع المتمردين ويفتح البلاد ويقرر العدالة والأمن في الأرض. ومازال ينتقل من معركة يخوضها إلى معركة، ومن بلد يصلحه إلى بلد، حتى امتد سلطانه من سفوح هملايا إلى سيف البحر من جنوب الهند. وكاد يملك الهند كلها حتى قضى شهيدا في سبيل الله في أقصى الجنوب بعيدا عن عاصمته بأكثر من ألف وخمسمائة كيلو.

ومن خاض هذه المعارك استنفذت وقته كله، ولم تدع له بقية لإصلاح في الداخل أو نظر في أمور الناس. ولكن أورك زيب حقق مع ذلك من الإصلاح ما لم يحقق مثله إلا قليل، قليل من الملوك.

كان ينظر في شؤون الرعية من أدنى بلاده إلى أقصاها بمثل عين العقاب كما كان يبطش بالمفسدين بمثل كف الأسد، فأسكن كل نأمة فساد، وأقر كل بادرة اضطراب، ثم أخذ بالإصلاح فأزال ما كان باقيا من الزندقة التي جاء بها «أكبر» أبو جده. وكانت الضرائب الظالمة ترهق الناس، ولا ينال أمراء المجوس لفح نارها؛ فأبطل منها ثمانين نوعا. وسن الضرائب سنة عادلة...

وبنى المساجد في أقطار الهند وأقام لها الأئمة والمدرسين، وأسس دورا للعجزة ومارستانات للمجانين ومستشفيات للمرضى.

وأقام العدل في الناس جميعا، فلا يكبر أحد عن أن ينفذ فيه حكم القضاء. وكان أول من جعل للقضاء قانونا، فكان يحكم في القضايا الكبرى بنفسه لا حكما كيفيا بل حكما بالمذهب الحنفي معللا له مدللا عليه. ونصب القضاة للناس في كل بلدة وقرية. وكان للامبراطور امتيازات فألغاها كلها. وجعل نفسه تابعا للمحاكم العادية، ولمن له عليه أن يقاضيه به أمام القاضي مع السوقة والسواد من الناس».

إنك تقرأ سيرة أحد الخلفاء الراشدين! ليس عمر وعلي وحدهما يجلسان أمام القاضي مع عامة الناس، وفي خزائن الله تعالى لهذه الأمة المرحومة فضل مذخور، ولعل رحمة الله تدركنا برجل يطرح الامتيازات ويقضي ليله ونهاره في النظر لما يصلح المسلمين. بيد أن طرح الامتيازات لا يتأتى إلا بتربية تجرد القلب لله تعالى قبل أن يكون استعداد لتجرد الجسم والنفس الحيوانية من أوهام الرئاسة وشهوات الدنيا. لا بد من سلوك وتخلق، وقد رأينا أن للملك الصالح الهندي أورادا وشيخا. فها هي أخلاقه وأعماله ومعاملاته مع مولاه عز وجل. يقول الطنطاوي[1]:

«وكان بعد ذلك كله يؤلف. ألف كتابا في الحديث وشرحه وترجمه إلى الفارسية. ويكتب الرسائل البليغة التي تعد في لسانهم من روائع البيان. ويكتب بخطه المصاحف ويبيعها ليعيش بثمنها لما زهد في أموال المسلمين وترك الأخذ منها، وإنه حفظ القرآن بعد أن ولي الملك، وإنه كان شاعرا موسيقيا ولكنه ترك ذلك وكرهه، وأبطل ما كان للشعراء والموسيقيين من هبات وعطايا، ولم يكن يراهم لازمين لأمة تبني في الأرض صرح مجدها.

وكان يصلي الفرائض في أول وقتها مع الجماعة لا يترك ذلك بحال، والجمعة في المسجد الكبير ولو كان غائبا عن المصر لأمر

---

1 نفس المصدر ص 500.

من الأمور يأتيه يوم الخميس ليصلي الجمعة ثم يذهب حيث شاء. وكان يصوم رمضان مهما اشتد الحر، وما أدراكم ما حر الهند! ويحيي الليالي بالتراويح، ويصوم الاثنين والخميس والجمعة في كل أسبوع من أسابيع السنة، ويداوم على الطهارة والوضوء، ويحافظ على الأذكار، ويمد أهل الحرمين بالصلات المتكررة الدائمة.

وكان مع ذلك آية في الحزم والعزم والبراعة في فنون الحرب وفي التنظيم الإداري. فكيف استطاع أن يجمع هذا كله؟

كيف قدر أن يتعبد هذه العبادة، ويقضي بين الناس، ويؤلف العلم، ويكتب المصاحف، ويحفظ القرآن، ويدير هذه القارة الهائلة، ويخوض هذه المعارك الكثيرة؟

لقد كان يقسم بين ذلك أوقاته، ويعيش حياة مرتبة، فوقت لنفسه، ووقت لأهله، ووقت لربه، وللإدارة والقتال والقضاء أوقاتها.

حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره. وكانت بيده مفاتيح الكنوز، وكان يعيش عيش الزهد والفقر، وما مد يده ولا عينه إلى حرام، ولا أدخله بطنه، ولا كشف له إزاره. كان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة.

هذا هو الملك الذي قلت إنه كان بقية الخلفاء الراشدين، توفي في مثل هذا الشهر، شهر ذي الحجة) من سنة 1118 هـ. وما رأى الناس بعده وقلما رأوا قبله مثله.

رحمة الله على روحه الطاهرة».

أما بعد : فهؤلاء رجال أربعة نبغوا في هذه الأمة حين سامها الخسف، وخرجوا نشئا جديدا وعملا صالحا مجددا من أصلاب ملوك وأمراء منهم الطاغية الكافر والمؤمن التقي، في دولة مترفة والظلام سائد والحق قليل أهله.

والعبرة ماثلة أمامنا في تاريخ الإسلام لا ينكرها إلا جاهل أو مماحك. إنه المنهاج النبوي كلما توفرت شروطه أعطى نتائجه الباهرة. إنها أولا الصحبة الخيرة، صحبة المؤمنين الأتقياء المشايخ أهل الله، وإنها الاستعداد والهمة المتوثبة عند المريد الصادق. وحيث تتوفر شروط المنهاج النبوي، الشرط الموضوعي والشرط الشخصي، يبرز القائد المجاهد على مسرح التاريخ ثمرة للتربية الإسلامية الكاملة، تائبا من خطاياه وترفه، كما تاب عمر بن عبد العزيز وصلاح الدين أو ناشئا في عبادة الله في الرباط الصوفي كما نشأ يوسف بن تاشفين وبقية الخلفاء الراشدين أعجوبة الأزمنة الأخيرة أورنك زيب.

إن رجال الدعوة إلى الله ينغلقون أحيانا إذ لا يعرضون دعوتهم

على الخاصة كما يعرضونها على العامة. ومنهم من يغلب على أمره فيذهب مذهب العنف والمعارضة ويتنكب المنهاج النبوي منهاج الرفق والتؤدة، لذلك تتعثر الدعوة متأثرة بالمنهج الجاهلي دون أن تشعر، وتتخذ الدعوة شكل التنظيم الحزبي المعارض، ولو قرأ رجال الدعوة الأخيار تاريخ الإسلام قراءة فاحصة لاكتشفوا أن الله تعالى جعل في الرفق خيرا كثيرا كما بشر رسوله الكريم، وأعطى رجاء بن حيوة جليس الأمراء والخلفاء الأمويين المترفين كرامة تربية عمر بن عبد العزيز، وأعطى سبحانه عبد الله بن ياسين مرشد أمراء الملثمين السائر في ركابهم مزية إخراج رجل الساعة أمير المسلمين ابن تاشفين. وجعل سبحانه الشيخ أحمد السرهندي النحيف الضعيف الذي كان يكاتب الأمراء المارقين مع «أكبر» ويزورهم يدعوهم إلى الله مفتاحا للفرج، إذ هيأ زاويته ليدرج فيها قلب كبير طاهر هو قلب الطفل الصغير حفيد الطاغوت.

إن قادتنا وأمراءنا ذوي الجاه من أبنائنا تأكل قلوبهم الأحقاد والنزعات، وإننا في مجتمع الكراهية قاسية قلوبنا يتراءى لنا أفعوان الحقد الطبقي تطعمه الأثرة والترف يقويه، فحاجتنا إلى القول اللين، إلى من يبشرنا برحمة الإسلام أكثر من حاجتنا إلى صف يعارض الصفوف ويعنف على هذا الفريق وذاك.

إن دعوة الإسلام الحق، الدعوة إلى الله على بصيرة، ما كانت ولا

يصح أن تكون صفا يعادي ويعارض، وإن سبيل العنف والاعتراض يسير مسلكه لأنه يصيب منحدرا غريزيا ويوازيه، منحدر التنافس على الدنيا والرئاسة. ورسالة الإسلام رحمة محمولة للجميع، يقول الداعي إلى الله : ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ يس، 26-27. يعرض الداعي إلى الله بضاعته، بضاعة التقوى، على الصغير والكبير حتى يعلم الكل أن الكبير عند الله من آمن وعمل صالحا وأن الصغير من أعرض عن ربه وغفل عن ذكره. الداعي إلى الله سبيله وعر وحمله ثقيل، وليس يسلك سبيل ربه وينهض بالحمل إن لم يصبر على موقف مخالف لمواقف الناس وإن لم يصبر حين يكذبه الناس وينكرون منهاجه.

بعث الله تعالى سيدنا موسى وآزره سيدنا هرون، وأمرهما بالرفق والتؤدة وهما من سمات النبوة كما أخبرنا الرسول، قال لهما ربهما: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾ طه، 43-44.

وفي عصرنا تستفحل الجهالة في الناس؛ فإن كان من قادة المسلمين بكل مصر فراعنة عديدون، فإنه ليسع رجال الدعوة أن يقولوا القول اللين كما قال موسى وأخوه، لعل الفراعنة يتذكرون أو يخشون.

التوحيد والإسلام السياسي: هجم الاستعمار على كل بلاد المسلمين فما نجا من الاحتلال الأجنبي إلا شبه الجزيرة العربية. وحينما كان العدو يفتك بالمستعمرات الإسلامية ويكيد بإيقاظ النعرات الجاهلية ليقاتل العربي المسلم أخاه المسلم التركي برز إلى الوجود وجه جديد للإسلام مشخصا في الحركة الوهابية والقيادة السعودية، وجه مشرق شجاع يقابل ولاؤه لله ولاء زعماء العرب لمن سخرهم في هدم الرمز الأخير للوجود الإسلامي، أعني الخلافة العثمانية المريضة، ويقابل بتماسك صفوفه خور المسلمين وتفتتهم في أرجاء دار الإسلام، ويقابل برجولة المسلم البدوي المستبسل تخنث المسلمين المتدهورين.

إن من مثقفينا من يذكر تعصب الفقهاء النجديين وإعراضهم عن الشيطان الكامن في التلفون والمذياع لينكت ويسخر. ومنهم من يحجبه التحرك السعودي نحو الحكم عن الحافز القوي الذي وراء هذا التحرك. ومنهم من لا يرى في ذلك إلا جفاء البداوة النجدية يهبط على أرض آمنة طيبة.

واليوم وقد زال الحذر النجدي من شياطين المخترعات العصرية. وأعقبه تفتح صبياني على اقتناء السيارات الأمريكية «والكادجتات» المستوردة، وخفت، بل ذهبت، حدة جماعات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في شوارع مكة والمدينة، وماتت الخلافة العثمانية

وانكشف الكيد الإنكليزي بالعرب عن ترد في الهاوية سحيق، يمكن أن نتساءل بموضوعية : ما هو هذا الذي برز في شبه جزيرة العرب ؟ أهي انتفاضة سياسية يتبعها أسراب من الفقهاء المتعصبين، أم هو تجديد للدعوة الإسلامية في ظل سيف مجاهد قائد ؟

والجواب الموضوعي هو أن الحركة السعودية الوهابية كانت في هذا القرن أروع صفحة في التجديد والجهاد الإسلاميين. ويعطيك التأمل في تاريخ العرب المعاصر أن المسلمين العرب كانوا مطية للاستعمار عن طواعية منهم، بزعم محاربة الاستعمار التركي والتعسف والظلم تعبيرا عصريا عن الفتنة المزمنة بين عناصر المسلمين ما كان لها أن تنسي خطر الكفر الخارجي، وإذ أنسته فقد ذهبت الخلافة العثمانية بخيرها وشرها وذهبت معها ريح المسلمين خاصة منهم قومنا العرب، وضعف الطالب والمطلوب. وتحرك الموحدون السعوديون أسندوا ظهرهم لله بينما كان غيرهم يستند إلى وعود الكافرين. ونصرهم الله وكاد بهم لأعداء الإسلام. وهذه أمور كلية، الذاتية الإسلامية والاستقلال في الرأي. والرجولة في الميدان، لا تقاس بأعراض التفتح الثقافي الذي يفتقده المثقفون عند فقهاء نجد فيسخرون من ضيق نظرة المشايخ البادين. ولو تأمل المثقفون لعرفوا أصالة الذي يلعن شيطان المخترعات ولتراءى لهم ما كان يمكن أن تعطيه هذه الأصالة من فاعلية أمام عدو غاز مكفهر.

إن لقاء الدعوة الموحدة الوهابية بالأسرة السعودية كان واحدا من هذه اللقاآت المباركة التي جمعت صدق رجال الدعوة بصدق القيادة الجهادية، ولما أزهر هذا اللقاء بعد قرنين خرج نتاجه طيبا. وكانت الدعوة الوهابية رد فعل ضد انحدار الإسلام الصوفي[1] الذي أصبح عبادة للقبور، فلما بلغت الدعوة مداها أصبحت فعلا ومبادرة في بناء دولة مسلمة هي اليوم معقل من معاقل الإسلام تعقد عليه الآمال وينصب له أعداء الإسلام العداء ويطوقونه.

ذهب الملك المجاهد عبد العزيز وذهب الملك التائه رحمه الله وغفر لنا وله ولجميع المسلمين، والدولة الإسلامية السعودية اليوم تتنازعها في الداخل نزعات التجديد المتميزة بالاستهلاك لبضائع الترف الأجنبي ونزعات الحفاظ التوحيدي المتطهر، وفي الخارج تسعى لإقامة إسلام سياسي عالمي على دعائم التجمع العقدي والولاء المشترك لقومية إسلامية. وإزاء كل هذا قصور وأمور. فما حظ قيادة جهادية في النجاح إن كانت القيادة يتزعمها من تثقل يديه عادات ترفية موروثة ؟ وهل للإسلام السياسي فرصة لإعادة القوة للمسلمين وإخراجهم من التخلف والذل؟

1 إنه تناقض أن يوصف الأسلام بغير كونه إسلاما، وقد ذهبت بالمسلمين رياح المذهبية حتى أصبح اسم سني وآخر شيعي، وإسلام سلفي وآخر صوفي. وتجاوز هذه المذهبية في البحث عن طريق يفتح القلوب للتلقي من القرآن والسنة وليس إلا التربية، التربية الشاملة التي تبدأ بالروح تطهرها. وهذا موضوع كتابنا.

إذا جئنا نقيس بمقاييس إنسان العادة، أي في مستوى سياسة الغافلين وبقيمهم التي لا تعدو دوابية الإنسان وخضوعه لعوامل الاقتصاد والتسخير والمدافعة بين الشعوب، فإن قيام إسلام سياسي يجمع بين الكتل البشرية الهائلة من المسلمين الجغرافيين فرضية لا ينكر إمكانها العقل. لا سيما والعالم تتوزعه اليوم تكتلات مكونة أو هي في طريقها إلى التكون. فالمسلمون السبعمائة مليون إن استطاعوا أن يتحدوا، وقدرتهم على الاتحاد رهن بنضج قياداتهم وهو أمر محتمل وإن كان لا تبدو بوادره، يمثلون قوة عددية لا يستهان بها وموارد اقتصادية تعطيهم قوة المساومة على قدر براعتهم في السوق السياسية الدولية. والإسلام السياسي إن أصبح إيديولوجية موحدة صادقة كفيل أن يعطي للكتل البشرية السبعمائة بديلا عن الإيديولوجيات القومية الضيقة إن استطاع القادة أن يتحدوا. أقول : الإسلام السياسي الصادق لأشير إلى هذه المذاهب الاشتراكية على اختلاف ألوانها المتنكرة تحت صفاق التسميات الإسلامية. وأوضح ما أعني بالإسلام السياسي فأحدد منطلقه من تعريف للذات بتعارضها مع غيرها : نحن وهم، وبتحديد هدفها وهو التكتل لنكون قوة عالمية ولننال استقلالنا الاقتصادي.

وكل هذا، إن نجح ولا إخاله يفعل، يصنفنا مع الأمم على مستوى العادة.

وليس هذا ما نسعى إليه وما نكتب حوله، إنما نعني بالانبعاث الإسلامي تجديدا كاملا وحملا للرسالة وتبليغها للعالم. والإسلام السياسي يدمجنا في هذا العالم عالم الجاهلية، وان كان هذا الاندماج يتم تحت شعار ذاتية إسلامية.

لعل المساعي القائمة لتوحيد المسلمين الجغرافيين يسهم في إيقاظ وعي الكتل البشرية الهائلة، ولعله يكون الخطوة الأولى في طريق التحرر من الجاهلية، لكنه يمكن أيضا أن يكون الخطوة الأولى نحو ركود إسلامي جديد وبعيد المدى، فيدجن الإسلام الذي هو إسلام الوجه لله وحمل رسالته ويسخر لخدمة أهداف اقتصادية سياسية هي الغاية لا أن يعبد الله في الأرض وفق قانونه الكامل ليكون المؤمنون خلفاء الله في أرضه.

أيا ما كان الأمر فدعوة الإسلام السياسي دعوة صادقة، وإن كانت آفاقها مغلقة في حدود القومية العقدية والتكتل في ذاتية تعارض الآخرين وتقابلهم، فلائمة ذلك على رجال الدعوة أساسا، ويفعل رجال الدولة ما يتاح لهم وما يظنونه الحق.

أما القصور والأمور الموروثة التي تثقل يد رجال الدولة الداعين إلى إسلام سياسي فعائق نفسي[1] وموضوعي لأي تجديد

1 ليس هذا العائق فقط في انعدام «قابلية التصديق» وانعدام الثقة من جانب المحكوم، بل ثقل المتخم الدائر حول نفسه أيضا، وأنى يصلح أمة ويسوسها بالحق من لا يقدر يحكم نفسه ويسوسها، مهما صلحت نيته.

إسلامي كما نريده، قويا مشرقا فعالا يصنع رجالا حاملين للرسالة ذوي نورانية وإيمان. ساكن القصور له عائق من نفسه أن يحمل أعباء التجديد، وقد رأينا كيف تطهر عمر بن عبد العزيز ومن سردناه من رجالات التجديد قبل أن يحققوا للمسلمين ما حققوا. والترف عائق موضوعي لأن من ينشأ في الحلية لا يكون في الخصام مبينا. وانظر من أين برزت لنا آية الانبعاث الماوي؛ كان القائد الصيني في «ينان» بلد قفر منقطع يعطي المثال لتربية على التقلل والصبر والاحتمال؛ كان الرجل ملزما أن يقد بيته في الجبل، في الصخر الصلد، وأن يزرع القفر فليس له معاش إلا مما يستخرجه منه، وأن ينتج لباسه ويصنع سلاحه، كل ذلك في انطلاق ثوري ينبذ عادات الترف الفكرية منها والعملية، ومن هذه التربية تخرج رجال الثورة الصانعين للانبعاث الذي يبهر العالم.

إن صوتا ينطق بالإسلام صادقا خليق أن يثير محبة كل مسلم صادق، والدعوة إلى الإسلام السياسي يحمل لنا أملا في المستقبل وبرهانا على أن بالإسلام رمقا. لكن كل هذا لا ينسينا أن الإسلام قيام بشهادة القسط في الأرض، والقسط هو العدل، هو التوزيع العادل للثروة، هو التعبئة الجادة التي تعطي العدل وتعطي الغناء.

الانبعاث الإسلامي الذي نريده لا بد أن ينتصب ندا لتحديات العصر، وأن يحقق التنمية السريعة التي لا تكون إلا بتعبئة

يلتقي فيها وازعا القرآن والسلطان.

على وجه الأرض اليوم طوائف مسلمة حققت النمو الاقتصادي هي مجموعات الأمم الإسلامية في ورسيا. ومآت الآلاف من العلماء والفنيين الذي أخرجتهم التعبئة السوفييتية من بين دعوة لينين وقهر ستالين ذوو كفاية فنية علمية ولا ريب، وإن كان لهم التمسك الشديد بالإسلام فذلك بفضل وعيهم القومي الذي حركه الاضطهاد الكافر فقاوموا الاضطهاد بالتكتل العقدي الذي تهيمن عليه أرواح آلاف العلماء والشهداء.

هؤلاء المسلمون ساقهم السوط السوفيتي للمدارس وحملهم على العمل في جو تساو معاشي ومثالية شيوعية فاعلة.

فهل يدرك المسلمون السياسيون في مؤتمراتهم ضرورة وصعوبة التعبئة أم أنهم ينتظرون أن يهاجر مسلمو طشقند وتبريز لبلاد الإسلام كما يهاجر يهود روسيا لإسرائيل ؟ وإن هاجروا فإلى أين، وفي ظل أية فكرة سيعملون ؟

من حيث ينتظر المسلمون من يبعثه الله لتجديد الإنسان وتغييره لا نسمع من الإسلام السياسي إلا تدبيرات لتكديس المال وتوحيد الأعلام، ولن يكون هذا بديلا يقبله الناس للدعوة الاشتراكية القومية التي تموه بالتسمية الإسلامية إذ لم تستطع أن ترميها ظهريا.

ولا يزال الباب مفتوحا للقائد المجاهد كما ننشده، «يعيد المسلمين إلى الإسلام»، وإن كان يصعب علينا هذا التعبير المعروف عند المرحوم سيد قطب، لأننا لا نخرج أحدا من الإسلام ما دام ينتمي ويشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله. وإنما نقول إن على القائد المجاهد المنشود أن يتوب ويدعو للتوبة، أي للرجوع للحق وتعلم للحق واكتشاف جديد للإسلام كدعوة عالمية ترفع الإنسان من مستوى العادة إلى مستوى الفطرة، تعطيه روحانية ونورانية وقوة كما فعلت الدعوة الأولى.

ولا يدخل هذا في حساب الإسلام السياسي، ولو حضرت مجلسا لسألت : «هل نحن مسلمون؟»، وهذا سؤال أساسي، إذ ليس إسلامنا مسلمة كما يخيل لمن يطرح مع المرحوم السيد شكيب أرسلان سؤاله: « لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟».

خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

على سطح الأحداث تضيع جهود الأمة الإسلامية، فلا غناء عندهم في الدفاع عن حوزتهم لأنهم لا يقدرون على جمع كلمتهم، ولا غناء عندهم في كفاية حاجاتهم الاقتصادية لأن الأثرة أنهكت الضمائر وخربت الذمم فلا تقوم لهم قائمة ولا تستقيم لهم الدنيا كما تستقيم لغيرهم. ومجتمع المسلمين مجتمع كراهية وتنابذ وتنابز بالألقاب، فما من طاقة يحصل عليها المسلمون إلا كان مصيرها أن تضيع في إرضاء النزوات العارضة، نزوات حب الرئاسة والدس على الأخ والجار، وانتظار فرصة خصام حزبي أو مذهبي أو فرصة غفلة تتيح انقلابا واضطرابا. وتنصرف طاقات المسلمين، وهي ضخمة، إلى بناء استقلال اقتصادي وقوة تضرب العدو الجاثم على صدورنا.

جهود ضائعة في كل الميادين، وكدح غير منظم ولا موجه لا يبلغ أن يكون عملا، وإنما هو اضطراب محموم، ومال مبدد في يد السفهاء المترفين.

جهود ضائعة تنهك الفكر الذي كان يمكن أن ينظم ويهيء جو العمل، وتنهك الثقة بين الناس الضرورية للقاء بناء.

إنها الفتنة، مجلاها التنافر والتناحر، وانشغال كل بما لا يعنيه

عما يعنيه، ومجلاها العنف أصبح مذهبا في تدبير أمور العيش والسياسة، فلا معول لأحد إلا على ما ينتزعه بقوة الصارم أو قوة الغش والتدليس. إنها الفتنة العارمة تتأجج نارها في أسواق المزايدات الإيديولوجية السياسية، وفي أسواق الانتهاز والابتزاز، وكل ذلك ينتظر تعبئة إسلامية بالمبايعة الصادقة.

وثقل الفتنة يقعد بنا عن الحركة، فجهودنا معها ضائعة كما يتخبط الطفل في يد حاضنته لا تبلغ حركته الواهية أن تخفف من القبضة القوية، فجهوده ضائعة غير مسؤولة.

بأسنا بيننا شديد ونحن لعبة العالم لا نقترح على أنفسنا ولا يقترح علينا أساتذة الإيديولوجية إلا مخرجا واحدا نطل منه على دنيا الكرامة والقوة؛ يقترح علينا أن نصطف صفوفا قومية ندافع عن الدم الزكي والمجد الخالد. ونلبي هذا النداء وننفق على إحياء قومياتنا جهودنا، أموالنا وعرق جبيننا وبحة حناجرنا لتحيي القومية الاشتراكية أو القومية الحرة. ويأبى الله أن تزكو هذه الدعوة وكيف والرسول علمنا أنها عند الله نتنة؟ ويأبى الله أن تكون لنا القومية قوة وكيف وهي تشتت الأخوة الإسلامية والرحم الإنسانية؟

إننا والعالم معا لعبة في يد اليسار اليهودي الكائد الذي يتخذ غرائز التخريب في شبابنا وكهولنا مطية لبذر الشر، إنه

كيد شياطين البشر، ولا يفلت منه أبدا من يبحث له عن انتماء في الشرق أو الغرب، أو عن انتماء خارج الشرق والغرب عند عالم ثالث مقهور له حماته وله هناته يعرفها الفكر اليهودي والسعي الصهيوني حامي العالم الثالث ومؤسس فكره.

خرج العالم الإسلامي من يد الاستعمار لتمسك بمقاليده أيد يحركها فكر أجنبي تنكر لواقع موروث ضعيف منهزم، وتدحرج العالم الإسلامي بعد استقلاله السياسي إلى واقع ثان ضعيف منهزم، وقد آن لدعاة القومية والاشتراكية أن تخرج الأمور من أيديهم لترثها أيد جديدة تتحرك، إلا يكن بالإسلام، فستتحرك استجابة لفكر جديد وتفاعلا مع واقع جديد واقع يتألق فيه نجم الثورة الصينية والانتصار الماوي، واقع يبحث فيه العالم عن توازن جديد بين دعوة الثورة العظمى المحررة للإنسان وبين دعوة الاستعمار الخالد المخاتل.

الناس يتكتلون ويتربصون ببعضهم الدوائر، وعلى هامش الإنسانية يعيش سبعمائة مليون مسلم يقتلون في الصين وروسيا والفلبين، ويساوم على دمائهم وأموالهم في كل مكان، يضرب بعضهم بعضا في الهند والسند، ويضحك على مقدساتهم في فلسطين، ولا يقدرون أن يعقدوا بينهم حتى حلف الزنابر تجتمع على عدوها.

أية قوة معنوية وأي حافز «Idée-force» يعيد لأمة الإسلام حياتها وقوتها إن لم يكن الإسلام؟ إننا لا ننتظر أن تنمحي

من عقول شبابنا وكهولنا المفتونين صور الاشتراكية العزيزة المنتصرة في الصين وفتنام وروسيا بين عشية وضحاها، ولا ننتظر أن ينبذ قومنا العرب وسائر المسلمين ما ابتلوا به من عادات جاهلية في أساليب الفكر والعمل هونا ويسرا. وبتعبير أوضح لا ننتظر أن يقوم للمسلمين دولة ناجحة بفعل عصا موسى.

ليس للإسلام نموذج حي ناجح جذاب يلفت الأنظار المستعجلة ويستحوذ على الهمم ويجمع الجهود الضائعة لتكون قوة وعملا. وإلى هذا يضاف جهل المسلمين بإسلامهم، بل انقطاع شباب المسلمين عن إسلامهم انقطاعا كاملا في كثير من الأحيان. وبهذا تكون طريق العودة إلى حكم إسلامي طريق جهاد وعمل دائب.

رجال الدعوة الإسلامية المجاهدون بذلوا أنفسهم ودماءهم في سبيل الله وقتلوا وشردوا، وأحدثوا بجهادهم للإسلام ذكرا بما برهنوا عليه من فعالية المسلم في الاقتصاد والحرب ومواساة الخلق على السواء. وكان الإخوان المسلمون وأمثالهم من رجال الدعوة، ولا يزالون، نماذج للطهر والإيثار والعمل الصالح والرجولة.

وأمام رجال الدعوة أبواب للجهاد لما تطرق، تطلب حزما وعزما وصبرا، وتطلب كد الليل والنهار.

إن الإسلام سلام ورحمة، إنه تحرير الإنسان من عبودية عاداته الدوابية ليرتفع إلى مستوى الإنسان المُكرم عند الله، الإنسان المؤمن

المحبوب في الملإ الأعلى، ذي القيمة السماوية الخالدة، وكمال الدعوة في التبشير بقيمة الإنسان، والتبشير بالسبيل المؤدي إلى هذه القيمة، بالتربية الروحية التي ترفع المريد لله تعالى فتقربه من جنابه.

فمن رجال الدعوة كثير يلحون على الإسلام، الشريعة الأرضية القمينة أن تبز أنظمة البشر، وهذا حق لاريب فيه، لكن الدعوة التي على هذا النمط دعوة مبتورة، لأنها تعرض لمشاكل الإنسان على الأرض وتترك الإنسان الذي بعث من أجل تحرير روحه وإرادته معا الرسل والأنبياء.

الدعوة الإسلامية أخذت تشق طريقها في ضمائر المسلمين. ملوا الشعارات والمذاهب فهم يتوقعون كل كلمة تكتب عن الإسلام، ويهتزون فرحا لكل عمل إسلامي ينجح أو يتراءى للناس أنه ينجح، ويتشوفون لعدل إسلامي، لنور إسلامي يفتح آفاق المصير القوي العزيز.

فلهؤلاء المسلمين الساهرة قلوبهم في انتظار فرج الله ورحمته، ينبغي لرجال الدعوة الإسلامية أن يشرحوا أمرين اثنين:

الأول: أن يحدثوهم عما سميناه «التجربة الشخصية»، أن يدلوهم على المنهاج النبوي الذي يرتفع بالمسلم إلى مرتبة الإيمان ثم إلى مرتبة الإحسان، وبهذا المنهاج يتحرر العقل من عقاله، فيؤمن

بالغيب ويقف أمام الله تعالى موقف الفطرة، وينظر إلى العالم وإلى الإنسان نظر الفطرة، يرى مشروع الله تعالى فيما يقع من الأحداث ويسلك إزاءها سلوكا شرعيا كما أمر الله، يبذل نفسه ونفيسه في إعلاء كلمة الله، ويتخذ للعمل عدة العلم وعدة النظام وعدة الولاية بين المؤمنين يربطهم رباط المحبة فيكونوا جماعة لا مجتمعا. وبهذا المنهاج النبوي يتعلم المؤمن وتتعلم جماعة المؤمنين أن تسلك في عملها مسلك السمت والتؤدة والاقتصاد وهي سيما الصالحين وخصال الأنبياء.

على رجال الدعوة أن يشرحوا للمسلمين أن لله أولياء جعلهم رحمة في خلقه، ويدلوهم على الصحبة، ويدلوهم على المحبة الإلهية، ويدلوهم على رباط المودة وطاقة المحبة ونور الإخاء والولاية بين المؤمنين. في دنيا العنف والكراهية وينبغي لرجال الدعوة أن يدلوا على المحبة وعلى التؤدة والرفق.

قيمة الإنسان لا يعثر عليها إلا في المحبة، ولن تقنعه القيم الاقتصادية والاسترواحية التي تقوم عليها الحضارة المادية.

إن طلبة الإنسانية في الإسلام عند المسلمين، وإن أول خطوة للتأكد من ذلك أن تصحب وليا لله عارفا بالله، يسلك بك على المنهاج النبوي طريق معرفة الله والإيمان اليقيني بغيبه وآخرته ورضوانه.

ثانيا: أن يحدثوهم عن رحمة الإسلام ونزوعه عن وسائل العمل

الجاهلي وسائل العنف. وأن يحدثوهم عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوارد عن الفتن التي تصيب المسلمين، وعن مصير المسلم إلى النار إن حارب أخاه المسلم وحمل في وجهه السلاح.

أن يحدثوهم أن الإسلام سلام ورفق لا سيما في زمن الفتنة، وبذلك يتجه كل عمل إسلامي لتحقيق ثنائية بين الدعوة والدولة، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن. معنى هذا أن تنفتح الدعوة -رجال الدعوة والقائد المجاهد- الإسلامية على الخاصة والعامة، أي أن تكون نصيحة لله ورسوله ولأئمة المسلمين. ومعنى هذا أن تتجنب الدعوة الإسلامية التنظيمات السياسية لكيلا تكون صفا من الصفوف أو معارضة سياسية، لأنها إن فعلت نزلت من المطلق إلى النسبي، من مستوى الدعوة إلى الله للخلق كافة إلى مستوى نزاعات إقليمية دنيوية.

نعم، إن الدعوة إلى الله تكون أقوى وأنجح إن كانت تستند إلى واقع إسلامي ناجح في بقعة من بقاع الأرض. لاشك في هذا! وهذا ما حاولته جماعات إسلامية ذات تنظيم سياسي، تنظيم مطالبة لا تنظيم واجب، وإن كانت تريد إزالة الأحزاب السياسية من بلاد المسلمين، وهذا ما تحاوله جماعات أصبحت أحزابا معارضة وبؤرة خصام بين رجال مسلمين من أصحاب الدعوة، لعلهم شعروا، بفراسة المؤمن، أن الدعوة إلى الله لا ينبغي أن تطرح «للجماهير» تصوت عليها تقبلها أو ترفضها أو تعيبها.

فلا يبقى إلا السعي لدلالة المسلمين كافتهم على باب التوبة، لا يبقى إلا الدعوة إلى الله، إلى الإسلام الرحمة إلى الإسلام السعادة، حتى إذا أراد الله نشأت قيادة جهادية تزع بالسلطان من لا يستجيبون لداعي القرآن. لا يبقى إلا السعي لدعوة الناس كافة، عامة الناس والقادة والزعماء والأمراء دعوة واحدة مفتوحة رفيقة، بالقول اللين على المنهاج النبوي بالسمت النبوي والتؤدة والاقتصاد، حتى يتم لقاء تاريخي كما عودنا الله.

والدعوة إلى الله بعد ذلك وقبله مجالها الشهادة بالقسط، ولذلك بعث الرسل والأنبياء عليهم السلام. قال الله: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ الحديد، 25.

وقيام الناس بالقسط معناه المثول والشهود بين الناس نموذجا للإيمان والمحبة والاستقامة، معناه قيام رجال الدعوة بتمثيل الدعوة تمثيلا قويا متفوقا، معناه حمل جماعات الدعوة عبء القيادة الروحية والفكرية والعملية بين قوم غافلين مفتونين، بعقلية واجب لا عقلية مطالبة، بهدف التربية والانضباط لا بالتهييج. وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

يقول الله تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ الحج 40-41.

يحسب بعض رجال الدعوة أنهم خانوا الأمانة إن لم يحملوا السلاح في وجه الظالمين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله. وهذا صواب إن كان للإسلام التمكين في الأرض. ولا أمر للمسلم ولا نهي عليه تجاه الظالمين ما لم يمكن له في الأرض كما تنص الآية. وإن القيام بشهادة القسط بين الناس أعلى مرتبة وأجمل موقف يثبت فيه رجل الدعوة زمن الفتنة وذهاب التمكين من يد المؤمنين، ولمن لا يقدر على ذلك مندوحة في كتاب الله وسنة نبيه أن يعتزل من يعبدون من دون الله كما اعتزل إبراهيم وأصحاب الكهف. وإن الله تعالى إذ يقول لنبيه : ﴿**لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ إِلَّا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ**﴾. إنما يشير إلى أن المؤمن مادام مستضعفا في الأرض ليس له التمكين لا يسأل عن بغي الباغي وإلحاد الملحد.

حسبنا الله لا إله إلا الله حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله، إنا إلى الله راغبون. اللهم إنك أمرتنا بالصلاة على نبيك وحبيبك، اللهم فبه نتوسل أن تفك قيودنا وتحل عقدنا وترحم هذه الأمة، أمة رسولك فتجعل منها للعالمين رحمة.

اللهم صل على سيدنا محمد وآل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

محتويات الكتاب